كتاب الرّوضتين

في

أخبار الدّولتين

النّوريّة والصّلاحيّة

تأليف

شهاب الدّين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان

المقدسي الدّمشقي الشّافعي

المعروف بأبي شامة

المتوفى سنة ٦٦٥هـ

وضع حواشيه وعلّق عليه

إبراهيم شمس الدّين

٤

منشورات

محمد علي بيضون

لنشر كتب السّنة والجماعة

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

[حصار صلاح الدين كوكب وتوكيل قايماز النجمي بها]

ثُمَّ دخلت سنةُ أربعٍ وثمانين[1]

قال العماد: فخرج السُّلْطان من عكّا، فَنَزَل على كَوْكَب في العَشْر الأَوْسط من المُحَرَّم[2]، فحاصرها وصابرها أيّاماً، فلم يتمكَّن منها لِمَنَعَتِها وحَصَانتها، ورآها تحتاجُ إلى طُولِ مصابرٍ ومرابطة، ولم يكن معه جميعُ أمرائه وأوليائه، وإنَّما كان في خواصِّه، فوكَّل بها قايماز النَّجْمي[3]، ووكل بصفد طُغْرُلْ الجانْدار[4]، كلُّ واحدٍ منهما في خمسِمائة، وسَيَّر إلى الكَرَك والشَّوْبَك سعد الدين كُمَشْبَهْ الأَسَدِي، وكانت هذه الحُصُون الأربعة ضَيِّقَةَ المَسْلَك صعبة المَدْرَك.

قال: ثم إنَّ السُّلْطان اشتغل بلقاء الرُّسُل الواصلين، من جُمْلتهم رسول صاحب آمِد قُطْب الدين سُكْمان بن نور الدين محمد بن قرا أرسلان، وكانوا خائفين على آمِد أن يسترجعها منهم السُّلْطان، لأنها كانت لهم من مواهبه كما سبق، فاستوثقوا بالوُصْلة بإحدى بنات العادل، وكان العادِلُ قد وَكَّل أخاه السُّلْطان

(١) وخمسمائة.

(٢) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ١٦٦: ذكر حصر صلاح الدين كوكب.

(٣) هو الأمير صارم الدين قايماز النجمي، كان متولي أسباب صلاح الدين في مخيمه وبيوته، ويعمل عمل أستاذ الدار، توفي في ثالث عشر جمادى الأولى سنة ٥٩٦هـ. سترد ترجمته الوافية في وفيات سنة ٥٩٦هـ. من هذا الجزء.

(٤) الجاندارية: في صبح الأعشى ٤/ ٢ (الطبعة الأميرية) الجاندارية فئة من مماليك السلطان أو الأمير، ومثلها الخاصكية، والكلمة مركبة من لفظين فارسيين: أحدهما: جان، ومعناه السلاح، والثاني: دار، ومعناه ممسك، ووظيفة الجاندار أن يستأذن السلطان بدخول الأمراء للخدمة. وفي النجوم الزاهرة ٥/ ٢٣٠: الكلمة فارسية مركبة من: جان، ومعناها: الروح. ودار: بمعنى حافظ. والجاندار: حافظ الروح، وهم الحرس أو العسس. والكلمة في السياق أعلاه تفيد معنى مهمة الحراسة أكثر مما تفيد الاستئذان على السلطان.

في ذلك لمَّا سار إلى مِصْر، وقَدِمَ رسولُهم في ذلك، فتمَّت الوُصْلَة بينهما.

قال: وأول من وَصَل والسُّلْطان بكَوْكَب اختيار الدِّين حسن بن غفراس مدبِّر دولة قَلِيج أرسلان بالرُّوم، وكان هذا الرَّسول مغرًى بلبس الحُلِيِّ والدِّيباج والوَشْي، وفي يديه زنود وخواتيمُ مُرَصَّعَةٌ بزينةٍ ثقيلة؛ بجواهر ويواقيت ثمينة، وفي عُقودها دُرَّةٌ يتيمة، وفي يده عمودٌ من العَسْجَدِ، وكلُّ عِدَّته تِبْرُها مُجَوْهر، وكان إذا شاهده السُّلْطان تَبَسَّم، وعامله بخُلُقه وقال: هذا سافَرَ بنُضَارِهِ لِيُنْظَرَ، وبديناره لِيُبْصَرَ.

وقال القاضي ابنُ شَدَّاد: لما دخلت سنةُ أربع وثمانين رأى السُّلْطان الاشتغال بأَخْذ هذه الحصون الباقية التي لهم، مما يُضْعِفُ قلوبَ مَنْ في صور ويهي أمرها به، فاشتغل بذلك، ونزل ـ رحمه الله ـ على كَوْكَب في أوائل المحرَّم.

وكان سببُ بداءته بكوكب أنه كان قد جعل حَوْلَها جماعةً يحفظونها من أن تدخل إليهم قوةٌ أو جماعة، فخرج الفرنج ليلاً وأخذوا غِرَّتهم، وكبسوهم بعَفْرَبَلا، وقتلوا مقدَّمهم، وكان من الأمراء يُعْرَفُ بسيف الدين أخي جاولي، وأخذوا أسلحتهم. فسار ـ رحمه الله ـ من عَكَّا، ونزل عليها بمن كان بقي معه من خواصِّه بعَكا، فإنه كان قد أعطى العساكر دستوراً، ولقي في طريقه شِدَّةً من الثَّلْج والبَرَد، فحملتِ السُّلْطان مع ذلك الحَمِيَّةُ على النزول عليها، وأقام يُقاتِلُها مُدَّة.

[وصول ابن شداد إلى خدمة صلاح الدين]

قال: وفي تلك المنزلة وصلتُ إلى خدمته؛ فإني كنتُ قد حججتُ سنةَ ثلاثٍ وثمانين، وكانت وقعة ابن المُقَدَّم، وجُرِحَ يوم عرفة على عرفة لِخُلْفٍ جرىٰ بينه وبين أمير الحاج طاشْتِكِين على ضَرْب الكُوس والدَّبْدَبة، فإنَّ أمير الحاجِّ نهاه عن ذلك، فلم ينته ابنُ المقدَّم، وكان من أكبر أمراء الشَّام، وكان كثيرَ الخير، كثير الغَزَاة، فقدَّر الله أنَّه جُرِحَ بعرفة يوم عرفة، ثم حُمِلَ إلى مِنًى مجروحاً، فمات بمِنى يوم الخميس يوم عيد الله الأكبر، وصُلِّي عليه في مسجد الخَيْف في بقية ذلك اليوم، ودُفِنَ بالمَعْلَىٰ، وهذا من أَتَمِّ السَّعادات. وبلغ ذلك السُّلْطان قَدَّس الله روحه، فَشَقَّ عليه.

قال: ثم اتفق لي العَوْدُ من الحَجِّ على الشَّام لقَصْدِ القُدْس وزيارته، والجمع بين زيارة النبيِّ ﷺ وزيارة أبيه إبراهيم عليه الصَّلاة والسَّلام، فوصلتُ إلى دمشق، ثم خرجت إلى القُدْس، فبلغه خَبَرُ وصولي، فظنَّ أني وصلتُ من جانب المَوْصِل في حديثٍ، فاستحضرني عنده، وبالغَ في الإكرام والاحترام، ولما وَدَّعْتُه ذاهباً إلى القُدْس خَرَجَ إليَّ بعضُ خَوَاصِّه، وأبلغني تقدُّمه إليَّ بأن أعود أَمْثُلُ في خدمته عند

العَوْدِ من القدس، فظننت أنه يوصيني بمهمٍّ إلى المَوْصِل، وانصرفتُ إلى القدس الشَّريف يوم رحيله عن كَوْكَب، ورحل ـ رحمه الله ـ لأنَّه عَلِمَ أن هذا الحِصْنَ لا يؤخذُ إلَّا بجمع العساكر عليه، وكان حِصْناً قوياً، وفيه رجالٌ شِدَادٌ من بقايا السَّيْف ومِيرَةٌ عظيمة، فرحل إلى دمشق، وكان دخولُه إليها في سادس ربيع الأوَّل، وفي ذلك اليوم اتَّفق دخولي إلى دمشق عائداً من القُدْس، فأقام ـ رحمه الله ـ في دمشق خمسةَ أيام، وكان له غائباً عنها ستة عَشَرَ شهراً.

[إغارة الفرنج على جبيل وخروج صلاح الدين إليها]

قال: وفي اليوم الخامس بلغه خَبَرُ الفرنج أنهم قصدوا جُبَيْل واغتالوها، فخرج منزعجاً ساعةَ بلوغ الخبر، وكان قد سَيَّرَ إلى العساكر يستدعيها من سائر الجوانب، وسار يَطْلُبُ جُبَيْل، فلما عرف الفرنجُ بخروجه كَفُّوا عن ذلك. وكان بلغه وصولُ عماد الدين وعسكر المَوْصِل ومُظَفَّر الدين إلى حلب قاصدين الخِدْمة للغَزَاة، فسار نحو حِصْن الأكراد في طلب السَّاحل الفوقاني.

[نزول صلاح الدين على حصن الأكراد]

ولما كان مستهلّ ربيع الآخر نَزَل على تَلِّ قُبَالة حِصْن الأكراد، ثم سَيَّر إلى الملك الظَّاهر ولدِهِ والملك المُظَفَّر بأن يجتمعا وينزلا بتِيزين قُبَالَة أنطاكية لحِفْظِ ذلك الجانب، ففعلا. وسارت عساكرُ الشَّرْق حتى اجتمعتْ بخدمة السُّلْطان في هذه المنزلة، ووصلتُ إليه ـ رحمه الله ـ في هذه المنزلة، فإنَّه كان قد سَيَّر إليَّ إلى دمشق يقول تَلْحَقُنا نحو حِمْص. فخرجتُ على عَزْمِ المسير إلى المَوْصِل متجهِّزاً لذلك، فوصلتُ إليه امتثالاً لأمره، فلما حَضَرْتُ فَرِحَ بي وأكرمني.

وكنتُ قد جمعتُ له كتاباً في الجهاد بدمشق مُدَّة مقامي فيها بجميع آدابه وأحكامه، فقدّمته بين يديه، فأعجبه، وكان يلازم مطالعته، وما زلتُ أطلبُ دستوراً في كلِّ وقت، وهو يُدَافعني عن ذلك، ويستدعيني للحضور في خدمته في كلِّ وقت، ويَبْلُغني على ألسنة الحاضرين ثناؤه عليَّ وذِكْرُه إياي بالجميل، فأقام في منزلته تلك شهر ربيع الآخر أجمع، وصَعِدَ في أثنائه إلى حِصْن الأكراد، وحاصره يوماً يَجُسُّه به، فما رأى الوقتَ يحتمل حِصَارَهُ، واجتمعتِ العساكرُ من الجوانب.

وأغار على بلد طرابُلُس في هذا الشَّهْر دُفْعتين، ودخل البلاد مُغيراً ومختبراً لمن بها من العساكر، وتقويةً للعساكر بالغنائم، ثم نادى في النَّاس في أواخر الشَّهْر: إنا داخلون إلى السَّاحل، وهو قليل الأَزْواد، وهو مُحيط بنا في بلاده من سائر الجوانب، فاحملوا زادَ شَهْرٍ.

ثم سَيَّر إليّ مع الفقيه عيسى، وكشَفَ لي أنه ليس في عَزْمه أن يمكِّنني من العَوْد إلى بلادي. وكان الله تعالى قد أَوْقَعَ في قلبي محبَّته منذ رأيته وحُبَّ الجهاد، فأجبتُهُ إلى ذلك، وخدمتُه من تاريخ مستهل جُمادى الأُولى وهو يوم دخوله السَّاحل الأعلى، وجميع ما حَكَيْتُهُ من قَبْلُ إنما هو روايتي عمّن أثق به ممن شاهدوه، ومن هذا التَّاريخ ما أُسَطِّر إلا ما شاهَدْتُهُ أو أخبرني به من أثق به خبراً يقارب العِيان، والله المُوفِّق.

فصل

[تولية بهاء الدين قراقوش عمارة عكا]

قال العماد: وكان جماعةُ من أهل الحَزْم وأولي العَزْم قد أشاروا على السُّلْطان لما فتح عَكّا بتخريبها وتعفية آثارها، وأن يبقى المرابطون المحامون مكانها، فلا نأمن عَوْدَ الفرنج إليها وتملُّكها، وأن تُبْنَىٰ قلعة القَيْمون. فكاد يجيبُ، فقيل له: هذه مدينة كبيرة، وعِمارةٌ كثيرة. فأشير عليه بتبقيتها، وأن تُعَمَّر وتُحصَّن. فولَّىٰ أمر عمارتها وتدبيرها الأمير بهاء الدِّين قَراقُوش[(١)]؛ وهو الذي أدار السُّور على مِصْر والقاهرة، فاستدعاه من مِصْر، وأمره أن يستنيب في تلك العِمارة، فَقَدِمَ عليه وهو بكَوْكَب، ففوَّضَ إليه عمارة عكا، فشرع في تجديد سُورها، وتعلية أبراجها، وكان قدم من مصر ومعه أسارىٰ العَمَلِ وأنفاره، وآلاته ودوابّه وأبقاره.

قال: ولما رَتَّب السُّلْطان الأمور على كوكب رحل مستهل ربيع الأول، ودخل دمشق في سادسه، وكان العَسْكَرُ الغائب على مواعدةِ المعاودة في الرَّبيع، وأنه يجتمع على حِمْص بالجميع، وكانت طريق السُّلْطان على بحيرة طبرية من شَرْقِيِّها، وتجنَّب عَقَبَةَ فِيق لاستصعاب رُقِيِّها، ولما قارب السُّلْطانُ دمشقَ تلقَّاه النَّاس أحسنَ لقاءٍ، فقد كانوا متعطِّشين إلى رؤيته، ومتشوِّقين إلى طَلْعته، لأنه غاب عنهم سنةً وشهرين وخمسة أيام، فكسَرَ فيها الكُفْرَ ونَصَرَ الإسلام، وفتحَ فيها الأرضَ المقدَّسة وأشباهَها من البلاد التي كانت بأَوْضار الكُفْر نَجِسة، فأصبحت بالإيمان مُؤَسَّسة.

فلما استقرَّ قَرَارُه أمر بإنشاء الكُتُبِ لاستدعاء الأجناد من الجهات للجهاد من

---

(١) هو الطواشي بهاء الدين قراقوش الأسدي الرومي، توفي سنة ٥٩٧هـ. (الذيل على الروضتين وفيات سنة ٥٩٧هـ).

سائر البلاد، وابتدأ بالجلوس في دار العَدْل وبحضرته القُضَاة والعلماء من أهل الفَضْل.

[ولاية بدر الدين مودود ديوان دمشق]

قال: وكان السُّلْطان قد ولَّى دمشق بدر الدين مودوداً المعروف بالشِّحْنة، وهو أخو عِزِّ الدين فَرُّخْشاه لأُمِّه، وفوَّض إليه في هذه الأيام ولايةَ الدِّيوان، وكان مع الصَّفي بنِ القابض[١]، فبقيت معه الخِزانة وحدها، وكان الصَّفي قد بنىٰ للسُّلْطان داراً مُطِلَّةً على الشَّرَفين بالقَلْعة، وأنفق عليها أموالاً كثيرة، وبالغ في تحبيرها وتحسينها، وظنَّ أنها تقع من السُّلْطان بمكان، فما أعارها طَرْفاً، ولا استحسنها، وكانت من جُمْلة ذنوبه عند السُّلطان التي أوجبت عَزْلَه عن الدِّيوان. وقال: ما يصنع بالدَّار من يتوقع الموت، وما خُلقنا إلا للعبادة والسَّعي للسَّعادة، وما جئنا دمشق لنقيم، وما نروم أن لا نَرِيم[٢].

قال: ثم هَمَّ بالغَزَاة، فبدأ بزيارة القاضي الفاضل، وكان مقيماً بجَوْسق[٣] ابنِ الفَرَّاش[٤] بالشَّرَف الأعلى في بُسْتانه، فاستضاء برأيه فيما يريد فِعْلَه، وكان لا يأتي أمراً إلا من بابه، فأقام عنده إلى الظُّهر، ثم وَدَّعه ورحل.

قلتُ: وما أحسن ما قال ابنُ الذَّرَوِي[٥] في الآراء الفاضلية من قصيدةٍ مَدَحه بها: [الطويل]

لرأيكَ هذا النَّصْرُ للدِّين يَنْتمي ... فلا ينتحلْه كلُّ عَضْبٍ ولَهْذَم[٦]
وإنْ كانَ فيه للأَسِنَّةِ والظُّبَىٰ ... مساعدةٌ فالفَضْلُ للمتقدِّمِ
تُشيرُ على الإسلام منك فِرَاسةٌ ... لها حَزْمُ طِبٍّ واحترازُ مُنَجِّمِ

---

(١) توفي في الثالث والعشرين من رجب سنة ٥٨٧هـ، وكان نائب السلطان بدمشق، وكان قد خدم السلطان في أيام عدمه، وهو في كفالة أبيه وعمه، فلما ملك مصر حكّمه في أعمالها. وقال ابن كثير في البداية والنهاية ١٢/ ٣٠٥: الصفي بن الفائض: كان من أكبر أصحاب السلطان قبل الملك، ثم استنابه على دمشق حتى توفي بها سنة٥٨٧هـ، في ربيع الأول.

(٢) لا نريم: أي لا نبرح.

(٣) الجوسق: معرب وأصله كوشك بالفارسية، والجوسق: القصر.

(٤) هو القاضي شمس الدين محمد بن محمد بن موسى المعروف بابن الفراش، توفي في ربيع الآخر سنة ٥٨٨هـ. سترد ترجمته الوافية، في وفيات سنة ٥٨٨هـ من هذا الجزء.

(٥) ابن الذروي: هو علي بن يحيى المصري، أبو الحسن المعروف بابن الذروي، توفي سنة ٥٧٧هـ (انظر ترجمته في: «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ١٨٧، وفيات الأعيان ٤/ ١٤٥، فوات الوفيات ٣/ ١١٣، ١١٧، الوافي بالوفيات ٢٢/ ٣١٢ ـ ٣٢٠، وفيه وفاته سنة ٥٧٩هـ).

(٦) العضب: السيف القاطع. واللهذم: القاطع من الأسنة.

وتـحـمـيـه ألـفـاظٌ لـديـك كـأنَّـهـا قـواطـعُ بُـتْـرٍ أو نـوافـذُ أَسْـهُـمِ
ألا حَـبَّـذا فَـتْـحٌ نَـشَـرْتَ لـواءه وقُـلْـتَ لـخـيـلِ الله يـا خَـيْـلُ أَقْـدِمـي
وقـمـتَ وقـد نـامَ الأنـامُ مـنـاجـيـاً لـمـولايَ نَـجِّ الـمـسـلـمـيـن وسَـلِّـمِ

فـصـل

في دخول السُّلْطان ـ رحمه الله ـ السَّاحل الآخر وفتح ما يَسَّرَه الله تعالىٰ من بلاده

قال العماد: ثم رحل السلطان فسلك في جبل يَبُوس إلى عين الجَرّ إلى الدَّلْهَمِيَّة على البِقاع وأتى بَعْلَبَكَّ، وخَيَّم بمرج عدُّوسة، ثم رحل على سَمْتِ اللَّبْوة، ثم أتى الزَّرَّاعة، ووصل الخبر بوصول عماد الدين صاحب سِنْجار في جموعه وجنوده ونزوله على قَدَس من عمل حمص على نهر العاصي، ولما تراءىٰ موكبه لموكب السُّلْطان تقابل القَمَران، وتقارن النِّيران، واجتمع السَّعْدان، وسَعِدَ الجمعان، فخيم السلطان عند مخيَّمه، وسأل أن يزوره السلطان بموكبه، فأجاب دعوته، ثم رَتَّب السلطانُ يوماً لحضوره عنده، وتهاديا وتصافيا.

وكان أيام المِشْمِش وقد وصل من دمشق، فأفرح قدومُهُ، وطَلَعَتْ في أبراج الأطباقِ نجومُهُ، كأَنَّها كُرَات من التِّبْر مَصُوغة، أو بالوَرْس مصبوغة، صُفْر كأنها ثمر الرَّايات النَّاصرية حلا منظراً وذَوْقاً، ولو نُظِمَ جَوْهَرُه لكان طَوْقاً، كأنما خُرِطَ من الصَّنْدل[1]، وخُلِطَ بالمَنْدَل[2]، وجُمِّد من الثَّلْج والعَسَل.

وتصاحب هو والسُّلْطان في الرُّكوب والجلوس، والتَّناجي بما في النُّفوس، وتكرَّرَتِ المشاورة في الموضع الذي يبتدأ بقَصْدِهِ، واتفقوا على عِرْقا وعقرها، والنُّزول بعُقْرِها، وأنها إذا مُلِكَت مُلِكَت طرابُلُس. فأقاموا بقَدَس إلى آخر الشَّهر، حتى اجتمعت الجموع، ووصلت قبائل العُرْبان، ثم سار السُّلْطان أول ربيع الآخر، وخَيَّم بِقُرْب حِصن الأكراد على البقيعة، ثم شَنَّ الإغارة على نواحي الحِصْن

(١) الصندل: هو خشب شجر يؤتى به من سفالة الهند، وهو على سبعة أضرب: ١ ـ المقاصيري وهو يدخل في طيب النساء، ٢ ـ الأبيض منه الطيب الريح. ـ ٣ ـ الجوزي. ٤ ـ الساوس ويقال: الكاوس، ٥ ـ الأحمر. ٦ ـ صندل جعد الشعرة. ٧ ـ أحمر اللون (صبح الأعشى ٢/ ١٣٧ ـ ١٣٩).

(٢) المندل، ويقال له: المندلي: وهو أرفع أنواع عود الطيب، وأفضلها وأجودها وأبقاها على النار وأعبقها بالثياب (صبح الأعشى ٢/ ١٣٤).

وصافيثا والعُرَيمة وتلك الحصون، فاستخرج ما فيها من المخزون، وفتح حصن يحمور، وسامُه الدُّمُور[١]، ولم تَزَل الإغارات والغنائم وهم في تلك المنزلة إلى آخر الشَّهْر، فوصل قاضي جَبَلَة منصور بن نبيل وجماعة معه، فأشار على السلطان بقصدها، وتكفَّل بفَتْحها وفَتْحِ اللاذقية وتلك الحصون والمعاقل الشَّمالية.

وكانت تلك البلاد قد سَلَّمها إليه ابرنس أنطاكية، وعَوَّل عليه فيها. وقال: إن الاشتغال بطرابُلُس مع احتراسها يُذهب الزَّمان، ويفوِّت الإمكان، والمسلمون بجبَلَة مجبولون على التَّسليم، مُؤَمِّلون أن يتبدَّل شقاؤهم منك بالنعيم. فأصغىٰ السُّلْطان إلى قوله، وأصفى له وِرْدَ طَوْله[٢]. وكان قد وصل إليه مُقَدَّمو جبل بَهْرا[٣]، فوفَّر لهم رواتبهم وأجرىٰ، فندبوا إلى أتباعهم، وكتبوا إلى أشياعهم.

فصل

في فَتْح أَنْطَرْطُوس

قال العماد: وأَجْمَعَ السُّلْطان على دخول الساحل بتلك العساكر والجحافل، فرحل يوم الجمعة رابع جُمادى الأُولىٰ، فسرنا في آجام مُؤْتَشِبة[٤]، وآكام مُعْشبة، وحُزُون وسهول، وشِعَابٍ وتُلُول، حتى خرجنا إلى ساحة السَّاحل، ونزلنا بها وسرنا السَّاحِلَ السَّاحلَ في ثلاث مراحل، حتى وَصَلْنا أَنْطَرْطُوس سادس الشَّهْر، فأحدقنا بها من البحر إلى البحر، فأخلىٰ الفرنجُ البلد وما أَحوجوا إلى الحَصْر، واجتمعوا في بُرْجين عظيمين هما لأَنْطَرطُوس كالقَلْعَتين، ونقلوا إليهما من الأموال ما قَدَرُوا عليه، فحصر مُظَفَّرُ الدين كُوكُبُري أحدَ البُرْجين حتى أنزلهم بالأمان، ثم نَقَبَهُ من أساسه، وألقاه على أمِّ راسه، وعَجَّلَ دمارَه، ورمى في البحر أحجاره، وملك جميع ما فيه، وامتنع البُرْج الآخر وفيه الدَّاوِيَّة[٥] وشَوْكَتُهم ومقدَّمهم الذي أُسر يوم حِطِّين، وأُطلق لما سَلَّم ما اشتُرِطَ عليه من البلاد، ثم اجتمع بأصحابه في هذا البُرْج وقَوَّاه بآلات الحَصْر، فامتنع فَتْحُه، فاشتغل المسلمون بتعفية البلد وإخفائه.

---

(١) الدمور: الإهلاك.

(٢) الطول: الفضل والغنى والسعة.

(٣) جبل بهرا: من بلاد الإسماعيلية، ومقدموهم هم الإسماعيلية (انظر صبح الأعشى ١٤/ ٣٨).

(٤) آجام مؤتشبة: الآجام: جمع الأجمة: وهي الشجر الكثير الملتف. والمؤتشبة: الملتفة.

(٥) الداوية: تقدّم التعريف بهم أكثر من مرة.

وقال القاضي ابنُ شَدَّاد: دخل السُّلْطان السَّاحل على تعبية لقاء العدو، ورتَّبَ الأطلاب[١]، وسارت الميمنةُ أولاً، ومُقَدَّمها عماد الدين زَنْكي، والقَلْبُ في الوسط، والميسرة في الأخير، ومقدَّمُها مُظَفَّر الدين بن زين الدين، وسار على الثَّقَل في وسط العَسْكر حتى أتى المنزل، فبتنا تلك الليلة في بلد العدو، ثم رحل في صبيحة السبت، ونزل على العُرَيمة فلم يقاتلها ولم يعرض لها، ولكن أقام عليها بقية يومه، ورحل يوم الأحد.

ووصل أَنْطَرطُوس، فوقف قُبالتها ينظر إليها، وكان في عزمه الاجتياز إلى جَبَلَة، فاستهان بأمرها، فَسَيَّر من رَدَّ الميمنة، وأمرها بالنُّزول على جانب البحر، وأمر الميسرة بالنُّزول على البحر من الجانب الآخر، فما استتمَّ نَصْبُ الخِيَم حتى صَعِدَ النَّاس السُّور، وغَنِمَ العسكرُ جميع مَنْ بها وما بها، وخرج النَّاسُ والأسرى بأيديهم وأموالهم، وتَرَكَ الغِلْمان نَصْبَ الخِيَم واشتغلوا بالكَسْب والنَّهْب، وَوَفىٰ بقوله ـ رحمه الله ـ فإنه كان قد عُرِضَ عليه الغداء فقال: نتغدَّى بأَنْطَرطُوس إن شاء الله تعالىٰ.

وعاد إلى خيمته فَرِحاً مسروراً، وحضرنا عنده للهناء بما جرى، ومُدَّ الطَّعامُ، وحَضَرَ النَّاس، وأكلوا على عادتهم، ورَتَّبَ على البُرْجين الباقيين الحصار، فَسَلَّم أحدهما إلى مُظَفَّر الدين، فما زال يُحاصره حتى أخربه، وأخذ مَنْ كان فيه، وأمر السُّلْطان بإخراب سور البلد، وَقَسَمَه على الأُمراء، وكان البُرْج الآخر حصيناً منيعاً مبنياً بالحجر النَّحيت، وقد اجتمع من كان فيها من الخَيَّالة والمقاتلة فيه، وخندقه فيه الماء، وفيه جروخ كثيرة تجرح النَّاس عن بُعْدٍ، فرأى السُّلْطانُ تأخير أمره، والاشتغال بما هو أهمُّ منه، فاشتَدَّ في خراب السُّور حتى أتى عليه، وخَرَّب البِيعة؛ وهي بِيعةٌ عظيمة عندهم، محجوجٌ إليها، من أقطار، بلادهم، وأمر بوضع النَّار في البلد، فأحرق جميعه، والأصواتُ مرتفعة بالتهليل والتكبير، وأقام عليها يخرِّبها إلى رابع عشر الشهر، وسار يريد جَبَلَة، وعَرَضَ له ولده الظَّاهر في أثناء طريق جبلة، ومعه العساكر التي كانت بتيزين.

---

(١) الأطلاب: جمع طُلْب، بضم الطاء، وهي وحدات صغيرة قد تبلغ أربعمائة يرأسها أمراء يعملون في وظائف البلاط أو الدولة، وكان للسلطان نفسه أطلاب من الفرسان في عدد صغير، ويقول ابن إياس: إن هذا اللفظ ظهر في أيام صلاح الدين الأيوبي. ويذكر المقريزي أن الطلب في لغة الغزّ هو أمير له لواء وبوق ومائتا فارس إلى مائة إلى سبعين (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص٣٦).

فصل

في فتح جَبَلَة وغيرها(١)

قال القاضي ابنُ شَدَّاد: وكان وصول السُّلْطان إلى جَبَلَة يوم الجمعة ثامن عشر الشهر، وما استتمَّ نزول العسكر حتى أخذ البلد، وكان فيه مسلمون مقيمون فيه، وقاضٍ يحكُمُ بينهم، وكان قد عمل على البلد فلم يمتنع، وبقيت القلعة ممتنعة، ونزل العسكر مُحدقاً بالبلد وقد دخله المسلمون، واشتغل بقتال القلعة، فقوتلت قتالاً يقيم عُذْراً لمن كان فيها، وسُلِّمت بالأمان يوم السبت تاسع عشر الشهر، وأقام عليها إلى الثالث والعشرين، وسار عنها يطلب اللاذقية.

وقال العماد: بعد فتح أَنْطَرطُوس وصل إلينا رجال حماة، فرحل السُّلْطان يوم الاثنين رابع عشر الشهر، وَنَزَلَ على مَرَقِيَّة وقد أخلاها سُكَّانُها، فَخَيَّم فيها أهلُ الإسلام، وطاب لهم فيها المقام، وكانت الطريق إلى جَبَلة على الساحل ضيقةَ المسالك، صعبةَ المراحل، وهناك للفرنج الاسبتار(٢) حِصْنٌ يقال له المَرْقَب، مأهولٌ معمور، ولا طريق إلا تحت تلِّه.

واتفق أنَّ طاغية صِقِلِّية لما شجاه ما تَمَّ على الفرنج في السَّاحل، جَهَّزَ أُسطولاً يشتمل من الشَّواني على ستين قطعة، تحسب كلُّ واحدةٍ منها قلعة أو تَلْعة، وقَدَّم عليها طاغيةً يقال له المرغريط، فوصل وما ضَرَّ ولا نفع، فإنَّ فرنج السَّاحل ما رفعوا به رأساً، وتضجَّروا منه، وكان في عشرة آلاف رجل، يحتاجون إلى مِيرَةٍ وكُلَفٍ كبيرة، فصار إلى صور، ثم رجع إلى طرابُلُس، وتردَّدَ في البحر وتلدَّد(٣) وأَبْلَس(٤)، واضطرب أشهراً، لا يَظْهَرُ له رأي، ولا يرى له مظهراً، فلما سمع بعبور عساكر المسلمين على السَّاحل إلى جَبَلَة جاء بالشَّواني، وصَفَّها على موازاة الطَّريق، ومباراة المضيق، وفيها الرُّماة، فأمر السُّلْطان بنقل الجفاتي إلى هناك، وتصفيفها، وتكثير ستائرها، وأجلس الرُّماة من ورائها، فما زال الأمر على ذلك، والرُّماة ترمي وتَصْمِي، وعامة المسلمين في سلوك ذلك المضيق حتى خَفَّتِ الأثقال، وعبرتِ الأحمال، وخَلَص المسلمون من ذلك الشِّقِّ بغير مَشَقَّة، وجازوا

---

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ١٦٧ ـ ١٦٨: ذكر فتح جبلة.

(٢) الاسبتار: تقدّم التعريف بهم أكثر من مرة.

(٣) تلدد: تحيّر، وتلفت يميناً وشمالاً.

(٤) أبلس: تحير.

على مدينةٍ يقال لها بُلُنْياس، وقد انجلىٰ عنها النَّاس، فخيَّم المسلمون فيها، ثم أصبحوا على الرَّحيل، فاعترضهم نهرٌ عريض عميق ما فيه طريق، وهو مُطَّرِدٌ من الجبل إلى البحر، وفيه قنطرةٌ واحدة، فتنكَّبها السُّلْطان بالجحفل، ومضى يميناً إلى الجبل، وأبعد حتى عَبَرَ فوق رأس العين، واحتاطت العساكر بالنَّهْرِ من الجانبين، وتزاحمتِ الأثقالُ على القنطرة فما خلصوا تلك الليلة إلى آخرها، ونَزَلَ السُّلْطان قبل وصول الأثقال على بَلْدة، وهي بلدة كاسمها بلدة؛ وهي بُلَيْدَة من غربيِّ النَّهر وعلى شاطىء البحر، وجانباها الآخران خندق يلتقي فيه البحران، وقد أخلاها أيضاً أهلُها، وتفرَّق شملُها.

وأصبح السُّلْطان يوم الجمعة ثامن عشر جُمادى الأُولى على جَبَلَة، فتسلَّمها المسلمون في الوقت، وذلك أنَّ قاضيها كان قد سبق ودخلها، وقَرَنَ بالنُّجْح للمسلمين أملها، فلما وصلوا أعلىٰ الأعلامَ النَّاصرية على سورها، وخَلَص المسلمون بها من مساكنة الكَفَرَة. وتَحَصَّن الفرنج بحصنيها، واحتموا بقلعتيها، فما زال قاضي جَبَلَة يخوِّفُهم ويرغِّبهم، حتى استنزلهم بشرط أن يسترهنهم إلى أن يردُّوا من أنطاكية رهائن جَبَلة من المسلمين، فضبط عنده جماعة من رؤوس الفرنج والمقدَّمين، حتى أعاد صاحبُ أنطاكية الرَّهائن التي عنده، ففَكَّ بها رهائنه، وتولَّىٰ قاضي جَبَلَة الأمر، فاستخرج ذخائر الكُفْر ودفائنه، واستنظفهم من كلِّ سلاح وعُدَّة، وخيل وقُوَّة.

وجاء مقدَّمو الجبل[١] سامعين مطيعين، وفي الجبل على سَمْتِ طريق حماة حِصْنٌ يعرب ببِكسرائيل، وكان أهلُ الجَبَل استعادوه من الفرنج منذ سنين، فتسلَّمه السُّلْطان أيضاً منهم، ثم سَلَّم جَبَلَة إلى سابق الدين عُثْمان صاحب شَيْزَر وَبَجَّلَ قاضي جَبَلَة وشَرَّفه، وحبس عليه ملكاً نفيساً ووقَّفه، وصَرَّفه في أملاك آبائه، وحكَّمه في ولاية حُكْمه وقضائه.

فــصــل

في فتح اللاذقية[٢]

قال القاضي ابنُ شَدَّاد: وهي بلدٌ مليح، خفيفٌ على القَلْب، غير مُسَوَّرٍ، وله ميناء مشهور، وله قَلْعَتان مُتَّصلتان على تَلٍّ يشرف على البلد، فنزل السُّلْطان ـ رحمة

(١) هم مقدمو جبل بهرا. وهو من بلاد الإسماعيلية، ومقدموهم هم الإسماعيلية.

(٢) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/١٦٨ ـ ١٦٩: ذكر فتح لاذقية.

الله عليه ـ يوم الخميس رابع عشر جُمادى الأُولىٰ محدقاً بالبلد، وأخذ العسكر منازلهم مستديرين على القَلْعَتين من جميع نواحيها إلا من ناحية البلد، واشتدَّ القتال، وعَظُمَ الزَحْف، وارتفعت الأصواتُ، وقَوِيَ الضَّجيج إلى آخر النَّهار، وأُخذ البلد دون القلعتين، وغَنِمَ النَّاسُ منه غنيمةً عظيمةً، فإنَّه كان بلدَ التُّجار.

وفَرَّق بين النَّاس الليل وهجومُهُ، وأصبح يوم الجمعة مقاتلاً مجتهداً في أَخْذِ النُّقوب من شمالي القِلاع، وتمكَّن منها النَّقْبُ حتى بلغ طوله ـ على ما حكىٰ لي مَنْ ذَرَعه ـ عشرين ذراعاً، وعرضُه أربع أذرع، فاشتدَّ الزَّحْفُ عليه حتى صَعِدَ النَّاس الجبل، وقاربوا السُّور، وتواصل القتال حتى صاروا يتحاذفون بحجارة اليد، فلما رأى عدوُّ الله ما حَلَّ به من الصَّغَار والبوار، استغاثوا بطلب الأمان، وطلبوا قاضي جَبَلَة يدخل إليهم ليقرِّر لهم قاعدةَ الأمان، فأُجيبوا إلى ذلك.

وكان ـ رحمه الله ـ متى طُلِبَ منه الأمان لا يبخل به، فعادَ النَّاسُ عنهم إلى خيامهم وقد أَخَذ منهم التَّعَب، فباتوا إلى صبيحة السبت، ودخل قاضي جَبَلة إليهم، واستقرَّ الحالُ معهم على أنهم يُطْلَقون بأنفسهم وذراريهم ونسائهم وأموالهم خلال الغِلال والذَّخائر وآلات السِّلاح والدَّوابِّ، وأُطلق لهم دوابٌّ يركبونها إلى مَأْمنهم، وَرُقِّيَ عليها العَلَمُ الإسلامي المنصور في بقية يوم السَّبْت، وأقمنا عليها يوم الأحد سابع عشر جُمادى الأُولى.

وقال العماد: رحل السُّلْطان إلى اللاذقية يوم الأربعاء الثَّالث والعشرين من جُمادىٰ الأُولىٰ، فبات بالقُرْبِ منها، وصبحها يوم الخميس وقد لاذَ أهلَها بقلاعها، وهي ثلاثُ قلاع متلاصقات، على طُول التَّلِّ متناسقات، كأنَّهنَّ علىٰ رأس راسِ راسخ، وذِرْوَة أشَمٍّ شامخ، فسهَّل الله لنا فَرْعَها[1]، وشَرَعْنا نستأصِلُ أَصْلَهَا وفَرْعَها، فطلبوا السَّنجق النَّاصِري، ونَصَبُوه على السُّور عشيةَ يوم الجُمُعة، فلما أصبحوا صَعِدَ إليهم قاضي جَبَلة، وأنزلهم بالأمان، وتُسُلِّمت تلك القلاعُ بما فيها من عُدَّةٍ وذخيرة، وأسلحة ومِيرَةٍ، وخيلٍ ودوابٍّ كثيرة، وأُمِّنوا على أنفسهم وأموالهم، وانصرفوا بنسائهم ورجالهم، وذُرِّيَّتهم وأطفالهم، وخفوا من أثقالهم، ودخل جماعةٌ منهم في عَقْد الذِّمَّة، وتمسَّكوا بحبل العِصْمة، وانتقل الباقون إلى أنطاكية. ثم ولَّىٰ السُّلْطانُ بها مملوكه سُنْقُر الخِلاطي، ورَكِبَ السُّلْطان إلى البلد وطافه، وهَزَّ إلى إحسانه أعطافَهُ، وأَمَّنَهُ بعدما أخافه.

قال: ورأيتُها بلدةً واسعةَ الأفنية، جامعةَ الأبنية، متناسقة المغاني، متناسبة

(١) سهّل الله لنا فرعها: أي نزولها.

المعاني. في كلِّ دارٍ بُسْتان، وفي كل قُطْرٍ بُنْيان، أمكنتها مُخَرَّمة، وأزقَّتها مُرَخَّمة، وعقودُها مُحْكَمة، ومساكنها مُهَنْدَسة مُهَنْدَمة، وسقُوفُها عالية، وقطوفُها دانية، وأسواقُها فضية، وآفاقُها مُضِيَّة، وأرجاؤها فسيحة، وأهواؤها صحيحة، لكن العسكر شَعَّث عِمارتَها، وأذهب نَضَارتها، ووقع مِنْ عِدَّةٍ من الأُمراء الزِّحام على الرُّخام، ونقلوا منه أحمالاً إلى منازلهم بالشَّام، فشوَّهوا وجوه الأماكن، ومَحَوْا سَنَا المحاسن.

قال: وبظاهر اللاذقية كنيسةٌ عظيمةٌ نفيسةٌ، قديمة بأجزاء الأجزاع مُرَصَّعة، وبألوان الرُّخام مجزَّعة، وأجناس تصاويرها متنوِّعة، وأصولُ تماثيلها متفرعة، وهي متوازيةُ الزَّوايا، متوازنة البنايا، قد تُخُيِّرَتْ بها أشباحُ الأشباه، وصُوِّرَتْ فيها أمواج الأمواه، وزُيِّنَتْ لإخوان الشَّيْطان، وَعُيِّنَتْ لعبدةِ الأوثان والصُّلْبَان. ولما دخلها النَّاس أخرجوا رُخامها، وشوَّهوا أعلامها، وحسروا لثامها، وكسروا أجرامها، وأهدوا الأسىٰ لِهَدِّ أساسها، وأفاضوا عليها لباسَ إبلاسها، وحكموا بعد الغِنى بإفلاسها، وافتقرت وأقفرت، وخربت وتَرِبَتْ. ثم لما طابتِ النُّفوس، وتجلَّى عن البلد بفتحه البوس، عاد إلى هذه الكنيسة بالأمان القُسوس، وهي متشوِّهة مُتَشَعِّثة، مستمسكة بأركانها وقواعدها متشبثة.

قال: ولقد كَثُرَ أسفي على تلك العِمارات كيف زالت، وعلى تلك الحالات الحاليات كيف حالت، ولكنما زاد سروري بأنها عادت للإسلام مرابع، ولشموسه مطالع، فلو بقيت بحليتها وحالتها بعدما تبدَّلت رُشْدها من ضلالتها لشاقت وراقت، وكما أفاقت فاقت. ورَغِبَ في إعطاء الجزية سُكَّان البلد من النَّصارى والأرمن حُبّاً للوطن. ولما أراد السُّلْطان الرَّحيل دخل المدينة، وَرَدَّ إلى سُكَّانها السَّكينة، ودار خلال ديارها، وخَرَقَ أسواقها[1] في سائر أقطارها، ووقف على البحر للنظر إلى موانيها وشوانيها[2]، وأقاصيها وأدانيها، وشكر الله علىٰ تمكينه من مِلْكها، وتخصيصه بمُلكها.

وفي كتابٍ عمادي إلى سَيْف الإسلام باليمن عن السُّلْطان قال: وهذه اللاذقية مدينةٌ واسعة، وخُطَّة جامعة، معاقِلُها لا تُرام، وأعلاقُها لا تُسْتام، وهي أحسنُ بلاد السَّاحل وأحصنُها، وأزيدها أعمالاً وضياعاً وأزينُها، وما في البحر مثل

(١) خرق أسواقها: أي جاب أسواقها.

(٢) الشواني: جمع شونة وشينية: وهو المركب المعد للجهاد في البحر (مصطلحات صبح الأعشى ص٢٠٧).

ميناها، ولا للمراكب الواردة مثل مَرْساها، وهي جَنَّةٌ كان يسكنها أهلُ الجحيم، وطالما مكثت بالكُفْرِ دار بؤس، فعادت بالإسلام دارَ نعيم.

قال: وكانت شواني[(١)] صِقِلِّية قد قابلت في البحر اللاذقية طمعاً في امتناعها، فلما خابت خَبَتْ نارُها، وقصدت لجهلها أَخْذَ مركب من يخرج من أهلها حَنَقاً عليهم، كيف سلَّموا البَلْدة، وسمحوا ببذلها، فكان ذلك مقتضياً لبقاء ساكنيها، بالجزية تؤدِّيها.

ولما وَقَفَ السُّلْطان على شاطىء البحر بعساكره طلب مقدَّمُ تلك الشواني أمانَه، ليصعَدَ ويشاهد سلطانَهُ، فأمَّنَه، فَصَعِدَ وعَفَّر وَكَفَّر، وتروَّىٰ ساعةً وتفكَّر، وقال ما معناه: أنتَ سُلْطانٌ عظيم، وملك رحيم، وقد شاع عَدْلُك، وذاع فَضْلُك، وقَهَرَ سُلْطَانُك، وظَهَرَ إحسانُك، فلو مَنَنْتَ على هذه الطَّائفة السَّاحلية الخائفة لملكت قِيادَها، إذا أعدتَ إليها بلادها، وصاروا لك عبيداً، وأطاعوك قريباً وبعيداً، وإلا جاءك من وراء البحار في عددِ الأمواج أفواجٌ بعد أفواج، وسار إليك ملوكُ ذوي الأقانيم من سائر الممالك والأقاليم، وهؤلاء أهون منهم، فاتركْهُمْ واصْفَحْ عنهم. فقال له السُّلْطان: قد أمرنا الله بتمهيد الأرض، ونحن قائمون في طاعته بالفَرْض، وعلينا الاجتهاد في الجهاد، وهو الذي يُقَدِّرنا على فَتْح البلاد، ولو اجتمع أهلُ الأرض ذات الطُّول والعَرْض، لتوكلنا على الله في اللِّقاء، ولم نبال بأعداد الأعداء. فَصَلَّب على وَجْهه، وركب بكَرْبِه، ولم يُغْنِ خِطابُهُ عن خَطْبه.

فصل

في فتح صِهْيَوْن وغيرها[(٢)]

قال القاضي ابْنُ شَدَّاد: رحل السُّلْطان عن اللاذقية ظهيرةَ الأحد السَّابع والعشرين من جُمادى الأُولى طالِبَ صِهْيَوْن، فنزل عليها يوم الثلاثاء التاسع والعشرين، فاستدار العسكر بها من جميع نواحيها بُكْرَة الأربعاء، ونَصَبَ عليها ستة مناجيق، وهي قلعةٌ حصينةٌ منيعة في طَرَفِ جبلٍ، خنادِقُها أودية هائلة، واسعة عميقة، وليس لها خندق محفور إلا من جانبٍ واحد، مقدارُ طُوله ستُّون ذراعاً، ولا يبلغ، وهو منقرٌ في حجر، ولها ثلاثة أسوار، سوران دون رَبَضها، وسور دون القُلَّة[(٣)]، وسور

(١) هي السفن المعدة للحرب انظر الحاشية السابقة.

(٢) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ١٦٩ ـ ١٧٠: ذكر فتح صهيون وعدة من الحصون.

(٣) القلّة: أعلى القلعة، وقلّة كل شيء أعلاه.

القُلَّة، وكان على قُلّتها عَلَمٌ طويل منصوب، فحين أقبل العَسْكَر الإسلاميُّ شاهدته وقد وقع، فاستبشر بذلك المسلمون، وعلموا أنّه النَّصْر والفَتْح، واشتَدَّ القتالُ عليها من سائر الجوانب، فضربها مَنْجنيق ولده الملك الظَّاهر، وكان نَصَبَه قُبالة قُرَينة من سورها قاطع الوادي، وكان صائب الحجر، فلم يزل يضربها حتى هدم من السور قطعةً جيدة عظيمة، تمكَّن الصَّاعد في السور من التَّرَقِّي إليه منها.

ولما كان يوم الجمعة ثاني جُمادى الآخرة عَزَمَ السُّلْطان على الزَّحْف، وركب وتقدَّم، وتواترت المنجنيقات بالضَّرْب، وارتفعت الأصوات، وعَظُمَ الضَّجيج بالتكبير والتَّهليل، وما كان إلا ساعة حتى رَقِيَ المسلمون على أسوار الرَّبَض، واشتدَّ الزحف، وعَظُمَ الأمر، وهجم المسلمون الرَّبَض.

ولقد كنتُ أشاهد النَّاسَ وهم يأخذون القِدْر، وقد استوى فيها الطَّعام، فيأكلونها، وهم يقاتلون القلعة، وانضمَّ مَنْ كان في الرَّبض إلى القلعة بما أمكنهم أن يحملوه من أموالهم، ونُهِبَ الباقي، واستدار المقاتلة حول أسوار القلعة، فلما عاينوا الهلاك، استغاثوا بطلب الأمان، فأمَّنهم السُّلْطان على أن يَسْلَموا بأنفسهم وأموالهم، ويؤخذ من الرَّجل منهم عشرة دنانير، وعن المرأة خمسة دنانير، وعن الصغير ديناران، فَسُلِّمت القلعة، وأقام السلطان حتى تسلَّم عِدَّة قلاع كالعِيذو، وبلاطُنُس وغيرهما من القلاع والحصون، فتسَلَّمها النُّوَّاب، فإنها كانت تتعلق بصِهْيَوْن.

وقال العماد: كان الطَّريق إلى صِهْيَون في أودية وشعاب، ومنافذ صعاب، وأوعاث وأوعار، وأنجاد وأغوار، فقطعنا تلك الطريق في يومين، ووصَلْنا ليلة الثلاثاء بليلة الاثنين، وخيَّمنا على صِهْيَوْن يوم الثلاثاء، وهي قلعةٌ على ذِرْوة جبل بين واديين عميقين يلتقيان عليها، ويدوران حواليها، والجانب الجبلي مقطوع منه بخندق عظيم عميق، وسور وثيق، ما إليه سوى للقضاء والقدر من طريق، والقلعة ذاتُ أسوارٍ خمسة كأنَّها خمسُ هضاب، ممتلئة بذئاب سِغاب[1]، وأُسْدٍ غِضَاب. وأحاط العسكر بها يوم الأربعاء من نواحيها الأربع، وهي ممتنعةٌ علينا بالرُّكْن الأمنع، والسُّمو الأمتع.

ونقل السُّلْطانُ خيمته إلى جانب الجبل، وأقام الملك الظاهر غازي صاحب حلب منجنيقين، ونَهَجَ بهما من جانب الوادي إلى ردىٰ الأعادي طريقين، وكان له في فَتْحِ هذه القلعة الجَدُّ العالي والجِدُّ الوالي، فإنه اتَّصل بنا قبل الوصول إلى جَبَلة من طَريق حماة، وقد استصحب الكُماة الحُماة، ومعه الرِّجال الحلبية،

(١) سغاب: جياع.

والمنجنيقية[١] والجرخية[٢]، والجانْدَارية[٣] والخراسانية[٤]، واستصحب الحدَّادين والحَجَّارين والنَّجَّارين، فأظهر على صِهْيَوْن اليد البيضاء، وأنار في فضاء الفضائل وأضاء، وكان نازلاً على جانب الوادي مقابل الحِصْن، وشرع الجدار في الانقضاض، وأصبحنا يوم الخميس وللجلاميد وقوع، وللسُّور سجود وركوع، وما زالت المجانيق من جانبه وجانبنا تَرْمي، والحنايا بسهام المنايا تَصْمي، حتى قُتِل وجُرِحَ أكثر مقاتلة الحِصْن، وهان بما دَبَّ فيه من الوَهْن.

وأصبحنا يوم الجمعة ثاني جُمادى الآخرة، وبَحْرُ الحَرْب في أمواجه الزَّاخرة، وتطرَّق أصحابنا من قُرْنَةٍ[٥] خفيت عليهم من الخندق، لم تُحْكَم عِمَارَتُها كأنَّ الله أعماهم عنها، حتى يَسْلُك الحَتْف إليهم منها؛ فتعلَّقوا في الصُّخور، وتَسلقوا السور، وملكوا عليهم ثلاثة أسوار، واحتووا على كلِّ ما فيها من ذخائر وغلال، ودوابّ وأبقار، وازدحم الفرنج في القُلَّة[٦]، وتفادَوْا من الخوف لا من القِلَّة، وصاحوا: الأمان، وبذلوا الإذعان، ونادوا مكنوناً من السَّلامة، وتسلَّموا المكان.

فما أُمِّنوا على المال والنفس حتى قَرَّرْنا عليهم مثل قطيعة القُدْس، وأُغْلقت دونهم الأبواب، وسُيِّرَتْ إليهم النُّوَّاب، وما استَقَرَّ خروجهم حتى استُخْرِجَ القرار، وجُبي الدِّرْهم والدِّينار، وعَمَّ الصَّغارُ الكبارَ والصِّغار، وتولَّى ذلك شجاع الدين طُغْرُل الجانْدَار، ثم سُلِّم حِصْن صِهْيَوْن بجميع أعماله، وسائر ما حواه من ذخائره وأمواله إلى الأمير ناصر الدين منكورس بن خُمارْتِكِين صاحب بوقُبَيس، فأحكمه وحَصَّنه، وحَفِظه وحَسَّنه، وتسلم يوم السبت قلعة العِيذو، ويوم الأحد قلعة الجماهريين، ويوم الاثنين حِصْن بلاطُنُس، ونَدَبَ إلى كل حصن مَنْ تَسَلَّمه، وسَلَكَهُ في سِلْك الفتوح ونَظَمَهُ.

قال: وبفتح صهيون حَصَلَ الأمن على اللاذقية، وقوي الأمل في فَتْح أنطاكية، فإنه قُفْل مُحْكَمٌ على بابها، وسببٌ قويٌّ من أسبابها، فَفُتِحَ الرِّتاج، وَوَضَحَ المِنْهاج.

---

(١) المنجنيقية: الذين يضربون بالمنجنيق.

(٢) الجرخية: نسبة إلى الجرخ، جمعها جروخ، وهي آلة من آلات الحرب القديمة ترمى عنها السهام والنفط.

(٣) الجاندارية: فئة من مماليك السلطان، تقدّم التعريف بهم في هذا الجزء.

(٤) الخراسانية: فرقة عسكرية تنسب إلى خراسان.

(٥) قرنة: هي الزاوية.

(٦) القلة: أعلى القلعة.

فصل

في فَتْح بَكَاس والشُّغْر وسُرْمانِيَّة[١]

قال القاضي ابنُ شَدَّاد: ثم رحل السُّلْطان، وسرنا حتى أتينا بَكَاس وهي قلعةٌ حصينة على جانبِ العاصي، ولها نَهَرٌ يخرج من تحتها، وكان النُّزول بذلك المنزل على شاطىء العاصي يوم الثُّلاثاء سادس جُمَادَىٰ الآخرة، وصَعِدَ السُّلْطان جريدةً إلى القلعة، وهي علىٰ جبلٍ مطِلٍّ على العاصي، فأحدق بها من كلِّ جانب، وقاتلها قتالاً شديداً بالمنجنيقات والزَّحف المضايق إلى يوم الجمعة أيضاً تاسع جُمادى الآخرة، ويَسَّرَ الله فتحها عَنْوَةً، وأُسِر من فيها بعد قَتْلِ من قُتِلَ منهم، وغُنِمَ جميع ما كان فيها، وكان لها قُلَيْعَة تسمَّى الشُّغْر قريبة منها، يُعْبَرُ إليها منها بجسر، وهي في غاية المَنَعَة، ليس إليها طريق، فَسُلِّطت عليها المنجنيقات من الجوانب، ورأَوْا أنهم لا ناصِرَ لهم، فطلبوا الأمان، وذلك في يوم الثُّلاثاء، ثالث عشره، وسألوا أن يؤخَّروا ثلاثة أيام لاستئذان مَنْ بأنطاكية، يَسَّرَ الله فتحها، فأُذِنَ في ذلك، وكان تمامُ فتحها وصعود العلم السُّلْطاني على قُلَّتها[٢] يوم الجمعة سادس عشره.

ثم عاد السلطان إلى الثَّقَل، وسَيَّر ولده الظاهر إلى قلعةٍ تسمى السُّرْمانية يوم السبت سابع عشره، فقاتلها قتالاً شديداً، وضايقها مضايقةً عظيمة، وتسلَّمها أيضاً يوم الجمعة ثالث عشري الشهر المذكور.

قال: فاتَّفق فتوحات السَّاحل من جَبَلَة إلى سُرْمانِيَّة في أيام الجُمَع، وهي علامة قَبُول دعاء خُطباء المسلمين، وسعادة السلطان، حيث يسَّر الله له الفتوح في اليوم الذي يُضاعف فيه ثوابُ الحسنات.

قال: وهذا من نوادر الفتوحات في الجمع المتوالية، لم يتَّفق مثلها في تاريخ.

وقال العماد: سار السُّلْطان ثاني يوم فَتْح صِهْيَوْن على سَمْتِ القُرَشِيَّة، ونزل على العاصي في طاعة الله على تَلِّ كَشْفَهان، فتسلَّم حِصْن بَكَاس يوم الجمعة تاسع الشهر، وحَوَّلَ خيمةً خفيفةً إلى الجبل لحصار قلعة الشُّغْر، وهي قُلَّة شامخة من أعلى القُلَل مُطِلَّة على وادٍ عميق، وكان الكُفَّار قد أَخْلَوْا بكَاس من الرُّعْب، واحتموا بقلعة الشُّغْر، وهي عاليةٌ حصينةٌ منيعة لا تصل المجانيق إليها، فاستصعب

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ١٧٠ ـ ١٧١: ذكر فتح حصن بكاس والشغر. وذكر فتح سرمينية.

(٢) القلّة: أعلى القلعة.

السُّلْطانُ أَخْذها، وخاف من طُول أمرها، فبينما هو مفكِّر في ذلك والفرنج قد داخلهم الرُّعْب، فأرسلوا في طلب الأمان، واستمهلوا ثلاثة أيام، فكَبَّر المسلمون وفرحوا، وأصبحوا يوم الجمعة والشُّغْر شاغر، والكُفْر صَاغر، فتسلَّمها المسلمون، وتصرَّفوا فيها وفيما تحويه من ذخائر وعُدَد ودواب وأنعام، وأَنْعَمَ السُّلْطان بها وبقلعة بكاس، وتلك الأعمال على غرس الدِّين قَليج، وكان هذا قليج قد تَسَلَّم كَفردُبِّين، وهو مَعْقِل حصين يسكنه الأرمن في ذلك الصُّقْع، وبُذِلَ في استخلاصه غاية الوسع، فولَّاه السلطانُ تلك الحصون، وحاط بإيالته أمرها المصون، وعاد إلى مُخَيَّمه يوم السبت، وهو حَسَنُ السَّمْت، كريم النَّعْت.

قال: وكان الملك الظَّاهر عند اشتغالنا بفتح قلعة الشُّغْر، قد نزل على سُرْمانِيَّة مضايقاً لها بالحَصْر، فتسلَّمها يوم الجمعة ثالث عشري الشَّهْر، وذلك بعد قطيعةٍ قَرَّرها وقبضها، ولما أخرجهم منها دخلها، فأبطل عِمارتها وعطَّلها، وهَدَمَ بُنْيانها وهَدَّ أركانها، وما بَرِحَ حتى سَوَّاها بالأرض، وخلط طولَها بالعَرْض.

قال: وهذه ستُّ مُدُنٍ وقلاع، فُتِحَتْ في ستّ جُمَع تِبَاع: جَبَلَة، واللَّاذقية، وصِهْيَوْن، وبَكاس، والشُّغْر، وسُرْمَانِيَّة، وأطلق بها الأنفس والنَّفائس العانية، فقد كان في هذه المعاقل من أُسارى المسلمين عِدَّة، لولا فَتْحَها لما زالت عنهم تلك الشُدَّة، وهذا أقليم جَبَلَة واللاذقية هو عين أنطاكية التي فُقِئت، ونحرها الذي عنه حُلِئَتْ[1]، ولم يبق لأنطاكية من الحصون سوى ثلاثة: القُصير وبَغْرَاس ودَرْبَسَاك، وقد أصبحت معدومة الأطراف، قد قُطِعَتْ أيديها وأرجُلها من خِلاف.

فصل

في فَتْح حِصْن بُرْزَيَه[2]

قال القاضي ابنُ شَدَّاد: ثم سار السّلْطان جريدةً إلى قلعة بُرْزيه، وهي قلعةٌ حصينةٌ في غاية القُوَّة والمَنَعَة على سن جَبَلٍ شاهقٍ يُضْرَب بها المَثَلُ في جميع بلاد الفرنج والمسلمين، يحيط بها أوديةٌ من سائر جوانبها، وذُرِع عُلُوُّ قُلَّتها، فكان خمسمائة ذراع ونيفاً وسبعين ذراعاً، ثم حَرَّرَ عَزْمَه على حصارها بعد رؤيتها، واستدعى الثَّقَل، فنزل تحت جَبَلها.

وفي بُكْرة الأحد الخامس والعشرين من جُمادىٰ الآخرة صَعِدَ السلطان جريدةً

(١) حُلئت: أي طُردت ومنعت.

(٢) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ١٧١ ـ ١٧٣: ذكر فتح برزية.

مع المقاتلة والمنجنيقات وآلات الحصار إلى الجبل، فأحدق بالقلعة من سائر نواحيها، وركَّبَ القتال عليها من كلِّ جانب، وضَرَب أسوارها بالمنجنيقات المتواترة الضَّرْب ليلاً ونهاراً، وقاتلها حتى كان يوم الثلاثاء السابع والعشرين، فقسم العسكر ثلاثة أقسام، ورَتَّب كُلَّ قسم يقاتل شَطْراً من النهار ثم يستريح، ويتسلَّم القتال الشَّطْرُ الآخر بحيث لا يفتر القتال عنها أصلاً.

وكان صاحبَ النَّوْبة الأُولىٰ عماد الدين صاحب سِنْجَار، فقاتلها قتالاً شديداً حتى استوفىٰ نَوْبته، وضَرِسَ النَّاسُ من القتال، وتراجعوا عنه.

وتسلَّم النَّوْبة الثانية السُّلْطان بنفسه، وركب، وتحرَّك خُطُوات عِدَّة، وصاح في النَّاس، فحملوا حملةَ الرَّجل الواحد، وصاحوا صيحة الرَّجل الواحد، وقصدوا السُّور من كلِّ جانب، فلم يكن إلا بعض ساعة حتى رَقِيَ النَّاسُ على الأسوار، وهجموا القلعة، وأُخذت عَنْوَةً، واستغاثوا الأمان وقد مُلِئتِ الأيدي منهم ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥]، ونُهِبَ جميع ما كان فيها، وأُسر جميع مَنْ كان بها، وكان قد أوى إليها خَلْقٌ عظيم، وكانت من قلاعهم المذكورة، وكان يوماً عظيماً.

وعاد النَّاس إلى خيامهم غانمين، وعاد السُّلطان إلى الثَّقَل، وأحضر بين يديه صاحب القلعة، وكان رجلاً كبيراً منهم، فكان هو ومن أُخذ من أهليه سبعةَ عَشَرَ نَفْساً، فَمَنَّ عليهم السلطان، وَرَقَّ لهم، وأنفذهم إلى صاحب أنطاكية استمالةً له، فإنهم كانوا يتعلَّقون به ومن أهله.

وقال العماد: وُصِفَ للسُّلْطان قلعة بُرْزَيه، وأنها لحصنِ أفامِيَة متاخمة، وله مناصفة مقاسمة، وأن المسلمين في جوارها في جَوْر، وفي حَوْر بعد كَوْر[1]، ووصفوا عُلُوَّها، فركب السُّلْطان إليها، وأشْرَفَ عليها، فألفاها كما وصفوها، وبالغوا فيها وما أنصفوها، فَنَصَب عليها المجانيق، فوقعت أحجارُها دونها، ولم تُحرِّكْ سكونَها، وكيف تُهَدَّد الخنساءُ بصَخْر، والعَنْقَاء بصَقْر، وحُجْرُ الجَبَلِ[2] بحَجَرٍ، ومَدَارُ الفَلَك بمَدَرٍ[3]؟

فلما رأى السُّلْطان ذلك قَوِيَ رأيه على أن يُفَرِّق العسكر ثلاث فِرَق، ويتناوبون علىٰ قتالهم زحفاً ليتعبوهم ويضجروهم، فإنه عَدَدٌ محصور عما قليلٍ تفنىٰ عُدَّتُهم وتَقِلُّ عِدَّتهم، ففعل ذلك، وكانت النَّوْبة الأُولى لصاحب سِنْجار،

---

(١) في حور بعد كور: أي في فساد بعد صلاح.

(٢) حُجْرُ الجبل: الغار.

(٣) المدر: الحجر.

والثَّانية للسُّلْطان وخواصِّه، ثـم امتزجت الثالثة بالثَّانية، وعادت رجالُ النوبة الأولى، وتناصرت أنصارُ الله على النِّزال لاستنزال النَّصْر، وأحمدوا عاقبة الصَّبْر في الحَصْر، فطلب العدوُّ الأمان، وأرسلوا إلى السلطان، وكان أصحابنا خالطوهم وباسَطُوهم، وأحاطوا بهم.

وهناك جماعة من دُهاة العسكر أشاعوا للنَّاس أن السلطان يُؤَمِّنهم، فرجع العالَمُ عنهم ولم ينالوا منهم، فلما رَدَّ السُّلْطان رسولهم ولم يؤمنهم ساق أولئك السَّبايا قُدَّامهم كما يسوقون أغنامهم، وخانوا إخوانهم وراموا حرمانهم، وتفرَّقوا بالسَّبْي أيدي سبأ، وسافروا بها من العسكر إلى البلاد، وباعوها في سوق الكساد، وتسلَّم السلطان حصن بُرْزَيَه، ظهر يوم الثلاثاء السابع والعشرين من جمادى الآخرة، وولَّاه الأمير عز الدين إبراهيم ابن الأمير شمس الدين محمد بن المُقَدَّم، وهو صاحب حصن أفامِيَة مناظر بُرْزَيه، وهو علىٰ الثَّغر، وما بين الحصنين، بحيرةٌ تَحْجُزُ الجانبين، وصَيَّادوها المسلمون بأفامية، فَخَلَص للإسلام الثَّغرُ، وسَكَنَ الدَّهْرُ.

قال: وكانت صاحبة حصن بُرْزَيَه أُخت زوجة الابرنس صاحب أنطاكية، وقد سُبِيَتْ وخُبِيت، فما زال يَطْلُبُها حتى أظهروها وأحضروها وزَوْجَها وابنةً لها وجماعةً من أصحابها وصهرها، وكانت امرأة ابرنس أنطاكية تُعرف بدام سبيل في مولاة السُّلْطان، عيناً له على العدوِّ، تهاديه وتُناصحه، وتطلعه على أسرارهم، والسُّلْطان يكرمها لذلك، ويهدي لها أنفس الهدايا. فلما فَتَحَ حِصْن بُرْزَيه، وحصل في أَسْرِهِ هذه الجماعة، وافترقت بهم أيدي المسلمين، تَتَبَّعهم السُّلْطان، وخَلَّصهم من الأسر، وأنعم عليهم، وجَهَّزهم، وسَيَّرهم إلى أنطاكية لأجل امرأة الابرنس، فشكرتْهُ على ذلك، ودامت مودَّتها ونفعها للمسلمين.

وفي بعض كتبِ البشائر العمادية: آخر ما فتحناه حِصْنَ بُرْزَيَه الذي تُضْرَب بحصانته الأمثال، ولا تَرْقَىٰ إلى ذُرْوة تمنِّيه الآمال، وقد أخذناه بالسَّيْفِ عَنْوَةً، وفتحناه ضحوةً، فيا لها ضحوة ليوم الثلاثاء أظلمت على أهل التثليث، وألهى الله المؤمنين عن ذكر الفتوح القديمة بحديث هذا الفتح الحديث، ولو وكَلَنا الله إلىٰ اجتهادنا في الفَتْح لتعذَّر، ولكنه سبحانه سَهَّل ويَسَّر.

ومن كتابٍ فاضلي إلى السُّلْطان: وصلَتْ كُتُبُ البشارة بفتح حِصْن بُرْزَيَه وهو الذي تُضْرَب به الأمثال، وتُضْرِبُ عنه الآمال، ويكاد يَحْرُنُ إذا قامت أيدي السَّلاسل أَزِمَّةَ الجبال، ويكاد يُذِمُّ ساكنيه من خَطَرات الأوجال بل من خُطوات الآجال، وكان للكُفْر دِرْعاً حصينةً طالما كانت تهزأ بالنِّصال، فعَظُمَتِ المِنَّة السُّلْطانية عند أهل الإسلام، ودعوا بأن يُفْلج الله حُجَّة سيفه الألد الخصام.

وقد كان النَّاس يَعُدُّون مواهبه مما لا تُحصى، فقد لحقت بها فتوحاتُهُ فهي أيضاً لا تُحْصَر، فمرحباً بفتوحٍ يقول غائِبُها: الحمد لله، وحاضِرُها: الله أكبر، وما بقي المملوك يستبطىء خبر أنطَاكية، فقد ألقتِ الأرضِ أفلاذَها، وقد ولدت لِكَرَمِهِ ذَهَبَها، ولِنَصْرِهِ فولاذَها، ولم نَرَ في نِعَم الله مِثْلَها نعمةً كريمة وجيهة، ولا نَعْرِفُ بعدها للزَّمنِ سيئة ولا كريهةً، إلا أنَّا نرجع في معرفة قَدْرِها، وإخلاص شُكْرِها إلى ما رضيه الله شكراً ممن نَجَّاه من أهوال يوم القيامة، وأدخله دار المُقَامة بأَنَّهم «قَالُوا الحَمْدُ للَّهِ الَّذي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَن» [فاطر: ٣٤]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٧٤]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣]، وكان «ءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ» [يونس: ١٠]. فَرَضِيَ بالحمد منهم، ورضي عنهم، وأَثْنَىٰ عليهم بأنهم اختتموا به وافتتحوا، وقَدَّسوا به وسَبَّحوا، وثَقُلَتْ به موازين أعمالهم فرجحت ورجحوا.

ونحن نقول: الحمد لله على بهجة الدُّنيا بمولانا ونَصْرتها، وعلى عِزَّة المِلَّة به ونُصْرتها، وعلى بهجة القُلُوب به ومَسَرَّتها، وعلى غنى الأيدي به ومِيرتها، وعلى روعة قلوب الأعداء به وحَسْرتها ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وفتوحُ مولانا من تلك النِّعَم وإن قَصَّرْنا في شُكْرِها فما نُقَصِّر في ذكرها، وإن عَجَزْنا عن حَصْرها فما نَعْجِزُ عن المعرفة بفضل قَدْرها، وتلك النِّعَم بحمد الله مُنْتَظِمَة العقود، مُطَّرِدَة السُّعود، متوافية الرُّسل، عامرة السُّبُل، خارقة العوائد، قارنة المساعي بالمساعد، كادت العيون قبل وقوعها، تَلْحَظُها، وكادت المنابرُ لما يُدْرَسُ عليها من كُتُبها تَحْفَظُها، فما يُشْرَحُ صدرٌ من خبرها فيسمعه ذو صَدْرٍ إلا انْشَرَحَ، وما يسأل النَّاسُ: هل فَتَحَ الملك النَّاصر، وإنما يقال ما اسم البلد الذي فتح، فمن عند مولانا الجَنَان، ومن عندنا اللِّسان، وعليه الجُهْد، وعلينا الحمد، فهي فتوحٌ كثمرات الجَنَّة لا مقطوعة ولا ممنوعة، وأعمالها المبرورة إلى الله تعالى مرفوعة.

ومن قصيدةٍ للشِّهاب فِتْيان الشَّاغُوري[1] وقد تقدَّم بعضُها: [الكامل]

لَـمَّـا مَـلَـكْـتَ حُـصـونَ أنـطـاكـيَّـةٍ ... يَـئِسَ الـصَّـلِـيبُ وحِـزْبُـهُ مـن مُـظْـهِـرِ
أَرْدَيْـتَ كُـلَّ مُـثَـلِّـثٍ مـتـكـبِّـرٍ ... بـمـوَحِّـدٍ مـتـواضِـعٍ فـمـكـبِّـرِ
بَـرَزَتْ إلـى بُـرْزَيْـه عَـزْمَـتُـك الـتـي ... مَـدَّت يـداً عـن مَـطْـلَـبٍ لـم يَـقْـصُـرِ

---

(١) هو فتيان بن علي بن فتيان بن ثمال الشاغوري الأسدي، شهاب الدين الدمشقي الحنفي، المتوفى سنة ٦١٥هـ، تقدّمت ترجمته في الجزأين الثاني والثالث.

فتناولته بأيدها من باذخ في الأفق ذي مثل يروع مسير
فانهد لصور فهي أحسن صورة في هيكل الدنيا بدت لمصور
ما سور صور عاصم منه وهل سور المعاصم عاصم لمسور

فصل

في فتح حِصْن دَرْبَسَاك(١)

قال القاضي ابنُ شَدَّاد: ثم سار السُّلْطان حتى أتى جسر الحديد، وأقام عليه أياماً، وسار حتى نزل على دَرْبَسَاك يوم الجُمُعة ثامن شهر رجب، وهي قلعةٌ منيعةٌ قريبةٌ، من أنطاكية ـ يَسَّرَ الله فتحها ـ فنزل عليها، وقاتلها قتالاً شديداً بالمنجنيقات، وضايقها مضايقةً عظيمةً، وأخذ النَّقْبُ تحت بُرْجٍ منها، وتمكَّن النَّقْب منه حتى وقع، وحموه بالرِّجال والمقاتلة، ووقف في الثَّغْرة رجالٌ يحمونها عمن يصعَدُ فيها.

قال: ولقد شاهدتهم، وكلما قُتِلَ رجلٌ منهم قام غيره مقامه، وهم قيام عوض الجدار مكشوفين، واشتدَّ الأمر حتى طلبوا الأمان، واشترطوا مراجعة أنطاكية، وكانت القاعدة أن ينزلوا بأنفسهم وثياب أبدانهم لا غير، ورَقِيَ عليها العَلَم الإسلامي يوم الجمعة أيضاً ثاني عشري رجب، وأعطاها عَلَم الدِّين سليمان بن جَنْدَر، وسار عنها من الغد بُكْرة السَّبت.

وقال العماد: ثم عَبَرَ نهر العاصي إلى شرقيِّه عند شقيف دَرْكُوش؛ وهو ثَغْرٌ على الفُرَات للإسلام منيع، فَجُزْناه، وخَيَّمنا على جسر الحديد أياماً حتى استكمل العسكر راحاته، وتكامل، ونحن بقُرْب أنطاكية، وقد صَوَّبْنا إليها عزائمنا النَّاكية، ثم قُلْنا: قُدَّامها حصون وحِماها بحمايتِها مصون، فإذا ذهبت معاقِلُها جاءتها غوائلها. فنزلنا على دَرْبَسَاك؛ وهو حِصْنٌ للدَّاوية، وقد اعتصموا بعِصْمَتِهِ، وامتنعوا بمنَعَته، فنصبنا عليه المنجنيقات، فما زالوا يجالدون ويجتلدون إلى أن ضاق بهم الخِناق، وتَسَلَّق النَّقَّابون إلى الباشورة، وهدُّوا بالنَّقْب بُرْجاً، ووسَّعوا للزَّحْف نَهْجاً، فطلبوا الأمان، وفدوا أنفسهم بألوف، فأُمِّنوا على أنهم يخرجون بهوانهم وثياب أبدانهم، ويَدَعون كُلَّ ما في الحِصْن من خيلٍ وعُدَّةٍ، وذخيرةٍ وغَلَّة، وأثاثٍ وقُماش، وذهب وفِضَّة، وأُمهلوا ثلاثة أيام، ثم أُخرجوا من ديارهم، وتَسَلَّم السُّلْطان الحِصْن يوم الجمعة الثَّاني والعشرين من رجب.

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/١٧٣ ـ ١٧٤: ذكر فتح درب ساك.

وفي بعض الكتب العمادية: المكاتبة مُبَشِّرةٌ بالفَتْح الأهنى والنَّصْر الأَسْنى، وهو فَتْحُ دَرْبَسَاك الذي لم يكن لأنطاكية إلَّا به الامتساك، وقد حُصَّ[١] الآن جَنَاحُها، وَفُلَّ سلاحُها، وحُقَّ قَرْحُها وبَطَلَ اقتراحُها، وخرجت بإخراج حصونها من ولايتها أرواحُها، وقد بقيت غَرَضاً للعَسْكَر، وعَرَضاً بلا جَوْهَر، وشَبَحاً بغير روح، وَصَدْراً غير مَشْرُوح، والكُفْر مفجوع بالنَّفْس والبلد، والأهل والولد، ونحن لا راحةَ لنا إلا في هذا التَّعب، ولا أَرَبَ لنا في غير هذا الأَرَب، ولا اجتهاد لنا إلا في الجهاد، ولا مَغْزَىٰ لنا غير الغَزَاة، وما نرجو من الله إلا إنجاز العِدَات في جميع العُداة.

فأصبحنا يوم الثلاثاء وقد ساء صباح المُثَلِّثين، وبان صباح الموحِّدين، وأَبَيْنَا أمانهم إلا أن يفدوا نفوسهم، وينزعوا من الحَرْب لبوسهم، ويخلعوا بأسهم ويلبسوا بوسهم، وينجوا بثياب أبدانهم، وقد أَدُّوا خمسةَ آلاف دينار من أثمانهم.

فصل

في فَتْح بَغْرَاس[٢]

قال القاضي ابنُ شَدَّاد: وهي أيضاً قلعة منيعة أقربُ إلى أنطاكية من دَرْبَسَاك، وكانت كثيرةَ العُدَّة والرِّجال، فنزل العسكر في مَرْج لها، وأحدق العسكر بها جريدةً مع أَنَّا احتجنا في تلك المنزلة إلى يَزَك[٣] يحفظ من جانب أنطاكية لئلا يخرج منها من يهجم على العسكر، فضرب يَزَكَ الإسلام على باب أنطاكية بحيث لا يشذُّ عنه من يخرج منها.

قال: وأنا ممن كان في اليَزَك في بعض الأيام لرؤية البلد، وزيارة حبيب النَّجَّار[٤] المدفون فيه ـ عليه السلام ـ ولم يزل يقاتل بَغْراس مقاتلة شديدة حتى طلبوا الأمان على استئذان أنطاكية، ورَقِيَ العَلَمُ السُّلْطاني عليها في ثاني شعبان.

---

(١) حُصَّ: انجرد وتناشر ريشه.

(٢) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ١٧٤: ذكر فتح بغراس.

(٣) اليزك: ومعناها الطلائع. وقد استعملها القلقشندي في صبح الأعشى ١٠/ ١١٠ بلفظ: «وتحريض الجند على تخير واقتفاء جيادها وبذل الجهد في قيامهم من الكراع واليزك والسلاح بما يلزمهم». وقيل: اليزك لفظة مغولية معناها القانون وفي التركية معناها المنع، أصلها: يا ساق. ومنها اليسقي واليسقجي وهو القواس الذي يحرس القناصل والسفراء ويحميهم (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص٣٦٥، وتأصيل الدخيل ص٢٠).

(٤) كان قبره يزار بأنطاكية، يقال: إنه نزلت فيه الآية الكريمة: **﴿وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى﴾** [يس: ٢٠] (معجم البلدان ١/ ٢٦٩).

وقال العماد: ولما فُتحت دَرْبَسَاك لم يبق لنا هِمَّة إلا بَغْراس، وقد شارف رجاء أكثر النَّاس في فتحه الياس، وهو حِصْنٌ حصين، ومكان مكين، هو للدَّاوية وِجارُ[١] ضِباعها، وغاب سِباعها، وهو بِقُرْب أنطاكية، حصارُه وحصارها سواء وما لداء داويَّته دواء.

فنزل العسكر بين أنطاكية وبينه، يتقاضون منهما للدِّين دَيْنَهُ، ويشنُّون الغارات، ويسنُّون النكايات، ولا يبرحون بإزاء أنطاكية صَفّاً يرومون لها ولأهلِها فتحاً وحَتْفاً، يتناوبون على سبيل اليَزك، ويَدْعون العِدَىٰ إلى المعترك، وليس بينهما إلا النَّهر.

فَصَعِدَ السُّلْطان جريدةً إلى الجبل، وأمر بنَصْب المجانيق حولها على تلك القُلَل، ونقل إليها أحواضَ الماء ورواياه، وبَثَّ في النَّواحي سَرَاياه، وفَرَّق على الجميع عطاياه، وأقمنا عليه أسبوعاً نجري إليه من كل منجنيقٍ من فيض الحجارة يَنْبوعاً، ونحن نفكر فيما يكون، ومتى تتم الحركة وفيمَ السكون، وهذا بيكارٌ[٢] يطول، وتَعَبٌ لا يزول، إذ رأينا بابَ الحِصْنِ وقد فُتِحَ، وخَرَجَ من الحِصْن من أَخَذَ الأمان لأهله، وَسلَّم الحصن بما فيه من الأموال، وقُدِّر ما فيه من الغَلَّة تخميناً باثني عَشَرَ ألف غِرارة، وسلَّمها السلطان مع دَرْبَسَاك إلى صاحب عَزَاز علم الدين سليمان بن جَنْدَر، وكتبتُ عليه جميع ما في القَلْعَتين من الموجود، من المكيل والموزون والمعدود.

وكانت الغَلَّة بأنطاكية غالية السِّعْر فقلتُ: كأني بمن تولَّى القلعة وقد باع الغَلَّة، وشفى من فقره بها الغُلَّة. ثم أشار بتخريبها وهَدْمها، ولم يلتزم بحكمها، وقال: إبقاؤها غَرَر، وحِفْظُها على المسلمين ضَرَرَ وخَطَر. فجاء الأمر على ما حسبتُه بعد سنين، وعاد إخلاؤها بمَضَرَّة المؤمنين، فإنه أظهر ذلك الوقت أنه أخلاها، وأنه للتخريب خلاها، فجاء إليها مُقَدَّم الأرمن ابن لاون فدخلها، وأَتَمَّ غارته وكملها، وذلك في سنة سَبْعٍ أو ثمان وثمانين.

وهذان الحِصْنان دَرْبَسَاك وبَغْراس كانا لأنطاكية جناحين، ولطاغية الكُفْر سلاحين، فَتَمَّ للسُّلْطان فَتْحُ هذه الحصون المذكورة، مع أبراجٍ ومغارات وشقفان كثيرة، حتى خلص ذلك الإقليم، وتم الفَتْحُ العظيم، وعادتِ الكنائس مساجد، والبيع معابد، والصَّوامع جوامع، والمذابح لعبدة الصُّلْبان مصارع.

(١) الوجار: جحر الضبع.

(٢) البيكار: كلمة فارسية معربة، تعني الحرب والحملة، والوقعة، وتجمع على بياكر.

فصـل

في عقد الهُدْنة مع صاحب أنطاكية وعَوْدِ السُّلطان[١]

قال العماد: كان السُّلْطان قد عزم على قَصْدِ أنطاكية، فرأى هِمَمَ الأجناد لا سيما الغُرَباء قد ضَعُفَتْ، ونيَّاتهم في الجهاد قد فَتَرَت، وتشوَّقوا إلى بلادهم، والرَّاحة من جهادهم، وكان صاحب أنطاكية قد أشرف على الهلاك، وعلم أنَّه إن قُصِدَ غُلِبَ، فَنَفَّذَ أخا زوجته رسولاً إلى السُّلْطان متذللاً، يطلب الهُدْنة على أنه يُطْلق مَنْ عنده من أُسارى المسلمين، وهم جَمْعٌ كثير، فعقدها معهم مُدَّة يسيرة؛ ثمانية أشهر من تشرين الأول إلى انقضاء أَيَّار، فيكون انقضاء الهدنة قبل إدراك الغَلَّة وأوان حصادها، فيستريح فيها الأجناد ويعودون بعدها إلى فَرْض الجهاد، فَتَمَّ كتابُ الهُدْنة، وتوجَّه شمس الدولة ابن منقذ[٢] لتخليص الأَسْرىٰ وإنقاذهم منه.

وقال القاضي ابنُ شَدَّاد: وفي بقية ذلك اليوم ـ يعني يوم فتح بَغْراس ـ وهو ثاني شعبان عاد السُّلْطان إلى المخيَّم الأكبر، وراسله أهل أنطاكية في طلب الصُّلْح، فصالحهم لشدَّة ضجر العسكر، وقوة قلق عماد الدين صاحب سِنْجار في طلب الدستور. وعُقِدَ الصلح بيننا وبين أهل أنطاكية لا غير على أن يطلقوا جميع أُسارى المسلمين الذين عندهم، وكان إلى سبعة أشهر، فإن جاءهم مَنْ ينصرهم وإلا سَلَّموا البلد إلى السُّلْطان.

ثم رحل عنه يطلب دمشق، وسأله ولده الظَّاهر صاحب حلب أن يجتاز به، فأجابه، فدخلها في حادي عشر شعبان، وأقام بقلعتها ثلاثة أيام. ثم سار إلى دمشق، فاعترضه ابنُ أخيه تقي الدين، وأصعده إلى قلعة حماة، وبات بها ليلةً واحدة، فأعطاه جَبَلَة واللاذقية. وسار إلى بَعْلَبَكَّ، وأقام ببُرْجها يوماً، ودخل حَمَّامها، ثم أتى دمشق، فأقام بها حتى دخل شهرُ رمضان، وما كان يرى تبطيل وقته عن الجهاد مهما أمكنه. وكان قد بقي له من القلاع القريبة من حَوْران التي يخاف عليها من جانبها صفد وكَوْكَب، فرأى أن يشغل الزمان بفتح المكانين في الصوم.

وقال العماد: ووَدَّع السُّلْطان عمادَ الدين صاحب سِنْجار والعساكر الغريبة، وأتحفهم بالتُّحَف العجيبة، وارتاح إلى العبور على أرتاح، ووصل إلى حلب وقد

---

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ١٧٤ ـ ١٧٥: ذكر الهدنة بين المسلمين وصاحب أنطاكية.

(٢) هو الأمير أبو الحارث عبد الرحمن بن محمد بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ ابن أخي أسامة بن منقذ الشاعر المشهور، ولد في شيزر سنة ٥٢٣هـ، وتوفي بالقاهرة سنة ٦٠٠هـ (الوافي بالوفيات ١٨/ ٢٥١ ـ ٢٥٢).

خرج كُلُّ مَنْ بها للتَّلَقِّي، مستبشرين بالإقبال المتضاعف المترقِّي، وشاهدنا من النَّظَّارة عيوناً للمحاسن ناظرة، ووجوهاً ناضرة، وقلوباً حاضرة، وأَلْسُناً شاكرة، وأيدياً في بَسْطها إلى الله للابتهال بالدُّعاء متظاهرة، فأقام بقلعتها أياماً يسيرة، وألفى ولدَه الظَّاهر قد سار فيها أحسن سيرة.

ثم سار منها على طريق المَعَرة، وقصد زيارة الشيخ الزَّاهد أبي زكريا المَغْرِبي عند مشهد عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ فتبرَّك بزيارة الميت والحيِّ، ثم وصل إلى حماة، فنزل بقلعتها ومعه أمير المدينة النَّبوية على ساكنها السَّلام، وهو عِزُّ الدين أبو فُلِيتة القاسم بن المهنَّا، وكان للسُّلْطان في جميع الغزوات مصاحباً، وعلى معاضدته مواظباً، وما حَضَرَ معنا على بلدٍ أو حِصْنٍ إلا فتحناه، وكان السلطان يستوحش لغيبته، ويأنس بشيبته، وكان بجنب السُّلْطان جالساً، ولنظره عليه حابساً.

وكانت قلعة حماة ذات تلٍّ منبطح، فلما تولاها تقي الدِّين رفع تَلَّها، وعَمَّق خندقها وحَصَّنها، فطلع السُّلْطان تلك الليلة إلى القلعة، وسُرَّ بما رأى من الحصانة والرِّفْعة، ووقف الملك المُظَفَّر لعمِّه، وجرى في الخدمة على رَسْمه، وأصبح السُّلْطان راحلاً، ولم يقم بحمص، وجاء إلى بَعْلَبَكَّ على طريق الزَّرَّاعة واللَّبوة، ووصل إلى دمشق قبل رمضان، وأُشير على السلطان بأن يريح عسكره، فقد أحمد في عامِهِ موردَه ومَصْدَرَه، وأربح في سبيل الله متجره، فقال: إن القدر غيرُ مأمون، والعمر غير مضمون، وللفُرَصِ أوقات، وللدَّهْر آفات، وقد بقيت مع الكُفْر هذه الحصون، وإن لم نبادرها اختلَّ أمرُنا المصون، لا سيما صفد وكَوْكَب فإنهما للدَّاوية والإسبتارية في وسط البلاد، والثُّغور الإسلامية بهما واهية السِّداد، فنخرج ونشتو عندهما، ونقصد قصدهما، فإذا فتحناهما خَلَصَت هذه البلاد، وَصَفَتِ الأوراد.

قال: فما لبث السلطان ولا مكث، ولا نقض عهد عزمه على الغَزَاة ولا نكث، وقال: لا نُبَطِّل الغَزْوة، ولا نُعَطِّل هذه الشَّتوة.

فصل

في فتح الكَرَك وحُصُونه(١)

قال العماد: ووردتِ البُشْرى بِنُجْحِ الدَّرَك في تسليم حِصْن الكَرَك، وذلك أنها في مُدَّة غيبتنا في بلاد أنطاكية لم تعدم من محاصرتها المضايقة النَّاكية. وكان

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ١٧٥ ـ ١٧٦: ذكر فتح الكرك وما يجاوره.

الملك العادل أخو السلطان مقيماً بِتِبْنِين في العساكر، محترزاً على البلاد من غائلة العدوِّ الكافر، أقامه السلطان هنالك عند توجهه إلى البلاد الشَّمالية لقصد جَبَلَة واللاذقية، فأقام بتِبْنين مقوياً للأمراء المرتَّبين على الحصون، حافظاً على الدَّهْماء بحركته في الأمور عادة السكون، وكان صهره سَعْد الدين كَمَشْبَه بالكَرَك موكَّلاً، وبأهله مُنَكِّلاً، قد غَلِقَ رَهْنُه، وبقي داؤه مُعْضِلاً، وأمره مشكلاً حتى فنيت أزوادهم، ونَفِذَتْ موادُّهم، ويئسوا من نجدةٍ تأتيهم، وأمحلَتْ عليهم مصايفهم ومشاتيهم، فتوسَّلوا بالملك العادل، وأبدوا له ضراعة السَّائل، فما زالت الرسالات تتردَّد، والاقتراحات تتجدَّد، والقوم يلينون والعادل يتشدَّد، حتى دخلوا في الحكم، وخرجوا على السلم، وسلَّموا الحصن وتَحصَّنُوا بالسَّلامة، وخلصوا بإقامة عُذْرهم عند قومهم من المَلَامة، وتسلَّم سعد الدين بعدها الحصون التي بقُرْبها كالشَّوْبك وهرمز والوَعْر وسَلْع.

وقال القاضي ابنُ شَدَّاد: وفي أثناء شهر رمضان سُلِّمت الكَرَك من جانب نُوَّاب صاحبها، وخَلَّصوه بها من الأسر، وكان أُسِرَ في وقعة حِطِّين المباركة.

وكتب العمادُ في بعض البشائر: سُلِّم حِصْن الكَرَك، وهو الحصن الذي كان طاغيته يحدِّث نفسه بقصد الحجاز، وقد نَصَبَ أشراك إشراكه منه على طُرُق الاجتياز، فأذقناه عام أول كأس الحِمام، وملكنا حِصْنَه الذي كان يعتصم به في هذا العام، واضطرّ الكُفْر في إسلامه إلى الإسلام، وَتَمَّ بحل هذا البيت أمن البيت الحرام.

وكتب القاضي الفاضل إلى السلطان شفاعةً: أدام الله سُلْطان مولانا الملك النَّاصر وثَبَّته، وتَقَبَّل عَمَلَه بقَبُول حسنٍ وأنبته، وأخذ عَدُوَّه قائلاً أو بَيَّته، وأرغم أنفه بسيفه وكَبَتَهُ.

خدمةُ المملوك هذه واردة على يد فلان، خطيب عَيْذاب، ولمَّا نَبَا به المنزل منها، وقَلَّ عليه المرفق فيها، وسمع بهذه الفتوحات التي طَبَّق الأرضَ ذِكْرُها، ووجب على أهلها شُكْرُها، وحصل لمن جَرَتْ على يده أجرُها، هاجر من هجير عَيْذَاب ومِلْحها، سارياً في ليلة أملٍ كلُّها صباح، فلا يسألُ عن صُبْحها، وقد رَغِبَ في خطابة الكَرَك، وهو خطيب، وتوسَّل بالمملوك في هذا الملتمس وهو قريب، ونَزَع من مِصْر إلى الشام، ومن عيذاب إلى الكَرَك وهو عجيب، والفقر سائق عنيف، والمذكور عائل ضعيف، ولُطْفُ الله تعالى بالخَلْق بوجود مولانا لطيف، ورأيه أعلى إن شاء الله تعالىٰ.

فصل

في فتح صَفَد[1]

قال القاضي ابنُ شَدَّاد: ثم سار في أوائل رمضان من دمشق يريد صفد، ولم يلتفت إلى مفارقة الأهل والأولاد والوطن، في هذا الشهر الذي يسافر الإنسان أين كان ليجتمع فيه بأهله، فأتاها وهي قلعةٌ منيعة، قد تقاطعت حولها أودية من سائر جوانبها، فأحدق العسكرُ بها، ونُصِبَتْ عليها المجانيق، وكانت الأمطار شديدة، والوحول عظيمة، ولم يمنعه ذلك عن جِدِّه.

ولقد كنتُ ليلةً في خدمته، وقد عَيَّن مواضع خمسة مجانيق حتى تُنْصَبَ، فقال في تلك الليلة: ما ننام حتى ننصب الخمسة. وسَلَّم كلَّ منجنيق إلى قوم، وَرُسُلُه تتواتر إليهم يخبرونه، ويعرِّفونهم كيف يصنعون، حتى أطلَّنا الصباح، وقد فرغت المنجنيقات، ولم يبق إلا تركيب خنازيرها فيها، فرويتُ له الحديث المشهور في الصِّحاح، وبَشَّرْتُهُ بمقتضاه، وهو قوله ﷺ: «عَيْنان لا تَمَسُّهُما النار: عينٌ باتت تَحْرُسُ في سبيل الله، وعَيْنٌ بكت من خشية الله»[2].

قال: ولم يَزَلِ القتالُ متواصلاً بالنُّوَب مع الصوم، حتى سُلِّمت بالأمان في رابع عشر شَوَّال.

وقال العماد: لما خرج السُّلْطان من دمشق صَحِبَه الفاضل، وجعل طريقه على مرج بُرْغُوث، وعَبَرَ مخاضة الأحزان، وجاء إلى صَفَد، وقد لان مَنْ فيها من الفرنج وزادُهُم نفد، فنزل عليه في العَشْر الأوسط من رمضان، فضايقها، ونَصَبَ المجانيق إلى أن سَلَّمها مُقَدَّمها في ثامن شَوَّال بالأمان، وراح إلى صور.

وقد كانوا عدموا القوت، ووجدوا الموت الموقوت، وعلموا أَنَّهم إنْ لم تخرج صفد من أيديهم، دخلت أرجُلُهم في الأصفاد، فتبرَّؤوا من الجدار والجلاد. وإنها كانت في عين الإسلام قَذًى، لا يتوقع منها على الأيام إلا مَضَرَّة وأذًى،

---

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ١٧٦: ذكر فتح قلعة صفد.

(٢) أخرجه الترمذي في فضائل الجهاد باب ١٢، حديث ١٦٣٩، والهيثمي في مجمع الزوائد ٥/ ٢٨٨، والمنذري في الترغيب والترهيب ٢/ ٢٤٨، ٤/ ٢٢٥، ٢٣٠، والسيوطي في الدر المنثور ١/ ٢٤٦، والتبريزي في مشكاة المصابيح ٣٨٢٩، وابن حجر في المطالب العالية ١٩٨٩، ١٩٩٠، والبغوي في شرح السنة ١٠/ ٣٥٥، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٢/ ٣٦٠، والمتقي الهندي في كنز العمال ٥٨٧٥، وابن كثير في تفسيره ٢/ ١٧٥، وابن عدي في الكامل في الضعفاء ٦/ ٢٢١٢.

فَسَهَّلَ الله صَعْبَها، وأوطأ هِضَبَها، وَكَشَفَ عنِ البلاد كَرْبَها، وقذف في قلوب أهلها رُعْبها، فخرجوا مُذعنين، واستسلموا مُسَلِّمين، وتَبَرَّؤوا من حصنهم، ونزلوا بهَوَانهم ووهنهم، وأحضروا رهائنهم، للاستمهال في نَقْلِ متاعهم، وندموا على ما كان من امتناعهم.

قال: واجتمع الفرنج بصور، ونحن نُضايق حِصْنَ صفد، وقالوا: متى فُتِحَتْ صفد، فإن كَوْكَب لا تمتنع، وأملُنا عن حفظها ينقطع، والرأي أن نجرِّد لها نجدة، فلعلها تثبت إلى أن توافينا من البحر ملوكنا.

فَسَيَّروا مائتي رجل، فتفرَّقوا في تلك الأودية، يكمنون في الشِّعاب والهضاب، واتفق أن أميراً من أصحابنا خرج متقنِّصاً، فوقع أحدُهم في قَنَصِهِ، وحصل طائرٌ منهم في قَفَصه، فاستُغْرِبَ وجودُه في ذلك المكان، فهدَّده وتوعَّده، وأقامه للعذاب وأقعده، حتى دلَّ على مكمن ذئابه، فما أَحَسُّوا إلا بصارم الدين قيماز النَّجْمي وأجناده وقد بركوا عليهم في آكَام ذلك الشِّعْب ووهاده، فتلقَّطُوهم من كلِّ غارٍ وَوِجَارٍ، ولم يهتدِ أحدٌ من أولئك الضُّلَّال إلى نهج فرار، فما شعرنا ونحن على صفد للحصار حتى وصل صاحب قايماز بالأسارى مُقَرَّنين في الأصفاد، مقودين في الأقياد، وكان فيهم مقدَّمان من الإسبتار، وقد أشفيا على التَّبَار، فإنَّ السُّلْطان ـ رحمه الله ـ ما كان يبقي على أحدٍ من الإسبتارية والدَّاوِيَّة.

فأُحضرا عند السُّلْطان للمَنِيَّة، فأنطقهما الله بما فيه حياتُهما، وناجياه بما به نجاتُهما وقالا عند دخولهما: ما نظنُّ أننا بعدما شافهناك يلحقنا سُوء. فعرفتُ أن بقاءهما مرجو، فمال إلى مقالهما، وأمر باعتقالهما، فإنَّ تلك الكلمة حَرَّكت منه الكَرَم، وحقنت منهما الدَّم، وفتح الله علينا صفد ثامن شوال حين فرغنا من صوم ستٍّ منه بعد صوم رمضان، وجمعنا بين فضيلتي الصَّوْم والجهاد، وسُلِّمت قلعة صفد إلى شجاع الدين طُغْرُل الجانْدَار، واستبشرنا بانعكاس ما أحكمه الكُفَّار.

فصل

في فَتْحِ حِصْن كوكب(١)

قال القاضي ابنُ شَدَّاد: ثم سار ـ رحمة الله عليه ـ يريد كوكب، فنزل على سَطْحِ الجبل، وجَرَّدَ العسكر، وأحدق بالقلعة، وضايقها بالكُلِّيَّة، بحيث اتخذ له

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/١٧٦: ذكر فتح كوكب.

موضعاً يتجاوزه نُشَّاب العَدُوِّ، وبنىٰ له حائطاً من حجارةٍ وطين يستتر وراءه، والنُّشَّاب يتجاوزه ولا يقدر أحدٌ يقف على باب خيمته إلا أن يكون مُلْبِساً[١]، وكانتِ الأمطارُ متواترةً، والوحول بحيث تمنع الماشي والرَّاكب إلا بمشقَّةٍ عظيمة، وعانى شدائد وأهوالاً من شِدَّة الرِّياح، وتراكم الأمطار، وكون العدو متسلِّطاً عليهم بعلوِّ مكانه، وجُرِحَ وقُتِلَ جماعة، ولم يزل راكباً مركب الجِدِّ ـ رحمه الله ـ حتى تمكَّنَ النَّقْب من سُورها.

ولما أَحَسَّ العدوُّ المخذول بالنَّقْب وقد تَمَكَّن من السُّور، عَلِمَ أنه مخذول مأخوذ، فطلب الأمان، فأَمَّنهم، وتسلَّمها في منتصف ذي القَعْدة، ونَزل إلى الغَوْر إلى الثَّقَل، وكان قد أنزل الثَّقَل من شِدَّة الوحل والرِّيح في سطح الجبل.

وقال العماد: وجئنا إلى كوكب، ووجدناها في مناط الكوكب، كأنَّها وكر العَنْقاء، ومنزل العَوَّاء، قد نزلتها كلابٌ عاوية، ونزغت بها ذئابٌ غاوية، وقالوا: لو بقي منا واحد لَحَفِظَ بيت الإسبتار، وخَلَّصه إلى الأبد من العار، ولا بُدَّ من عَوْد الفرنج إلى هذه الدِّيَار، فنتشدَّد للانتظار.

ثم وصف القتال بالرَّمي والمنجنيق، والنَّقْب والتعليق، والحفر والتعميق، والحَصْر والتضييق.

ثم قال: وكان الوقتُ صعباً، والغَيْثُ سَكْباً، وتكاثرتِ السُّيول، وتكاثفتِ الوحول، ودامتِ الدِّيَمُ لدموعها مريقة، وبقيت الخِيَم في الطِّين غريقة، وكُنَّا في شغلٍ شاغل من تَقَلُّع الأوتاد وتوتد الأقدام، ووهاء الأطناب ووقوع الخيام، وقد عادت الخيام مناخل الأنداء، والأنوارُ معدومةٌ لوجود الأنواء، وماء الشُّرْب مفقودٌ مع سيول الماء، والرَّواحل في الطِّين باركةٌ، وهي للعَلَفِ تاركة، والطريق زَلِقَة لَزِقة، وهي مع سَعَتها ضَيِّقة.

فنقل السُّلْطان خيمته إلى قُرْب المكان، لتقريب وجوه الإمكان، وبنى له من الحجارة، ما صار له كالسِّتارة، ونزلت الأثقال والخيم إلى أسفل التَّلِّ بالغَوْر.

وأقام السلطان على محاصرة الحِصْن ومُصابرته، ونحن نركبُ إليه من الخيام، بُكْرةً وعَشِيَّة للسَّلام، وتنفيذ المهام، حتى بلغ الرِّجال أماكن النُّقُوب، وتمكَّنَ لهمُ المطلوب، فَشَرَع الكَفرة في التذلُّلِ، وسَلَّموا الحِصْن بالأمان، وعَرَضَه على جماعةٍ، فلم يقبل ولايته أحد سوى قايماز النَّجْمي على كُرْهٍ منه، وذلك في منتصف ذي القَعْدة، ونَزَل السُّلْطان إلى المخيَّم بالغَوْر.

(١) أن يكون ملبساً: أي لابساً الدرع، من اللَّبوس، وهي الدرع تلبس في الحرب.

ومن كتاب فاضلي إلى سَيْفِ الإسلام باليمن عن السُّلْطان: مما تجدَّد بحضرتنا فَتْحُ كوكب وهي كُرْسِيُّ الإسبتارية، ودارُ كُفْرهم، ومستقرُّ صاحب أمرهم، ومَوْضِعُ سلاهم وذخرهم، وكان بمجمع الطُّرُقِ قاعداً، ولملتقى السُّبُلِ راصداً، فَتَغَلَّقَتْ بفتحه بلادُ الفتح واستوطنت، وسُلِكَتْ طُرُقها وأُمِنَتْ، وعُمِرَتْ بلادُها وسُكِنت، ولم تبق في هذا الجانب إلا صور، ولولا أَنَّ البحر ينجدها، والمراكب تَرِدُها، لكان قِيادُها قد أمكن، وجِماحُها قد أذعن، وما هم ـ بحمدِ الله ـ في حِصْنٍ يحميهم، بل في سجنٍ يحويهم، بل هم أسارى وإن كانوا طلقاء، وأمواتاً وإن كانوا أحياء. قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾ [مريم: ٨٤].

وكان نُزولُنا على كَوْكَب بعد أن فتحنا صَفَد، بلد الديوية المصونة، وفتحنا الكَرَك وحُصُونه، والمجلس السَّامي أعلم بما كان على الإسلام من مؤنته المثقلة، وقضِيَّته المُشْكِلَة، وعِلَّته المُعْضِلة، والله تعالىٰ المشكور على ما طَوَىٰ من كلمة الكُفْر، ونَشَرَ من كلمة الإسلام، فإنَّ بلاد الشَّام اليوم لا يُسْمع فيها لَغْو ولا تَأْثيم إلا قِيلاً سلاماً سلاماً[1]، فادخلوها بسلام[2].

وكان نزولنا على كَوْكَب والشِّتاء في كوكبه، وقد طلع من الأنواء في موكبه، والثلوجُ تنشر على الجبال مُلأَها، والأودية قد عَجَّت بمائها، وفاضت عند امتلائها، فَشَمَخَتْ أنوفُها سيولاً، فخرقتِ الأرض وبلغتِ الجبالَ طُولاً، والأوحالُ اعتقلت الطُّرقات، ومشىٰ المُطْلَق فيها مشيةَ الأسير في الحَلَقات، فتجشَّمْنا العَنَاء نحن ورجالُ العساكر، وكابرنا العدوَّ والزمانَ، وقد يحْرِزُ الحَظَّ المكابِرُ، وعَلِمَ الله النِّيَّة فأنجدها بفعلها، وضميرَ الأمانة فأعانَ على حَمْلِها، ونزلنا من رؤوس الجبال منازل كان الاستقرارُ عليها أصعبَ مِنْ نقلها.

ثم قال: والآن فالمجلس السَّامي يعلم أن الفرنج لا يَسْلُون عما فتحنا، ولا يصبرون على ما جرحنا، وأنهم ـ لعنهم الله ـ أَمَمٌ لا تحصى، وجيوش لا تُسْتَقصىٰ، و﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]، و﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧]، وما هم إلا كلابٌ قد تعاوَتْ، وشياطين قد تغاوت، وإن لم يُقْذَفوا من كل جانبٍ استأسدوا واستكلبوا، وكانوا لباطلهم الدَّاحض أنصر منا لحقِّنا النَّاهض.

وكَتَبَ المستخدمون بالإسكندرية وصاحب قُسْطَنْطينية والثغور المغربية يُنذرون بأن العدوَّ قد أجمع أمراً، وحاول نُكْراً، وغضبوا زادهم الله غضباً،

---

(١) مأخوذ من قوله تعالى: ﴿**لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيم إلا قيلاً سلاماً سلاماً**﴾ [الواقعة: ٢٥].
(٢) مأخوذ من قوله تعالى: ﴿**ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود**﴾ [ق: ٣٤].

وأوقدوا ناراً للحرب جعلها الله عليهم حطباً، وسَلُّوا سيوفاً للبغي لا يبعد أن يكونوا أغمادها، وتواعدت جموعُ ضلالتهم أخلف الله ميعادها.

وأما نحن فبالله ندفع ما نطيق وما لا نطيق، وإليه نرغب في أن يُثَبِّتَ قلوبنا إذ كادت تزيغ قلوبُ فريق. ونحن الآن نستجذبُ أخانا، وندعوه إلى ما له دُعينا، ونؤمِّل من الله أن ينصرنا دُنيا ودِيناً، وأن يمدَّنا بنفسه سريعاً، وبعسكره جميعاً، وبذخره الذي كان لمثله مجموعاً، وأن يلبِّيها دعوةً؛ إما أن يطيع بها رَبَّه، لأنها دعوته، وإما أن ينصر بها نبيَّه ﷺ، فإنها شريعتُه، وإما أن يعينَ بها أخاه؛ فإنها شِدَّة الإسلام لا شِدَّتُه.

هذا، وإن كان المجلس قد قعد عَنَّا، ولم يَعُدْنا في مرض الأجسام، فلا يقعد عَنَّا في مرض الإسلام، فالبِدَار البِدَار، فإن لم يكن الشَّام له بدار، فما اليمن له بدار، والجَنَّة الجنةَ؛ فإنها لا تُنال إلا بإيقاد الحرب على أهل النَّار، والهِمَّةَ الهِمَّة، فإنَّ البحار لا تُلْقىٰ إلا بالبحار، والملوك الكبار لا يقف في وجوهها إلا الملوك الكبار.

وفي هذه السنة ننزل على أنطاكية، وينزل ولدنا المُظَفَّر تقي الدِّين أَطْرَابُلُس. ويستقرُّ الرِّكاب الملكي العادلي بمصر لأنها مذكورة عند العدو. وأنها تُطْرَقُ، وأنَّ الطَّلَب على مِصْر والشَّام منه يُفْرَق، ولا غنى عن أن يكون المجلس السَّيْفي بحراً في بلاد السَّاحل يزخر سلاحاً، ويجرِّد سيفاً يكون على ما فتحنا قُفْلاً، ولِمَا لم يُفْتح مِفْتاحاً، وما يُدْعى للعظيم إلا العظيم، ولا يرجىٰ لموقف الصَّبْر الكريم إلا الكريم.

هذا، والأقدار جارية، ومشيئة الله ماضية، فإن يشأ ينصرنا على العدد المُضَعَّف بالعددِ الأَضْعَفِ، فإنَّا لا نرتاب بأَنَّ الله تعالىٰ ما فتح علينا هذه الفتوح لِيُغْلِقَهَا، ولا جَمَعَ علينا هذه الأُمَّة ليفرِّقَها، وإنما نؤثر أن يتساهَم آل أيوب في ميراثهم منه مواقف الصَّبْر، ومطالع النَّصْر، ولا يسرُّنا أن ينقضي عمره في قتال غير الكافر، ونزالِ غير الكُفُؤ المناظر، فإنما هي سفرةٌ قاصدة، وَزَجْرَةٌ واحدة، فإذا هو قد بَيَّض الصحيفة والوجه والذكر، فليحضُر وليشاهد أولاداً يَسْتَشْعِرونَ لفراقه غَمَّاً، قد عاشوا ما عاشوا ولا يعرفون أن لهم مع عَمِّهم عَمَّا.

وله إليه من كتابٍ آخر، وكأنه بعد اعتذاره عن الحضور: المولى على حسب اختيارِهِ، وإن سار فمثله من سار وسَرَّ، وقاد الجيش وجَرَّ، ونفع الوليَّ وضَرَّ العدوَّ الذي أضَرَّ، وإن أقام فالعُذْر الذي أقعده، وإشفاق السلطان ـ عَزَّ نَصره ـ الذي رَدَّه عن وجهه، والرأي الذي رَدَّدَه، فلا يكن في صدره من الأمرين حَرَج، ولا يَخَف

استقصار عزمه إن رَكَدَ أو خرج، فمكانه مكانه من القلب، ووِدُّه وُدُّه، وله من اللِّسان حَمْدُه، وهو سيف الإسلام إن ضُرِب بحدِّه، أو صِينَ في غمده، لا زال المولى منوَّهاً باسمه، وَمُرَفَّهاً في جسمه، ومجرِّداً سَيْفَ عزمه، وسعيداً بحكم التوفيق فلا خرج التوفيق عن حُكْمه.

ومن كتاب عماديٍّ إلى الديوان بفتح الكَرَك والشَّوْبك وصَفَد وكَوْكَب يقول فيه: والآن فقد خَلَّص جميع مملكة القُدْس، وحَدُّها في سَمْتِ مصر من العريش، وعلى صوب الحجاز من الكَرَك والشَّوْبك، وتشتمل على البلاد السَّاحلية إلى منتهى أعمال بيروت، ولم يبق من هذه المملكة إلا صور.

وفتح أيضاً جميع إقليم أنطاكية ومعاقلها التي للفرنج والأرمن، وحَدُّه من أقصى بلاد جَبَلَة واللاذقية إلى بلاد ابن لاون، وبقيت أنطاكية بمفردها، والقُصَير من حُصونها، ولم يبق من البلاد التي لم تفتح أعمالها، ولم تَحُل عما كانت عليه حالُها سوى طَرَابُلُس، فإنها لم يفتح منها إلا مدينة جُبَيْل، وقد سحبت عليها المُهلة الذَّيل، ومعاقلها باقية، وليس لها من عذاب الله الواقع واقية.

والخادم الآن على التوجُّه إليها، وعَزْم النزول عليها، وأنه قد رتَّب الجانب القِبْلي والبلد القُدْسي، وشحن الثغور من حَدِّ جُبيل إلى عَسْقلان بالرِّجال والأموال، وآلات العُدَد والعَدَد المتواصل، المَدَد، ورَتَّب فيها ولده الأفضل علياً لحمايتها، وحفظ ولايتها، وقَلَّد ولده العزيز عُثمان ولاية مِصْر ومملكة أقاليمها، لتهذيب أحوالها وتقويمها.

فصل

في باقي حوادث هذه السَّنة

[مسير الملك العادل والقاضي الفاضل إلى مصر]

قال العماد: ولما فرغ السُّلْطان من شغل القلاع، ونَزَل إلى الوهاد من التِّلاع، تجدَّدَ للأَجَلِّ الفاضل عزم مصر، فركب السُّلْطان معه للوداع، ثم تحوَّل إلى صحراء بَيْسان، وأقام بها إلى مستهل ذي الحِجَّة، ثم رحل يوم الجمعة مستهل الشهر ومعه أخوه العادل، وسلكا طريق الغَوْر إلى القُدْس، ووصله يوم الجمعة ثامن الشهر، وهو يوم التَّرْوية، وصَلَّى الجمعة في قُبَّة الصَّخْرة، وعَيَّد بها يوم الأحد الأضحى، وسار يوم الاثنين إلى عَسْقلان للنَّظر في مهامِّها، ونَظْمِ أسباب أحكامها، ثم أذن للعادل في العَوْدِ إلى مِصْر لمساعدة ولده

العزيز، وودَّعه، وأعطاه الكَرَك، وأخذ منه عَسْقلان، قاله ابن شداد. ورحل على سَمْتِ عَكّا بعسكره، موفَّقاً في مورده ومَصْدَرِه، فما عَبَر ببلدٍ إلا قَوَّىٰ عُدَده، وكَثَّرَ عَدَده.

وانفصل العمادُ عن خدمته إلى دمشق عند رحيله من بَيْسان لعارِضِ مرضٍ سَلَبَهُ الإمكان، وما زال منفصلاً عنه إلى أن وصل السُّلْطان دمشق بعد شهرين مستهل صَفَر من السَّنة الجديدة.

[وفاة الأمير الشاعر أسامة بن منقذ]

وفي هذه السنة في الثالث والعشرين من رمضان توفي الأمير مجد الدين مُؤَيَّد الدَّوْلة أُسامة بن مُرْشد بن علي بن منقذ[1]، وكان مولده بشَيْزَر سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، فبلغ عمره ستاً وتسعين سنة.

[وفاة الحافظ أبي بكر محمد بن موسى الحازمي]

وفيها في الثَّامن والعشرين من جُمادى الأُولىٰ توفي الحافظ أبو بكر محمد بن موسى بن عُثْمان بن حازم الحازمي الهَمَذاني[2] ببغداد، صاحب المصنَّفات على صِغَرِ سِنِّه، منها «العُجَالة»[3]، و«النَّاسخ»[4] وغيرهما. ومولده سنة ثمانٍ أو تسع وأربعين وخمسمائة، رحمهما الله تعالى.

---

(١) هو أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني الكلبي، مؤيد الدولة، مجد الدين، أبو المظفر الشيزري، ولد سنه ٤٨٨هـ، وتوفي بدمشق سنة ٥٨٤، من تصانيفه: «أزهار الأنهار»، «البديع في علم البلاغة»، «التجاير المربحة والمساعي المنجحة»، «ديوان شعره»، «كتاب الاعتبار»، (كشف الظنون ٥/ ١٩٦، «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ٤٩٨ ـ ٥٤٧، معجم الأدباء ٥/ ١٨٨ ـ ٢٤٥، وفيات الأعيان ١/ ١٩٥ ـ ١٩٩، التكملة للمنذري ١/ ٩٥ ـ ٩٦، سير أعلام النبلاء ٢١/ ١٦٥ ـ ١٦٦، البداية والنهاية ١٢/ ٢٩٣).

(٢) الحازمي: هو محمد بن موسى بن عثمان بن موسى بن عثمان بن حازم الحافظ، زين الدين أبو بكر الحازمي الهمداني الشافعي نزيل بغداد، ولد سنة ٥٤٨هـ، وتوفي بها سنة ٥٨٤هـ، له من الكتب: «الاعتبار في بيان الناسخ والمنسوخ من الأخبار» يذكر فيه الأحاديث الناسخة والمنسوخة، «تخريج أحاديث المهذب لأبي إسحاق الشيرازي»، «سلسلة الذهب فيما روى أحمد بن حنبل عن الشافعي»، «شروط الأئمة»، «عجالة المبتدي وفضالة المنتهي» في الأنساب، «كتاب الفيصل في مشتبه النسبة»، «معرفة ما يجب للشيوخ على الشباب»، «المؤتلف والمختلف في أسماء البلدان» (كشف الظنون ٦/ ١٠١، البداية والنهاية ١٢/ ٢٩٣).

(٣) العجالة: هو كتاب «عجالة المبتدي وفضالة المنتهي» في الأنساب، انظر الحاشية السابقة.

(٤) الناسخ: هو كتاب «الاعتبار في بيان الناسخ والمنسوخ من الأخبار» يذكر فيه الأحاديث الناسخة والمنسوخة. انظر الحاشية ما قبل السابقة.

[خروج رجال بمصر يدعون بشعار الفاطميين[(١)]]

قال العماد: ووصل كتابٌ من مصر، ونحن على حصار صفد أن اثني عشر رَجُلاً أعلنوا بشعار أهل القَصْر، ودخلوا من باب زُويلة إلى قُرْب الصَّياقلة مجذوبي السيوف لإدالة الدَّولة الزَّاهقة، ونُصْرة الدَّعوة الباطلة، وهم ينادون بآل عليٍّ، وفي زعمهم أنَّهم يَقبلُون بالصَّوْلة، ويقلبون بالبأس لباس الدَّوْلة، ويخالون أنهم إذا ثاروا أثاروا، وإذا داروا أداروا، فما اكترث بهم مكترث، ولا انبعث إليهم منبعث، فلما تحقَّقوا أنهم لا مجيب لهم ولا داعٍ، تَفَرَّقوا في الدروب واضمحلُّوا، وكانوا عقدوا على الوفاء فانحلُّوا، ثم أُخذوا ووُقذوا، واعْتُقلوا ولم يُسْتَنْقَذوا.

ولما علم السُّلْطان بهذا الأمر عَرَاه الهَمُّ، وتَضَجَّر بمن على بابه من وفود مِصْر، وقال: إلى متى نتحمل منهم هذا، وهمَّ بطردهم وردعهم وردِّهم. وكان قد وفد إلى الباب السُّلْطاني جماعةٌ من أولاد الوزراء المِصْريين، والأمراء بها المُقَدَّمين، ومن أهل المعروف المعروفين، ووافق ذلك دخول الفاضل إليه، فأخبره بالخبر، فقال له: يجب أن تشكر الله على هذه النِّعْمة، فقد عرفتَ بهذا طاعة رَعِيَّتك، وموافقة نياتهم لنيَّتك، أليس لم يُلَبِّ دعوتَهم أحد؟ ولم يكن من ورائهم مدد؟ فَطِبْ نَفْساً، وزد بمنزلتك عند الله أُنساً.

فقال السُّلْطان: كان الملوك قبلي تخافهم وتهربُ منهم الرَّعِيَّة، وتتوقَّع منهم البَلِيَّة، والآن فقد تكاثروا علينا، وتوافدوا إلينا حتى أضجرونا وأَمَلُّونا ونَفَّرونا، فإذا ركبنا أو نزلنا تعاورونا بالقِصص، وساورونا بالغُصص.

فقال له: أنت أَوْلى بشكر الله على هذه العارفة، كان بمصر من صاحب القصر وأشياعه، وخدمه وأتباعه، وأمرائه وخواصِّه، وذوي استخلاصه وجهاته وإلزامه كل من كان يرتع الخَلْقُ في رياض إنعامه، وكان بالشَّام في كل بلد والٍ وصاحب، له على أهله نِعَمٌ ومواهب، وملوك يلوذ بهم الأقارب والأجانب، واليوم أنت سلطان الجميع، وقد رَدَّ الله الآمال في تلك الصَّنائع كلِّها إلى ما لَكَ من حُسْنِ الصَّنِيع، وقد اجتمع أولئك المتفرِّقون على بابك، ووفدوا إلى جَنَابك، فلا يجدون بعد الله إلا وُجُودك وَجُودك، فأكرم وفودك.

فاغرورقت بالدُّموع عيناه، وبالسَّماح يداه، وأقسم أنه ما عاش لا يردُّ قاصداً، ولا يَصُدُّ وافداً، وتقدَّم في الحال بقضاء حقوق الوافدين، وإنجاح آمال القاصدين.

---

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ١٧٧ ـ ١٧٨: ذكر ظهور طائفة من الشيعة بمصر.

قلت: وكتب إلى السلطان في هذا المعنى أبو الفتح سِبْط التَّعاويذي[١] من بغداد: [المتقارب]

فلا يُضجِرَنْك ازْدِحام الوُفُودِ … عليكَ وكَثْرَةُ ما تَبْذُلُ
فإنَّك في زَمَنٍ ليس فيهِ … جَوَادٌ سِوَاكَ ولا مُفْضِلُ
وقد قَلَّ في أهله المُنْعِمُونَ … وقد كَثُرَ البائِسُ المُرْمِلُ
وما فيه غَيْرُكَ من يُسْتَماحُ … وما فيه إلاك من يُسْأَلُ

وقرأتُ رقعة بخط الفاضل: المملوك ينهي وصول فخر الكُتَّاب الجُوَيْني وقد كاد يَهْلِكُ من لهب الحَرِّ والمشقَّة في السير، وكيف يكون حال ابنُ السبعين مع المَرَضِ اللَّازم والقولنج الدَّائم، ونحافة الأعضاء، وضعف القوة، واستشعار انقطاع الرزق الذي هو نظير انقطاع العمر. وما أظنُّ أنَّ الله أجرى على يد المولى ولا فَرَّح عدواً له بأن ينقطع رزق مثل هذا البقية الحسنة والضَّيْف الرَّاحل والأديب الفاضل في أيام مولانا التي هي تاريخُ الكرم، ومواسم النِّعَم.

وفي آخرها: ومما يجب أن يعلم المولى أن أرزاق أرباب العمائم في دولته إقطاعاً وراتباً يتجاوز مائتي ألف دينار بشهادة الله، وربما كانت ثلاثمائة ألف دينار.

وفي الرُّقعة بالخَطِّ الصَّلاحي: وقفتُ على رقعة القاضي الفاضل، وما نقطع لأحدٍ رزق إن شاء الله تعالى، بل هي علالات، نحن مثل الغريم المنكسر نرضى لذا بمال ذا، وعلى الجملة ما تقدَّمْتُ بقطع رزق أحد، وقد عَلَّمت[٢] فيها، اكتب فيها الذي لهما ولغيرهما إن شاء الله تعالى.

كان في آخر الرقعة ذكر الجمال الحنفي وكأنه كان له مثل حاجة الجُوَيني، رحم الله الكل أجمعين، إن شاء الله تعالى.

[السلطان يقيم في عكا لإحكام أمرها ثم يعود إلى دمشق]
ثمَّ دخلت سنة خَمْسٍ وثمانين[٣]

قال العماد: والسُّلْطان في عكا، نافذ الأمر، نابه القدر، فأحكم أمرها،

(١) سبط التعاويذي: كذا بالأصل، وهو سبط ابن التعاويذي، وفي الخبر لُبس فسبط ابن التعاويذي أبو الفتح محمد بن عبيد الله توفي في ثاني شوال سنة ٥٨٣هـ. ولعل هذا الشعر كتبه قبل وفاته.
(٢) وقد علّمت فيها: من العلامة وهي ما يكتبه السلطان بخطه على صورة اصطلاحية، وكان لكل سلطان علامة، وتوقيع (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص٢٥٣).
(٣) وخمسمائة.

وكَشَفَ ضُرَّها، واستحضر جماعةً من مصر يحمي بهم الثَّغْر، فما انفصل حتى وصلوا، واتَّبعوا أمره وامتثلوا، وتقدَّم بهاء الدين قراقوش بإتمام العمارات، وولَّى حُسام الدِّين بشارة، وعَوَّل عليه في الولاية والحفظ والحماية.

وقال القاضي ابن شداد: أقام بعكا معظم المُحَرَّم يصلح أحوالها ورتَّبَ فيها بهاء الدين قَرَاقُوش والياً، وأمره بعمارة السُّور، والإطناب فيه ومعه حسام الدين بشارة، وسار يريد دمشق، فدخلها مستهل صَفَر.

[ولاية فارس الدين كشتغدي شهرزور]

قال العماد: وولَّى مملوكه فارس الدِّين كشتغدي شَهْرُزور وأعمالها، وكان قد تَزَوَّج بأُخت عز الدين حسن بن يعقوب بن قفجاق، فولاه ذلك لِقُرْب الولاية القفجاقية من الشَّهْرزورية، وقصد حصول المناصرة بحكم المصاهرة.

[تجديد ولاية مودود لديوان دمشق]

قال: وحَكَّم السُّلْطان بدر الدين مودوداً في ولاية دمشق، وجَدَّد له منشوراً بإنشائي، وفيه: وقد قَلَّدناه أمر دمشق وجهاتها وأعمالها، والحشري(١) والزَّكوات، وكل ما يجري في الدِّيوان، وما يُبْتاع للخزانة، وولاية المرج والغوطة وما يُضاف إليها من الأعمال، وولاية الجبل ووادي بردىٰ ويَبُوس، وتولي الشِّحْنكيات وحِفْظ الطُّرُقات.

[رحيل السلطان إلى طبرية وعوده إلى دمشق]

ثم رحل السُّلْطان إلى طبرية، فألحقها بمعدلته العُمرية، ثم وصل وأقام بدمشق شهر صفر، وَوَجْه الدين به قد سَفَر، وعَزَّ من آمن وذَلَّ من كفر، وبدأ بحضور دار العدل وحكم بالشَّرْع المُطَهَّر.

ووصل في ثاني عشر صفر رسول الديوان ضياءُ الدين عبد الوَهَّاب بن

---

(١) الحشري: هي المواريث الحشرية: قال القلقشندي في صبح الأعشى ٣/ ٥٣٢: وهي مال من يموت وليس له وارث خاص، بقرابة أو نكاح أو ولاء، أو الباقي بعد الفرض من مال من يموت وله وارث ذو فرض لا يستغرق جميع المال ولا عاصب له.
وقال المقريزي في الخطط ١/ ١١١: وأما المواريث فإنها في الدولة الفاطمية لم تكن كما هي اليوم من أجل أن مذهبهم بتوريث ذوي الأرحام وأن البنت إذا انفردت استحقت المال بأجمعه، فلما انقضت أيامهم واستولت الأيوبية ثم الدولة التركية صار من جملة أموال السلطان مال المواريث الحشرية، وهي التي يستحقها بيت المال.

سُكَيْنَة[١]، والوزير يومئذٍ معز الدين بن حديدة[٢] يأمر بالخطبة لولي العهد عُدَّة الدِّين أبي نَصْر محمد ابن الإمام النَّاصر[٣]، فاستقبله السُّلْطان وأولاده وأمراؤه وأجناده، وخطب له بذلك يوم الجمعة ثالث عشر صفر خطيب دمشق ضياء الدين أبو القاسم عبد الملك بن زيد الدَّوْلَعي[٤]، فلما انقضتِ الخطبةُ وعاد الرسول سَيَّرَ السلطان معه رسوله ضياء الدين القاسم بن يحيى الشَّهْرَزُوري، وسُيِّرَتْ معه الهدايا، والتُّحَف السَّنايا، وأسارى الفرنج الفوارس، وَعُدَدُها النَّفائس، وتاج ملكهم السَّليب، والملبوس والطِّيب والصَّليب، وهو الذي كان فوق قُبَّة الصَّخْرة المقدَّسة، ليدلَّ على تطهير ما كان هناك من الأسباب المدنَّسة، وسار الضياآن رسولُهم ورسولُ السُّلْطان، ودخلا بغداد، وأسارى الفرنج على هيئتها يوم قراعها، راكبةً حُصُنها في طوارقها وبيارقها وأدراعها، قد نكِّست بنودها، وأُتعست أنوفها، وهيئت على هيئة فتوحنا حتوفُها.

قلت: وقال ابنُ القادسي[٥]: قَدِمَ ابن الشَّهْرُزُوري[٦] ومعه صليب الصلبوت الذي تعظِّمه النَّصارى، فدفن تحت عتبة باب النوبى الشَّريف يبينُ منه شيء قليل، وكان من نحاسٍ، وقد طُلِيَ بالذهب، فجعل يُداس بالأرجل، ويَبْصُقُ النَّاس عليه، وذلك في سادس عشر ربيع الآخر.

---

(١) هو أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن علي الصوفي، المعروف بابن سكينة، ضياء الدين. ولد سنة ٥١٩هـ، وتوفي سنة ٦٠٧هـ (الذيل على الروضتين وفيات سنة ٦٠٧هـ).

(٢) هو سعيد بن علي بن أحمد، أبو المعالي، معز الدين بن حديدة، الوزير، وهو من ولد قطبة بن عامر بن حديدة الأنصاري الصحابي، ولد بسامرا سنة ٥٣٦هـ، وتوفي سنة ٦١٠هـ (الذيل على الروضتين وفيات سنة ٦١٠هـ).

(٣) هو الخليفة الظاهر بأمر الله محمد بن الناصر لدين الله، عدة الدين أبو نصر، بويع له بالخلافة يوم موت أبيه الناصر. ولي تسعة أشهر وأيام، وتوفي رابع عشر رجب سنة ٦٢٣هـ (صبح الأعشى ٣/ ٢٧٦، الذيل على الروضتين وفيات سنة ٦٢٣هـ).

(٤) هو أبو القاسم عبد الملك بن زيد بن ياسين التغلبي، الدولعي (والدولعية قرية من قرى الموصل)، ضياء الدين، خطيب دمشق، ولد سنة ٥١٨هـ، وتوفي سنة ٥٩٨هـ (الذيل على الروضتين وفيات سنة ٥٩٨هـ).

(٥) هو محمد بن أحمد بن محمد بن علي، أبو عبد الله القادسي، نسبة إلى القادسية، وهي قرية بين سامراء وبغداد، وليست قادسية الكوفة التي كانت فيها الوقعة الشهيرة، توفي سنة ٦٣٢هـ، له من المصنفات: «ذيل المنتظم»، «أخبار الوزراء»، (وفيات الأعيان ١/ ٣٢٩، التكملة للمنذري ٣/ ١٣١، الوافي بالوفيات ٢/ ١١٧).

(٦) هو أبو الفضائل القاسم بن يحيى بن عبد الله بن القاسم، ضياء الدين الشهرزوري، ولد سنة ٥٣٤هـ، وتوفي سنة ٥٩٩هـ (الذيل على الروضتين وفيات سنة ٥٩٩هـ).

كذا قال: صليب الصلبوت، وقد نَصَّ العماد في «البرق» على أنه الصليب الذي كان فوق الصَّخرة، وهذا غير ذلك، والله أعلم.

ثم إن الخليفة النَّاصر اعتقل ابنه هذا بعد مُدَّة في سنة إحدى وستمائة، وأراده على خَلْع نفسه من ولاية العهد، ففعل، وأشهد على نفسه بذلك، ثم قضى الله سبحانه أن أعاد إليه ولاية العهد في أواخر عمره، فخطب له بذلك، ونُقِشَ اسمُه على الدِّينار والدِّرْهَم إلى أن توفي النَّاصر سنة اثنتين وعشرين، وتولَّى بعده، فأقام نحو تسعة أشهر، ولقِّب بالظَّاهر، ثم توفي، وولي ابنه المستنصر المنسوب إليه المدرسة ببغداد، ثم توفي سنة أربعين، وولي ابنه المستعصم بالله وهو الخليفة الآن. والله المستعان.

فـصـل

في فَتْحِ شقيف أَرْنُون[1]

قال القاضي ابنُ شَدَّاد: وهو موضعٌ حصين قريبٌ من بانياس، خرج السُّلْطان من دمشق بعد صلاة الجمعة في الثَّالث من ربيع الأول، فسار حتى نزل في مرج فلوس، ونَزَلَ من الغد يوم السبت في مرج بُرْغُوث، فأقام به والعساكر تتتابع إلى حادي عشره، ورحل إلى بانياس، ومنها إلى مرج عيون، فخيَّم به وهو قريبٌ من شقيف أرنون، بحيث يركب كل يوم يشارفه ويعود، والعساكر تجتمع وتطلبه من كل صوب.

فأقمنا أياماً نشرفُ كلَّ يوم على الشَّقيف، والعساكر الإسلامية في كل يوم تصبح متزايدة العَدَد والعُدَد، وصاحب الشقيف يرى ما يتيقَّن معه عدم السَّلامة، فرأى أن إصلاح حاله معه قد تعيَّن طريقاً إلى سلامته، فنزل بنفسه، وما أحسسنا به إلا وهو قائم على باب خيمة السلطان، فأَذِنَ له، فدخل، فاحترمه وأكرمه، وكان من كبار الفرنجية وعقلائها، وكان يعرف بالعربية، وعنده اطِّلاع على شيء من التَّواريخ والأحاديث.

قال: وبلغني أنه كان عنده مسلم يقرأُ له ويفهِّمُهُ، وكان عنده تأتٍّ. فحضر بين يدي السُّلْطان، وأكل معه الطعام، ثم خلا به، وذكر أنه مملوكه وتحت طاعته، وأنه يسلِّم المكان إليه من غير تَعَبٍ، واشترط أن يُعْطىٰ موضعاً يسكنه بدمشق، فإنَّه

---

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ١٨٠ ـ ١٨١: ذكر فتح شقيف أرنوم، كذا سماها في الكامل، «أرنوم» بالميم.

لا يقدر بعد ذلك على مساكنة الفرنج، وإقطاعاً بدمشق يقوم به وبأهله، وأنه يُمكَّنُ من الإقامة بموضعه، وهو يتردَّدُ إلى الخدمة ثلاثة أشهر من تاريخ اليوم الذي كان فيه حتى يتمكّن من تخليص أهله وجماعته من صور، ويأخذ مغل هذه السنة، فأُجيب إلى ذلك كلِّه. وأقام يتردَّدُ إلى خدمة السلطان في كل وقتٍ، ويناظرنا في دينه، ونناظره في بُطْلانه، وكان حَسَنَ المحاورة، متأدباً في كلامه.

ثم استفاض بين النَّاس أن صاحب الشقيف فعل ما فعله من المُهْلة غِيلَةً، لا أنه صادق في ذلك، وإنما قصد به تدفيع الزَّمان، وظهرت لذلك مخايلُ كثيرة من الخوض في تحصيل الميرة، وإتقان الأبواب، فرأى السُّلْطان أن يصعد إلى سطح الجبل لِيَقْرُبَ من المكان، ويمنع من دخول نجدةٍ وميرةٍ إليه، وأظهر أنَّ سببَ ذلك شِدَّة حُمُوِّ الزمان، والفرار من وَخْمِ المرج، فنزل صاحِبُهُ، وسأل أن يُمْهَلَ تمام سنة، فماطله السُّلْطان وما آيسه، وقال: نفكر في ذلك ونجمع الجماعة، ونأخذ رأيهم. ثم وكَّل به من حيث لا يشعر إلى أن كان من أمره ما سنذكر.

قال: وفي أثناء ربيع الأول وصل الخبر بتسليم الشَّوْبك، وكان قد أقام السُّلْطان عليه جمعاً عظيماً يحاصرونه مُدَّة سنة حتى فرغت أزوادهم، وسلَّموه بالأمان.

وقال العماد: كان الشقيف في يد صاحب صيدا أرناط، وقد أكمل في حفظه الاحتياط، فنزل إلى خدمة السُّلْطان، وسأل أن يُمْهَلَ ثلاثة أشهر يتمكّن فيها من نقل مَنْ بصور من أهله، وأظهر أنَّه محترز من علم المركيس ـ لعنه الله ـ بحاله فلا يسلم من جهله، وحينئذ يسلِّم الموضع بما فيه، ويدخل في طاعة السُّلْطان ومراضيه ويخدمه على إقطاع يغنيه، وعن حُبِّ أهل دينه يسليه، فأكرمه وقَرَّبه، وقضى أرَبه، وأجابه إلى ما سَأله، وقبِلَ منه عزيزاً ما بِذُلِّه بَذَلَه، واقتنع بقوله ولم يأخذ رهينة، ووجد إليه سكوناً وسكينة. فشرع أرناط في إذالة حِصْنه[1]، وإزالة وَهْنه، وترميم مستهدمه، وتوفير غلاله، وتدبير أحواله، ونحن في غِرَّة من تحفُّظه، وفي سِنَةٍ من تيقُّظه.

وكان يبتاع من عسكرنا الميرة، ويكثر فيه الذَّخيرة، وقد أضمر الغدر، وظَنَّ أَنَّ له النَّصر، والسلطانُ حَسَنُ الظَّنِّ به، يحمل صدق الواشي به على كذبه، وكان انتهاء المُدَّة يوم الأحد ثامن عشر جُمادى الآخرة، وأقام السُّلْطان بالمرج ينتظر انسلاخ الهُدْنة، وتسليم الحِصْن، وخاف إن فارقه أن تجيء أمداد الفرنج إليه،

(١) إذالة حصنه، بالذال المعجمة: يقال: أذال فلان ثوبه: إذا أطال ذيله، والمقصود بإذالة حصنه: أي رممه ووسعه.

وكان مشفقاً أيضاً من جانب أنطاكية لانتهاء أشهر هُدْنتها، فكتب إلى تقي الدين بالمقام في تلك الخُطَّة، وسَيَّرَ بذلك الفقيه عيسى الهَكَّاري، ولم يستدع إلا صاحب آمِد قُطْب الدين سُكْمان بن قَرَا أرسلان، فجاء في أمداده وأعداده، ولازم السُّلْطان، فلما قَرُبَ انتهاء مُدَّة صاحب الشَّقيف أحضره السُّلْطان، فتضرَّعَ، وقال: إنَّ قومي إلى الآن لم يخلصوا من صور، وقد أنعمتَ فأتمم. وسأل أن تكون المُهْلَة سنة، فعرف السلطان من فحوى الخطاب أمارات الارتياب، فكلَّمه بإيناس، وما رَدَّه بياس، فأرخى طِوَلَهُ وأرجى أَمَلَه.

وأمر السلطانُ بتحويل الخيم إلى ظهر الجبل، ليقرب من الحِصْن، وقد بقي من الهُدْنة يومان، فتضوَّر صاحب الحصن، فقيل له تقيم عندنا في كنف الأمان. فبكى وتألَّم من ضَبْطه، وانكشفت سريرتُهُ الغارة، فأمر بحمله إلى الشقيف حتى يُسَلِّمه، ووكَّلَ به وحُفِظَ من حيث لا يعلم، وقيل: لعله يحسن، ولا يحوج إلى المقابحة ويسلِّم، وقيل له: قد بقي يومان من المُدَّة، تقيم حتى تنتهي وتسلم. فأبدى ضرورةً وضراعة، وقال: سمعاً وطاعة.

وكان له مَلْقَى ومَلَق، وفي لسانه ذَلَقٌ، وما عنده من كلٍّ ما يفرق منه فَرَق، وقال: أنا أنفِّذ إلى نوَّابي في التسليم، وهو قد تقدَّم إليهم بالوصيَّة والتعليم، فأظهروا عصيانه، وقالوا: يبقى مكانه.

فقيِّد وحُمِلَ إلى قلعة بانياس، وبطل الرجاء فيه، وبان الياس. ثم استحضره في سادس رجب وهدَّده وتوعَّده، فلما لم يُفِدْ خطابه، ولم يُجْدِ عَذَابه، سَيَّره إلى دمشق وسجنه ورَتَّب عِدَّة من الأمراء بملازمة حَصْرِ الحِصْن في الصَّيْف والشتاء إلى أن تسلَّمه بعد سنة بحكم السِّلْم، وأطلق صاحبه وأجرى عليه حُكْمَ الحِلْم.

فصل

[قتال الفرنج مع اليزك]

وفي مُدَّة مقام السُّلْطان على مرج عيون لمحاصرة شقيف أَرْنُون اجتمعتِ الفرنج، وجَرَتْ لهم مع المسلمين وقائع.

قال القاضي ابنُ شَدَّاد: كان السلطان قد اشترط على نفسه حين تسلَّم عسقلان أنه إن أمر الملك مَنْ بها بتسليمها أطلقه، فأمرهم بتسليمها، وسلَّموها، فطالبه الملك بإطلاقه، فأطلقه وفاءً بالشَّرْط ونحن على حصن الأكراد، أطلقه من أَنْطَرطُوس، واشترط عليه أن لا يشهر في وجهه سَيْفاً أبداً، وأن يكون مملوكه

وطليقه، فنكث ـ لعنه الله ـ وجمع الجموع، وأتى صور يطلب الدُّخول إليها، فخيَّم على بابها يُراجع المركيس الذي كان بها في ذلك، وكان المركيس اللَّعين رجلاً عظيماً، ذا رأي وبأسٍ شديد، وصرامةٍ عظيمة، فقال له: إنني نائب الملوك الذين وراء البحر، وما أذنوا لي في تسليمها إليك.

وطالت المراجعة، واستقرَّت القاعدة بينهما على أن يتفقوا جميعاً على المسلمين، وتجتمع العساكر التي بصور وغيرها من الفرنجية على المسلمين، وعسكروا على باب صور.

ولما كان يوم الاثنين سابع عشر جمادى الأُولى بلغ السلطان من جانب اليَزَك[1] أنَّ الفرنج قد قطعوا الجسر الفاصل بين أرض صور وأرض صيدا، وهي الأرضُ التي نحن عليها، فركب السُّلْطان بعسكره نحو اليَزَك، فوصل وقد انفصلت الوقعة، وذلك أن الفرنج عبر منهم جماعةٌ الجسرَ، فنهض إليهم يَزَك الإسلام، وكانوا في عُدَّة وقُوَّة، فقاتلوهم، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وجرحوا أضعاف ما قتلوا، ورموا في النَّهر جماعةً، فغرقوا، ولم يُقتل من المسلمين إلا مملوك للسُّلْطان يُعرف بأَيْبَك الأخرش، وكان شجاعاً باسلاً، مجرِّباً للحرب ممارساً، فتقطَّر به فرسُه[2]، فلجأ إلى صخرةٍ فقاتل بالنُّشَّاب حتى فنيَ، ثم بالسَّيْف حتى قَتَل جماعةً، ثم تكاثروا عليه فقتلوه.

وفي يوم الأربعاء تاسع عشر جمادى الأُولى ركب السُّلطان يشرف على القوم على عادته، فتبع العَسْكَرَ خَلْقٌ عظيم من الرَّجَّالة والغُزَاة والسُّوقة، وحرص ـ رحمه الله ـ في رَدِّهم فلم يفعلوا، وخاف عليهم، فإنَّ المكان كان حَرِجاً[3] ليس للرَّاجل فيه ملجأ، ثم هجم الرجَّالة إلى الجسر، وناوشوا العدو، وعَبَرَ منهم جماعة إليهم، وجرى بينهم قتالٌ شديد، واجتمع لهم من الفرنج خَلْق عظيم وهم لا يشعرون، وكشفوهم بحيث علموا أن ليس وراءهم كمين، فحملوا عليهم حملةً واحدة على غِرَّة من السُّلْطان، فإنه كان بعيداً عنهم، ولم يكن معه عسكر، فإنَّه لم يخرج للقتال، وإنما ركب مستشرفاً عليهم على العادة في كلِّ يوم.

ولما بان له الوقعة، وظهر له غُبارها، بعث إليهم من كان معه ليردُّوهم، فوجدوا الأمر قد فَرَط، والفرنج قد تكاثروا حتى خافت منهم السَّرِيَّة التي بعثها السلطان، وظفروا بالرَّجَّالة ظفراً عظيماً، وأسروا جماعة، وعُدَّ من قُتِلَ من الرَّجَّالة

(١) اليزك: طلائع الجيش، تقدّم التعريف به مراراً.
(٢) تقطّر به فرسه: أي سقط.
(٣) المكان الحرج: المكان الضيق كثير الشجر.

في ذلك اليوم، فكان عددُ الشهداء مائةً وثمانين نفراً، وقُتِل أيضاً من الفرنج عِدَّة عظيمة، وغرق أيضاً منهم عِدَّة.

وكان ممن قُتل منهم مقدَّم الألمانية، وكان عندهم عظيماً محترماً، واستشهد في ذلك اليوم من المعروفين من المسلمين الأمير غازي بن سعد الدين مسعود بن البصار، وكان شاباً حسناً شجاعاً، واحتسبه والده في سبيل الله، ولم تقطر من عينه عليه دمعة على ما ذكره جماعةٌ لازموه.

قال: وهذه الوقعة لم يتَّفق للفرنج مثلها في هذه الوقائع التي حضرتُها وشاهدتُها، ولم ينالوا من المسلمين مثل هذه الوقعة في هذه المُدَّة.

ولما رأى السلطان ما حَلَّ بالمسلمين من هذه الوقعة النَّادرة جمع أصحابه وشاورهم، وقَرَّر معهم أنه يهجم على الفرنج، ويعبر على الجسر، ويقاتلهم ويستأصل شأفتهم.

[قتال الفرنج في تبنين]

وكان الفرنج قد رحلوا عن صور، ونزلوا قريب الجسر، وبين الجسر وصور مقدار فرسخ وزائد على فرسخ، فلما صَمَّم العزم على ذلك رحل الفرنج عائدين إلى صور، ملتجئين إلى سُورها، فرأى ـ رحمه الله ـ أن يسير إلى عكَّا ليلحظ ما بني من سورها، ويحثَّ على الباقي، فراح على تِبْنين، ولم يرجع على مرج عيون، فمضى إلى عكا، فَرَتَّب أحوالها، وعاد إلى العسكر بمرج عيون منتظراً مُهْلَة صاحب الشَّقيف.

ولما كان يوم السبت سادس جمادى الآخرة بلغه أَنَّ جماعةً من رَجَّالة العدو، يتبسَّطون، ويصلون إلى جبل تِبْنين يحتطبون، وفي قلبه من رَجَّالة المسلمين وما جرى عليهم أمرٌ عظيم، فرأى أن يقرِّر قاعدة كمين يرتِّبه لهم، وبَلَغه أنهم يخرج وراءهم أيضاً خيل يحفظهم، فعمل كميناً يصلح للقاء الجميع، ثم أنفذ إلى عسكر تِبْنين أن يخرجوا في نفرٍ يسير غائرين على تلك الرَّجَّالة، وأن خيل العدوِّ إذا تبعتهم ينهزمون إلى جهةٍ عَيَّنها لهم، وأن يكون ذلك صبيحة الاثنين ثامن جمادى الآخرة، وأرسل إلى عسكر عكَّا أن يسير حتى يكون وراء عسكر العدو، حتى إن تحرَّكوا في نُصْرة أصحابهم قصدوا خيمهم.

وركب هو وجحفله إلى الجهة التي عَيَّنها لهزيمة عسكر تِبْنين، حتى قطع تبنين، وَرَتَّب العسكر ثمانية أطلاب واستخرج من كل طُلْب عشرين فارساً، وأمرهم أن يتراؤوا حتى يظهروا إليهم ويناوشوهم، وينهزموا بين أيديهم، حتى يصلوا إلى

الكمين، ففعلوا ذلك، وظهر لهم من الفرنج معظم عسكرهم، يَقْدُمُهم الملك ـ لعنه الله ـ وجرى بينهم وبين هذه السرية اليسيرة قتالٌ شديد، والتزمت السرية القتال، وأنفوا من الانهزام بين أيديهم، وحملتهم الحَمِيَّة على مخالفة السلطان.

واتصل الخبر بالسلطان في أواخر الأمر وقد هجم الليل، فبعث بعوثاً كثيرة، فعاد الفرنج ناكصين على أعقابهم، وقتل من الفرنج عشرة أنفس، ومن المسلمين ستة: اثنان من التُّرْك، وأربعة من العرب، منهم الأمير زامل، وكان شاباً تاماً، حسن الشَّباب، يتقدم عشيرته، وكان سبب قتله أنه تَقَطَّرَتْ[1] به فرسه، ففداه ابنُ عَمِّه بفرسه، فتقطرت به أيضاً، وأُسر هو وثلاثة من أهله، فلما بَصُرَ الفرنج بمددِ العسكر قتلوهم خشية الاستنقاذ، وجُرِحَ خَلْقٌ كثيرٌ من الطَّائفتين وخيلٌ كثيرة.

قال: ومن نوادر هذه الوقعة أن مملوكاً من مماليك السُّلْطان يقال له أَيْبَك أُثخن بالجراح حتى وقع بين القتلى وجراحاته تَثْعَبُ[2] دماً، وبات ليله أجمع على تلك الحال إلى صبيحة يوم الثلاثاء، فتفقَّده أصحابه فلم يجدوه، فعرَّفوا السلطان فَقْدَه، وأنفذ من يكشف عن حاله، فوجدوه بين القتلى، فحملوه إلى المخيَّم، وعافاه الله، وعاد السُّلْطان إلى المخيم يوم الأربعاء عاشر الشهر فرحاً مسروراً.

وقال العماد: اجتمع من كان سَلِمَ من الفرنج ونجا على ملكهم الذي خَلَص من الأسر، وقالوا: نحن في جَمْعٍ جَمٍّ، خارج عن الحصر، وقد تواصلت إلينا أمداد البحر، فثُرْ بنا للثار، وأَعْفِنا من هذا العار. وجاء من كان بطرابُلُس، وخَيَّموا على صور، واتفقوا أنهم يقصدون بلداً إسلامياً من السَّاحل، ويقيمون عليه، والمركيس يمدُّهم من صور بالمَدَد والعُدَد. ثم جاء الخبر أنهم على قَصْدِ صيدا للحصر، وقد جَسَرُوا على عبور الجسر، ووقعت عليهم اليَزَكِية فَرَدُّوهم، ووقع في الأسر من سباعهم سبعة، فحملوا إلى سجن دمشق. ثم ذَكَرَ قَتْلَهم للغُزاة المطَّوِّعة على الجسر.

وقال: لم يصب الكُفَّار من المسلمين مُذْ أصيبوا غير هذه الكرَّة، وأذاقُونا بعد أن حلا لنا جَنَىٰ الفتوحات مرارة هذه المرة، فأيقظنا الله من رقدة الغِرَّة، وأخذ النَّاس حِذْرهم، وقالوا بهذا وعد الله حيث قال: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١١]، وعباده هم الذين يتَّبعون أمره ويمتثلون. ثم ذَكَر وقعة الكمين.

قال: وكان مع المسلمين أربعةٌ من أمراء العرب، فحملوا كما وصَّاهم

---

(١) تقطرت: أي سقطت.

(٢) تثعب: تجري وتقطر.

السلطان على عزم الطِّراد ليقصدوا الكمين، وسلكوا أسفل الوادي وإنَّما الطَّريق أعلاه، ولا خبرة لهم بتلك الأرض، فعرف الفرنج أنهم ضائعون، فطاردوهم ورَدُّوهم إلى المضيق، وأَنِفَتِ العربُ من الهزيمة فاستشهدوا.

قال: وكان معهم مملوكٌ للسُّلْطان يقال له أَيْبَك السَّاقي، فاعتزل إلى صخرةٍ، واحتمى بها، ونَكَب كِنانته[1] ورماهم بنُشَّابها، وهم لا يقدرون على الاقتحام إليه بالخيل، فرموه بالزنبورك حتى كَثُرَت فيه الجراحات، وَظَنُّوا أنه قد مات، ووصل الخبر إلى المسلمين فأدركوهم، ووقفوا على الشُّهداء وقبروهم، وجاؤوا إلى أَيْبَك، فوجدوا فيه الرُّوح، فنقلوه إلى الخيام وهم يظنون أنه لا خلاص له من الحِمام، وكان في أجله باقية، فَمَنَّ الله عليه بالعافية.

فصل

في نزول الفرنج ـ خذلهم الله ـ على عَكَّا[2]

قال القاضي ابنُ شَدَّاد: ثم بَلَغنا بعد ذلك أَنَّ الفرنج بصور ومن كان مع الملك قد ساروا نحو النَّواقير يريدون جهة عكا، وأَنَّ بعضهم نزل بإسْكَنْدرونة، وجرى بينهم وبين رَجَّالة المسلمين مناوشة، وقَتَلَ منهم المسلمون نفراً يسيراً، وأقاموا هناك.

ولما بلغ السلطانُ حركتهم إلى تلك الجهة عَظُمَ عليه، ولم ير المسارعة خوفاً من أن يكون قصدهم ترحيلهم عن الشَّقيف لا قصد المكان، فأقام مستكشفاً للحال إلى يوم الأحد ثاني عشر رجب، فوصل قاصد أخبر أنَّ الفرنج في بقية ذلك اليوم رحلوا، ونزلوا عين بَصَّة، ووصل أوائلهم إلى الزَّيب، فَعَظُمَ ذلك عنده، وكتب إلى سائر أرباب الأطراف بالمسير إليه، وتقدَّم إلى الثَّقَل أن سار بالليل، وأصبح هو يوم الاثنين ثالث عشر رجب سائراً إلى عكا على طريق طبرية، إذ لم يكن ثَمَّ طريقٌ يَسَعُ العسكر إلا هو، وسَيَّر جماعةً على طريق تِبْنين يستشرفون العدوَّ، ويواصلون بأخباره.

وسرنا حتى أتينا الحُولَة منتصف النَّهار، فنزل بها ساعة، ثم رحل، وسار طول الليل حتى أتى موضعاً يقال له مُنْية صبيحة الثُّلاثاء، وفيه بلغَنَا نزول الفرنج على عكا، وسَيَّر صاحبَ الشَّقيف إلى دمشق بعد الإهانة الشديدة على سوء

(١) نكب كنانته: أي نثر ما فيها، وقيل: كبّها ليخرج ما فيها من السهام.
(٢) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ١٨٣ ـ ١٨٥: ذكر مسير الفرنج إلى عكا ومحاصرتها.

صنيعه، واشتدّ حُنُقُه عليه بسبب تضييع ثلاثة أشهر عليه وعلى عسكره لم يعملوا فيها شيئاً، وسار السلطان جريدةً من المُنْية حتى اجتمع ببقية العسكر الذي كان أنفذه على طريق تِبْنين بمرج صَفُّورِيَة، فإنه كان واعدهم إليه، وتقدَّم إلى الثَّقَل أن يلحقَهُ إلى مرج صَفُّورِيَة، ولم يزل حتى شارف العدوَّ من الخَرُّوبة، وبعث بعض العسكر، ودخل عكا على غِرَّة من العدو، تقويةً لمن فيها، ولم يَزَلْ يبعث إليها بعثاً بعد بَعْثٍ حتى حصل فيها خَلْق كثير.

وسار من الخَرُّوبة إلى تل كَيْسان في أوائل مرج عكا، فنزل عليه وأمر الناس أن ينزلوا على التعبية، فكان آخر الميسرة على طرف النَّهر الحلو، وآخر الميمنة مقاربَ تل العياضيَّة، واحتاط العسكر الإسلاميُّ بالعدو، وأخذوا عليهم الطُّرُق من الجوانب، وتلاحقت العساكر الإسلامية، واجتمعت، ورتَّبَ اليَزَكَ الدَّائم، وحَصَرَ العدوَّ في خيامه بحيث لا يخرج منها أحد إلا ويُجرح أو يُقتل.

وكان عسكر العدو على شَطْرٍ من عكا، وخيمة ملكهم على تل المصلّبين، قريباً من باب البلد، وكان عدد راكبهم ألفي فارس، وعدد راجلهم ثلاثين ألفاً.

قال: وما رأيت من نَقَصهم عن ذلك، ورأيتُ من حَزَرهم بزيادة على ذلك، ومددُهم من البحر لا ينقطع، وجرى بينهم وبين اليَزَك مقاتلات عظيمة متواترة، والمسلمون يتهافتون على قتالهم، والسلطان يمنعهم من ذلك إلى وقته، والبعوث من عساكر المسلمين تتواصل، والملوك والأمراء من الأقطار تتتابع، ووصل تقي الدين من حماة، ومُظَفَّر الدين بن زين الدين.

[وفاة حسام الدين سنقر الخلاطي]

وفي أثناء هذه الحال توفي الحسام سُنْقُر الخِلاطي بإسهال شديد، وكان شجاعاً، دَيِّناً، فأَسِفَ المسلمون عليه.

ولما استفحل أمر الفرنج استداروا بعكا بحيث مَنَعوا من الدُّخول والخروج منها، وذلك سَلْخ رجب، فَعَظُمَ على السلطان، وضاق صدره، وثارت هِمَّتُه العالية في فتح الطَّريق إلى عَكَّا لتستمر السَّابلة إليها بالميرة والنَّجدة، فباكرهم مستهلَّ شعبان وضايقهم مضايقةً شديدة، فكانت الحملة بعد صلاة الجمعة، وانتشر عسكر العدّوّ إلى أن ملكوا التلول، وكانت ميسرة عسكرهم إلى البحر الحلو آخذةً إلى البحر، وميمنتهم قُبالة القلعة الوسطى التي لعكا، واتصلت الحربُ إلى أن حال بين الفئتين هجومُ الليل، وبات النَّاس على حالهم من الجانبين شاكِّين في السِّلاح، تحرُسُ كل طائفةٍ نفسها من الأُخرى.

وأصبحوا ثاني شعبان يوم السبت على القتال، وأنفذ السُّلْطانُ طائفةً من شجعان المسلمين إلى البحر من شمالي عكا، ولم يكن هناك للعدو خيم، لكن عسكره كان قد امتدَّ جريدةً شمالي عكا إلى البحر، فحمل شجعان المسلمين على عسكر الفرنج الواقف شمالي عكا، فانكسروا بين أيديهم كسرةً عظيمة، وقتلوا منهم جمعاً كبيراً، وانكفَّ السَّالمون منهم إلى خيامهم، وهجم المسلمون خَلْفَهم إلى أوائل خيامهم، ووقف اليَزَك الإسلامي مانعاً من أن يخرج من عسكرهم خارج، أو يدخل إليه داخل، وانفتح الطَّريق إلى عكا من باب القلعة المسماة بقلعة الملك إلى باب قَرَاقوش الذي جَدَّده، وصار الطريق مَهْيعاً[1] يمرُّ فيه السوقيُ، ومعه الحوائج، ويمرُّ به الرجل الواحد والمرأة، واليَزَك بين الطريق وبين العدو.

ودخل السلطان في ذلك اليوم إلى عكا، ورقي على السُّور ونظر إلى عسكر العدو، وتراجع النَّاس عن القتال بعد صلاة الظهر لسقي الدَّوابِّ، وأَخذ الراحة، ولم يعودوا إلى القتال.

وأصبحوا يوم الأحد، فرأى بعض الأمراء تأخير القتال إلى أن يدخل الرَّاجل كله إلى عكا، ويخرجوا مع العسكر المقيم بها من أبواب البلد على العدو من ورائه، وتركب العساكر من خارج من سائر الجوانب، ويحملوا حملةَ الرجل الواحد، والسُّلْطان ـ رحمه الله ـ يُعاني هذه الأمور كلها بنفسه، ويصافحها بذاته، لا يتخلَّف عن مقامٍ من هذه المقامات، وهو من شِدَّة حرصه، ووفور هِمَّته كالوالدة الثَّكْلَىٰ.

ولقد أخبرني بعضُ أطبائه أنه بقي من يوم الجمعة إلى يوم الأحد لم يتناول من الغذاء إلا شيئاً يسيراً لفرط اهتمامه، وفعلوا ما كان عزموا عليه، واشتدت منعة العدو، وحمى نفسه في خيامه، ولم تَزَلْ سوق الحرب قائمة، تباع فيها النُّفوس بالنفائس، وتمطر سماء حربها الرؤوس من كل رئيس ومُتَرائس، حتى كان يوم الجمعة ثامن شعبان عزم العدوُّ على الخروج بجموعهم، فخرج راجلهم وفارسهم، وامتدُّوا على التلول، وساروا الهوينا غير مفرِّطين في نفوسهم، ولا خارجين من راجلهم، والرَّجَّالة حولهم كالسُّور المبني يتلو بعضُهم بعضاً، حتى قاربوا خيام اليَزَك، فصاح السلطان بالعساكر الإسلامية، فركبوا بأجمعهم، وحملوا حملةَ الرجل الواحد، فعاد العدو ناكصاً على عقبيه، والسيفُ يعمل فيهم، فالسالم منهم جريح، والعاطب طريح، يشتدون هزيمة، يعثر جريحهم بقتيلهم، ولا تلوي

(١) وصار الطريق مهيعاً: أي صار واضحاً واسعاً بيناً، وجمعه مهايع.

الجماعة منهم على قبيلهم، حتى لحق بخيامهم من سَلِمَ منهم، وانكفُّوا عن القتال أياماً، وكان قصاراهم أن يحفظوا نفوسهم، ويحرسوا رؤوسهم، واستمر فتح طريق عكا، والمسلمون يتردَّدون إليها.

[وفاة حسام الدين طمان]

قال: وكنتُ ممن دخل ورقي على السُّور، ودام القتالُ بين الفئتين متصلاً الليل مع النَّهار حتى كان الحادي عشر من شعبان، ورأى السُّلْطان ـ رحمه الله ـ توسيع الدَّائرة عليهم، لعلهم يخرجون إلى مصارعهم، فنقل الثَّقَل إلى تل العياضية، وهو تل قُبالة تل المصلّبين مشرفٌ على عكا وخيام العدو. وفي هذه المنزلة توفي حسام الدين طُمان، وكان من شجعان المسلمين، ودُفِنَ في سطح هذا التل، وصَلَّيت عليه مع جماعةٍ من الفقهاء ليلة نصف شعبان.

وبلغ السلطانَ أنَّ جمعاً من العدو يخرجون للاحتشاش من طرف النَّهر، مما ينبت عليه، فكمَّنَ لهم جماعةً من العرب، وقَصَدَ العربَ لخفتهم على خيلهم، فهجموا عليهم، وقتلوا منهم خَلْقاً عظيماً، وأسروا جماعةً، وأحضروا رؤوساً عِدَّة بين يديه، وذلك يوم السبت تاسع عشر شعبان.

وفي عشية ذلك اليوم وقع بين العدو وبين أهل البلد حربٌ عظيمة قُتِلَ فيها جمع عظيم من الطَّائفتين، وطال الأمر بين الفئتين، وما يخلو يوم عن قَتْلٍ وجَرْح وسبي ونَهْب، وأَنِسَ البعضُ بالبعض بحيث إنَّ الطَّائفتين كانتا تَتحدَّثان وتتركانَ القتال، وربما غَنَّى البعضُ، ورقص البعض لطول المعاشرة، ثم يرجعون إلى القتال بعد ساعة، وسئموا يوماً فقالوا: إلى كم يتقاتل الكبار وليس للصِّغار حظ، نريد أن يصطرع صبيان: صبيٌ منا، وصبي منكم. فأُخرج صبيَّان من البلد إلى صبيين من الفرنج، فوثب أحدُ الصبيين المسلمين على أحد الصبيين الكافرين فاحتضنه، وضرب به الأرض، وأخذه أسيراً، فاشتراه بعضُ الفرنج بدينارين، وقالوا: هو أسيرك حقاً. فأخذ الدينارين وأطلقه.

قال: ووصل مركبٌ فيه خيل، فهربَ منها فرس، ووقع في البحر، وما زال يسبح وهم حوله يردُّونه حتى دخل ميناء عكا، وأخذه المسلمون.

قلت: وذكر العماد كلَّ هذه الوقائع والنَّوادر في كتابه بألفاظه المسجوعة.

وقال: وكان من رأي السُّلْطان أن يسايرهم في الطَّريق ويواقعهم عند المضيق، ويقطعهم عن الوصول، ويدفعهم عن النُّزول، فإنَّهم إذا نزلوا صَعُبَ نزالهم، وأتعب قتالهم، وقالوا ـ يعني أمراؤه ـ: بل نمضي على أسهل الطُّرق.

فسار الثَّقَل من الليل على طريق الملاحة، وسرنا على جُبِّ يوسف إلى المُنْيَة، وجئنا عصر يوم الثُّلاثاء والسُّلْطان نازل بأرض كفركَنَّا، ونزل يوم الأربعاء على جبل الخَرُّوبة، ونزل الفرنج على عكا من البحر إلى البحر، محيطين بها للحصر، وضرب الملك العتيق خيمةً على تل المصلَّبة، وربطت مراكبهم بشاطىء البحر، فكانت كالآجام المُؤْتَشَبَة.

ثم عبأ السلطانُ جيشه، ونزل بمرج عكا على تل كَيْسان، وصرنا محاصِرين للمحاصرين، قد أحطنا العدوَّ، وهو بالبلد محيط، واستشطنا منه وهو مستشيط، وأحدقنا بأولئك الكَفَرة إحاطة النَّار بأهلها، ومنعنا الطُّرق من ورائهم في وَعْرها وسَهْلها، ورتَّبنا بالزَّيب والنَّواقير رجالاً يصدُّونهم عن سُبُلنا، ودُمْنا نصدُّهم ونصدمهم، ويوجدهم البحر ونعدمهم. واستدارت الفرنج بعكا كالدَّائرة بالمركز، وزادوا من جانبنا في التحرُّس والتحرُّز، وذلك في آخر رجب لانسلاخه، والإسلام ينادينا باستصراخه.

وأصبح السلطان يوم الجمعة مستهل شعبان، واتفقت الآراء على أن يكون اللقاء وقت الصلاة عند ارتفاع الدَّعوات على المنابر الإسلامية، فأحاط العسكرُ الإسلاميُّ بجوانبهم، فكدَّر عليهم صفو مشاربهم، وفَلَّل مضَاء مضاربهم، وهم في مواضعهم واقفون، وعلى مصارعهم عاكفون، وفي مواطنهم ثابتون كالبنيان المَرْصوص ما فيه خلل، وكالحَلْقة المفرغة ما إليها مدخل، وكالسُّور المحيط ما عليه متسلِّق، وكالجبل الأَشَمِّ ما فيه متعلّق.

فَزَحَفْنا إليهم فلم يبرجوا، وقربنا منهم فلم ينزحوا، وحملنا عليهم فأخذوا الضَّربة ولم يُعطوها، وكلما قُتِلَ واحد وقف آخر مقامه حتى دخل الليل وحجز.

وحملوا من الغد من جانب البحر شمالي عكا، فانهزم الفرنج إلى تل المصلَّبة نحو القُبة، وثبتوا عند الوثبة، وانفتح لنا طريق عكا، فدخلها الرِّجال، وحُمِلَتْ إليها الغلال، والفرنج قد رهبوا، ولو قدروا لهربوا، وأصحابنا رأوا أنَّ انفتاح باب البلد غنيمة، فتوقفوا عن تمام العزيمة، ولو أنهم استمرُّوا لباد العدو بسرعة، فإن للصَّدْمة الأُولى في الرُّوع روعة، فبلع العدو ريقه، ووجد إلى الجِلْد طريقه، ووقفوا كالسُّور من وراء الجنويات[١] والتراس والقنطاريات[٢]، وضربوا

(١) الجنويات: هي السفن الكبيرة الجنوية (نسبة إلى جنوة). ولعل المراد: اهتموا بالسفن الكبيرة الجنوية كأنها الحصون الحصينة.

(٢) القنطاريات: جمع قنطارية، نوع من الأسلحة في خزانة السلاح وتكون مدهونة ومذهبة (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص٢٧٧).

الجروخ وفوّقوها، وجمعوا العُدَد وعلى الرجال فرّقوها، وكانوا في عَدَد الرَّمل ومدد النَّمْل، وهم كلَّ يوم في ازدياد، والبحر يمدُّهم بالأمداد، وشرعوا في حفر الخنادق، وسَدِّ المضائق، ونَصْبِ الطَّوارق، والسُّلْطان ساهر للمسلمين في ليلهم، قائم بأمرهم في نهارهم.

ومن كتابٍ فاضلي في بعض الوقعات: فاستدارت بهم رجال الجاليشية، تقذف شياطينهم بشهابها، وتهوي إلى أوكار أفئدتهم طيرُ نُشَّابها، وتُجْنيهم من القَنَا والنُّشَّاب ثمر الرَّدىٰ متشابهاً، وقد ارتفع الإسلامُ إلى درجاتٍ سيذكر أمرها، وانخفض الكفر إلى دركات سيمرُّ ذكرها، فالنَّصْر خافق علمه، وكتاب البشارة قد استمدَّ قلمه، وقد وثقنا بلطف الله تعالى فيما يأتي، فتأهبت الخواطر لمعاني المسارّ، وأعدَّت ألفاظ البُشْرى المهداة إلى كافة البَشَر من الاستبشار، فإنَّ الفرنج محصورون، والنَّازل المحصور كالمركب المكسور، والنَّصْر قد أعرب لعسكر الإسلام، والكفر جار ومجرور.

فـصـل

في المصافِّ الأعظم على عكا وهي الوقعةُ الكبرى التي بدأت بالسُّوأىٰ وخُتِمَتْ بالحُسْنى[1]

قال القاضي ابنُ شداد: لما كان يوم الأربعاء الحادي والعشرين من شعبان تحرَّكت عساكر الفرنج حركةً لم يكن لهم بمثلها عادةً، فارسهم وراجلهم، وكبيرهم وصغيرهم، واصطفُّوا خارج خيمهم قلباً وميمنةً وميسرة، وفي القلب الملك وبين يديه الإنجيل محمول، مستور بثوب أَطلس نقطي[2]، يمسك أربعة أنفس أربعة أطرافه، وهم يسيرون بين يدي الملك.

وامتدَّت الميمنة في مقابل ميسرة المسلمين من أولها إلى آخرها، وامتدَّت ميسرة العدو في مقابلة ميمنتنا إلى آخرها، وملكوا رؤوس التِّلال، فكان طَرَفُ ميمنتهم إلى النَّهر، وطرف ميسرتهم إلى البحر. وأمر السُّلْطان الجاووش[3] أن

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ١٨٦ ـ ١٨٨: ذكر الوقعة الكبرى على عكا.
(٢) الأطلس: نسيج من حرير. ونقطي: أي منقط (مصطلحات صبح الأعشى ص١٩٧).
(٣) الجاووش: ويسمى أيضاً الجاويش، وهي كلمة تركية مشتقة من المقطع التركي: جاو الذي يدل على معنى الصياح والنداء، ويقول البعض إن أصلها مغولي، أما المعاجم التركية فتذكر أن أصلها فارسي، والجاويش في كل هذه اللغات منصب عسكري (تأصيل الدخيل ص٥٩ ـ ٦٠).

ينادي في النَّاس: يا للإسلام وعساكر الموحِّدين. فركب النَّاس وقد باعوا أنفسهم بالجَنَّة، وامتدَّتِ الميمنة إلى البحر، كل قومٍ يركبون ويقفون بين يدي خيامهم، والميسرة إلى النَّهْر كذلك أيضاً.

وكان السلطان قد أنزل النَّاس في الخيم ميمنةً وميسرةً وقلباً، تعبية الحرب، حتى إذا وقعت صيحة لا يحتاجون إلى تجديد ترتيب، وكان هو في القلب، وفي ميمنة القلب ولدُهُ الأفضل، ثم ولده الظَّافر، ثم عسكر المواصلة مقدَّمهم ظهير الدين ابن البلنكري، ثم عسكر ديار بكر في خدمة قُطْب الدين صاحب الحِصْن، ثم حسام الدين عمر بن لاجين صاحب نابُلُس، ثم قايماز النَّجْمي، وجموع عظيمة متصلين بطرف الميمنة، وكان في طرفها الملك المُظَفَّر تقي الدين بجحفله وعسكره، وهو مطلٌّ على البحر.

وأما أوائل الميسرة فكان مما يلي القلب سيف الدين علي بن أحمد المَشْطوب من كبار ملوك الأكراد ومقدَّميهم، والأمير مُجَلِّي وجماعة المهرانية والهَكَّارية، ومجاهد الدين يرنقش مقدَّم عسكر سِنْجَار، وجماعة من المماليك، ثم مُظَفَّر الدين بن رزين الدين بجحفله وعَسْكره.

وأواخر الميسرة كبار المماليك الأَسَدية كسيف الدين يازكوج، ورسلان بُغا، وجماعة الأسدية الذين يُضرب بهم المَثَل، وفي مقدمة القلب الفقيه عيسى وَجَمْعُهُ. هذا، والسُّلْطان ـ رحمه الله تعالى ـ يطوفُ على الأطلاب بنفسه، يحثُّهم على القتال، ويدعوهم إلى النِّزال، ويرغِّبهم في نُصْرة دين الله.

ولم يزل القوم يتقدَّمون والمسلمون يُقْدمون حتى علا النَّهار ومضى فيه أربعُ ساعات، وعند ذلك تحرَّكت ميسرة العدو على ميمنة المسلمين، وأخرج لهم تقي الدين الجاليش(١)، وجرى بينهم قلبات كثيرة، وتكاثروا على تقيِّ الدين ـ وكان في طرف الميمنة على البحر ـ فتراجع عنهم شيئاً إطماعاً لهم لعلهم يبعدُون عن أصحابهم، فينال منهم غَرَضاً، فلما رآه السُّلْطان قد تأخر ظَنَّ به ضَعْفاً، فأمدَّه بأطلاب عِدَّة من القلب حتى قوي جانبه، وتراجعت ميسرة العدو، واجتمعت على

(١) الجاليش: كلمة فارسية ومعناها: الحرب والمعركة. والجاليش في الكتب العربية علم كبير في أعلاه خصلة من شعر الخيل. وقد كان من التقاليد المملوكية إذا عزم السلطان على الخروج للقتال أن يرفع هذا العلم أربعين يوماً قبل يوم الخروج فوق مبنى الطبلخانة (وهو مكان في القلعة)، والجاليش أيضاً تستعمل بمعنى طليعة الجند. وقد ذكرها المقريزي بشينين «شاليش»، وتجمع على جواليش (انظر تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ص٥٨، وصبح الأعشى ٤/ ٧).

تل مشرف على البحر، ولما رأى الذين في مقابلة القلب ضَعْفَ القلب وَمَنْ خرج منه من الأطلاب داخلَهم الطَّمع، وتحركوا نحو ميمنة القلب، وحملوا حملةَ الرَّجل الواحد، راجلُهم وفارسهم.

قال: ولقد رأيتُ الرَّجَّالة تسير سَيْرَ الخَيَّالة ولا يسبقونها، وهم يسيرون خبباً.

وجاءت الحملة على الدِّياربكرية كما يشاء الله تعالى، وكان بهم غِرَّة عن الحرب، فتحركوا بين يدي العدوّ، وانكسروا كسرةً عظيمة، وسَرَىٰ الأمر حتى انكسر مُعْظَم الميمنة، واتبع العدو المنهزمين إلى العياضية، فإنَّهم استداروا حول التَّلِّ، وصَعِدَ طائفة من العدو إلى خيم السُّلْطان، فقتلوا طشت دار[١] كان هناك، وفي ذلك اليوم استشهد إسماعيل المكبِّس[٢] وابن رواحة[٣] ـ رحمهما الله تعالى ـ وأما الميسرة فإنَّها ثبتت، فإن الحملة لم تصادفها.

وأما السُّلْطان ـ رحمه الله ـ فإنَّه أخذ يطوف على الأطلاب[٤] ينهضهم ويَعِدُهم الوعود الجميلة، ويحثُّهم على الجهاد، وينادي فيهم: يا للإسلام. ولم يبق معه إلا خمسة أنفس، وهو يطوفُ ويتخرَّق الصُّفوف، وأوىٰ إلى تحت التل الذي كان عليه الخيام.

وأما المنهزمون من العسكر فإنَّهم بلغت هزيمتهم إلى القحوانة، قاطع جسر طبرية، وتَمَّ منهم قومٌ إلى دمشق، وأما المتَّبِعون لهم فإنهم اتبعوهم إلى العياضية، فلما رأوهم قد صَعِدُوا الجبل رجعوا عنهم عائدين إلى عسكرهم، فلقيهم جماعةٌ من الغِلْمان والخَرْبَنْدِيَّة والسَّاسة منهزمين على بغال الحمل، فقتلوا منهم جماعة، ثم جاؤوا على رأس السُّوق، فقتلوا جماعة، وقُتِلَ منهم جماعة، فإنَّ السوق كان فيه خَلْقٌ عظيم، ولهم سلاح.

---

(١) طشت دار: هو من غلمان مهتار الطشت خاناه. والطشت خاناه معناه بيت الطشت، سميت بذلك لأن فيها يكون الطشت الذي تغسل فيه الأيدي والطشت الذي يغسل فيه القماش. وفي الطشت خاناه يكون ما يلبسه السلطان من الكلوتة والأقبية وسائر الثياب والسيف والخف والسرموزة وغير ذلك، وفيها يكون ما يجلس عليه السلطان من المقاعد والمخاد والسجادات التي يصلي عليها وما شاكل ذلك. ولها أيضاً مهتار من كبار المهتارية، يعرف بمهتار الطشت خاناه، وتحت يديه عدة غلمان بعضهم يعرفون بالطشت دارية، وبعضهم يعرف بالرختوانية (صبح الأعشى ٤/ ٩ ـ ١٠).

(٢) هو إسماعيل الصوفي الأرموي المكبس، سيرد ذكره بعد قليل.

(٣) ابن رواحة: هو الحسين بن عبد الله بن رواحة، الفقيه أبو علي، سترد ترجمته الوافية بعد قليل.

(٤) الأطلاب: هي وحدات عسكرية صغيرة. تقدّم التعريف بهم مراراً.

وأما الذين صَعِدوا الخيم السُّلْطانية، فإنهم لم يلتمسوا منها شيئاً أصلاً سوى أنهم قتلوا من ذكرناه وهم ثلاثةُ نفر، ثم رأوا ميسرة الإسلام ثابتة فعلموا أنَّ الكسرة لم تتمَّ، فعادوا منحدرين من التَّلِّ يطلبون عسكرهم.

وأما السُّلْطان فإنه كان واقفاً تحت التَّلِّ ومعه نَفَرٌ يسير، وهو يجمعُ النَّاس ليعودوا إلى الحملة على العدو، فلما رأى الفرنج نازلين من التل أرادوا لقاءهم، فأمرهم بالصَّبْر إلى أن وَلَّوْا ظهورهم، واشتدُّوا يطلبون أصحابهم، فصاح في النَّاس، وحملوا عليهم، وطرحوا منهم جماعة، واشتدَّ الطَّمعُ فيهم، وتكاثَرَ النَّاس وراءهم حتى لحقوا أصحابهم، والطَّرْد وراءهم، فلما رأَوْهم منهزمين والمسلمون وراءهم في عددٍ كثير ظنُّوا أن من حمل منهم قد قُتِل، وأنه إنما نجا منهم هذا النَّفَر فقط، وأن الهزيمة قد عادت عليهم، فاشتدُّوا في الهرب والهزيمة، وتحرَّكت الميسرة عليهم.

وعاد الملك المظفَّر بجمعه من الميمنة، وتحايا الرِّجال وتداعت، وتراجع النَّاس من كل جانب، وكَذَبَ اللَّهُ الشَّيْطَان، ونَصَرَ الإيمان، وظلَّ الناس في قَتْلٍ وطَرْحٍ، وضَرْبٍ وجَرْح إلى أن اتَّصل المنهزمون السَّالمون إلى عسكر العدو، فهجمَ المسلمون عليهم في الخيام، فخرج منهم أطلاب كانوا أعدُّوها ـ خشيةً من هذا الأمر ـ مستريحة، فردُّوا المسلمين. وكان التَّعب قد أخذ من النَّاس، والخوف والعرق قد ألجمهم، فتراجع الناس عنهم بعد صلاة العَصْر يخوضُون في القتلى ودمائهم فرحين مسرورين.

[استشهاد ظهير الدين أخي الفقيه عيسى الهكاري]

وعاد السلطان وجلسوا في خدمته يتذاكرون من فُقِد منهم، فكان مقدار من فُقِد منهم من الغِلْمان والمجهولين مائةً وخمسين نفراً، ومن المعروفين استشهد في ذلك اليوم ظهير الدين أخو الفقيه عيسى ـ رحمه الله ـ ولقد رأيتُه وهو جالسٌ يضحك والنَّاس يُعَزُّونه، وهو ينكر عليهم ويقول: هذا يوم الهناء لا يوم العزاء. وكان قد وقع هو من فرسه ـ رحمه الله ـ وأُركبه، وقُتِلَ عليه جماعة من أقاربه. وقُتِل في ذلك اليوم الأمير مجلِّي يعني ابن مروان.

وزاد العماد: والحاجب خليل الهَكَّاري.

ثم قال القاضي: هذا الذي قُتِلَ من المسلمين، وأما العدو المخذول فَحُزِرَ قتلاهم بسبعة آلاف نفر، ورأيتهم وقد حُملوا إلى شاطىء النهر ليلقوا فيه، فَحَزَرْتُهم بدون سبعة آلاف.

ولما تَمَّ على المسلمين من الهزيمة ما تَمَّ، رأى الغِلْمان خُلُوَّ الخيام عمن يعترضُ عليهم، فإن العسكر انقسم إلى منهزمين ومقاتلين، فلم يبق في الخيم أحد، ورأوا الكسرة قد وقعت ظَنُّوا أنها تتم، وأن العدوَّ ينهب جميع ما في الخيم، فوضعوا أيديهم في الخيم، ونهبوا جميع ما كان فيها، وذهب من النَّاس أموالٌ عظيمة، وكان ذلك أعظم من الكسرة وَقْعاً.

فلما عاد السُّلْطان إلى الخيم، ورأى ما قد تَمَّ على الناس من نَهْبِ الأموال والهزيمة سارع في الكُتُب والرُّسل في رَدِّ المنهزمين، وتتبَّع من شَذَّ من العسكر، والرُّسُل تتتابع في هذا المعنى حتى بلغت عقبة فيق، فردُّوهم وأخبروهم بالكَرَّة للمسلمين، فعادوا.

وأَمَر بجمع الأقمشة من أكف الغِلْمَان، وجَمَعَ الأقمشة، في خيمته حتى جلالات الخيل والمخالي، وهو جالسٌ، ونحن حوله، وهو يتقدَّم إلى كلِّ مَنْ عَرَفَ شيئاً وحلف عليه يُسَلِّم إليه، وهو يتلقَّى هذه الأحوال بقلب صلب، وصَدْرٍ رَحْب، ووَجْه منبسط، ورأي مستقيم، واحتساب لله تعالى، وقوَّةِ عَزْمٍ في نُصْرة دينه.

وأما العدو المخذول فإنَّه عاد إلى خيمه، وقد قُتِلَتْ شُجْعانهم، وفُقِدت ملوكهم، وطرحت مقدَّموهم، وأمر السُّلْطان أن يخرج من عكا عَجَلٌ يسحبون القتلى منهم إلى طرف النهر ليلقوا فيه.

قال: ولقد حكى لي بعضُ من ولي أمر العَجَل أنه أخذ خيطاً، وكان كلما أُخذ قتيل عَقَدَ عقدةً، فبلغ عدد قتلىٰ الميسرة أربعة آلاف ومائة وكسراً، وبقي قتلى الميمنة وقتلى القلب لم يعدَّهم، فإنهم ولي أمرهم غيره، وبقي من العدو بعد ذلك من حمى نفسه، وأقاموا في خيمهم لم يكترثوا بجحافل المسلمين وعساكرهم، وتشذَّب[1] من عساكر المسلمين خَلْقٌ كثير بسبب الهزيمة، فإنه ما رجع منها إلا رجلٌ معروف خاف على نفسه، والباقون ذهبوا في حال سبيلهم.

وأخذ السُّلْطان في جمع الأموال المنهوبة وإعادتها إلى أصحابها، وأقام المنادية في العساكر، وقَرَنَ النِّداء بالوعيد والتهديد، وهو يتولَّى تفرقتها بنفسه بين يديه، واجتمع من الأقمشة عددٌ كثير في خيمته، حتى إن الجالس في أحد الطَّرفين لا يرى الجالس في الطَّرف الآخر، وأقام من ينادي على مَنْ ضَاعَ منه شيء، فحضر الخَلْق، وصار من عَرَفَ شيئاً وأعطى علامته حلف عليه وأخذه، من الحبل

(١) تشذّب: تفرق وتشتت.

والمخلاة إلى الهِمْيان[1] والجوهرة، ولقي من ذلك مشقَّة عظيمة، ولا يرى ذلك إلا نعمةً من الله تعالى يشكر عليها، ويسابق بيد القَبُول إليها، ولقد حضرتُ يوم تفرقة الأقمشة على أربابها، فرأيتُ سوقاً للعدل قائمة لم يُرَ في الدنيا أعظم منها، وكان ذلك في يوم الجمعة الثَّالث والعشرين من شعبان.

قال: وعند انقضاء هذه الوقعة وسكون نائرتها، أمر السُّلْطان بالثَّقَل حتى تراجع إلى موضع يقال له الخَرُّوبة خشيةً على العسكر من أراييح القتلىٰ وآثار الوقعة من الوخم، وهو موضعٌ قريبٌ من مكان الوقعة إلا أنه أبعد عنها من المكان الذي كان نازلاً فيه بقليل، وضربت له خيمة عند الثَّقَل، وأمر اليَزَك أن يكون مقيماً في المكان الذي كان نازلاً فيه، واستحضر الأمراء وأرباب المشورة في سَلْخ الشهر، ثم أمرهم بالإصغاء إلى كلامه، وكنتُ من جملة الحاضرين، ثم قال: بسم الله، والحمدُ لله، والصَّلاة والسلام على رسول الله، اعلموا أنَّ هذا عدو الله وعدونا، قد نزل في بلدنا، وقد وطىء أرضَ الإسلام، وقد لاحت لوائح النُّصْرة عليه إن شاء الله تعالى، وقد بقي في هذا الجمع اليسير، ولا بُدَّ من الاهتمام بقلعه، والله قد أوجب علينا ذلك، وأنتم تعلمون أَنَّ هذه عساكرنا، ليس وراءنا نجدة ننتظرها سوى الملك العادل، وهو واصل. وهذا العدوّ إنْ بقي وطال أمره إلى أن ينفتح البحر جاءه مَدَدٌ عظيم، والرأي كل الرأي عندي مناجزته، فليخبرنا كل منكم ما عنده في ذلك.

وكان ذلك في ثالث عشر تشرين ـ يعني الثَّاني ـ من الشهور الشَّمْسية، فانفصلت آراؤهم على أَنَّ المصلحة تأخر العسكر إلى الخَرُّوبة، وأن يبقى العسكر أياماً حتى يستجمَّ من حمل السِّلاح، وترجع نفوسهم إليهم، فقد أخذ منهم التَّعَب، واستولى على نفوسهم الضَّجَر، وتكليفهم أمراً على خلاف ما تحمله القوى لا تؤمن غائلته، والنَّاس لهم خمسون يوماً تحت السِّلاح وفوق الخيل، والخيلُ قد ضجرت من عَرْكِ اللُّجُم، وعند أخذ حَظٍّ من الرَّاحة ترجع نفوسها إليها، ويصلُ الملك العادل، ويشاركنا في الرأي والعمل، ونستعيد من شَذَّ من العساكر، ونجمع الرَّجَّالة ليقفوا في مقابلة الرَّجَّالة. وكان بالسلطان ـ رحمه الله ـ التياثٌ مِزَاجيٌّ قد عراه من كثرة ما حمل على قلبه، وما عاناه من التَّعب بحمل السِّلاح والفكر في تلك الأيام، فوقع له ما قالوه، ورآه مصلحةً، فأقام يُصلِح مِزَاجه ويجمع العساكر إلى عاشر رمضان.

قال: وكان لما بلغه خَبَرُ العدوِّ وقَصْدُه عكا جمع الأُمراء وأصحاب الرأي

---

(١) الهميان: منطقة من جلد تتخذ لصر النقود.

بمرج عيون، وشاورهم فيما يصنع، وكان رأيه ـ رحمه الله ـ أن قال: المصلحة مناجزة القوم، ومنعهم من النُّزول على البلد، وإلا إن نزلوا جعلوا الرَّجَّالة سوراً لهم، وحفروا الخنادق وصعب علينا الوصول إليهم، وخيف على البلد منهم. وكانت إشارة الجماعة أنهم إذا نزلوا، واجتمعت العساكر قلعناهم في يوم واحد. وكان الأمر كما قال، والله لقد سمعتُ منه هذا القول، وشاهدتُ الفعل كماً قال.

وقال العماد: عَبَّأ السُّلْطان ميمنته وميسرته، وطلب من الله نُصْرته، وهو يمرُّ بالصفوف، ويأمر بالوقوف، وَيَحُضُّ على حَظِّ الأبد، ويحثُّ على الجِلاد والجَلَد.

قال: وكنت في جماعةٍ من أهل الفَضْل قد ركبنا في ذلك اليوم، ووقفنا على التَّلِّ نشاهد الوقعة، ونحن على بغالٍ بغير أُهبة قتال، فرأينا العسكر مولِّياً، والمنهزم عما تركه من خيامه ورحله متخلِّياً، فوصلنا إلى طبرية فيمن وصل، ووجدنا ساكنها قد أجفل، فسقنا إلى جسر الصِّنَّبْرة، ونزلنا على شرقيِّه، وكل منا ذاهلٌ عن شِبَعِهِ وريِّه، ومن المنهزمين من بلغ عقبة فيق، وهو غير مُفيق، ومنهم من وصل إلى دمشق وهو غير معرِّج على طريق.

ووصل جماعةٌ من الفرنج إلى خيمة السُّلْطان، وجالوا جولة ثم رأوا انقطاع أشياعهم عنهم، فانحدروا عن التل، واستقبلهم أصحابنا فركبوا أكتافهم، وحكَّموا في رقابهم أسيافهم، وكان ميسرتنا عسكر سِنْجار والأَسَدِيَّة. فما زلُّوا ولا زالوا، بل وصلوا وصالوا، وحملت عليهم ميمنة الفرنج، فكأنما مرَّتِ الرياحُ بالجبال، وعاد من كان من الميمنة مثل تقي الدين وقايماز النَّجْمي والحسام بن لاجين، ومن ثَبَتَ من أبطال المجاهدين، فلم يفلت من الأعداء إلا أعداد، ولم ينجُ من آلافها إلا آحاد، وفُرِسَ[1] منهم زُهاء خمسة آلاف فارس، منهم مقدَّم الدَّاوية الذي كنا أطلقناه، وذكر أنهم في مائة ألف وعشرين ألف حين سألناه، ثم ضربنا عنقه. وقال في «الفتح»: وعشرة آلاف.

وقال العماد: ومن العجب أن الذين ثبتوا منَّا لم يبلغوا ألفاً فردُّوا مائة ألف، وآتاهم الله قوَّة من بعد ضَعْف، وكان الواحد يقول: قتلتُ من المثلِّثين ثلاثين وأربعين، وتركتُهم مُصَرَّعين. وكان السُّلْطان من الثابتين في تلك الجولة، الكابتين لأهل الصَّوْلة، وقد بقي وحده عند تولِّي المسلمين، ولا شَكَّ أن الله أنزل ملائكته المسوَّمين.

حكى بعضُهم قال: كنتُ منهزماً من فارسٍ مدجَّج قد لَزَّ بقربي حصانه، وهَزَّ

(١) فُرِسَ: أي قتل، والفَرْس: دق العنق.

لصُلْبي سِنَانه، فأيست من البقاء، ثم أبطَأَتْ عليَّ طَعْنَتُه، فالتفتُّ، فإذا هو وحصانه كلاهما ملقى، وما بالقرب أحد، فعرفتُ أنه نَصْرٌ إلهي، وصُنْعٌ رَبَّاني.

[استشهاد الفقيه أبي علي بن رواحة]

قال: وعاد السُّلْطان إلى مضاربه، وأمر بمواراة الشُّهداء، ومن جملتهم الفقيه أبو علي بن رواحة(١)، وكان غَزيرَ الْفَضْل، قد أكمل الشجاعة والرَّجَاحة، وهو شاعرٌ مُفْلِق وفقيه محقِّق من ولد عبد الله بن رواحة الصَّحابي الأنصاري في الشَّهادة والشِّعْر مُعْرق، فَطَرَفُه الأعلى يوم مُؤتة مع جعفر الطَّيَّار، وطَرَفُهُ الأقرب يوم عكا في لقاء الكُفَّار.

قال في «البرق»: وكان السُّلْطان قد أنعم عليه في حلب بمزرعةٍ، وكتبتُ توقيعه، وأراد الله تعويقه، إذ قَرَّب إلى الآخرة طريقه، وحملتُ توقيعه إلى السُّلْطان تلك الليلة ليعلِّم فيه فما عَلَّم، وراجعتُه في معناه فسكت وما تكلَّم، وكان ساعة الوقعة راكباً معنا، ثم قال: وقوفنا يطول. فمضىٰ إلى خيمته يتودَّع، فلما علم باندفاعنا ساق وراءنا، فَقُطِعَ عمره قبل أن يقطع الوادي. وكان قال لنا لما أصبح: رأيتُ كأنَّ رجلاً يحلق رأسي في المنام. فقلنا له: هذا من أضغاث الأحلام. فنقله الله بعد ساعة إلى دار السَّلام.

قلت: وليس هو من أولاد ابنِ رواحة الصَّحابي، ذاك لم يُعقب، وإنما في أجداده من اسمه رواحة، وقد بَيَّنَّاه في «التَّاريخ»، والله أعلم.

قال: ومنهم إسماعيل الصُّوفي الأُرْمَوِي المكبِّس، وشيخٌ من الحاشية في بيت الطشت(٢) وغلام في الخزانة أمين على البيت، وآخرون صودفوا عند التَّل

(١) هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن رواحة، الشاعر الفقيه، ولد بحماة سنة ٥١٥هـ، ونشأ بها، ثم رحل إلى دمشق، فأقام بها مدة، واشتغل بالفقه، وسمع الحديث من مؤرخ الشام ابن عساكر وآخرين، ورحل إلى مصر أيام الصالح بن رزيك، ولما أراد الرجوع إلى الشام ركب البحر فقطع عليه فرنج صقلية الطريق فأسروه، وذلك نحو سنة ٥٦٠هـ، وبقي في أسرهم مدة، ثم عاد إلى حماة، ثم سافر إلى مصر وأقام فيها في ظل السلطان صلاح الدين، وهناك أسمع ولده من الحافظ السلفي. قتل شهيداً بمرج عكا سنة ٥٨٥هـ (معجم الأدباء ١٠/ ٤٦ ـ ٥٦، «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ٤٨١ ـ ٤٩٦، مفرج الكروب ٢/ ٣٠٠ ـ ٣٠٢، فوات الوفيات ١/ ٣٧٦ ـ ٣٧٧، الوافي بالوفيات ١٢/ ٤١٣ ـ ٤١٦).

(٢) بيت الطشت: هو الطشت خاناه، قال القلقشندي في صبح الأعشى ٤/ ٩ ـ ١٠: قد غلب عليهم استعمال لفظ الطشت بشين معجمة مع كسر الطاء، وصوابه بالسين المهملة مع فتح الطاء، وأصله طسٌّ بسين مشددة فأبدلت من إحدى السينين تاء للاستثقال، فإذا جمع أو صُغِّر ردت السين إلى أصلها، فيقال في الجمع طساس وطسوس، وفي التصغير طسيس، =

فجاءتهم السَّعادة، وفجأتهم الشَّهادة، وهؤلاء سوى من وَقَعَ في الوقعة، وذهب قبل الرَّجعة.

وأجمع السُّلْطان وذوو الآراء على أنه يصبِّح القوم، فتفقدوا العسكر، فإذا هو قد غاب لما ناب من الأمر وراب، وذلك أن غِلْمان العسكرية الأوباش ظنُّوا أن تلك الفورة هزيمة، فنهبوا الأثقال، وعَدُّوها غنيمة، فمن عاد إلى رحله وجده منهوباً مسلوباً، وكان في ظَنِّه أَنَّه فرغ من لقاء خَطْبٍ فلقي خُطُوباً، وأصبحنا وإذا العسكر مفترق، والثَّابت قَلِق، والآمن فَرِق، والغنيُّ مُعْدِم، والجريء متندِّم.

فهذا خَلْفَ ما ذهب من ماله ذاهب، وهذا لمن طَلَبَ الطَّريق بأثقاله طالب، فتفتَّر ذلك العَزْم، وتأخَّر ذلك الحُكْم، وانتعش الفرنج في تلك المُدَّة، وانتشلوا من تلك الشِّدَّة، وجاءتهم في البحر مراكب أخلفت من عُدِم، وبنت ما هُدِم.

وشكونا نتن رائحة تلك الجيف، فحملت على العَجَل إلى النهر، ليشرب من صديدها أهلُ الكُفْر، فحمل أكثر من خمسة آلاف جُثَّة، حُمِلَت إلى النَّار قبل يوم البعثة، وأُشير على السُّلْطان بالانتقال إلى الخَرُّوبة، عند خيم الأثقال المضروبة، فسار إليها رابع رمضان، وأمر أهل عكا بإغلاق أبوابها، وإحكام أسبابها، فوجد الفرنجُ بذلك الفَرَج، وشَرَعوا في حفر خندقٍ على معسكرهم حوالي عكا من البحر إلى البحر، وأخرجوا ما كان في مراكبهم من آلات الحَصْر، وفي كل يوم يأتينا اليَزَكيَّة[1] بخبرهم، وبما ظَهَر من أثرهم، والجدّ في تعميق الخندق، وتتميم محتفرهم، فكان من قضاء الله أَنَّا أغفلناهم وأمهلناهم، بل أهملناهم حتى عَمَّقوا الحفور، ووثقوا من تُرَابها السُّور، فكانوا يخندقون ويعمِّقون، ويعملون من تراب الحُفَر حولهم سوراً، فعاد مخيَّمهم بلداً مستوراً معموراً، فملؤوه بالسَّتائر، ومنعوه من الطير الطائر، وبنوه وأسَّسوه، وستروه وتَرَّسوه، ورتَّبوا عليه رجالاً، ولم يتركوا إليه لواغلٍ مجالاً، وتركوا فيه أبواباً وفروجاً ليظهروا منها إذا أرادوا خروجاً.

ولما فرغوا من هذا الأمر اشتغلوا بالحَصْر، وانقطعت الطريق على المسلمين إلى عكا، وبان ضعف رأي الانتقال، فإنه بعدما أضحك أبكى.

وجاء كتابٌ من الفاضل إلى العماد جواباً عن كتابه المخبر فيه بوقعة مرج عكا، يقول فيه: وعرفت ما جرى على قضيته، فسبَّحت الله تعالى، فإن من

= قال الجوهري: ويقال فيه أيضاً طَسَّة، ويجمع على طسَّات، والناس الآن يقولون طاسة ويجمعونه على طاسات، ويجعلون الطست اسماً لنوع خاص، والطاسة اسماً لنوع خاص.

(١) اليزكية: أي طلائع العسكر.

عجائب قُدْرَتِهِ سلامة سَيِّدنا على ضَعْف حركته، والأمر كان عظيماً، والمدفَعُ أعظم، والسَّلامة كانت غريبة إلا أن نقول: ولكنَّ الله سَلَّم، والسُّلْطان ـ أعزَّه الله ـ إذا سَلِمَ فكلُّ الناس قد سَلِموا، وإذا وجد وقد عدم النَّاس كلهم فقد وُجدُوا وما عُدموا، وكلُّ جوهر بالإضافة إليه عَرَض، وهو جوهر بالحقيقة ما عنه من كلِّ جوهر عَرَض.

ومن كتاب له إلى السُّلْطان، أَوَّله: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٢٦] الآية، ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، ورد الكتاب بخط مولانا من معترك حربه، وتوفيق جهاده قبل أن تَضَع الحرب أوزارها، وهَرَع النَّاس إلى المجلسين العادلي والعزيزي يستمعون الأخبار، ويستوضحون من وجوههما الأنوار، ويسألون كيف كان عاقبة أهل الجنة وعاقبة أهل النَّار، ويشكرون الله على سلامة أديانهم وقلوبهم وأبدانهم، وسلامة سُلْطانهم، وما أدراك ما سلامة سُلْطانهم، ونُصْرة كلمة إيمانهم، ودلائل الخير لا تخفى، وقد يقرأ الكتب وما يلمح قارئها منها حرفاً، وتصوَّر النَّاسُ الأمر الذي وقاهم الله شَرَّه، وكفاهم أمره.

فصل

في باقي حوادث هذه السنة بمرج عكا وغيره

[استيلاء المسلمين على مركب للفرنج]

قال العماد: وفي يوم الاثنين ثالث رمضان أخذ أصحابُنا بعكا مركباً للفرنج إلى صور، مقلعاً محتوياً على ثلاثين رجلاً وامرأة واحدة، ورِزْمَةً من الحرير، وجاءت حظوة حُلْوة، وغنيمة صَفْوة، وقد كان انكسر نشاطهم، وانقبض انبساطهم، فلما عثروا بالمركب انتعشوا، وصاروا يخرجون ويقتلون ويجرحون، ويمسون على القتال ويصبحون، وندم الفرنج على تلك الحركة، فإنها أفضَتْ بهم إلى الهَلَكَة، فإنَّهم ما داموا رابضين، وعلى يد الصَّبْر قابضين، يتعذَّر الوصول إليهم، والدخول عليهم.

وفي بعض الكتب إلى بعض الأطراف: والمرجو من الله سبحانه تحريك هِمَم المؤمنين في تسكين ثائرهم، وتخريب عامرهم، وما دام البحر يمدُّهم، والبر لا يصدُّهم، فبلاء البلاد بهم دائم، ومرض القلوب بأدوائهم مُلازم، فأين حَمِيَّةُ المسلمين؟ ونخوةُ أهل الدين؟ وغيرة أهل اليقين؟

وما ينقضي عَجَبنا من تظافر المشركين وقعود المشركين، فلا مُلَبِّي منهم لمنادٍ، ولا مثقِّف لمناد، فانظروا إلى الفرنج أي موردٍ وردوا، وأي حَشْدٍ حشدوا، وأي ضالَّة نشدوا، وأي نجدةٍ أنجدوا، وأية أموالٍ غَرموها وأنفقوها، وَجِدَاتٍ جمعوها وتَوَزَّعوها فيما بينهم وفرَّقوها، ولم يبق ملك في بلادهم وجزائرهم، ولا عظيم ولا كبير من عظمائهم وأكابرهم، إلا جارى جاره في مضمار الإنجاد، وبارى نظيره في الجدِّ والاجتهاد، واستقلُّوا في صونِ مِلَّتهم بَذْلَ المُهَج والأرواح، وأمدُّوا أجناسهم الأنجاس بأنواع السِّلاح مع أكفاء الكفاح، وما فعلوا ما فعلوا، ولا بذلوا ما بذلوا إلا لمجرَّد الحَمِيَّة لمتعبَّدهم، والنخوة لمعتقدهم.

وليس أحدٌ من الفرنجية يستشعر أَنَّ السَّاحل إذا مُلِكَ، ورُفِعَ فيه حجابُ عِزِّهم، وهُتِك، يخرج بلدٌ عن يده، وتمتدُّ يدٌ إلى بلده.

والمسلمون بخلاف ذلك قد وهنوا وفَشِلوا، وغَفَلوا وكَسِلُوا، ولزموا الحَيْرَة، وعَدِمُوا الغَيْرة. ولو انثنىٰ ـ والعياذ بالله ـ للإسلام عِنان أو خبا سناً ونبا سِنان، لما وُجِدَ في شَرْق البلاد وغَرْبها، وَبُعْدِ الآفاق وقُرْبها مَنْ لدينِ الله يغار، ومن لنُصْرَة الحقِّ على الباطل يختار.

وهذا أوانُ رَفْضِ التَّواني، واستدناء أولي الحمية من الأقاصي والأداني، على أَنَّا بحمد الله لنصره راجون، وله بإخلاص السِّرِّ وسِرِّ الإخلاص مناجون، والمشركون ـ بإذن الله ـ هالكون، والمؤمنون آمنون ناجون.

[قدوم الملك العادل إلى صلاح الدين ومجيء الأسطول المصري بقيادة حسام الدين لؤلؤ]

قال العماد: وكان السُّلْطان قد كتب إلى مِصْر يستدعي بأخيه العادل في رجاله، فقدم عليه منتصف شَوَّال، وكتب أيضاً في طلب الأسطول المِصْري، فقدمت خمسون قطعة مع حسام الدين لؤلؤ منتصف ذي القَعْدة، فجاءت فجأة على مراكب الفرنج وبغتتها وسحقتها، وبدَّدتها وكبستها وسلبتها، وظفر ببطستين كبيرتين بما فيهما من أموالهم ورجالهم وغِلالهم.

قال: وهذا لؤلؤ قد اشتهرت بالكفر فتكاتُه، وشُكرت في العدوِّ نكاياتُه، وقد تفرَّد بغزوات لم يشاركه فيها أحد، وهو الذي رَدَّ الفرنج عن بحر الحجاز، ووقف لهم على طرق المجاز، ولم يترك منهم عيناً تطرف، ولم يُبق لهم دليلاً يُعَرِّف. وغزواتُهُ مشهورة، وفتكاته مذكورة، وأمواله مبذولة، وأكياسُهُ لعُقَد الإنفاق في سبيل الله محلولة.

[نقل جماعة من الأمراء بأجنادهم وعددهم إلى داخل عكا]

قال: ونقل السُّلْطان إلى البلد في المراكب جماعةً من الأمراء بأجنادهم وعُدَدهم وأزوادهم، واستظهر البلد أيضاً برجال الأُسطول، وكانوا زُهاء عشرة آلاف، هذا ورجَّالة المسلمين يتطرَّقون إليهم ليلاً، ويذيقونهم من القتل والأسر والسرقة ويلاً، حتى كان رجالنا يختفون بالحشيش في أجراف الأنهار، فإذا صادفوا فارساً وَرَدَ الماء فاجؤوه بالقَتْل والإسار.

[إرسال صاحب الموصل السلاح إلى صلاح الدين]

قال: ولما عَرَفَ صاحبُ المَوْصِل ما شَرَعَ فيه السُّلْطان من تكثير العُدَّة، وتقوية النَّجدة، بكل ما يمكنه من أسباب البأس والشِّدَّة، سَيَّر من أحمال النفط الأبيض مع عِزَّة وجوده ما وجده، ومن التِّرَاس والرِّماح من كل جنسٍ أحكمه وأقومه وأجوده.

وكتبنا في شُكْره: وَصَلَ السِّلاح، وتمَّ للإسلام من قروح الكُفْر الاقتراح، فإنَّ الحرب المتطاولة المُدَد، أَتَتْ على جميع العُدَد، ومن العجب أنَّ العُدَّة تفنى وما يفنى العُدَاة، وتنمو على الحصاد كأَنَّها النَّبات، فالبحرُ يُمِدُّهم، والكفر إلى الردى يردُّهم.

ومن كتابٍ إلى الديوان: قد مضت ثلاثة أشهرٍ شَهَرَ بها التَّثليث على التوحيد سلاحه، وبَسَطَ الكُفْر جناحه، وقُتِلَ من الفرنج، وعُدِمَ في الوقعات التي رَوَّعت والرَّوعات التي وقعت أكثر من عشرين ألف مقاتل؛ من فارس وراجل، ورامحٍ ونابل، فما أثَّر ذلك في نقصهم، ولا أَرَّثَ إلا نار حرصهم.

وليس هذا العدو بواحد فينجع فيه التدبير، ويأتي عليه التدمير، وإنما هو كل من وراء البحر، وجميع من في دار الكفر، فإنه لم يبق لهم مدينة ولا بلدة، ولا جزيرة ولا خُطَّة صغيرة ولا كبيرة إلا جَهَّزَتْ مراكبها، وأنهضت كتائبها، وتحرَّك ساكنها، وبرز كامنها، وثار ثائرها، وسار سائرها، وطار طائرها، ونفضت خزائنها، وانفضَّت معادنها، وحُملت ذخائرها، وبذلت أخايرها، ونثلت كنائن كنائسها، واستخرجت دفائن نفائسها، وخرج بصُلْبانها أساقفها وبطاركها، وغُصَّت بالأفواج فجاجُها ومسالكها، وتصلَّبت للصَّليب السَّليب، وتعصَّبت للمُصاب المُصِيب، ونادوا في نواديهم بأنَّ البلاء دَهَم بلادهم، وأَنَّ إخوانهم بالقُدْس أبارهم الإسلام وأبادهم، وأنه من خرج من بيته مهاجراً لحرب الإسلام وُهِبَتْ له ذنوبه،

وذهبت عنه عيوبُهُ، ومن عَجَزَ عن السَّفر سَفَّر بعُدَّته وثروته من قدر، فجاؤوا لابسين للحديد بعد أن كانوا لابسين للحِدَاد، وتواصلت منهم الأمداد.

[وصول نساء إفرنجيات للترفيه عن الفرنجة]

قال: ووصلت في مركب ثلاثمائة امرأة فرنجية مستحسنة، اجتمعن من الجزائر، وانتدبن للجرائر، واغتربن لإسعاف الغُرباء، وقَصَدْنَ بخروجهن تسبيل أنفسهن للأشقياء، وأنهن لا يمتنعن من العُزْبان، ورأين أنهن لا يتقربن بأفضل من هذا القُرْبان، وَزَعمْنَ أَنَّ هذه قُرْبة ما فوقها قُرْبة، لا سيما فيمن اجتمعت فيه عُزْبة وغُرْبة.

قال: وأَبَقَ من عسكرنا من المماليك الأغبياء، والمدابير[1] الجهلاء جماعة جَذَبهم الهوى، واتبعوا من غوى، فمنهم من رضي للذَّة بالذِّلَّة، ومنهم مَنْ نَدِم على الزَّلَّة، فتحيَّل في النُّقْلة، فإنَّ يَدَ مَنْ لا يرتدُّ لا تمتد، وأَمْرَ الهارب إليهم لاتهامه يشتد، وباب الهوى عليه يستد، وما عند الفرنج على العَزْباء إذا أمكنت منها العَزَب حَرَج، وما أزكاها عند القسوس إذا كان للعُزْبان المضيقين من فَرْجها فَرَج.

قال: ووصلت أيضاً في البحر امرأة كبيرة القدر، وافرة الوَفْر، وفي جملتها خمسمائة فارس بخيولهم وأتباعهم، وغِلْمانهم وأشياعهم، وهي كافلة بكل ما يحتاجون إليه من المؤنة، زائدة بما تنفقه فيهم على المعونة، وهم يركبون بركباتها، ويحملون بحملاتها، ويثبون لوثباتها.

وفي الفرنج نساءٌ فوارس، لهنَّ دروعٌ وقوانس، وكنَّ في زي الرِّجال، ويبرزن في حومة القتال، ويعملن على أرباب الحِجا، وهنَّ ربَّاتُ الحِجال، وكل هذا يعتقدن عبادة، وَيَخَلْنَ أنهن يعقدن به سعادة، ويجعلنه لهنَّ عادة، فسبحان الذي أَضَلَّهن، وعن نهج الهدى أزلَّهن، وفي يوم الوقعة قُلعت منهن نسوة، لهن بالفُرْسان أُسوة، وفيهنَّ مع لينهن قَسْوة، وليس لهن سوى السَّوابغ كسوة، فما عُرِفْنَ حتى سُلِبْن وعُرِّين، ومنهن عِدَّة سُبين واشترين، وأما العجائز فقد امتلأت بهن المراكز، وهن يُشَدِّدن تارة وَيُرْخين، ويحرِّضْن وينخِّين، ويَقُلْن: إن الصليب لا يرضى إلا بالإباء، وإنه لا بقاء إلا بالفَنَاء، وإن قبر معبودهم تحت استيلاء الأعداء، فانظر إلى الاتفاق في الضَّلال بين الرجال منهم والنساء.

[بعث صلاح الدين الرسل
إلى الأقطار والأمصار للاستنفار والاستنصار]

قال: وفي آخر هذه السنة نَدَبَ السُّلْطان الرُّسُلَ إلى الأقطار والأمصار

---

(١) المدابير: جمع المدابر، وهو الذي قمر في الميسر مرة بعد مرة، فيعود ليقمر.

للاستنفار والاستنصار، وَبَثَّ الكتب، وكتب بالبَثّ، وحَثَّ الرُّسل، وراسل بالحثّ، وسَرَّح عدنان النَّجَّاب إلى سيف الإسلام باليمن، وشرح في الكتاب إليه ما جرى من حوادث الزَّمن، ووصف له جليَّةَ الحال، وطلب منه الإعانة بالمال، وكوتب مظفر الدين قزل أرسلان بهمَذَان، بما دنا منه عَزْمُهُ ودان، وحكم على كل ملك بحجة الإيمان، وهدى إلى مَحَجَّة الإحسان.

ووصل إلى السُّلْطان رسولُ ابن أخيه لأُمِّه ركن الدين طُغْرلُ بن أرسلان بن طُغْرُل بن محمد بن مَلِكْشاه، وهو آخر السَّلاطين السَّلْجوقية يتظلم من عمه قزل أرسلان، ويطلب من السلطان إعانته، فاعتذر السُّلْطان بما هو عليه من شغل الجهاد مع الكُفَّار. وأرسل رسولاً في السِّفارة بينه وبين عمه جمال الدين أبا الفتح إسماعيل بن محمد بن عبدكُويه نسيب العماد، وكتب إلى صاحب إربل، وإلى حسن بن قفجاق ونائبه بِشَهْرُزُور بالتوفُّر على خدمته، والارتياد لمصلحته، وأشياعه ومعونته.

قال: وفي هذه السنة توفي الأمير حسام الدين سُنْقُر الخِلاطي أخصُّ مماليك السُّلْطان وأخلصهم، وقد قدَّمه على مماليكه، وكانت وفاته ليلة الاثنين السابع والعشرين من رجب.

قال: وفي ثالث عشر شعبان توفي الأمير حسام الدِّين طُمان صاحب الرَّقَّة، وهو من المجاهدين المجتهدين، والأتقياء المتهجدين، ولما حضرته الوفاة تأسَّف من موته على فراشه، وطلب حصانه ليركبه، وينتقل سعيداً شهيداً إلى معاده من معاشه.

[وفاة عز الدين موسك]

قال: وفي تاسع عشر شعبان توفي الأمير عز الدين موسَك بن جكو الهَذَباني، وهو ابن خال السُّلْطان، وهو من أكابر أقاربه ومقدَّمي كتائبه، وكان للقرآن حافظاً، وعلى الإحسان محافظاً، ولقضاء حقوق النَّاس مُلاحظاً، ولم يَزَل للسُّلْطان في هذه الغزوات ملازماً، وعلى قَمْع جمع الكفر عازماً. ولما اشتدَّ به مرضه استأذن في الدخول إلى دمشق، فمات بها، ودفن في جبل قاسيون.

[وفاة شرف الدين بن أبي عصرون]

قال: وفي حادي عشر رمضان توفي بدمشق القاضي شَرَف الدِّين بن أبي عَصْرون(١)، ومولده في أوائل سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، فبلغ عمره ثلاثاً

(١) شرف الدين بن أبي عصرون: هو عبد الله بن أبي السري محمد بن هبة الله بن مطهر بن علي بن أبي عصرون التيمي الحديثي الموصلي الفقيه الشافعي، نزيل دمشق ولد سنة =

وتسعين سنة ونصفاً، وأَضَرَّ قبل وفاته مُدَّة عشر سنين، ودفن بالمدرسة التي أنشأها بدمشق قُبالة داره، بينهما عَرْضُ الطَّريق، وكان شيخَ المذهب، وقد خُتمت به الفُتيا، وأوحشت غيبته الدين والدنيا.

[وفاة الفقيه عيسى الهكاري]

قال: وفي تاسع ذي القَعْدة توفي الأمير الفقيه ضياء الدِّين عيسى الهَكَّاري(١) في العسكر بمنزلة الخَرُّوبة، وكان صاحبَ أسد الدين شِيركُوه، ومضى معه إلى مِصْر حين ملكها، ثم اختصَّ بالسُّلْطان بعده، وتولى حَلَّه وعَقْدَه، ودرَّت بوساطته وشفاعته للنَّاس أرزاق، ونُقِلَ إلى القُدْس، فدُفِنَ بظاهره، ولقد كان من الأعيان، ومن أهل الجد في نُصْرة الإيمان، فنقله الله إلى الجِنان.

قال: وفي هذه السَّنة أقطع السُّلْطان مملوكه مجاهد الدين أَياز ولاية شَهْرُزُور وأعمالها، وولَّى جمال الدين بن المحسن نقابةَ الأشراف بدمشق.

قال: وفي عاشر جُمادى الأُولى منها كان مولد ناصر الدين محمد ابن الملك العزيز بمصر الذي اجتمع عليه أصحابه بعد وفاة أبيه في مُحَرَّم سنة خمسٍ

= ٤٩٢هـ، وتوفي بدمشق سنة ٥٨٥هـ، من تصانيفه: «إرشاد المغرب في نصرة المذهب»، «الانتصار لمذهب الشافعي»، التنبيه في معرفة الأحكام»، «تيسير في الخلاف»، «الذريعة إلى معرفة الشريعة»، «رسالة في نفي قضاء الأعمى وجوازه»، «صفوة المذهب من نهاية المطلب لإمام الحرمين»، «فتاوى»، «فوائد المهذب»، «مأخذ النظر»، «مختصر في الفرائض»، «مرشد في الفروع»، «مسلسلات في الحديث»، «الموافق والمخالف»، (انظر ترجمته في: كشف الظنون ٥/ ٤٥٧، ٤٥٨، الكامل في التاريخ ١٠/ ١٨٩ ـ ١٩٠، «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٢/ ٣٥١، ٣٥٧، التكملة للمنذري ١/ ١١٧ ـ ١١٩، وفيات الأعيان ٣/ ٥٣ ـ ٥٧، العبر للذهبي ٤/ ٢٥٦، سير أعلام النبلاء ٢١/ ١٢٥ ـ ١٢٩، الوافي بالوفيات ١٧/ ٥٧١ ـ ٥٧٤، نكت الهميان ص١٨٥ ـ ١٨٧، طبقات الشافعية للسبكي ٧/ ١٣٢ ـ ١٣٧، طبقات الشافعية للإسنوي ٢/ ١٩٣ ـ ١٩٦، البداية والنهاية ١٢/ ٢٩٥، السلوك للمقريزي ١/ ١/ ١٣٠، طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٢/ ٣٣ ـ ٣٦، النجوم الزاهرة ٦/ ١١٠، الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٣٩٩ ـ ٤٠٣، شذرات الذهب ٤/ ٢٨٣ ـ ٢٨٤).

(١) هو عيسى بن محمد الهكاري، ضياء الدين، من أعيان أمراء عسكر صلاح الدين، ومن قدماء الأسدية، وكان فقيهاً جندياً شجاعاً كريماً، ذا عصبية ومروءة، وهو من أصحاب الشيخ الإمام أبي القاسم بن البرزي، تفقه عليه بجزيرة ابن عمر، ثم اتصل بأسد الدين شيركوه فصار إماماً له، فرأى من شجاعته ما جعل له إقطاعاً، وتقدّم عند صلاح الدين (انظر ترجمته في: الكامل في التاريخ ١٠/ ١٩٠، التكملة للمنذري ١/ ١٥٣، وفيات الأعيان ٣/ ٤٩٧ ـ ٤٩٨، طبقات الشافعية للسبكي ٧/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦، البداية والنهاية ١٢/ ٢٩٥، السلوك للمقريزي ١/ ١/ ١٣٠، النجوم الزاهرة ٦/ ١١٠).

وتسعين، وورد بذلك إلى السلطان جَدِّه كتابٌ كريم فاضليٌّ من مصر، نسخته: المملوك يقبل الأرض بين يدي مولانا الملك النَّاصر، دام رشاده وإرشادُه، وزاد سَعْدُه وإسعاده، وكَثُرَت أولياؤه، وعبيدُه وأعداده، واشتدَّ بإعضاده فيهم اعتضاده، وأنمى الله عَدَده حتى يقال: هذا آدمُ الملوك وهذه أولاده وينهي أنَّ الله ـ وله الحمد ـ رَزَقَ الملكَ العزيز ـ عَزَّ نَصْرُه ـ ولداً مباركاً علياً، ذكراً سَوِياً، براً زكياً، تقياً نقياً، من ذُرِّيَّةٍ كريمة بعضُها من بعض، ومن بيتٍ شريف، كادت ولاته تكون ولاةً في السماء، ومماليكه تكون ملوكاً في الأرض، وكان مَقْدَمُه الميمون في ليلة الأحد، وهي من الجمعة أولى العَدَد، وبه وبآله يُعِزُّ الله أهل الجمعة ويذلُّ أهلَ الأحد. ثم ذكر باقي الكتاب.

فصل

في ورود خبر خروج ملك الألمان

قال القاضي ابنُ شَدَّاد: ولما دخل شهرُ رمضان من سنة خمس وثمانين وصل من حلب كتبٌ من ولده الظَّاهر يخبر فيها أنَّه قد صَحَّ أن ملك الألمان خرج إلى القُسْطَنْطينية في عِدَّة عظيمة ـ قيل: مائتا ألف، وقيل: مائتان وستون ألفاً ـ يريد البلاد الإسلامية، فاشتدَّ ذلك على السُّلْطان، وعَظُمَ عليه، ورأى استنفار النَّاس للجهاد، وإعلام خليفة الوقت بهذه الحادثة، فاستندبني لذلك، وأمرني بالمسير إلى صاحب سِنْجار وصاحب المَوْصِل، وصاحب إربل، واستدعائهم إلى الجهاد بأنفسهم وعساكرهم، وأمرني بالمسير إلى بغداد، فسرت حادي عشر رمضان، ويَسَّر الله تعالىٰ الوصول إلى الجماعة وإبلاغ الرسالة إليهم، فأجابوا إلى ذلك بنفوسهم، وسَيَّر صاحبُ المَوْصل علاء الدين ابنَه بِمُعْظم عسكره، ووعَدَ الدِّيوان بكل جميل، وعدتُ إليه في خامس ربيع الأول سنةَ ستٍّ وثمانين، وسبقتُ العساكر، وأخبرتُه بإجابتهم وتأهبهم للمسير، فَسُرَّ بذلك.

وقال العماد: في كتاب «الفتح»: ونمى الخبر بوصول ملك الألمان إلى قُسْطنطينية في ثلاثمائة ألف مقاتل على قَصْد العبور إلى بلاد الإسلام، وقَطْع بلاد الرُّوم والأرمن إلى الشَّام، وفيهم ستون ألف فارس مدرَّع، ومعهم ملوك وكُنود، وكلُّ شَيْطان لربه كنود.

وكتب صاحبُ قلعة الرُّوم مُقَدَّم الأرمن، وهو في قلعته على الفرات وبين أهل الذمة في المأمن، يبدي تنصُّحاً، وإشفاقاً، وتخوُّفاً على البلاد واحتراقاً،

ويقطع أن الواصلين في كثرة، وأنَّ النَّاهضين إلى طريقهم في عَثْرة. وأبرق في كتابه وأرعد، وأبدع في خطابه وأبعد، ولا شكَّ أنه إلى جنسه النَّجِس مائل، وبملاءة أهل مِلَّته قائل.

ولما وصل هذا النبأُ وقيل إنَّه عظيم، وورد هذا الخبر، وَخُيِّل أنَّه أليم، كاد النَّاس يضطربون على أنهم يصدقون ويكذبون، ومن طَرَفِ كلِّ حبل من الرَّأس يجذبون، وقُلْنا: إنْ وَضَحَ هذا الخطر، وصَحَّ هذا الخبر، فالمسلمون يقومون لنا ولا يقعدون، ويغضبون لله ولا يرضون أنهم لا يعضدون، على أنَّ الله ناصرنا ومؤازرُنا ومظاهرنا.

وحقّقنا بإظهار القوَّة لمن استوحش التأنيس، وبَثَثْنَا بالإرسال إلى بلاد الرُّوم عيوناً وجواسيس، وندبنا رُسُلَ الاستنصار، وبَعَثْنَا كتب الاستنفار إلى جميع الأمصار والأقطار، وقلنا: ما هذه المَرَّة إلا مُرَّة، لا يسيغها إلا كلُّ مُرٍّ أَبيٍّ، وما هذه الكَرَّة مثل كل كَرَّة، ولا يحضرها إلا كل كَمِيشٍ كَمِيّ[١].

قال: وعَوَّل السُّلْطان على إرسال القاضي بهاء الدين بن شَدَّاد يوسف بن رافع بن تميم، ليكون كتابه إلى الدِّيوان العزيز مع رسولٍ كريم، وقال له: ما أحتاج أوصي، وأنت توفي القول وتستقصي. وَجَعَلَ له إلى كل طَرَفٍ في طريقه رسالة، وأودَعَه إليه مقالة.

فسار ووصل إلى حلب، والقاضي ضياء الدين بن الشَّهْرُزوري رسول السُّلْطان ببغداد قد عاد، وذَكَر أَنَّه قد بلغ المُرَاد، فما هذا الرَّسول الرَّائح؟! ووصل وهو مغتاظ، وتغيَّرَ عليَّ، ونَسَبَ إنفاذ القاضي بهاء الدين إليَّ، ثم اجتمع بالسُّلْطان وَنَدَّمه على ما قَدَّمه، وأعلمه بما عمله وعلمه، وقال له: الشغل قد فرغ، والقصد قد بُلِغَ.

وقَرَّر مع السُّلْطان أمراً وعاد على النُّجُب إلى بغداد، وصادف بها القاضي بهاء الدين ابن شَدَّاد، فلم يُسْفر أمر سِفارته عن سَدَاد، وقيل: جوابُ ما أتيتَ فيه مع ضياء الدين نسيِّره، ونندبه فيما نتخيَّرُه.

وقال في كتاب «البرق»: وصل الخبر بخروج ملك الألمان من بلاده في مائتي ألف دارع، وفي راجل في دبيبِ رِجْل الدَّبى[٢]، في عَدَدِ رمل اللِّوىٰ، فأقام بمحشرهم القيامة، واستثارهم لثأر كنيستهم بالقُدْس قُمامة، وساروا في شهور حتى وصلوا قُسْطنطينية.

---

(١) الكميش: الرجل العزوم الماضي، السريع في أموره، والكمي: الشجاع، المقدام الجريء.
(٢) الدَّبَى: أصغر ما يكون من الجراد والنمل.

وكان ملك الرُّوم يكتب إلينا بأخبارهم، ونبأ خروجهم من ديارهم، ويقول: أنا لا أمكِّنهم من العبور. فلما جاؤوا لم يقدر على منعهم، فَصَدَّ عنهم الأزواد، وحرمهم الإسعاد، وعبروا الخليج وقد كَثُرَت أمدادهم، وقَلَّت أزوادهم.

ولما وصلوا إلى حدود بلاد الإسلام، وسلكوا في الأودية والآجام، والوِهاد والآكام، تسلَّمهم تركمان الأُوج[1]، وتراكم الثُّلوج، وشتاء الكلاب في كَلَبِ الشِّتاء[2]، واحتاجوا إلى أكل الدَّواب، وإحراق عُدَدهم لإعواز الأحطاب، وعَدِموا العَلَفِ، وما وجدوا الخَلَف، ومناهل الزُّلال جامدة، وهم بالبلاد جاهلون، ومن البلاء ناهلون، لا يقطعون في يومين فَرْسخاً، وقد أَذْهَبَ الله عنهم البركة، وَصَعَّب عليهم الحركة، وخَرَجَ الأمر عن حسابهم، وهم كل يوم في نقصٍ من أنفسهم ودوابِّهم.

وكانوا يدفنون من أعلاقهم النَّفيسة، وعُدَدهم الكريمة الرئيسة ما يعجزون عن نقله، ولا يخفون بثقله، فاتخذوا لأسرارها من أضلاع تلك الشِّعاب، وصدور تلك الوِهَاد والهضاب ضمائر لا تبوحُ بها أبداً، ولا تُطْلِع على مكنونها ومدفونها أحداً.

هذا، وبحرهم عَبَّاب المَوْج، هَبَّاب الفَوْج، فلمَّا خلصوا بعد أشهر كأنَّهم زخروا بموج سبعة أبحر. هذا، وقد نقص شطرهم، وانقطع ظهرهم، لكنهم عَرَضوا في ستين ألف مُدَرَّع مدجج مقنَّع، ذلك وقد باد أكثر راجلهم، وتَرَجَّل مُعْظم أبطال باطلهم، وسيأتي باقي أخبارهم.

قلتُ: ومن قصيدةٍ للحكيم أبي الفَضْل الجِلْياني[3]: [البسيط]

يا مُنْقِذَ القُدْس مِنْ أيدي جَبَابِرَةٍ ... قد أقسموا بذراع الرَّبِّ تدخله
فأكذبوا كِذْبَهُمْ في وَصْفِ رَبِّهِمُ ... وَصُدِّقَ الوَعْدُ مأموناً تحوُّلُهُ
أَما رَأَيْتَ ابنَ أيوبَ استقلَّ بما ... يُعيي الزَّمانَ وأهليه تَحَمُّلُهُ
هاجَ الفرنجُ وقد خاروا لفتكته ... فاستنفروا كلَّ مرهوبٍ تَغَلْغُلُهُ
لما سَبَىٰ القُدْسَ قالوا كيف نتركها ... والرَّبُّ في حُفْرَةٍ منها نُمَثِّلُهُ
فكم مليكٍ لهم شَقَّ البحار سُرَى ... لينصروا القَبْرَ والأقدارُ تَخْذُلُهُ

(١) الأوج: قوم من التركمان ينسبون إلى قرية أوج وراء سيحون (معجم البلدان ١/ ٢٧٦).
(٢) كَلَب الشتاء، بالتحريك: شدته وحدته.
(٣) الحكيم أبو الفضل الجلياني: هو عبد المنعم بن عمر بن عبد الله بن حسان الوادي آشي الغساني، حكيم الزمان. أبو الفضل الجلياني الأندلسي، ولد سنة ٥٣١هـ، وتوفي بدمشق سنة ٦٠٣هـ، وقيل: سنة ٦٠٢هـ، تقدّمت ترجمته الوافية في الجزء الثاني.

وكم تَرَحَّلَ منهم فَيْلَقٌ بفلا إلى الخوامعِ ألقاه تَرَحُّلُهُ[1]
اسْتَصْرَخُوا الأَهْلَ والعَذوى تمزِّقُهم واستكثروا المالَ والهيجا تُنَفِّلُهُ
هُمُ الفَرَاش لهيبُ الحرب تَصْرَعُهُ وكلَّما لَجَّ صَدْماً جَلَّ مَقْتَلُهُ
سَيْفٌ أمام فِلَسْطِينٍ بَرَىٰ أُمَماً خَلْفَ البحارِ لقد أمهاه صَيْقَلُهُ[2]
كم قد أَعَدُّوا وكم قد فُلَّ جَمْعُهُمُ من غير ضَرْبٍ ولا طَعْنٍ يُزَيِّلُهُ
وإنما اسمُ صلاحِ الدين يُذْكَرُ في جَيْشِ العَدُوِّ فَيَسْبيهِمْ تَخَيُّلُهُ

[وقعة الرمل مع الإفرنج]

ثم دخلت سَنة ستٍّ وثمانين[3]

قال العماد ـ رحمه الله ـ: والسُّلْطان مقيم بعسكره بمنزلة الخَرُّوبة، في خيامه المضروبة، على الحالة المحبوبة، وعنده العادل والأفضل والمُظَفَّر وعكا محصورة، وانقرضت هذه السنة وهو على مرابطة المحاصرين لعكا، واتفق في أوائل هذه السنة وقبلها انصرافُ العساكر الغريبة، إلى بلادها البعيدة والقريبة، لهجوم الشِّتاء وتوالي الأنداء والأنواء، وحالت الوحول عن الركوب والنزول. وكانت نُوَب اليَزَك مترتِّبة، والأحوال متهذِّبة، وربما ركب السُّلْطان يوماً للقنص بالبُزَاة، ثم يعود لانتهاز فُرْصة الغُزَاة.

ثم وقعت وقعة الرَّمْل؛ وذلك أنه ركب يوماً في صفر، فتصيَّد، وطاب له قُرْب القنص فأبعد، واليَزَكية على الرَّمْل وساحل البحر، فخرج الفرنج في وقت العَصْر، في عَدَدٍ لا يدخل في الحَصْر، وتسامع أصحابُنا بهم، فزحفوا إليهم، وحكموا عليهم، وطردوهم إلى خيامهم، وأخذوا عليهم من خلفهم وأمامهم، ولهم في كلِّ دفعةٍ من العدوِّ قلائع، وللفرنج في كل كَرَّةٍ على الرَّمْل مصارع، حتى فَنِيَ النُّشَّاب، وبقي الانتشاب.

وشاع نداء الأصحاب باستدعاء النُّشَّاب، والفرنجُ لا يعجزهم إلا الرِّماء[4]، ولا يهتكهم إلا الإصماء[5]، فلما أَنِسُوا بخلوِّ الجِعَاب، تجاسروا على الدنوِّ من تلك الشِّعاب، وحملوا حملةً واحدةً ردُّوا بها أصحابنا إلى النهر، وكادت تعبث

---

(١) الخوامع: الضباع، اسم لازم لها، لأنها تخمع في مشيتها، والخماع: العرج.
(٢) أمهى السيف: أحدّه ورققه، والمهو من السيوف: الرقيق.
(٣) وخمسمائة.
(٤) الرماء: أي المراماة بالنبل.
(٥) الإصماء: هو قتل الصيد في مكانه.

بهم يَدُ القهر، فَثَبَتَ من العادلية في وجوه القوم صَفٌّ مرصوص البُنْيان، واستشهد جماعةٌ من الشجعان، وذلك أنهم لما رَدُّوا الفرنج قلعوا فُرْساناً، وصرعوا أقراناً، فنزلوا بعد فَرْسهم[١] لسَلْب لِبْسهم، فمرَّت بهم الحملة في الأَوْبة، وأعجلتهم عن الركبة والوثبة، وأظلم الليل وافترق الجمعان، وكَثُرَ التأسُّف على من فُقِدَ، ومنهم الحاجب أيْدغُمش المجدي.

قال: ومن عجائب هذه الوقعة أَنَّ مملوكاً للسُّلْطان يقال له سراسُنْقُر عَثَرَ به جواده، فقبض مَنْ أَسَره شعْره ليجذبه، وسَلَّ آخر سيفه ليضربه، فَضَرَبَ يد قابض شعره فسيَّبه، واشتدَّ سراسنقر يعدو وهم خلفه، فلم يدركوه، وعاد السُّلْطان من الصَّيْدِ، وقد انفصل الأمر.

قال: وفي يوم الأحد خامس عشر ربيع الأول تسلَّم شقيف أرنون بالأمان، وكان الحصارُ قد استمرَّ عليه حتى فني زادُه، وصاحبه أرناط في الأَسْر، فسلَّمه بخلاصه، وصار إلى صور.

[استغلال المسلمين هيجان البحر لتقوية عكا بالغلات]

قال: واغتنم السُّلْطان هيجان البحر، وحضور مراكب الأُسطول من مِصْر، فما زال يقوِّي عكا بتسيير الغَلَّات والقُوَّات إليها في المراكب، وملأها بالذَّخائر والأسلحة والكُماة، فلما سَكَنَ البحر، عادت مراكب الفرنج إلى مراسيها، وَدَبَّت عقاربها وأفاعيها، وشُدَّت مراكبنا في موانيها، وانقطع خبر البلد، وامتنع عليه دخول المدد، فانتدب العُوَّام بالسباحة، وحملهم على ذلك من السُّلْطان السَّماحة، حتى صاروا يحملون نفقات الأجناد على أوساطهم، ويخاطرون بأنفسهم مع احتياطهم، ويحملون كُتُباً وطيوراً، ويعودون بكُتُبٍ وطيور، ونكتبُ إليهم ويكتبون إلينا على أجنحة الحَمَام بالترجمة المصطلح عليها.

وكان في العسكر من اتخذ حماماً يطوف على خيمته، وينزل في منزلته، وعمل لها بُرْجاً من خشب، وهوادي من قَصَب، ويدرِّجها على الطَّيران من البُعْد، وكُنَّا نقول: ما لهذا الولع بما لا ينفع! حتى جاءت نوبة عكا، فنفعت، وشَفَتِ الغليل ونقعت، وأتت بالكتب سارحة شارحة، وكُنَّا نطلبها منه مع الليل والنهار، حتى قَلَّ وجودُها لكثرة الإرسال، ولقد عطب عَوَّامون، فما ارتدع الباقون، ومنهم من سلم مراراً من القوم، فاجترأ وأنس بالعَوْم.

---

(١) الفرس: القتل، والأصل في الفرس دق العنق، ثم كثر حتى جعل كل قتل فرساً.

فـصـل

في قدوم الملك وحريق الأبراج(١)

قال العماد: ولما انقضى الشِّتاء وانفتح البحر، وحان زمان القتال جاءت العساكر الإسلامية من البلاد، فكان أول من وصل الملك المجاهد أسد الدين شِيركُوه صاحب حِمْص والرَّحبة، وسابق الدين عثمان صاحب شَيْزَر، وعز الدين إبراهيم بن المُقَدَّم، ووفد معهم جموع من الأجناد والأعيان، وحشود من العرب والتُّرْكمان.

فرحل السُّلْطان وتقدَّم، وعَزَم على طلب العدوّ وصَمَّم، ونزل على تل كَيْسان يوم الأربعاء ثامن عشر ربيع الأول، ورتَّبَ عسكره، فكان تقي الدين في آخر الميمنة، والعادل في آخر الميسرة، والأفضل في أوّل ميمنة القلب، وأخوه الظافر في أول الميسرة على الجنب.

ثم وصل الظَّاهر في عساكر حلب، وعماد الدين محمود بن بَهْرَام الأُرْتُقي صاحب دارا، وغيرهم من الملوك والمقاتلين، ووصل رسول الخليفة يوم الاثنين سادس عشر ربيع الأول، ؛ وهو الشريف فخر الدين نقيب مشهد باب التِّبْن ببغداد، ووصل معه حملان من النفط الطَّيَّار، وحملان من القَنَا الخَطَّار، وتوقيع بعشرين ألف دينار، يقترض على الدِّيوان العزيز من التُّجَّار، وخمسة من الزَّرَّاقين النَّفَّاطين المتقنين صناعة الإحراق بالنَّار، فاعتدَّ السُّلْطان بكل ما أحضره، وأخلص الدُّعاء للدِّيوان العزيز وشكره، غير أنه أبدى رَدَّ التوقيع، وقال: كل ما معي من نعمة أمير المؤمنين، ولولا صرف أموال هذه البلاد إلى الجهاد لكانت محمولة إلى الديوان.

وأركب الرسول معه مراراً، وأراه مبارك النِّزال، ومعارك القتال، حتى يشهد بما يشاهد، ويتبيَّن له المجتهد والمجاهد، وأقام طويلاً، ثم استأذن في العود، فرجع.

وقال القاضي ابنُ شَدَّاد: قَبِلَ السُّلْطان جميع ما وصل مع الرَّسول، واستعفى من الرُّقْعة والتثقيل بها.

قال: وفي ذلك اليوم بلغ السُّلْطان أنَّ الفرنج قد زحفوا على البلد وضايقوه، فركب إليهم لِيُشْغلهم بالقتال عن البلد، فقاتلهم قتالاً شديداً إلى الليل، وخاف السُّلْطان أن يهجم العدو البلد، فانتقل إلى تل الحجل في خامس عشر ربيع الأول للقُرب.

قال: وفي صبيحة هذا اليوم وَصَلَ من البلد عَوَّام معه كتبٌ تتضمَّن أنه قد

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ١٩١ ـ ١٩٣: ذكر إحراق الأبراج ووقعة الأسطول.

طَمَّ العدو بعضَ الخندق، وقد قوي عَزْمُ العدو على منازلة البلد ومضايقته، فجدَّد السُّلْطان الكتب إلى العساكر بالحثِّ على الوصول.

وفي سَحَر ليلة الجمعة سابع عشري ربيع الأول وصل ولدُه الظَّاهر، وفي آخر ذلك اليوم وصل مُظَفَّر الدين، وكان السُّلْطان ـ رحمه الله ـ ما تقدم عليه عسكر إلا ويعرضهم، ويسير بهم إلى العدو، وينزل بهم في خيمته، ويمدُّ لهم الطعام، وينعم عليهم بما تطيبُ به قلوبُهم إذا كانوا أجانب، ثم تضرب خيامهم حيث يأمر، وينزلون بها مكرَّمين.

قال: وكان العدو قد اصطنع ثلاثة أبرجة من خشبٍ وحديد، وألبسها الجلود المُسَقَّاة بالخَلِّ على ما ذُكِرَ بحيث لا تنفذ فيها النِّيران. وكانت هذه الأبراج كأَنَّها الجبال نُشاهدها من مواضعنا عالية على الأسوار، وهي مركَّبة على عَجَلٍ يسعُ الواحد منها من المقاتلة ما يزيد على خمسمائة نفرٍ على ما قيل، ويتسع سطحه لأن يُنْصَبَ عليه منجنيق، وكان ذلك قد عمل في قلوب المسلمين، وأودعها من الخوف على البلد ما لا يمكن شَرْحُه، وأَيِسَ النَّاسُ من البلد بالكُلِّية، وتقطعَتْ قلوب المقاتلة فيه، وكان قد فرغ عملها، ولم يبق إلا جَرُّها إلى قريب السُّور.

وكان السلطان ـ رحمه الله ـ قد أعمل فكره في إحراقها وإهلاكها، وجَمَعَ الصُّنَّاع من الزَّرَّاقين والنَّفَّاطين، وباحثهم في الاجتهاد في إحراقها، ووعدهم عليه بالأموال الطائلة، والعطايا الجزيلة، وضاقت حيلهم عن ذلك.

وكان من جُملة من حَضَرَ شابٌّ نَحَّاس دِمَشْقِي، فذكر أَنَّ له صناعة في إحراقها، وأنه إن مُكِّن من الدُّخول إلى عكا، وحَصَلَ له الأدوية التي يعرفها أَحْرَقَها.

فَحُصِّل له جميع ما طلبه، ودخل إلى عكا، وطبخ تلك الأدوية مع النِّفْط في قدورٍ من النُّحاس، حتى صار الجميعُ كأَنَّه جمرةُ نارٍ، ثم ضَرَبَ البرج الواحد يوم وصول الملك الظَّاهر بقدرٍ، فاشتعل من ساعته ووقته، وصار كالجبل العظيم من النَّار، طالعة ذؤابته نحو السماء، فاستغاثَ المسلمون بالتهليل والتكبير، وغلبهم الفرح حتى كادت عقولهم تذهب، فبينما النَّاس ينظرون ويتعجَّبون إذ رمى البُرْجَ الثَّاني بالقدر الثاني، والثالث بالثالث فاحترقا كالأول.

وركب السُّلْطان والعساكر، وسار إليهم، وانتظر أن يخرجوا فيناجزهم، عملاً بقوله ﷺ: «من فُتِحَ له بابُ خيرٍ فلينتهزه»[1]، فلم يظهر العدو من خيامهم، وحال

(١) أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال ٤٣١٣٤، وأحمد بن حنبل في الزهد ٣٩٤، والهيثمي في موارد الظمآن ٣٨، والعراقي في المغني عن حمل الأسفار ٣/ ٣٢٩، وأخرجه القرطبي في تفسيره ٥/ ٣٨٣، بلفظ: «من فتح عليه باب من الخير فلينفذه».

بين الطَّائفتين الليل، واستمرَّ ركوب السُّلْطان إليهم في كلِّ يوم، وطلب نزالهم وقِتَالهم وهم لا يخرجون من خيامهم لعلمهم بتباشير النَّصْر والظَّفْر بهم، والعساكر الإسلامية تتواتر وتتواصل، فوصل في الثَّاني والعشرين من ربيع الآخر عماد الدين زَنْكي بن مودود بن زنكي صاحب سِنْجار، وهو ابنُ أخي نور الدين ـ رحمه الله ـ وصهرُه زوج ابنته، فلقيه السلطان بالاحترام والتعظيم، ورَتَّبَ له العسكر في لقائه، وسار به حتى وقفه على العدو، وعاد معه إلى خيمته، وأنزله عنده.

وكان صنع له طعاماً لائقاً بذلك اليوم، فحضر هو وجميع أصحابه، وقدَّم له من التُّحف واللَّطائف ما لا يقدر عليه غيرُه، وكان قد أكرمه بحيث طرح له طَرَّاحة، مستقِلَّة إلى جانبه، وبَسَطَ له ثوباً أطلس عند دخوله، وضربت خيمته على طرف المَيْسَرة على جانب النهر.

وفي سابع جُمادى الأُولىٰ وصل ابنُ أخيه صاحب الجزيرة معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود بن زَنْكي، فلقيه السُّلْطان، وأنزله إلى جانب عمه عماد الدِّين.

وفي تاسع جمادى الأُولىٰ وصل ابنُ صاحب المَوْصِل، وهو علاء الدين خُرَّم شاه بن عَزِّ الدين مسعود بن مودود بن زَنْكي نائباً عن أبيه، ففرح السُّلْطان به فَرَحاً شديداً، وتلقَّاه عن بعيد هو وأهله، واستحسن أدبه واستنجبه، وأنزله عنده في الخيمة، وكرمه مكارمةً عظيمة، وقدَّم له تُحَفاً حسنة، وأمر بضرب خيمته بين ولديه الأفضل والظَّاهر.

وفي أواخر الشهر وصل صاحبُ إربل زين الدين يوسف بن زين الدين علي، فأكرمه السلطان، وأنزله عند أخيه مُظَفَّر الدين؛ يعني في الميسرة.

وذَكَرَ العماد قُدوم هؤلاء الملوك بمعنى ما تقدَّم. قال: وكان الفرنج مُذْ نزلوا على عكا، صمَّموا على الإقامة والحَصْر، فشرعوا في بناء الأبراج العِظام العالية، ونقلوا في البحر آلاتها وأخشابها الجافية، وأقطاع الحديد، وبنوا ثلاثة أبراج عالية في ثلاثة مواضع من أقطار البلد، فتعبوا فيها سبعة أشهر، فلم يفرغوا منها إلا في ربيع الأول، فَعَلَتْ كأنها ثلاثة أطواد قد مُلِئَتْ طبقاتها بعُدد وأعداد، وكل بُرْج لا بُدَّ له في أركانه من أربع أسطوانات عاليات، غلاظ جافيات، طول كل واحدةٍ خمسون ذراعاً، ليشرف على ارتفاع سور البلد، وبسطوها على دوائر العَجَل، ثم كسوها بعد الحديد والوثوق الشديد بجلود البقر والسلوخ. وكل يوم يقرِّبونها ولو ذراعاً، على حسب التيسير في تسييرها، وسقُوها بالخَلِّ والخمر، وكشفوا من جوانبها الثلاثة سورَ البلد، وشرعوا في طَمِّ الخندق.

وجاء عَوَّام من عكا فأخبر السُلْطان، فركب بالعسكر ولازمهم من الجمعة إلى الجمعة، يقاتلهم صباحاً ومساءً ليشغلهم، فافترقوا قسمين: فريقٌ للقتال، وفرق آخر مع الأبراج، فأشفى البلد، وبقي له رَمَقٌ ضعيف، ورُمِيَتِ الأبراج بكل قارورة نفطٍ، فما أثَّرت.

ولم نشعر يوم السبت الثَّامن والعشرين من ربيع الأول بالأبراج إلا وقد اشتعلت والتهبت ووقعت، وكانت آيةً من قُدْرة الله تعالى ظهرت، وذلك أنَّه كان بعكا شابٌ من أهل دمشق يُعْرَف بعلي ابن عريف النَّحَّاسين، وكان أبداً بجمع آلات الزَّرَّاقين مولعاً، ولتحصيل عقاقيرها متتبِّعاً، وكلُّ من عَرَفَه عَذَلَه وينكر عمله، وكان قد ألَّف منها مقادير وقدوراً، وملأ بغيظٍ من أهل تلك الصِّناعة صدوراً، ولم يكن النِّفْط من صناعته، ولكنَّ الله وَفَّقه لسعادته.

فلما كان يوم حريقها جاء إلى الأمير قَرَاقوش وهو مغتاظ، وأخلاقه فِظاظ غِلاظ، وقال: تأذن لي في تصويب المنجنيق، لأُحَرِّق البُرُوج، والله وليُّ التوفيق.

فزجره وزبره، ونهاه ونهره، وقال: صُنَّاع هذا الشُّغْل قد خاروا وحاروا، وبعدما أنجدوا أغاروا(١). فقال النَّاس: دَعْه وشانه، وما يدريك أنَّ الله وَفَّقه وأعانه.

فرمىٰ ابنُ العريف البُرْجَ الأول قدور نفط خالية من نار، حتى عَرَف أنه سقاه وَرَوَّاه، ثم رماه بقدر محرقة، وأردفها بأُخرى مُزْهقة، فتسلَّطت النَّارُ على طبقاتها، فأضرم على أهل السَّعير سعيراً، وكان يوماً على الكافرين عسيراً.

ثم أحرق الثَّاني والثالث، فاجتمع عليه الأصحاب يفدُّونه، ومن أولياء الله يَعُدُّونه، وحملوه بعد ذلك إلى السُلْطان فلم يقبل عطاءً، وقال: عملته لله، فما أريد به مِنْ سواه جزاءً.

وقيل: احترق في البرج الأول سبعون فارساً بِعُدَّتها، فحبطت أعمالهم، وخابت آمالهم. وخرج رجالُنا من البلد فنظفوا الخندق، وسَدُّوا الثُّغَر، وأظهروا القُدَر بظهور القَدَر، وجاؤوا إلى مواضع الأبراج وأماكنها، واستخرجوا الحديد من مكامنها، ونبشوا الرَّماد عن الزرديات(٢) التي انسبكت، وكشفوا عن الستائر التي تهتكت، فأخذوا ما وجدوا، وحصلوا ما نشدوا.

---

(١) أنجد: أي اتجه نحو أرض نجد، وأغار: أي أتى الغور. والنجد: المرتفع من الأرض، والغور: المنخفض منها.

(٢) الزرديات: نوع من الدروع المتخذة من الزرد الجيد البالغ الجودة من كل شيء (صبح الأعشى: ٤/ ١١).

[وصول الأسطول الإسلامي إلى عكا]

قال: وكان السُّلْطان قد كتب بالاستظهار من شواني[١] الأسطول، والإسراع به في الوصول، فوصل الخبر بوصوله يوم الخميس ثامن الشهر، فاستظهر به الأسطول الأول الذي بالثغر، فركب السلطان بجميع كتائبه، وأحاط بالكفر من جميع جوانبه، واشتغل الفرنج عنا بما دهمهم في البحر، فجدُّوا في الأمر، وجهزوا أسطولاً بعدد الرجال وعُدَد القتال، وخرج لتلقي الأُسطول الواصل وقابلوا الحقَّ بالباطل، وجاءت شواني المسلمين فنطحت وطحنت، وأخذت مركباً للعدوّ برجاله، وأخذوا لنا قطعة، وما زالت الحربُ قرعة وقرعة، وصرعةً وصرعة، حتى دخل الليل، فتحاجز الفريقان، وتفرق الأسطولان، وكانت المقتلة في الكُفْر شديدة، والسطوة مبيدة.

وقال القاضي ابنُ شَدَّاد: ولما كان ظهيرة يوم وصول علاء الدين ابن صاحب الموصل ظَهَرَت في البحر قلوعٌ كثيرة، وكان ـ رحمه الله ـ في نظرة الأسطول من مصر، فإنه كان قد أمر بتعميره ووصوله، فعلم أنه هو، فركب والنَّاس في خدمته، وتعبَّى تعبية القتال، وقصد مضايقة العدو ليشغله عن قصد الأسطول.

ولما علم العدو بالأُسطول استعدَّ له، وعَمَّر أسطوله لقتاله، ومنعه من دخول عكا.

ولما خرج أسطول العدو، واشتدَّ السُّلْطان في قتالهم من خارج، وسار النَّاس على جانب البحر تقويةً للأُسطول وإيناساً له ولرجاله، والتقى الأسطولان في البحر، والعسكران في البر، واضطرمت نارُ الحرب واستعرت، وباع كلُّ فريقٍ روحه براحته الأخروية، وجرىٰ قتالٌ شديد أَقْشَعَ[٢] عن نُصْرَة الأُسطول الإسلامي، وأُخذ منه شيني، وقُتِلَ من به، ونُهِبَ جميع ما فيه، وظُفِرَ من العدو بمركبٍ أيضاً كان واصلاً من قُسْطنطينية، ودخل الأُسطول المنصور إلى عكا، وكان قد صحبه مراكب من السَّاحل فيها مِيَر وذخائر، وطابت قلوبُ أهل البلد بذلك، وانشرحت صدورهم، فإن الضَّائقة كانت قد أخذت منهم.

واتصل القتال بين العسكرين من خارج البلد إلى أن فَصَلَ بينهما الليل، وعاد كل فريقٍ إلى خيمه، وقد قُتِلَ من عدو الله وجُرِح في ذلك اليوم خَلْقٌ عظيم، فإنهم قاتلوا في ثلاثة مواضع، فإن أهل البلد اشتدُّوا في قتالهم ليشغلوهم عن الأُسطول أيضاً،

---

(١) الشواني: من المراكب الحربية.

(٢) أقشع: أي انجلى.

والأُسطولان يتقاتلان، والعسكر من البر يقاتلهم، وكان النَّصْر بحمد الله للمسلمين.

قال العماد: وقتلنا منهم مُدَّة مقامنا على عكا في سنتين أكثر من ستين ألف، وزرناهم بكل حَتْف، وكلما بادوا في البر زادوا من البحر، وكم جسروا فخسروا، وقُتلوا وأُسروا، وهُزموا وكُسِروا، وخَلَفهم خَلْف، ويقوم مقام مائتهم ألف، وقد أفنينا أنفسهم وأموالهم، وقطعنا أرزاقهم، ووصلنا آجالهم.

فــصــل

فيما كان من أمر ملك الألمان(١)

قال القاضي ابنُ شَدَّاد: تواصلتِ الأخبارُ بوصول ملك الألمان إلى بلاد قَلِيج أرسلان، وأنه انتهض للقائه جمعٌ عظيم من التُّركمان، وقصدوا منعه من عبور النهر، وأنه أعجزهم لكثرة خَلْقه، وعدم مقدَّم لهم يجمع كلمتهم. وكان قليج أرسلان يظهر شِقَاقه، وهو في الباطن قد أضمر وفاقه، ثم لما عبر إلى البلاد أظهر ما كان أضمره ووافقه، وأعطاه رهائن معه على أنه ينفِّذ معه مَنْ يوصله إلى بلاد ابن لاون، وأنفذ معه أدلَّةً يدُلُّون به، وعَرَاهم في الطَّريق جوعٌ عظيم، وأعوزهم الزَّاد، وقَلَّ بهم الظَّهْر، حتى إنهم ألقوا بعض أقمشتهم.

ولقد بلغنا ـ والله أعلم ـ أنهم جمعوا عُدَداً كثيرة من زرديَّات وخُوَذ وآلات وسلاح عَجَزوا عن حَمْلها، وجعلوها بيدراً واحداً، وأضرموا فيها النَّار لتتلف ولا ينتفع بها أحد، وأنها بقيت بعد ذلك رابية من حديد.

وساروا على هذه الحال حتى وصلوا إلى طَرَسُوس، فأقاموا على نَهرٍ ليعبروه، وأن ملكهم الملعون عَنَّ له أن يسبح فيه ـ وكان ماءً شديدَ البرد ـ وكان ذلك عقيب ما ناله من التَّعب، وأنه عَرَضَ له بسبب ذلك مرضٌ عظيم اشتدَّ به إلى أن قتله، ولما رأى ما حَلَّ به أوصى إلى ابنه الذي كان في صحبته.

[هلاك ملك الألمان وقيام ابنه مكانه]

ولما مات أَجْمعوا رأيهم على أنهم سَلَقُوه في خَلٍّ، وجمعوا عظامه في كيس حتى يحملوه إلى القُدْس الشَّريف، ويدفنوه فيه، وترتَّب ابنُه مكانه على خُلْفٍ من أصحابه؛ فإنَّ ولده الأكبر كان خَلَّفه في بلاده، وكان جماعةٌ من أصحابه يميلون إليه، واستقرَّت قدم ولده الحاضر في تقدُّمه في العسكر.

---

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/١٩٣ ـ ١٩٥: ذكر وصول ملك الألمان إلى الشام وموته. وانظر أيضاً البداية والنهاية ١٢/٢٩٦ ـ ٣٠٠.

ولما أَحَسَّ لافون(١) بما جرى عليهم من الخلل، وما حَلَّ بهم من الجوع والموت والضَّعف بسبب موت ملكهم، ما رأى أن يلقي نفسه بينهم، فإنَّه لا يعلم كيف يكون الأمر وهم فرنج وهو أرمني، فاعتصم عنهم في بعض قلاعه المنيعة.

ولقد وصل إلى السُّلْطان كتابٌ من الكاغيكوس، وهو مقدَّم الأرمن، وهو صاحب قلعة الرُّوم التي على طرف الفُرَات ـ ومعنى هذا الاسم الخليفة ـ ونسخة الكتاب: كتابُ الدَّاعي المخلص الكاغيكوس: مما أطالع به علوم مولانا ومالكنا السُّلْطان الملك النَّاصر، جامع كلمة الإيمان، رافع علم العَدْل والإحسان، صلاح الدُّنيا والدين، سُلْطان الإسلام والمسلمين؛ من أمر ملك الألمان، وما جرى له عند ظهوره، وذلك أنه أول ما خرج من دياره دَخَل بلاد الهُنْكر غَصْباً، ثم دخل أرض مقدَّم الرُّوم، وفَتَحَ البِلاد ونهبها، وأحوج ملك الرُّوم إلى أن أطاعه، وأخَذَ رهائنه: ولده وأخاه وأربعين نفراً من خُلَصائه، وأخذ منه خمسين قنطاراً ذهباً، وخمسين قنطاراً فِضَّة، وثيابَ طلس مبلغاً عظيماً، واغتصب المراكب، وعَدَّى بها إلى هذا الجانب وصحبته الرَّهائن إلى أن دَخَلَ حدود بلاد الملك قليج أرسلان، وَرَدَّ الرَّهائن، وبقي ثلاثة أيام سائراً، وتركمان الأُوج يلقونه بالأغنام والأبقار والخيل والبضائع، فتداخلهم الطَّمع، وجمعوا من جميع البلاد.

ووقع القتال بين التركمان وبينهم، وضايقوه ثلاثة وثلاثين يوماً، وهو سائر، ولما قَرُبَ من قُونية جمع قُطْبُ الدين ولد قليج أرسلان العساكر، وقصدَه وضَرَبَ معه مصافّاً عظيماً، فَظَفِرَ به ملكُ الألمان، وكَسَرَه كسرةً عظيمة، وسار حتى أشرف على قُونية، فخرج إليه جموعٌ عظيمة، من المسلمين، فردَّهم مكسورين، وهجم قُونية بالسَّيْف، وقَتَلَ منها عالماً عظيماً من المسلمين والفُرْس، وأقام بها خمسة أيام، فطلب قليج أرسلان منه الأمان، فأَمَّنه الملك، واستقرَّ بينهم قاعدة أكيدة، وأخذ منه الملكُ رهائن، ؛ عشرين من أكابر دولته، وأشار على الملك أن يجعل طريقه على طَرَسُوس والمَصِّيصة، ففعل.

وقبل وصوله إلى هذه البلاد نفَّذ كتابه ورسوله يشرح حاله، وأين قصدُه، وما لقيه في طريقه، وأنه لا بُدَّ مجتاز بهذه البلاد اختياراً أو كرهاً، فاقتضىٰ الحال إنفاذ المملوك خاتم وصحبته ما سأل، ومعه من الخواصِّ جماعة للقاء الملك في جواب كتابه، وكانت الوصية معهم أن يحرفوه عن بلاد قليج أرسلان إن أمكن.

فلما اجتمعوا بالملك الكبير، وأعادوا عليه الجواب، وعرَّفوه الأحوال أبىٰ

(١) اسمه لافون بن اصطفانة بن ليون كما في الكامل.

الانحراف، ثم كَثُرَ عليه العساكر والجموع، ونزل على شَطٍّ بعض الأنهر، وأكل خُبْزاً ونام ساعة، وانتبه، فتاقت نَفْسُهُ إلى الاستحمام في الماء البارد، ففعل ذلك، وخرج وكان أمر الله أنه تحرَّك عليه مَرَضٌ عظيم من الماء البارد، فمكث أياماً قلائل ومات.

وأما لافون فكان سائراً يلتقي الملك، فلما جرى هذا المجرى هَرَبَ الرُّسُل من العسكر، وتقدَّموا إليه، وأخبروه بالحال، فدخل في بعض حصونه واحتمىٰ هناك.

وأما ابنُ الملك فكان أبوه منذ توجَّه لقصد هذه الدِّيار نصب ولده الذي معه عوضه، وتأطَّدت قواعده، وبلغه هَرَبُ رسل لافون فأنفذ، واستعطفهم وأحضرهم، وقال: إنَّ أبي كان شيخاً كبيراً، وإنما قَصَدَ هذه الدِّيار لأجل حج بيت المقدس وأنا الذي دَبَّرْتُ الملك، وعانيت المشاق في هذه الطَّريق، فمن أطاعني، وإلا بدأتُ بقصد دياره.

واستعطف لافون، واقتضى الحالُ الاجتماع به ضرورةً، وفي الجُمْلة هم في عددٍ كثير، ولقد عَرَضَ عسكره، فكان في اثنين وأربعين ألف مجفجف[1]، وأما الرَّجَّالة فلا يُحصى عَدَدُهم، وهم أجناس متفاوتة وخِلَق غريبة، وهم على قَصْدٍ عظيم وَجَدٍّ في أمرهم، وسياسة هائلة، حتى إنَّ مَنْ جنى منهم جناية ليس له جزاء إلا أن يُذْبح مثل الشَّاة.

ولقد بلغهم أنَّ بعض أكابرهم أنَّه جنى على غُلامٍ له، وجاوز الحَدَّ في ضربه، فاجتمعت القُسوس للحُكم عليه، فاقتضى الحالُ والحكم العام ذبحه، وشَفَعَ إلى الملك منهم خَلْقٌ عظيم، فلم يلتفت إلى ذلك وذبحه.

وقد حَرَّموا الملاذَّ على أنفسهم حتى إنَّ من بلغهم عنه بلوغ لذَّةٍ هجروه وعزَّروه، وكل ذلك كان حُزْناً على بيت المقدس. وقد صَحَّ عن جَمْعٍ منهم أنَّهم هجروا الثياب مُدَّة طويلة، وحَرَّموها على أنفسهم، ولم يَلْبَسوا إلا الحديد حتى أنكر عليهم الأكابر ذلك، وهم من الصَّبْر على الذُّلِّ والشَّقاء والتعب على حالٍ عظيم.

وقال العماد: لما قاربوا بلاد عِزِّ الدين قَليج أرسلان نهض إليهم ابنُه قطب الدين مَلِكْشاه، فوقع بينهم الحرب، ثم اندفع عنهم إلى مدينة قونية، فساقوا وراءه، ودخلوها، وحرقوا أسواقها ونزلوها، فنفَّذوا إلى السُّلْطان قَليج أرسلان: إنَّا لم نصل لأخذ بلادك وإنما ثُرْنا لثأر بيت المقدس. ونفَّذوا إليه هدايا، وطلبوا الهُدْنة،

(١) مجفجف: أي عليه تجفاف وهو ما يجلل به الفرس من سلاح وآلة تقيه الجراح.

فهادنهم، فتقوَّوا من تلك البلاد بما أرادوا من العُدَد والأزواد، ونفَّذ قَليج أرسلان وابنه يعتذران إلى السُّلْطان من تمكينهم من العبور، وأنهم غُلبوا على ذلك.

ثم إن الألمانية طلبوا من قليج أرسلان إنفاذَ جماعةٍ من الأمراء معهم يمنعونهم من لصوص التركمان حتى يصلوا إلى بلاد الأرمن، فنفَّذ معهم خمسة وعشرين، ووافق ذلك غرض قُطْب الدين، فإنَّه كان كارهاً لجماعة من المُقَدَّمين، فتقدم إليهم بأن يكونوا في صُحْبة ملك الألمان، فحملهم على الخطر، وأوقعهم في الغَرَر، وورَّطهم في الضَّرر، فإنهم ما قدروا في الطَّريق على دفع كلِّ سارق، وقد تبعتهم اللُّصوص حتى وصلوا إلى بلاد الأرمن، ومقدَّمهم لافون بن اصطفانة بن لاون، فأخذوا أولئك الرَّهائن وقَيَّدوهم، وجعلوهم في الأَسْر وجَرَّدوهم، فمنهم من خلص بعد حين بمالٍ جزيل، ومنهم من بقي مأسوراً حتى أتاه اليقين.

ووصل مقدَّم الأرمن إلى خدمته، ودخل في طاعته، وهداهم لمقصدهم، وأقام لهم بالضِّيافات والعلوفات وذلك في طَرَسُوس، فتمكثوا بها ليريحوا النُّفوس، فَعَنَّ لملك الألمان أن يسبح في النَّهر لإماطة ما به من الضَّرَر، فَعَرَضَ له مَرَضٌ سلكَ به في سَقَر.

وقيل: لما عبرت جموعُه النهر ازدحموا، والتطم الموجُ بهم واقتحموا، وطلب هو موضعاً يعبر فيه وحده، ويتبعه من بعده، فنزل على مخاضة ذات مخافة، لا يخلو من هَجَمها من آفة، فجرى إليها، واجترىٰ عليها، فجذبته سَوْرَةُ الماء إلى شجرةٍ شَجَّت رأسه، ومحت أنفاسه، وأخرجوه ونفسه على الخروج، وعُمره على الدُّروج، فتسلَّم مالكٌ ملكَ الألمان بألمه، وحمله إلى جهَّنمه، وجلس ابنه مكانه، واتبع شانه، واستتبع رجاله وفرسانه.

وقيل: عَرَضَ في نيِّف وأربعين ألف كَمِيّ، وانقطع عنه ابنُ لاون، واختلف عليه أصحاب أبيه مَيْلاً منهم إلى أخيه، وساروا على سَمْت أنطاكية في فرق ثلاث، كأنَّهم من المرض قد نُبشوا من أجداث، وأكثرهم حَمَلَةُ عصا ورُكَّابُ حمير، وكلٌّ بالأرض التي يسلكها غير خبير، فتبرَّم بهم صاحبُ أنطاكية، وثَقُلَتْ عليه وطأتهم المفاجية، وحَسَّن لهم طريق بلاد حلب، فلم يَرَوْا لهم في ذلك الأَرَب.

وطلب منه الملك قلعة أنطاكية لينقل إليها ماله وخزائنه وأثقاله، فأخلاها له، وسلَّمها إليه طمعاً في ماله وأموال رجاله، وكان على ما حَدَسَه، فإنَّه لم يَعُد إليها، واستولى الإبرنس بأنطاكية عليها.

وجاءت فرقة منهم ليلاً إلى حصن بَغْرَاس، وظنُّوا أنه في أيدي أجناسهم الأنجاس، ففتح والي القلعة الباب، وأخرج الأصحاب، وتسلَّم تلك الأموال بأحمالها، والصَّناديق بأقفالها، وأُسر منهم وقُتل كثير، وخرج بعد ذلك أهل حلب وجُنْدها إلى طرقهم، وفرَّقوا بين فِرَقهم، والتقطوهم من الخَمَر[1] والغياض، وكان الواحد يستأسر منهم ثلاثةً، ولا يرىٰ من رفقائهم إغاثة، فهانت الألمانية بعد تلك المهابة في الأنفس، وباعُوهم في الأسواق بالثمن الأبخس.

ولما تكامل وصول السَّالمين إلى أنطاكية، سلكوا إلى طريق طرابُلُس جَبَلة واللاذقية، فخرج عليهم رجالها، فقتلوا منهم وأسروا، فما وصلوا إلى طَرابُلُس إلا في خِفٍّ[2]، ولم يَصْفُ ممن جاء مع الملك غير ألف.

وجاؤوا إلى النَّازلين على عكا، فغرقوا في لُجِّهم، وخمدوا في وهجهم. ثم هلك على عكا بعد انقضاء مُدَّة، واقتضاء شِدَّة، بتاريخ ثاني عشر ذي الحِجَّة سنة ستٍّ وثمانين.

وقال في «الفتح»: وجَبُنَ الملك عن المسير على الطريق لما لقيت جموعُه في طرقاتهم من التفريق، فركب في البحر في عددٍ يسير لا يزيد على الألف، برُغْبِ قلب وقصور يد ورغم أنف، واختلط مع الفرنج على عكا، فسقط اسمُه، وسُخِط حكمُهُ، وهلك بعد قليل، ولم يحظَ بنقع غليل.

وقال القاضي ابْنُ شَدَّاد: مرض ولد ملك الألمان الذي قام مقامه مرضاً عظيماً، وأقام بموضع يسمى التِّينات من بلاد لافون، وأقام معه خمسة وعشرون فارساً، وأربعون داوياً، وجهَّز عسكره نحو أنطاكية حتى يقطعوا الطَّريق، ورَتَّبهم ثلاث فرق لكثرتهم.

ثم إن الفرقة الأُولى اجتازت تحت قلعة بَغْرَاس ومقدَّمها كُنْد عظيم عندهم، وأن عسكر بَغْرَاس مع قِلَّته أخذ منهم مائتي رجل نهباً وقهراً، وكتبوا يخبرون عنهم بالضَّعْف العظيم والمرض الشديد، وقِلَّة الخيل والظَّهْر والعُدَد والآلات.

ولما اتصل هذا الخبر بالنُّوَّاب في البلاد الشامية، أنفذوا إليهم عسكراً يكشفون أخبارهم، فوقع العسكر على جَمْعٍ عظيم قد خرجوا لطلب العلوفة، فأغاروا عليهم، وقتلوا وأسروا زُهاء خمسمائة نفس، ولقد حَضَرْتُ من يخبر

---

(١) الخمر، محركة: هو كل ما واراك من أكمة أو جبل.

(٢) الخف: الجماعة القليلة.

السُّلْطان عنهم ويقول: هم عددٌ كثير لكنهم ضعفاء، قليلو الخيل والعُدَّة، وأكثر ثَقَلهم على حمير وخيلٍ ضعيفة.

قال: ولقد وقفتُ على جسرٍ يعبرون عليه لأعتبرهم، فَعَبَر منهم جمعٌ عظيم ما وجدتُ مع واحدٍ منهم طارقة ولا رمحاً إلا النَّادر، فسألتهم عن ذلك فقالوا: أقمنا بمرج وَخِم أياماً، وقَلَّتْ أزوادُنا وأحطابنا، فأوقدنا معظم عُددنا، ومات منا خَلْقٌ عظيم، واحتجنا إلى الخيل فذبحناها وأكلناها. ومات الكند الذي وصل إلى أنطاكية، وطمع لافون فيهم حتى عَزَمَ على أخذ مال الملك لمرضه وضعفه وقِلَّة جمعه الذي تأخَّر معه، ولم تزل أخبارهم تتواتر بالضَّعْف والمرض.

قال: ولما تحقَّق السُّلْطان وصول ملك الألمان إلى بلاد لافون، وقربه من البلاد الإسلامية جمع أمراءه دولته، وأرباب الآراء وشاورهم فيما يصنع، فاتفق الرأي على أنَّ العسكر يسير بعضه إلى البلاد المتاخمة لطريق عسكر العدو الواصل، وأن يقيم هو ـ رحمه الله ـ على منازلة العدو بباقي العسكر المنصور، فكان أول من سار صاحب منبج ناصر الدين بن تقي الدين، ثم عِزُّ الدين ابن المقدَّم صاحب كفرطاب وبارين وغيرهما، ثم مجد الدين صاحب بَعْلَبَكَّ، ثم سابق الدين صاحب شَيْزَر، ثم الياروقية من جملة عسكر حلب.

وسار إلى دمشق ولده الأفضل لمرضٍ عَرَضٍ له، وكذا بدر الدين شِحْنة دمشق، ثم سار الملك الظَّاهر إلى حلب لإيالة الطَّريق وكشف الخبر، وحفظ ما يليه من البلاد، وسار بعده الملك المُظَفَّر لحفظ ما يليه من البلاد، وتدبير أمر العدو المجتاز.

ولما سارت هذه العساكر خَفَّت الميمنة، فإنَّ معظم من سار منها، فأمر ـ رحمه الله ـ الملك العادل، فانتقل إلى منزلة تقي الدين في طرف الميمنة، وكان عماد الدين زنكي في طرف الميسرة، ووقع في العسكر مَرَضٌ عظيم، فمرض مُظفَّر الدين بن زين الدين صاحب حَرَّان وشُفي، ومرض بعده الملك الظَّافر ولد السُّلْطان وشُفي، ومرض خَلْقٌ كثير من الأكابر وغيرهم إلا أن المرض كان سليماً بحمد الله تعالى، وكان المرضُ عند العدو أعظم وأكثر، وكان مقترناً بموتانٍ عظيمٍ، وأقام السلطان مصابراً على ذلك، مرابطاً للعدو.

قال العماد: وتقدَّم السُّلْطان بهدم سور طبريَّة، وهَدْمِ يافا وأَرْسُوف وقَيْسارية، وهَدْمِ سور صَيْدا وجُبيل، ونَقْلِ أهلهما إلى بيروت.

وفي بعض الكتب السُّلْطانية: قد عَرَفْنَا خبر العدوِّ المشؤوم، الواصل من جانب الرُّوم، وهذا أوانُ تحرُّكِ ذوي الحَمِيَّة، ونهوض أهل الهِمَمِ الأبيَّة العَلِيَّة،

فإنَّ القوم في كثرةٍ، مُستَتُّون في طريق العَثْرَة، والسَّيْلُ إذا وصل إلى الجبل الرَّاسي وَقَفَ، واللَّيل إذا بلغ إلى الصُّبْح المُسْفر انكشف، فأين المُؤدُّون فَرْضَ الجهاد المتعين؟ وأين المهتدون في نهج الرَّشاد المتبيِّن؟ وأين المسلمون؟ وحاشىٰ أن يكونوا للإسلام مُسْلِمين، وأين المقدَّمون في الدِّين؟ ومعاذ الله ألا يكونوا في نُصْرته على الموت مُقْدِمين، ولولا التقيُّد بهذا العدوِّ الرَّابض لأطلقتُ أَعِنَّة النهضة إلى العدو النَّاهض، ولا بُدَّ من لقائه قبل تلفُّق الجمعين[١]، وإراءة الملاعين وجوه حتفهم مِلْء العين.

ومن كتابٍ فاضلي إلى بغداد: ومن خبر الفرنج أنهم الآن على عكا يمدُّهم البحر بمراكب أكثر عِدَّة من أمواجه، ويُخْرج للمسلمين أَمَرَّ من أُجاجه، وقد تعاضَدَتْ ملوك الكُفْر على أن ينهضوا إليهم من كلِّ فرقة طائفة، ويرسلوا إليهم من كل سلاح شَوْكة، فإذا قَتَلَ المسلمون واحداً في البَرّ، بعث ألفاً عوضه البحر، فالزَّرْع أكثر من الحُصَّاد، والثمرة، أنمى من الجُدَّاد، وهذا العدوُّ المقابل ـ قاتله الله ـ قد زرّ عليه من الخنادق دروعاً متينة، واستجنَّ من الجنويات بحصونٍ حصينة، فصار محصوراً ومتمنعاً، حاسراً ومتدرِّعاً، مواصلاً ومنقطعاً، وعددهم الجَمُّ قد كاثر القتل، ورقابهم الغُلْب قد قطعتِ النَّصْلِ لشِدَّة ما قطعها النَّصْل.

وأصحابنا قد أثَّرَتْ فيهم المُدَّة الطويلة، والكلف الثَّقيلة في استطاعتهم لا في طاعتهم، وفي أحوالهم لا في شجاعتهم، وكل من يعرفهم يناشد الله فيهم المناشدة النَّبوية في الصُّحْبة البَدْرية: اللهم إنْ تُهْلِكْ هذه العِصَابة[٢]، ويُخلص الدُّعاء، ويرجو على يد سيدنا أمير المؤمنين الإجابة، وقد حَرَّم باباهم ـ لعنة الله عليه وعليهم ـ كلَّ مباح، واستخرج منهم كلَّ مذخور، وأغلق دونهم الكنائس، ولبس وألبسهم الحِدَاد، وحكم عليهم أن لا يزالوا كذلك أو يستخلصوا المَقْبُرة، فيا عُصْبة محمد ـ عليه السَّلام ـ اخلُفْه في أُمَّته بما تطمئنُّ به مضاجعه، وَوَفِّه الحَقَّ فينا فإنَّا والمسلمون عندك ودائعه.

---

(١) تلفّق الجمعين: أي اجتماعهما. وأصلها من لفق الثوب يلفقه: أي ضم شقة إلى أخرى.

(٢) هو من حديث عن عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة، ثم مدّ يديه فجعل يهتف بربه: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض» فما زال يهتف بربه ماداً يديه مستقبل القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبيه. أخرجه مسلم في الجهاد والسير حديث ٥٨، وأبو داود في الجهاد باب ١٣١، والترمذي في تفسير سورة ٩ باب ٢، وأحمد في المسند ١/ ٣٠، ٣٢.

وما مثَّل الخادم نفسه في هذا القول إلا بحاله لو وقف بالعَتَبات ضارعاً، وقَبَّل ترابها خاشعاً، وناجاها بالقول صادعاً، ولو رُفِعَتْ عنه العوائق لهاجر، وشافَهَ طبيبَ الإسلام بل مسيحه بالدَّاء الذي خامر، ولو أمن عدوّ الإسلام أن يقول قولاً آخر لسافر، ولولا أَنَّ في التَّصريح ما يعود على العِدَىٰ له بالتجريح لقال ما يبكي العيون وينكي القلوب، ولكنه صابرٌ محتسب، منتظر لنصر الله مرتقب، قائم من نفسه بما يجب، ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي﴾ [المائدة: ٢٥]، وها هي في سبيلك مبذولة، وأخي وقد هاجر إليك هجرةً يرجوها مقبولة، وولدي وقد بذلتُ لعدوك صفحاتِ وجوههم، وهان على محبوبك بمكروهي فيهم ومكروههم، ونقف عند هذا الحد ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤].

فصل

في الوقعة العادلية على عكّا ظهر يوم الأربعاء العشرين من جُمادى الآخرة(١)

قال القاضي ابنُ شدَّاد: علم عدوُّ الله أَنَّ العساكر قد تفرَّقت في أطراف البلاد، وأن الميمنة قد خَفَّت لأن معظم من سار كان منها بحكم قُرْب بلادهم من طريق العدو، فأجمعوا رأيهم، واتفقت كلمتهم على أنهم يخرجون بغتة، ويهجمون على طرف الميمنة، فجأة، فخرجوا واستخفُّوا طرف الميمنة، وفيها مخيَّم العادل، فلما بَصُرَ الناس بهم صاح صائحهم، وخرجوا من خيامهم كالأُسود من آجامها، وركب السلطان، ونادى مناديه: يا للإسلام.

وكان ـ رحمه الله ـ أوَّل راكب، ولقد رأيته وقد ركب من خيمته، وحوله نَفَرٌ يسير من خواصِّه والناس لم يستتم ركوبهم، وهو كالفاقدة ولدها، الثاكلة واحدها، ثم ضرب الكوس(٢)، فأجابته كوسات الأُمراء من أماكنها، وركب النَّاس، وسارع الفرنج في قَصْد الميمنة حتى وصلوا إلى المخيَّم العادلي قبل استتمام ركوب العساكر، ودخلوا في وطاقه(٣)، وامتدَّت أيديهم في السُّوق وأطراف الخيم بالنَّهب

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ١٩٥ ـ ١٩٧: ذكر وقعة للمسلمين والفرنج على عكا.

(٢) الكوس: جمعها كوسات، وهي صنوج من نحاس شبه الترس الصغير يدق بأحدهما على الآخر بإيقاع مخصوص ويتولى ذلك الكوسي (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص٢٩٠).

(٣) الوطاق: في التركية: أوتاق وأوتاغ وأوطاق، وقد دخلت في اللغة الفارسية في صيغة أطاق وأتاق. والأرجح أن تكون هذه الكلمة هي أصل الكلمة التركية المصرية (أوده) بمعنى =

والغارة، وقيل: وصلوا إلى خيمة الخاص، وأخذوا من شرابخاناته[١] شيئاً.

وركب العادل واستركب من يليه من الميمنة كالطواشي[٢] قايماز النَّجْمي، وعز الدين جُرْديك النُّوري ومن يجري مجراه، ووقف وقوف مخادع حتى يوغل بهم طمعُهم في المخيَّم، ويشتغلوا بالنَّهب، وكان كما ظَنَّ، فإنه عاثت أيديهم في الخيام والأقمشة والفواكه والطَّعام، فلما علم اشتغالهم بذلك صاح بالنَّاس، وحمل بنفسه يَقْدُمُه ولده الكبير شمس الدين مودود، وحمل بحملته من كان يليه من الميمنة، واتصل الأمر بجميع الميمنة حتى وصل الصَّائح إلى عسكر المَوْصل، وهجموا على العدوِّ هجمةَ الأُسود على فرائسها، وأمكنهم الله منهم، ووقعت الكسرة، فعادوا يشتدُّون نحو خيامهم هاربين، وعلى أعقابهم ناكصين، وسيف الله يقتل فيهم، وصاح صائح السُّلْطان في النَّاس: يا أبطال الموحِّدين، هذا عدوُّ الله قد أمكن الله منه، وقد داخله الطَّمع حتى غشي خيامكم بنفسه.

فبادَرَ إلى إجابة دعوته أهل حَلْقَته وخاصَّته، ثم عسكر المَوْصل يَقْدُمُهم علاء الدين ولد عز الدين، ثم عسكر مِصْر يَقْدُمهم سُنْقُر الحلبي، وتتابعت العساكر، وتجاوبت الأبطال، وقامت سوق الحَرْب، فلم يكن إلا ساعة حتى رأينا القوم صَرْعَىٰ كأنَّهم أعجازُ نَخْلٍ خاوية، وامتدُّوا مطروحين من خيام العادل إلى خيامهم، أولهم في الخِيَم الإسلاميَّة، وآخرهم في خيم العدوّ صرعى على التُّلول والوِهاد، وكان مقدار ما امتدَّ فيه القتلىٰ بين المخيَّمين فرسخاً، وربما زاد على ذلك، ولم ينجُ من القوم إلا النَّادر.

قال: ولقد خضتُ في تلك الدِّماء بدابَّتي، واجتهدتُ على أن أعدَّهم فما قَدِرْتُ على ذلك لكثرتهم وتفرُّقهم، وشاهدتُ منهم امرأتين مقتولتين. وحكى لي من شاهَدَ منهم أربع نسوة يقاتلن، وأُسِرَ منهن اثنتان، وأُسر من الرجال في ذلك اليوم نَفَرٌ يسير، فإنَّ السُّلْطان كان أمر الناس ألا يستبقوا أحداً.

حجرة، وفي بعض بلاد الشام يقال: (أوضه)، والأطاق في التركية اسم للخيمة الكبيرة المزخرفة تعد للعظماء، والوطاق في العربية هو الخيمة والمعسكر المكون من خيام (تأصيل الدخيل ص١٩٨).

(١) الشرابخاناه: معناه بيت الشراب، وتشتمل على الأشربة المرصدة لخاص السلطان، وبها الأواني النفيسة من الصيني الفاخر (صبح الأعشى ٤/ ٩).

(٢) الطواشي: هو الخصي، وهي كلمة أعجمية. والطواشي هو من خواص السلطان والخليفة، وهم المعروفون بالاستاذون وبالطواشية، وكان لهم في دولتهم المكانة الجليلة، ومنهم من كان أرباب الوظائف الخاصة بالخليفة، وأجلّهم المحنكون، وهم الذين يدوّرون عمائمهم على أحناكهم، وكانت عدتهم تزيد على الألف (صبح الأعشى ٣/ ٥٥١ ـ ٥٥٢).

هذا كلُّه في الميمنة وبعض القلب، وأما الميسرة فما اتصل الصائح بهم إلا وقد نَجِزَ الأمر، وقُضِي القضاء على العدو؛ لِبُعْد المسافتين، وكانت هذه الوقعة فيما بين الظُّهر والعصر، فإنَّ العدو ظهر في قائم الظهيرة، وانفصلت الحرب بعد العصر، وانكسر القوم حتى دخلت طائفةٌ من المسلمين وراءهم إلى مخيمهم على ما قيل.

ثم إن السُّلْطان أمر النَّاس بالتراجع، ولم يفقد أحد من المسلمين في ذلك اليوم سوى عشرة أنفس غير معروفين.

[هجوم جند عكا على الفرنج وعودتهم منصورين]

ولما أَحَسَّ جند الله بعكا بما جرى بين المسلمين وبين العدو من الوقعة، فإنهم كانوا يشاهدون الوقعات من أعالي السُّور، خرجوا إلى مخيَّم العدو من البلد، وجرى بينهم مقتلةٌ عظيمة، وكانت النُّصْرة ـ والحمد لله ـ للمسلمين، بحيث هجموا خيامَ العدو، ونهبوا منها جمعاً من النِّسوان والأقمشة، حتى القدور وفيها الطَّعام، ووصل كتابٌ من عكَّا يخبر بذلك.

واختلف النَّاس في عدد القتلى منهم، فذكر قومٌ أنهم ثمانية آلاف، وقال آخرون: سبعة آلاف، ولم ينقصهم حازرٌ عن خمسة آلاف، ولقد شاهدتُ منهم خمسةَ صفوف أَوَّلها في خِيَم العادل وآخرها في خيم العدو، ولقد لقيت إنساناً عاقلاً جندياً يسعى بين صفوف القتلى ويعدُّهم، فقلتُ له: كم عددتَ؟ فقال: إلى هاهنا أربعة آلاف ونيفاً وستين قتيلاً. وكان قد عَدَّ صفين وهو في الصَّفِّ الثَّالث، لكن ما مضىٰ من الصفوف أكثر عدداً من الباقي. قال: وجاء من الغد نَجَّاب له عن حلب خمسة أيام بكتابٍ يتضمَّن أن جماعةً عظيمة من العدو الشمالي خرجوا للنَّهْب بأطراف البلاد الإسلامية، ونهض العسكر الحلبي إليهم وأخذ عليهم الطَّريق، فلم يَنْجُ منهم أحد إلا من شاء الله.

قال: وجاء في ليلة ذلك اليوم من اليَزَك[1] مَنْ ذكر أنَّ العدو قد سأل من جانب السلطان من يصل إليهم ليسمع منهم حديثاً في سؤال الصُّلْح لضعفٍ حلَّ بهم، ولم يزل العدو من حينئذٍ مكسور الجَنَاح، منهاض الجانب، حتى وصلهم كُنْد يقال له كندهري، وسيأتي ذكره.

وقال العماد: ولما شاع عند الفرنج خبر وصول الألمانية قالوا: إذا وصل ملكهم ونكىٰ في المسلمين انكسر ناموسنا، وتطأطأت عنده رؤوسنا.

---

(١) اليزك: هم طلائع العسكر.

فذكر الوقعة بمعنى ما تقدَّم إلى أن قال: ووصل السلطان، وشاهد من مساءة الفرنج، ما سَرَّه، وعَرَف لُطْفَ الله وَبِرَّه ونَصْره، وعايَنَ هناك مصارع الأعداء، ومشارع البلاء، وكانوا مفروشين في مدى فرسخ على الأرض، وهم في تسعة صُفُوف من تلال الرَّمْل إلى البحر بالعرض، وكلُّ صَفٍّ يزيد على ألف قتيل، وشاع القَتْلُ في الفرنج في كلِّ قبيل. وكانت هذه النَّوْبة بلا نائبة، والغزوة بلا شائبة، وقُتِلَ منهم زهاء عشرة آلاف، ولم يبلغ من استشهد من أتباع العسكر عشرة، فاغتنمها تجارةً رابحة، وغنيمةً مُيَسَّرة.

قال: ولما عَرَفْتُ بالواقعة، والنُّصْرة الجامعة، صدَّرْتُ ثلاثين أربعين كتاباً بالبشارات، بأبلغ المعاني وأبرعِ العِبارات، وقُلْتُ: إذا نَزَلَ السُّلْطان وَجَدَ الكتب حاضرة، ولأرىٰ البشارة شائرةً.

ركبتُ أنا والقاضي بهاء الدين ابنُ شَدَّاد، لمشاهدة ما هناك من أشلاء صرعى وأجساد، فما أَعْجَلَ ما سُلِبوا وأُعِروا، وفُرُوا وفُرُّوا، وقد بُقِرَت بطونُهم، وفُقِئت عيونُهم، ورأينا امرأةً مقتولة لكونها مقاتلة، وسمعناها وهي خامدة بالعَبْرة قائلة، وما زلنا نطوفُ عليهم ونَعْبُرُ، ونفكِّر فيهم ونعتبر، حتى ارتدى العشاء بالظَّلام، فَعُدْنا إلى الخيام، وأَطَلْنَا الوقوف على تلك الطُّلُول الدَّارسة، واستبشرتِ الوجوه بتلك الوجوه العابسة، وحزرناهم بعشرة آلاف قتيل، لا حَزْرَ تكثيرٍ بل حزر تقليل، وكان الذين حَمَلوا وهَزَموا وقَتَلوا أقلَّ من ألف، فقتلوا أضعافاً مُضاعفةً، وعَدِموا ممن وراءهم مساعدة ومساعفة.

وحُكي من نوادر هذه الوقعة أنَّ فرنجياً عُقِرَ فجثا للصرعة، فَعَثَر به راكبُ بِرْذون(١)، فعرقب الفرنجيُّ فرسَه بسيفٍ في يده، فنزل بجَدِّه مُسْتناً في جَدَده(٢)، وقَتَلَ ذلك الفرنجيَّ، ورَوَّى من دمه الهنديَّ، وحلَّ من وسطه ثمانين ديناراً، فانقلب ربحاً ما عَدَّه خساراً. وامتلأت الأيدي بالأسلاب والأكساب، وحصل من العُدَد ما لم يكن في الحساب، وبيعت الزرديَّات ذوات الأثمان بالرُّخْص.

قال: وشَرَعَ الفرنجُ في الخِدَاع والمراسلة، وسألوا في الصُّلْح، وأَذِنَ لهم السُّلْطان في الخروج للنَّظَر إلى أولئك الصَّرْعىٰ بتلك المروج، وهي قد تورَّمت

(١) البرذون: جمع براذين، وهي من أصناف الخيل العجميات، ويقال لها: الهماليج، وتعرف أيضاً بالأكاديش، وتجلب من بلاد الترك، ومن بلاد الروم، وغالب ما توجد مشقوقة المناخر، وتطلب للصبر على السير وسرعة المشي (صبح الأعشى ٢/ ١٧).

(٢) الجد: الحظ، ومستناً: أي سائراً، والجدد: الطريق المستقيمة.

وأنتنت وجافت، وحميت الشَّمس على جيفها وحافت، وضافتها القشاعم والخوامع(١) عليها أطافت، فساءهم ما سَرَّنا، ونَفَّرهم ما أَقَرَّنا.

فـصـل

[تواصل الأمداد للفرنج من البحر]

قال العماد: وكان الرأي بعد هذه النُّصْرة أن تردَّ عليهم الكَرَّة، مَرَّةً بعد مَرَّة، إلى أن يهلكوا حسرة، ويبيدوا فلا يبقى لهم جَمْرة، فاشتغل السُّلْطان بما جاءه من المكاتبات، بظفر التركمان وغيرهم بعسكر الألمان، فجاءت للفرنج نجدةٌ من البحر، ومَددٌ أضعاف ما نَقَصَ منهم من العَدَد والعُدَد، فأضحوا كأن لم يُنْكَبُوا، وثبتوا مكانَهم، ولم يَثِبُوا.

[وصول الكندهري]

ووصل إليهم المعروف بالكُنْدهري، ففرّق الأموال، واستخدم الرِّجال، وأنفق في عشرة آلاف راجل، وأظهر أنَّه يخرج إلى لقاء عسكر الإسلام، فتحوَّل السُّلْطان إلى منزلة الخَرُّوبة ليوسِّع عليهم الدَّائرة. ونَصَبَ الكندُ على عكا منجنيقاتٍ كثيرة، فأحرقها المسلمون، وقُتِلَ منهم من الفوارس سبعون، وأُسِرَ عِدَّة معروفون، ثم نَصَبَ منجنيقين، فأُحرقا أول شعبان، وكان الكند قد أنفق على أحدهما ألفاً وخمسمائة دينار.

ومن جُملة مَنْ وقع في الأسر فارسٌ كبير، فما أمهلوه حين أخذوه حتى قتلوه ونبذوه، فطلبه منهم الفرنج بالأموال، ولم يعرفوا بالحال، فأخرجوه إليهم قتيلاً، فأكثر الفرنج عليه بعد العويل عويلاً، فباتوا يندبونه نوحاً، ويذيعون سِرَّ تقدُّمه فيهم بوحاً.

وحين وقعت أعينُهم عليه قتيلاً ضربوا بنفوسهم الأرض، وحثوا على رؤوسهم التُّراب، ووقعت عليهم بسبب ذلك خمدةٌ عظيمة، وكتموا أمره، ولم يظهر من كان، واستصغر المسلمون بعد ذلك أمرهم، وهَجَمَ عليهم العربُ من كلِّ جانب يسرقون وينهبون، ويقتلون ويأسرون.

هذا، والكتبُ متواصلة من عكا إلينا، ومنَّا إليها على أجنحة الطُّيور وأيدي السُّبَّاح، والمراكب اللِّطاف، تخرج ليلاً، وتدخل سرقة من العدو.

(١) القشعم من كل شيء: الضخم المسنّ، ويقال للحرب، والمنية، والداهية: أم قشعم. والخوامع: الضباع، اسم لازم لها، لأنها تخمع في مشيتها، والخماع: العرج.

[كتاب من إمبراطور بيزنطة يعتذر به للسلطان عن عبور ملك الألمان]

قال العماد: ووصل من ملك قُسْطنطينية كتابٌ يتضمَّن استعطافاً واستسعافاً، ويذكر تمكينه من إقامة الجمعة في جامع المسلمين بقسطنطينية والخُطْبة، وأنَّه مستمرٌّ على المودَّة، راغبٌ في المحبَّة، ويعتذرُ عن عبور الملك الألماني، وأنَّه قد فُجِعَ في طريقه بالأماني، ونال من الشِّدَّة ونقص العُدَّة ما أضعفه وأوهاه، وأنه لا يصل إلى بلادكم فينتفع بنفسه أو ينفع، ويكون مصرعه هناك ولا يرجع، ويَمُتْ بما به كاده، وأنَّه قد بلغ في أذاه اجتهاده، ويطلبُ رسولاً يدرك به من السُّلْطان سُولاً، فأُجيب في ذلك إلى مُرَاده، ووقع الاعتدادُ بما ذكره من اعتداده.

[إقامة الخطبة والصلاة في جامع القسطنطينية]

وقال القاضي ابنُ شَدَّاد: وكان بين السُّلْطان وبين ملك قسطنطينية مراسلة ومكاتبة، وكان وصل منه رسولٌ إلى الباب الكريم السُّلْطاني بمرج عيون سنة خمسٍ وثمانين في رجب في جواب رسولٍ كان أنفذه السلطان بعد تقرير القواعد، وإقامة قانون الخُطْبة في جامع قُسْطنطينية.

فمضى الرَّسول، وأقام الخُطْبة، ولُقِّيَ باحترام عظيم، وإكرام زائد، وكان قد أنفذ معه في المركب الخطيبَ والمنبر وجَمْعاً من المُؤَذِّنين والقُرَّاء، وكان يوم دخولهم إلى قسطنطينية يوماً عظيماً من أيام الإسلام، شاهدَه جمعٌ كثير من التُّجَّار.

ورقي الخطيبُ المنبر، واجتمع إليه المسلمون المقيمون بها والتجار، وأقام الدَّعْوة الإسلامية العَبَّاسية، ثم عاد، فعاد معه هذا الرَّسول يخبرُ بانتظامِ الحال في ذلك، فأقام مُدَّة، ولقد شاهدتُهُ يبلِّغ الرِّسالة، ومعه تَرْجُمان يُترجم عنه، وهو شيخٌ من أحسن ما يُفْرَضُ أن يكون من صور المشايخ، وعليه زِيُّهم الذي يختصُّ بهم، ومعه كتابٌ وتذكِرَة، والكتاب مختومٌ بذهب. ولما مات وصل خبرُ وفاته إلى ملك قسطنطينية، فأنفذ هذا الرسول في تتمة ذلك.

ثم وصف القاضي الكتاب، وعَبَّر عنه بألفاظه، وقد عَبَّر العمادُ عن معانيه، فأغنى عن ذلك.

ثم قال: وكان من حديث ملك الألمان أنَّه بعد أن استقرَّ قدمه في أنطاكية أخذها من صاحبها، وحكم فيه، وكان بين يديه فيها ينفِّذ أوامره، فأخذها منه غِيلَةً وخديعة، وأودعها خزائنه، وسار عنها خامس عشري رجب نحو عكا في جيوشه وجموعه على طريق اللَّاذقية، حتى أتى طَرَابُلُس، وكان قد سار إليه من معسكر

الفرنج يلتقيه المركيس صاحب صور، وكان من أعظمهم حِيلَةً وأشدِّهم بأساً، وهو الأصل في تهييج الجموع؛ وذلك أنَّه صَوَّر القُدْس في ورقةٍ عظيمة، وصَوَّر فيه صورة القيامة التي يحجُّون إليها، ويعظِّمون شأنها، وفيها قَبْرُ المسيح الذي دُفِنَ فيه بعد صَلْبه بزعمهم، وذلك القبر هو أصلُ حَجِّهم، وهو الذي يعتقدون نزول النُّور عليه في كلِّ سنة في عيدٍ من أعيادهم.

فصوَّر القبر، وصوَّر عليه فرساً عليه فارس مسلم راكب، وقد وطىء قبر المسيح، وقد بال الفَرَسُ على القبر، وأبدى هذه الصُّور وراء البحر في الأسواق والمجامع، والقسوس يحملونها، ورؤوسهم مكشَّفة، وعليهم المسوح، وينادون بالويل والثبور.

وللصُّوَرِ عملٌ في قلوبهم، فإنَّها أَصْلُ دينهم، فهاج بذلك خلائقُ لا يُحْصِي عَدَدَهُمْ إلا الله تعالى، وكان من جُمْلتهم ملك الألمان وجنوده، فلقيهم المركيس لكونه أصلاً في استدعائهم إلى هذه الواقعة، فلما اتَّصل به قَوَّى قَلْبَه، وبَصَّرَه بالطُّرق، وسلك به السَّاحل خوفاً من أنَّه إذا أتى على بلاد حلب وحماة نازلهم المسلمون من كلِّ جانب، ومع ذلك لم يَسْلموا من شَنِّ الغارات عليهم.

واختلف حَزْرُ النَّاس لهم، ولقد وقفتُ على بعض كتب الخبيرين بالحرب، وقد حَزَرَ فارِسَهُم وراجِلَهم بخمسة آلاف بعد أن كانوا قد خرجوا على ما ذكر بمائتي ألف، فانظر إلى صنيع الله مع أعدائه.

ولما ساروا من اللاذقية يريدون جَبَلة وجدوا في أعقابهم نيفاً وستين فرساً قد عَطِبَتْ، وانتزع لحمها، ولم يبق فيها إلا العظام من شِدَّة الجوع وضعف الخيل، ولم يزالوا سائرين، وأيدي المسلمين تتخطَّفهم من حولهم نهباً وأسراً وقتلاً حتى أتوا طرابُلُس، فأقام بها حتى استجمَّ عسكره، وأرسل إلى النَّازلين على عكا يخبرهم بقدومه، فوجموا من ذلك: لأن المركيس صاحب مشورته، وكان الملك جفري وهو ملك السَّاحل بالمعسكر هو الذي يُرْجَعُ إليه في الأمور، فعلم أَنَّ مع قدوم الألماني لا يبقى له حُكْم.

وفي أواخر شعبان نَزَلَ الألماني في المراكب هو وعسكره فثارت عليهم ريح أهلكت منهم ثلاثة مراكب، وسار الباقون إلى صور، ثم وصل إلى عكا في نَفَرٍ يسير في سادس رمضان، وكان لقدومه وَقْعٌ عظيم عندهم، ووصل خبر وصولهم إلى طرابُلُس ثامن شعبان والسُّلْطان ثابت الجأش، راسخ القدم، لا يزعزعه ذلك عن حراسة عكا، والحماية لها، ومُرَاصدة العسكر النَّازل بها، وشَنَّ الغارات، والهجوم عليهم في كلِّ وقت، مُفَوِّضاً أمره إلى الله تعالى، معتمداً عليه، منبسط

الوجه لقضاء حوائج النَّاس، مواصلاً ببرّه من نفّذ إليه من الفقراء والفقهاء والمشايخ والأدباء، ولقد كنتُ إذا بلغني هذا الخبر تأثرتُ حتى إذا دخلتُ عليه أجِدُ من قوَّة النَّفس، وشِدَّة البَأس ما يشرح صدري، وأتيقَّن معه نُصْرة الإسلام وأهله.

فـصـل

في إدخال البَطَس(١) إلى عكا

قال القاضي ابنُ شَدَّاد: كان ـ رحمه الله ـ قد أَعَدَّ ببيروت بُطْسَة وعَمَّرها، وأودعها أربعمائة غِرارة من القمح، ووضع فيها من الجُبْن والبصل والغنم وغير ذلك من المِيرة، وكان الفرنج قد أداروا مراكبهم حول عكا، حراسةً لها عن أن يدخلها مركبٌ للمسلمين، وكان قد اشتدَّتْ حاجة مَنْ فيها إلى الطَّعام والميرة، فركب في بطسة بيروت جماعةٌ من المُسْلمين، وتزيُّوا بزيِّ الفرنج، حتى حلقوا لحاهم، ووضعوا الخنازير على سطح البطْسة بحيث تُرَىٰ من بُعْد، وَعَلَّقوا الصُّلْبان، وجاؤوا قاصدي البلد من البُعْد حتى خالطوا مراكب العدو، فخرجوا إليهم، واعترضوهم في الحَرَّاقات(٢) والشَّواني(٣)، وقالوا لهم: نراكم قاصدين البلد، واعتقدوا أنهم منهم، فقالوا: أَوَ لم تكونوا أخذتم البلد؟ فقالوا: لم نأخذ البلد بعد. فقالوا: نحن نردُّ القلوع إلى العسكر، ووراءنا بطسة أخرى في هوائها، فأَنْذِرُوهم حتى لا يدخلوا البلد.

وكان وراءهم بطسةٌ فرنجية قد اتفقت معهم في البحر قاصدين العسكر، فنظروا فرأوها، فقصدوها لينذروها، فاشتدَّت البطسة الإسلامية في السَّير،

---

(١) البطس: جمع بطسة، وهي مأخوذة عن الإسبانية وتعني السفينة الكبيرة، والأصل أن تستخدم للحرب وقد تستخدم للتجارة، وترد أحياناً بطشة، فقد ذكر ابن واصل خبر إعداد بطشة عظيمة في بيروت من قبل السلطان صلاح الدين، وأودعها أربعمائة غرارة قمح ووضع فيها الجبن والبصل والغنم وسائر ما يحتاج إليه، وذلك لإدخالها إلى عكا أثناء حصار الفرنج لها سنة ٥٨٧هـ. فركب في تلك البطشة جماعة من المسلمين وتزيوا بزي الفرنج وحلقوا لحاهم ووضعوا الخنازير على سطح البطشة. (انظر ابن واصل، مفرج الكروب ٢/ ٣٣٠ ـ ٣٣١، والسلوك للمقريزي ١/ ١/ ٧٧).

(٢) الحراقات: جمع حراقة، وهي نوع من السفن الحربية الخفيفة كانت تستخدم لحمل الأسلحة النارية كالنار الإغريقية، وكان بها مرام تلقى منها النيران على العدو (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص١٠٤).

(٣) الشواني: جمع شينية، وهي من أنواع السفن الحربية، (صبح الأعشى ٢/ ٥١٩).

واستقامت لها الريح حتى دخلت ميناء البلد، وسَلِمَتْ ولله الحمد. وكان فرجاً عظيماً، فإنَّ الحاجة كانت قد أَخَذَتْ من أهل البلد، وكان ذلك في العشر الآخر من رجب.

قال: وفي العشر الأوسط من شعبان كتب بهاء الدين قَرَاقُوش وهو والي البلد، والمقدَّم على الأسطول وهو الحاجب لؤلؤ يذكران للسُّلْطان أَنَّه لم يبق بالبلد مِيرة إلا قدر يكفي البلد إلى ليلة النِّصْف من شعبان لا غير، فأَسَرَّها يوسف في نفسه ولم يُبْدِها لخاص ولا عام، خشية الشُّيوع والبلوغ إلى العدو، وتضعف به قلوبُ المسلمين.

وكان قد كتب إلى مِصْر بتجهيز ثلاث بطس مشحونة بالأقوات والإدام والمير، وجميع ما يحتاج إليه في الحصار، بحيث يكفيهم ذلك طول الشِّتاء.

فأقلعت البطس الثلاث من الدِّيار المِصْرِيَة، وَلَجَّجَت في البحر تتوخَّى النوتية بها الريح التي تحملها إلى عكا، فطابت لهم الريح حتى ساروا ووصلوا إلى عكا ليلة النصف من شعبان، وقد فَنِيَتِ الأزواد، ولم يبق عندهم ما يطمعون النَّاس في ذلك اليوم.

وخرج عليها أسطول العدو يقاتلها، والعساكر الإسلامية تُشاهد ذلك من السَّاحل، والنَّاس في تهليلٍ وتكبير، وقد كَشَفَ المسلمون رؤوسهم يبتهلون إلى الله تعالى في القضاء بسلامتها إلى البلد، والسُّلْطان على السَّاحل كالوالدة الثَّكْلَىٰ يشاهد القتال، ويدعو إلى رَبِّه بنصره، وقد عَلِمَ من شِدَّة القوم ما لم يعلمه غيره، وفي قلبه ما في قلبه والله يثبِّتُه، ولم يَزَلِ القتال يعمل حول البطس من كلِّ جانب، والله يدفع عنها، والريح تشتدُّ، والأصوات قد ارتفعت من الطَّائفتين، والدُّعاء يخرق الحُجُب، حتى وصلوا بحمد الله سالمين إلى ميناء البلد، وتلقَّاهم أهلُ عكا تلقي الأمطار عن جَدْب، وامتاروا بما فيها، وكانت ليلة بليال، وكان دخولها العصر رابع عشر شعبان.

وقال العماد: كان السُّلْطان قد أمر نُوَّاب الإسكندرية بتجهيز بطس كبار، وتعميرها من كل مِيرَة وغَلَّة، وتسييرها إلى عكا، فأبطأت عن الميقات، وأَضَرَّ بالمقيمين بالبلد إعوازُ الأقوات، فأكفر فيما يتعجَّل به الغَرَض، فكتب إلى متولِّي بيروت عِزِّ الدين سامة، فجهَّز بطسةً كبيرة، ملأها ميرة وغَلَّة كثيرة، وأركبها جماعةً على زِيِّ الفرنج، ممسوحي اللُّحَىٰ، ممسوخي الحُلَىٰ، وأصحبهم صُلْباناً، وخَيَّل بهم رُهْباناً.

وكانت هذه البطسة من الفرنج مأخوذة، وهي بساحل بيروت منبوذة، فأمر

السُلْطان بترميمها وتتميمها، فَمُلِئَتْ بالشُّحوم واللُّحوم، وأربعمائة غِرَارة غلَّة، وأحمال من النُّشَّاب والنِّفْط، ورُتِّب فيها رجالٌ مسلمون ونصارى من أهل بيروت، وأرادوا أن تشتبه ببطس العدو في البحر، وشدُّوا زنانير، واستصحبوا خنازير، وساروا بها في البحر بمراكب الفرنج مختلطين، وإلى محادثتهم ومجاذبتهم منبسطين، ولَمَّا حاذوا بها عكَّا صَوَّبوا بها نحوها، والرِّيح تسوقها والفرنج من مراكبها تقول: ما هذه طريقُها.

وهي كالسَّهْمِ النَّافذ قد سُدِّد فوقها، فدخلتِ الثَّغْر، واجتزأ البلد بها نصف شهر، وظهرت رابعَ عشر شعبان من ثَبَج البحر ثلاثة مراكب كأنها ثلاث هواضب، فجاءت فجأة أعلامُها كالأعلام، طائِرَةً كالسِّهام، ولم تبالِ بمراكب العدوِّ فخرقتها، وقربت منها سفينة فَغَرَّقتها، وَعَبَرَتْ وَعَيْنُ الكُفْر عَبْرَىٰ، وامتلأَ الثَّغْرُ بها وأَثْرَىٰ.

فصل

قال العماد: ووصلَ ملك الألمان، ورامِ أن يُظْهر بمجيئه وَقْعاً، ويُبْدِي به نَفْعاً، فدبُّوا في راجل كرجل الدَّبى، وخيلٍ أَغَصَّت الوِهَاد والرُّبىٰ، وقربوا من تل العِيَاضِيَّة، وعليه خِيَمُ اليَزَكِيَّة، والنَّوْبَةَ فيها للحَلْقَة المنصورة النَّاصرية، والعُصْبَة المَوْصِلية، فثارت إليهم، ودارت عليهم، وركب السُّلْطان وتقدَّم إلى تل كَيْسان، ولم تَزَلِ الحربُ إلى أن جَنَّ الظَّلامِ، وكَفَّ الكُفْر وسَلِمَ الإسلام، وكانت الدَّائرة على الكَفَرة.

قال القاضي: وقُتِلَ منهم وجُرِحَ خَلْقٌ عظيم، والسيفُ يعمل في بقيَّتهم وهم هاربون، حتى وَصَلَ المخيَّمَ غروبَ الشمس من ذلك اليوم، وهو لا يعتقد سلامة نفسه من شِدَّة خوفه، وقُتِلَ من المسلمين في ذلك اليوم اثنان، وجُرِحَ جماعةٌ كثيرة.

ومن كتاب إلى بغداد: قد بُلِيَ الإسلامُ منهم بقوم قد استطابوا الموت، واستجابوا الصوت، وفارقوا المحبوبَيْنِ: الأوطان والأوطار، وهجروا المألوفَيْن: الأهل والدِّيار، وركبوا اللُّجَج، ووهبوا المُهَج، كلُّ ذلك طاعةً لقسِّيسهم، وامتثالاً لأمر مركيسهم، وغَيْرَةً لمتعبَّدهم، وحميَّةً لمعتقدهم، وتهالكاً على مَقْبُرَتهم، وتحرُّقاً على قُمامتهم.

لا يطلبون مع شِدَّة الإملاق مالاً، ولا يجدون مع كَثْرَة المشاقِّ مَلالاً، بل يتساقطون على نيران الظُّبَىٰ تساقُطَ الفَرَاش، ويقتحمون الرَّدىٰ متدرِّعي الصَّبْر متثبتي الجاش، حتى خرجت النِّساءُ من بلادهن متبرِّزات، وسرنَ إلى الشَّام في

البحر والبر متجهِّزات، وكانت منهنَّ ملكةً استتبعت خمسمائة مقاتلٍ، فارس وراجل، رامح ونابل، والتزمت بمؤنتهم، فصُودف مركبُها بقُرْب الإسكندرية، فأُخذت برجالها، وأراح الله من شَرِّ احتفالها.

ومنهن ملكة وَصَلَتْ مع ملك الألمان، وذوات المقانع، من الفرنج مقنَّعات دارعات، يحملن إلى الطِّعان الطوارق، والقنطاريات[1]، وقد وُجِدَتْ في الوقعات التي جرت عِدَّة منهن بين القَتْلَىٰ، وما عُرِفْنَ حتى سُلِبْنَ.

وإن البابا الذي برومية قَد حَرَّم عليهم مطاعمهم ومشاربهم، وقال: مَنْ لا يتوجَّه إلى القدس مستخلصاً، فهو عندي محرَّم، لا منكح له ولا مطعم. فلأجل هذا يتهافتون على الورود، ويتهالكون على يومهم الموعود، وقال لهم: إني واصلٌ في الرَّبيع، جامع على الاستنفار شَمْلَ الجميع. وإذا نهضَ هذا الملعون فلا يقعد عنه أحد، ويصل معه بأهله وولده كل من يقول: لله أهل وولد.

فهذا شَرْحُ هؤلاء وتعصُّبهم في ضلالتهم، ولجاجتهم في غوايتهم، بخلاف أهل الإسلام، فإنهم يتضجَّرون ولا يصبرون، بل يتفلَّلون ولا يجتمعون، ويتسلَّلون ولا يرجعون، وإنما يقيمون ببذل نفقة، وإذا حضروا حضوا بقلوبٍ غير متفقة، لِيُعْلَمَ أَنَّ الإسلامَ من عند الله منصور، وأنَّ الكُفْرَ بإرادةِ اللَّهِ محسورٌ ومدحور.

قال القاضي: ولما عَرَف ملكُ الألمان ما جَرَىٰ علىٰ أصحابه من اليَزَك الذي هو شِرْذمة من العسكر، رأى أن يرجع إلى قتال البلد، ويشتغل بمضايقته، فاتَّخذ من الآلات العجيبة، والصَّنائع الغريبة، ما هال النَّاظر إليه، وخِيف على البلد منه؛ فمما أحدَثَهُ آلة عظيمة تُسَمَّى دبابة، يدخُلُ تحتها من المقاتلة خَلْق عظيم، ملبَّسة بصفائح الحديد، ولها من تحتها عَجَلٌ تُحَرِّكُ بها من داخل، وفيها المقاتلة حتى ينطحَ بها السُّور، ولها رأسٌ عظيم برقبة شديدة من حديد ـ وهي تسمى كبشاً ـ ينطح بها السُّور بشدَّةٍ عظيمة، لأنه يجرُّها خَلْقٌ عظيم، فتهدمه بتكرار نطحها.

وآلةٌ أخرى وهي قبوٌ، فيه رجالٌ تسحب ذلك إلا أنَّ رأسها محدَّد على مثال السِّكَّة التي يحرث بها، ورأس الكبش مدوَّر، هذا يهدم بثقله، وتلك بحدَّتها وثقلها، وهي تسمَّى سفوداً، ومن السَّتائر والسَّلالم الكبار الهائلة، وأعدُّوا في البحر بطسةً هائلة، وصنعوا فيها بُرْجاً بخرطوم إذا أرادوا قلبه على السور انقلب بالحركات، ويبقى طريقاً إلى المكان الذي ينقلب عليه، يمشي عليه المقاتلة، وعزموا على تقريبه إلى بُرْج الذِّبَّان ليأخذوه به.

---

(١) الطوارق والقنطاريات: أنواع من الأسلحة تكون في خزانة السلاح، وتكون مدهونة ومذهبة.

[مضايقة الفرنج لعكا وضربها بالمنجنيقات]

قال: ونَصَبَ العدو على البلد منجنيقاتٍ هائلة حاكمة على السُّور، وتواترت حجارتها حتى أثَّرت فيه أثراً بيِّناً، وخِيْفَ من غائلته، فأُخذ سهمان من سهام الجرخ العظيم، وأُحرق نَصْلاهما حتى بقيا كالشُّعْلة من النَّار، ثم رُميا في المنجنيق الواحد، فعلقا فيه واجتهد العدو في إطفاء النَّار فلم يقدر على ذلك، وهَبَّت ريحٌ شديدة، فاشتعل اشتعالاً عظيماً، واتصلت لهْبَتُه بالآخر فأحرقته، واشتدَّ ناراهما بحيث لم يقدر أحدٌ أن يقرب مكانهما ليحتال في إطفائهما، وكان يوماً عظيماً اشتدَّ فيه فرحُ المسلمين، وغَمُّ الكافرين.

[قصة عيسى العوام وغرقه]

قال: ومن نوادر هذه الوقعة ومحاسنها ـ يعني نوادر ما جرى في القتال على عكَّا ـ أنَّ عَوَّاما مسلماً كان يُقال له عيسى، كان يدخل البلد بالكُتُبِ والنَّفقات على وسطه ليلاً على غِرَّة من العدو، وكان يغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو.

وكان ذاتَ ليلةٍ شَدَّ على وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار، وكُتُبٌ للعسكر، وعَامَ في البحر، فجرىٰ عليه أَمْرٌ أهلكه، وأَبْطَأَ خَبَرُه عَنَّا، وكانت عادتُه إذا دخل البلد طار طائر عَرَّفَنا بوصوله، فأبطأ الطَّائر، فاستشعر هلاكه، فلما كان بعد أيام بينا النَّاس على طرف البحر في البلد وإذا البحر قد قَذَفَ إليهم ميتاً غريقاً فافتقدوه، فوجدوه عيسى العَوَّام، ووجدوا على وسطه الذهب ومشمَّع الكُتُب. وكان الذهب نفقةً للمجاهدين، فما رُئي من أدَّىٰ الأمانة في حال حياته، وقَدَّر الله له أداءها بعد وفاته إلا هذا الرجل، وكان ذلك في العشر الأواخر من رجب أيضاً.

وقال العماد: فَعُدِمَ ـ يعني عيسى ـ ولم يُسمع له خبر، ولم يظهر له أثر، فَظُنَّت به الظُّنون، وما تيقَّنت المنون، وكانت له لا شكَّ عند الله منزلة، فلم يرد أن تبقى حاله وهي مجملة محتملة، فوجد في عكا ميتاً قد رماه البحر إلى ساحلها، وبرأه الله مما قالوا، فذهب حقُّ اليقين من الظُّنون بباطلها.

فـصـل

في إحراق ما حوصر به بُرْج الذُّبَّان وتحريق الكبش

قال القاضي: وفي الثَّاني والعشرين من شعبان جَهَّز العدو ـ لعنه الله ـ بَطَساً[١]

(١) البطس: سفينة كبيرة تستخدم للحرب والتجارة تقدّم التعريف بها قبل قليل.

متعدِّدة لمحاصرة برج الذُّبان، وهو بُرْجٌ في وسط البحر مبنيٌّ على الصَّخر على باب ميناء عكا، يُحْرَسُ منه الميناء، ومتى عبره المركب أَمِنَ من غائلة العدو، فأراد العدو أَخْذَه ليبقى الميناء بحكمه، ويمنع من دخول شيء من البَطَس إليه، فتنقطع المِيرَة عن البلد.

فجعلوا على صواري البطس بُرْجاً، وملؤوه حطباً ونِفْطاً على أنهم يسيِّرون البطس، فإذا قاربت بُرْجَ الذُّبَّان ولاصقته أحرقوا البرج الذي على الصَّاري، وألصقوه ببرج الذبَّان ليلقوه على سطحه، ويُقتل من عليه من المُقاتل ويأخذوه، وجعلوا في البطسة وقوداً كثيراً حتى يلقى في البرج إذا اشتعلت النَّار فيه، وَعَبُّوا بطسة ثانية وملؤوها حطباً ووقوداً على أنهم يدفعونها إلى أن تدخل بين البطس الإسلامية، ثم يلهبونها، فتحرق البطس الإسلامية، ويهلك ما فيها من المير.

وجعلوا في بطسة ثالثة مقاتلة تحت قبو بحيث لا يصل إليهم نُشَّاب ولا شيء من آلات السلاح حتى إذا أحرقوا ما أرادوا إحراقه دخلوا تحت القبو، فأمنوا وأحرقوا ما أرادوا إحراقه، وقدَّموا البطسة نحو البُرْج المذكور، وكان طمعهم مشتدّاً حيث كان الهواء مُسْعداً لهم، فلما أحرقوا البطسة التي أرادوا يحرقون بها بطس المسلمين والبرج الذي أرادوا يحرقون به مَنْ على البرج، فأوقدوا النَّار، وضربوا فيها النِّفْط، فانعكس الهواءُ عليهم كما شاء الله تعالى وأراد، واشتعلت البطسة التي كان فيها البرج بأسْرها، واجتهدوا في إطفائها فما قدروا، وهلك من كان بها من المقاتلة إلا من شاء الله تعالى، ثم احترقت البطسة التي كانت مُعَدَّة لإحراق بطسنا، ووَثَبَ أصحابُنا عليها فأخذوها.

وأما البطسةُ التي فيها القبو فإنَّهم انزعجوا وخافوا، وهَمُّوا بالرجوع، واختلفوا واضطربوا اضطراباً عظيماً، فانقلبت وهلك جميع مَنْ بها؛ لأنهم كانوا في قبوٍ لم يستطيعوا الخروج منها، وكان ذلك من أعظم آيات الله، وأندر العجائب في نُصْرَةِ دين الله، ولله الحمد، وكان يوماً مشهوداً.

وقال العماد: وعند ميناء عكا في البحر بُرْجٌ يعرف ببرج الذُّبَّان، وهو في حراسة المينا عظيم الشَّان، وهو منفردٌ عن البلد، محميٌّ بالرجال والعُدَد، وقَصَدَ الإفرنج حصاره قبل مجيء ملك الألمان، في الثَّاني والعشرين من شعبان، ببطس كبارٍ جَهَّزوها، ومراكب عِظام الآلات أبرزوها، ومكرٍ مكروه، ودَبَرٍ دَبَّروه.

وأحدُ تلك المراكب قد رُكِّبَ برجٌ فوق صاريه، لا يطاوله طَوْدٌ ولا يباريه، وقد حُشِيَ حشاه بالنِّفْط والحَطَب، وضُيِّق عَطَنُه بسعة العَطَب، حتى إذا قَرُبَ من برج الذُّبَّان، والتصق بشُرفاته، أعدى إليه بآفاته، ورُمِيَتْ فيه النَّار فاحترق، واحترق

من الأخشاب والستائر ما به التصق، وتستولي النَّار على مواقف المقاتلة، فتباعدوا عنها، ولم يقربوا مها، وأوقدت بطسة الحطب التي من ورائها، وعادت على الفرنج فالتهبوا، وحمي عليهم الحديد فاضطرموا واضطربوا، وانقلبت بهم السَّفينة فاحترقوا وغرقوا، والنَّاجون منهم فارقوا وفَرِقوا ولم يُفْرِقوا، واحتمىٰ بُرْج الذُّبَّان فلم يَطِرْ عليه من بعدها عليه ذُباب، ولم يفتح للعدو في الكيد له باب.

ومن كتابٍ إلى سيف الإسلام باليمن: ومن حديث البُرْج أنه يحيط به البحر من جوانبه، وهو قُفْل ميناء الثَّغْر على مراكبه، وقد رفعناه وأعليناه، وبالعُدَد والرِّجال قوَّيناه، فعَمَدوا إلى أكبر بطسة، واتَّخذوا فيها مِصْقالاً كأنَّه سُلَّم، وهو في مقدَّمها مركبٌ مُقَدَّم، وقد جعلوها بحيث إذا قُرِّبت إلىٰ البُرْج ركب رأس السُّلَّم على شراريفه، وصَعِدَ الرجال إليه في تجاويفه. وتعبوا في ذلك أياماً، وأشبعوه توثيقاً وإحكاماً، حتى إذا التصق بالبُرْج أُلْصِقَتْ به قواريرُ النِّفْط، وتوالت أمطار البلايا من الجروخ والمنجنيقات على أولئك الرَّهْط، ثم عمل الفرنجُ بُرْجاً عالياً في أكبر مركبٍ، وحَشَوْه بالحَطَب، وعملوا على رأس صاريه مكاناً يقعدُ فيه الزُّرَّاق، وقدَّموه إلى برج الذُّبَّان، وسَلَّطوا على جوانبه النِّيران، فَأَهَبَّ اللَّهُ من مَهَبِّ لُطْفِهِ نكباءَ نكَّبتِ النَّارَ عن البرج المحروس، وكَبَّتِ الفرنجَ على الوجوه والرؤوس.

[هجوم الفرنج على عكا]

قال القاضي: وفي ثالث رمضان زَحَفَ العدوُّ على البلد في خَلْقٍ لا تُحْصَى، فأهملهم أهلُ البلد حتى نَشِبَتْ مخاليبُ أطماعهم فيه، وسحبوا آلاتهم المذكورة حتى قاربوا أن يلصقوها بالسُّور.

وتحصَّل منهم في الخندق جماعةٌ عظيمة، فأطلقوا عليهم الجروخ والمجانيق والسِّهام والنِّيران، وصاحوا صيحة الرجل الواحد، وفتحوا الأبواب، وهَجَموا على العدو من كلِّ جانب، وكبسوهم في الخنادق فهربوا، ووضع السَّيف فيمن بقي في الخندق منهم، ثم هجموا على كَبْشهم، فألقوا فيه النَّار والنِّفْط، وتمكَّنوا من حريقه لهرب المقاتلة عنه، فأُحرق حريقاً شنيعاً، وظَهَرَتْ له لُهْبةٌ نحو السَّماء، وارتفعتِ الأصواتُ بالتكبير والتهليل والشكر، وسَرَتْ نارُ الكَبْش بقوَّتِها إلى السفود، فاحترقَ، وعَلَّق المسلمون في الكبش الكلاليب الحديد المصنوعة في الأَسَل، فسحبوه وهو يشتعل حتى حَصَّلوه عندهم في البلد، وكان مركَّباً من آلاتٍ هائلة عظيمة، وألقي الماءُ عليه حتى بَرَد حديدُه بعد أيام.

وبلغنا من البلد أنَّه وُزِنَ ما كان عليه من الحديد فكان مائة قنطار بالشَّامي، والقنطار مائة رطل. ولقد أنفذوا رأسه إلى السُّلْطان، وَمَثَلَ بين يديه، وشاهدتُه

وقَلْبَتُه، وشكلُه على مثال السَّفُود الذي يكون بحجر المدار، قيل إنه ينطح به السُّور فيهدم ما يلاقيه، وكان ذلك من أحسن أيام الإسلام، ووقع على العدو خِذْلانٌ عظيم، ورفعوا ما سَلِمَ من آلاتهم، وسَكَنَتْ حركاتُهم التي ضيَّعُوا فيها نفقاتهم.

وقال العماد: واستأنف الفرنج عَمَلَ دَبَّابةٍ هائلة، وآلةٍ للغوائل غائلة، في رأسها شكلٌ عظيم يقال له الكَبْش، وله قَرْنان في طول رُمْحين، كالعمودين الغليظين، وهذه الدَّبَّابة في هيئة الخربشت[١] الكبير، وقد سقفوها مع كبشها بأعمدة الحديد، ولبَّسوا رأس الكبش بعد الحديد بالنُّحَاس، فلم يبق للنَّار إليها سبيل، ولا للعَطَبِ عليها دليل، وملؤوها بالكُماة والرُّماة، وسحبوها وقَرَّبوها، فجاءت صورة مزعجة، وبلي البلد منها بالبلاء، وقالوا: ما في دفعها حيلة.

ونصبوا على صوبها مجانيق، ورموا بالحجارة الثَّقيلة ذلك النِّيق، فأبعدت رجالها من حواليها، ثم رموها بحُزَم الحَطَب حتى ما بين القَرْنَين، وقذفوها بالنَّار، فباتوا يُطْفئونها بالخَلِّ والخمر، وقد تمكَّنَتِ النَّار من أضلاعها، ثم خَسَفها المنجنيق، وخرج مَن بالثَّغر، فقطعوا رأس الكبش، واستخرجوا ما تحت الرماد من العُدَد بالنَّبش، وقُدِّر ما نُهِبَ من الحديد بمائة قنطار، وعلم الفرنج أَنَّ أعمالهم حَبِطَتْ، وآمالهم هَبَطَتْ، وكان ذلك في ثالث عشر رمضان.

وفيه قَدِمَ الظَّاهر صاحب حلب، والأمجد صاحب بَعْلَبَك، وسابق الدين عثمان صاحب شَيْزَر، وعز الدين ابن المُقَدَّم، والأمير حسام الدين حسين بن باريك، وجماعة من الأمراء والخواص والمماليك.

فصل

في حوادث أُخَر متفرِّقة في هذه السنة

[إغارة صاحب أنطاكية على أعمال حلب]

قال العماد: ووصل الخبر في سادس عشر رمضان من حلب أنَّ صاحب أنطاكية أغار على غِرَّة، بشَرَهٍ وَشِرَّة، فرتَّب أصحابنا له كميناً ثم خرجوا عليه شمالاً ويميناً، فقتلوا أكثر رجاله، وأفلت وبالُهُ في وبالِهِ[٢].

قال القاضي: خرج عليه نُوَّاب الملك الظاهر، فَقُتِلَ من عسكره خمسة

(١) الخربشت: كلمة فارسية تعني الخيمة التي تستعمل بيتاً للخلاء.
(٢) البال: الخاطر، والوبال: الشدة والمكروه.

وسبعون نفراً، وأُسر منهم خَلْقٌ عظيم، واستعصم بنفسه في موضعٍ يسمَّى شيح حتى اندفعوا وسار إلى بلده.

[استيلاء المسلمين على بطستين للفرنج]

قال: وفي أثناء العشر الأوسط أَلْقَتِ الرِّيح بطستين، فيهما رجالٌ وصبيان ونساء، ومِيرة عظيمة، وغَنَم كثيرة، قاصدين نحو العدو، فغنمها المسلمون. وكان العدوُّ قد ظفر لنا ببركوس فيه نفقةٌ ورجال أراد الدُّخول إلى البلد، فأخذوه، فوقع الظَّفر بهاتين البطستين ماحياً لذلك، وجابراً له.

قال العماد: وفي هذا التاريخ ألقتِ الريحُ إلى ساحل زَيب بطستين خرجتا من عكّا بجماعةٍ من الرِّجال والصبيان والنِّساء، وفيها امرأة محتشمة غَنِيَّة محترمة، فأخذتا وأُخذوا وأُخذت، وجَدَّ الفرنج في استنقاذها فما استنقذت.

[رحيل السلطان إلى شفر عم]

قال: وفي تاسع عشر الشَّهر رَحَلْنَا إلى منزلةٍ تعرف بشَفْرَ عَمّ، وسببُه أَنَّهُ كَثُرَ المستأمنون من الفرنج، وأخبروا أَنَّهم في عَزْم الخروج إلى المرج، هايجين إلى الثأر، ثائرين إلى الهيجاء، فاستشار السُّلْطان أمراءه فقالوا: الصَّواب أن نفسح لهم عن هذه المروج، حتى يكون دخولهم إليها يوم الخروج، فنصبِّحهم في اليوم الآخر، ولا يتعذَّر بهم إحداقُ العساكر. فخيمنا هناك، ورَحُبَتِ المنازل وعَذُبَت المناهل، وعادت معالم تلك المجاهل، وحللنا التلال والآكام، وركزنا بتلك الأعلام الأعلام، ونزلنا لمقام الشتاء مستعدِّين، ولأسباب التوقِّي من الأمطار مستنجدين.

[وفاة زين الدين صاحب إربل وولاية أخيه مظفر الدين]

قال: ومَرِضَ زين الدِّين صاحب إِرْبل في شهر رمضان، وتوفي في الثَّامن والعشرين منه.

قال القاضي: وكان استأذن في الرَّواح، فلم يؤذن له، فاستأذن في الانتقال إلى النَّاصرة، فأُذِنَ له، فأقام بها أياماً يُمَرِّض نفسه، ثم توفي وعنده أخوه مُظَفَّر الدين يشاهدُه، وحَزِنَ النَّاسُ عليه لمكان شبابه وغُرْبته.

قال العماد: وكان كريماً أريحياً، نحياً سخياً، وبكَّرْنا إلى مُظَفَّر الدين نعزِّيه في أخيه، وظَنَنا به الحُزْن، فقلنا نعظه ونسلِّيه، فإذا هو في شُغل شاغل عن العَزَاء، مهتمٌّ بالاحتياط على ما خَلَّفه وتركه من الأشياع والأشياء، وهو جالسٌ في مخيَّم أخيه المتوفَّى، وقد أشرف على حفظه وأوفى، وقد قَبَضَ على جماعةٍ من أمرائه، واعتقلهم، وعَجَّل عليهم وما أغفلهم؛ منهم صارم الدين بن بُلَداجي متولِّي

خُفْتِيان كان ليتسلَّم منه المكان، وكذلك كلُّ حاضرٍ له حصن، ليحصل له من طاعته أَمْن.

وخَاطَبَ في أسباب ولاية إربل وأعمالها، وأن يستقلَّ ببلادها وأموالها، ورغب في شَهْرُزُور واستضافتها، لاستنارة وجاهته بها واستفاضتها، وأنه ينزل على حَرَّان والرُّها وسُمَيْساط والمُوَزَّر، ويجعل كل ما في يده من الأعمال في المُوَفَّر، ويخدم بخمسين ألف دينار ويحضرها نقداً، ويلتزم بها على الميثاق عقداً.

فأُجيبتْ رَغْبَتُه، وأُصيبت طِلْبَتُه، وعُقِدَ لواؤه، ونجح رجاؤه، وأراد سُرْعة الرَّحيل، فاسْتُمْهِلَ إلى حين وصول الملك المُظَفَّر تقي الدين، لينزل في منزلته بجنده وصحبه الميامين، فوصل يوم الأحد ثالث شَوَّال، وأُضيف إليه ما استعيد من مُظَفَّر الدين من الأعمال، وكتب منشور إربل، وكتاب إلى صاحب المَوْصِل فيه: لا شَكَّ في إحاطة العلم بانتقال زين الدين إلى جوار الله وَمَقرِّ رحمته، مجاهداً في سبيل الله شاكراً لنعمته، وهو من السُّعَداء الذين أنزل الله تعالى فيهم: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠] فما أفجع القلوب بمصابه، وما أنكىٰ في النُّفوس فلول شَبَا شَبَابه.

ولقد كانت الهِمَّةُ متوفِّرة على تربيته، وإعلاء درجته، ولكن الله تعالى استأثر به قبل ظهور حُسْن الآثار في إيثاره، وبُلِيَ بَدْرُهُ التَّمُّ بِسِرَارِهِ، وأصبح في ضمير البِلَىٰ من أسراره.

وهذه إربل من إنعام البيت الكريم الأتابكي على البيت الزَّيني مُذْ سبعين عاماً، لم يحِلّوا لعقد انعامهم بها نظاماً، ولم يزيدوا أحكامه إلا إحكاماً وإبراماً، وما رأى أَنْ يخرج هذا الموضع منهم، وأن يُصْدَفَ به عنهم، والأمير الأَجَلِ مُظَفَّر الدين كبير البيت وحاميه، والمُقَدَّم في الولاية بمقتضى وصية أبيه، وقد أُنهض ليسُدَّ مَسَدَّ أخيه.

[ولاية تقي الدين عمر بلاد ما وراء الفرات]

قال: وكان الملك المُظَفَّر تقي الدين متولياً مذ سنين أعمال مَيَّافارقين، فطلب من عَمِّه تفويض كل ما وراء الفرات إليه، والاعتماد فيه عليه، فأنعم عليه بذلك، فأقام عندنا بالمنزلة المظفرية إلى أن يؤذن له في المُضِيِّ إلى تلك الولاية، وسَيَّر نُوَّابه إليها لإبقاء رعاياها على شيمة الرِّعاية.

[ضجر العسكر الشرقي من الإقامة في الشتاء على حصار عكا]

قال: ولما أَحَسَّ العسكر الشَّرْقي بالشتاء أبدوا خُلُق السَّآمة، وضجروا من الإقامة، فأما عماد الدين صاحب سِنْجار، فإنه عَرَف كراهية السُّلْطان لفِراقه، فلم يَجْرِ إلا على وِفاقِه. وأما صاحب الجزيرة سنجر شاه، فإنه استطال المقام وأباه، ودخل يوم عيد الفطر على السُّلْطان، فَقَبَّل يده وودَّعه من غير سابقة الاستئذان، فأغضبه انفصاله، وساءه ارتحاله. وكان تقيُّ الدين واصلاً فلقي صاحب الجزيرة عنا فاصلاً، فَرَدَّه عن طريقه، وَجَدَّ في تعويقه، ورجع به إلى الرِّضا، وعفا الله عَمَّا مضى.

وقال القاضي: تَرَدَّدت رُسُلُه ورِقاعُه إلى السُّلْطان في طلب الدُّسْتُور، والسُّلْطان يعتذر بأن رُسُلَ العدو متكرِّرةٌ في معنى الصُّلْح، ولا يجوز أن تنفض العساكر حتى نتبيَّن على ماذا ينفصل الحال من سِلْمٍ أو حَرْبٍ.

فلما كان يوم عيد الفطر دخل على السُّلْطان، وهو ملتاث الجسم، فقبَّل يده وخرج، وسار من ساعته ومعه أصحابه، فلما بلغ السلطان صنيعه كتب إليه: إنك أنت قصدت الانتماء إليَّ ابتداءً، وراجعتني في ذلك مراراً، وأظهرت الخِيفة على نَفْسِك وبلدك من أهلك، فقبلتُك وآويتك ونصرتك، فَبَسَطْتَ يدك في أموال النَّاس ودمائهم وأعراضهم، فنفَّذْتُ إليك وَنَهَيْتُكَ عن ذلك مراراً، فلم تنته، فاتفق وقوع هذه الواقعة للإسلام، فدعوناك، فأتيت بعسكرٍ قد عرفته وعَرَفَه النَّاس، وأقمتَ هذه المديدة، وقلقت هذا القلق، وتحرّكت بهذه الحركة، وانصرفت عن غير طيب نَفْسٍ، وغير فَصْلِ حالٍ مع العدو، فانظر لنفسك، وأبصر من تنتمي إليه غيري، واحفظ نفسك ممن يقصدك، فما بقي لي إلى جانبك التفات.

وسَلَّم الكتاب إلى نَجَّاب، فَلَحِقَهُ قريباً من طبرية، فقرأ الكتاب ولم يلتفت، وسار، فلقيه تقيُّ الدين عند عقبة فيق. فأخبره بأمره، وتعتَّب على السُّلْطان كيف لم يخلع عليه، ولم يأذن له في الرَّوَاح، فَفَهِمَ تقيُّ الدين انفصاله عن غير دُسْتُورٍ من السُّلْطان، فأمره بالرُّجوع وقال: أنت صبيٌّ، ولا تعلم غائلة هذا الأمر. فقال: ما يمكنني الرجوع. فقال: ترجع من كل بُدٍّ من غير اختيارك.

وكان تقيُّ الدين شديدَ البَأْس، مقداماً على الأمور، ليس في عينه من أحدٍ شيء، فلما عَلِمَ أنه قابضُهُ إن لم يرجع رجع معه، وسأل السُّلْطانَ الصَّفْح عنه، ففعل، وطلب أن يقيم في جوار تقي الدين خشيةً على نفسه، فأذن له، فأقام في جواره إلى حين ذهابه.

قال العماد: في «الفتح»: وطال على الملك عماد الدين صاحب سِنْجار المقام، وَجَدَّ في الاستئذان في الرَّحيل منه الاهتمام، وتقرر ملاله، وتكرر سؤاله، فكتب إليه السلطان: [مجزوء الكامل]

مَـنْ ضـاع مِـثْـلـي مِـنْ يـديــــه فَـلَـيْـتَ شِـعْـري مـا اسـتـفـادا

فلما قرأ هذا البيت ما راوح في الخِطَابِ ولا غادى.

[إذن السلطان لعلاء الدين ابن صاحب الموصل بالرجوع إلى بلاده]

وقال في «البرق»: وفي مستهلِّ ذي القَعْدَة أَذِنَ لعلاء الدين خُرَّم شاه ابن صاحب المَوْصِل، ونُعِتَ بالملك السَّعيد لما تُفُرِّس فيه من أمارات السَّعْد، وأقام بعده عمه عماد الدين، وابن عمه معز الدين سنجر شاه، وهما صاحبا سنجار والجزيرة، وحُبوا بالحِبَاء الوافر والعطايا الغزيرة، وما فارقا إلا في السنة الأُخرى في ثالث صفر.

قال: وَغَلَتِ الأسعارُ عند الفرنج حتى بلغت الغِرَارة أكثر من مائة دينار، والسعر من الزيادة لديهم في استعار، وَبُلُوا بأمورٍ صعبة، وهرب إلينا منهم عُصْبَةٌ بعد عُصْبة، فاستأمنوا إلينا لفرط جوعهم، ولما شبعوا عندنا لم يرغبوا في رجوعهم، فمنهم من أسلم فَحَسُنَ إسلامه، ومنهم من خَدَم فوافق استخدامه، ومنهم من حَنَّ إلى إلفه، فرجع القَهْقَرَىٰ إلى خَلْفِهِ.

فـصـل

[كتب القاضي الفاضل إلى السلطان مواسياً وناصحاً]

كان القاضي الفاضل ـ رحمه الله ـ في هذه الأوقات بالدِّيار المِصْرية يُرَتِّب للسُّلْطان أموره من تجهيز العساكر، وتعمير الأُسطول، وحمل المال، ونقل المير إلى عكّا، والسُّلْطان يكاتبه في مهمَّاته، وترجع أجوبتُه بأحسن عباراته، مشيراً وناصحاً ومسلياً، وباحثاً عن مصالح الإسلام متقصياً، فمن بعض كتبه:

المملوك ينهي أن الله تعالى لا يُنال ما عنده إلا بطاعته، ولا تُفَرَّج الشَّدائد إلا بالرُّجوع إليه والامتثال لأمر شريعته، والمعاصي في كلِّ مكانٍ بادية، والمظالم في كلِّ مَوْضعٍ فاشية، وقد طَلَعَ إلى الله تعالى منها ما لا يُتَوقَّع بعدها إلا ما يُسْتعاذ منه.

وقد أجرى الله تعالى على يد مولانا من فَتْح البيت المقدَّس ما يكون بمشيئة الله له حُجَّة في رضاه، ونعوذ بالله أن يكون حُجَّة له في غضبه.

بلغ المملوك من كلِّ واردٍ منه مكاتبةً ومخاطبة بأنه على صفةٍ تَقْشَعِرُّ منها الأجساد، وتتصدَّع بذكرها الأكباد، والمملوك لا يتعرَّض لتفصيل ما بلغه من ظهور المنكرات فيه، وشيوع المظالم في ضياعه وخراب البلد، وعدم القُدْرة على المرمَّة لقُبَّة الصَّخْرة والمسجد الأقصى، وبالغفلة من مرمَّتهما، وبفقدهما في أشتية القُدْس العظيمة الجليلة المُثْلجة لا يؤْمَن سقوطُهما، وافتضاح القُدْرة في العجز عن إعادتهما، والمرمَّة أقربُ متناولاً من الإنشاء والتجديد.

ولا شُبْهة أن مولانا ــ عَزَّ نَصرُه ــ في أشغال شاغلة، وأمور متشدِّدة، وقضايا غير واحدةٍ ولا متعدِّدة، ولكن قد ابتُلي النَّاس فصبروا، وأضجرتهُمُ الأيامُ فما ضَجِرُوا، وأيُّ عبادةٍ أعظم من عبادته التي قام بها والنَّاس عنها قعود، وصَبَرَ في طلب جَنَّتها على ناري الحرب والوقت ذواتي الوقود، غير أن مولانا إذا ذكر نَصيبُه من الإقدام فلا ينسى نصيبه من الحَزْم، ولا يعجل في الأمور الخطيرة، ولا يُقْدم بالعدد القليل على العِدَّة الكثيرة، فالمولى إذا قاتل كان واحداً، وإذا دَبَّرَ كان بالخلق، ولا يطمع بأن يقوم به الألف، وليذكر المولى نوبة الرَّمْلة التي كان وقوعها من الله سبحانه أدباً لا غَضَباً، وتوفيقاً لا اتِّفاقاً، ولا يكره المولى أن تطول مُدَّة الابتلاء بهذا العدو، فثوابه يطول، وحسناته تزيد، وأثره في الإسلام يبقى، وفتوحاتُه بمَشيئة الله يَعْظُمُ موقعها، والعاقبة للتقوى، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠].

والله تعالى يشكر لمولانا جهاده بيده وبرأيه وبولده، وبخاصَّته وبعامة جُنْدِه، والإعداء في أعدائه، كجهاده بصاحب صيدا في الفرنج، فهو جهادٌ قد أربى فيه رأي المولى فَرَجَحَ، والحديد بالحديد يُفْلَح، وأكْيَدُ ما قوبل به العدوُّ سلاحُه، وأَسْرَعُ جَنَاح طار لقبضه جَنَاحُه، ودولةُ مولانا كالبحر كرماً وظهور عجائب، وكالسَّماء مَطَراً وأَسِنَّة كواكب.

ومن كتاب آخر: المملوك يقبِّل الأرض بين يدي مولانا الملك النَّاصر، لَطَفَ الله بقلبه، وحمل عنه، وَرَوَّح سِرَّه، ووصل الرَّاحة به، ونسأل أن يرحمه لنا الذي رَحِمَنَا به، فقد بلغتِ القلوبُ، وقد وقفت في طُرُقنا الذُّنوب، وبينما نحن ننتظر من كتب المولى ما يستدلُّ به على أَنَّ قَلْبَ المولى قد طاب، وقَصْدَ العَدوِّ وقد خاب إذ تَرِدُ كُتُبٌ يكون الوقوف عليها قاطعاً للأكباد، مفتتاً للقلوب ولو أنها جماد.

ثم ذكر البطَس الذي تقدَّم ذكرها الواصلة إلى عكا ليلة نصف شَعْبان فقال:

وبينا نحن نعتقد أن البطس في عكا وصل الخَبَرُ بأنها في دِمْياط، ويوم وصل الخبر بأنها في دمياط نحن على انتظار خروجها منه، وكتب البطائق بالاستحثاث والاستعجال وتحذيرهم من تمادي المقام، وما تيقَّنَّا أَخَرَجَت أم هي باقية، كأنَّ الرِّيح في بيتٍ ما خرجت منه من هاتين الجمعتين، ولها من تاريخ خُروجها من الإسكندرية، وإلى تاريخ تسطير هذه الخدمة خمسة عشر يوماً، والعيونُ ممدودةٌ، والأيدي مرفوعةٌ بأَنْ يفرِّج الله عَنَّا وعنكم بوصولها، فمن شَبعَ في هذه الأيام فما واسى المُسْلمين، ومن نام مِلْءَ عينيه فما هو من أُخوة المؤمنين.

والمملوك شفيقٌ على البطس في وقت الدُّخول حَذَرَ أن يعترض العدوُّ طريقَها فيحول بينها وبين الوصول، فينعكس المراد بها، ويحدث من المَضَرَّة بحرمانها أضعاف ما يحدث من النِّعمة بالفرج المُسَيَّر فيها، وأكَّدَ هذه الحال في نفس المملوك وقوفُه على كتب أصحابنا من عكا، وقد وقع لهم هذا الواقع الذي وقع للمملوك من خوفهم عليها، واستبعادهم دخولها، فما المملوك وكل من يعرِف الأمر إلا كأهل الصِّراط: رَبِّ سَلِّم رَبِّ سَلِّم[(١)].

فنسأل اللَّهَ سبحانه ألا يكلنا إلى أنفسنا فنعجز، ولا إلى النَّاس فنضيع، ومجهودُ أهلِ الأرض قد انتهىٰ، وبقي ما يفعله الله، والخير منتظر منه، والفرج بالقوت قد سُيِّر في البحر من خمسة عشر يوماً، والفرج بالنفقة قد سُيِّر في البَرِّ من عشرة أيام، والله يا مولانا ما يُنْجَزُ شيء من هذه الأمور إلى أن تُضْرَبَ الوجوه بالشَّوْك، وتُسْتَحْلَبَ الحجارة، ويُنَبَّه النُّوَّام، وتُبَحَّ الأصوات من التذكار، وتحفى الأقلام من الكتابة، ويُخْضَع لمن يلزمه الشُّغْل كالخضوع لمن لا يلزمه، والله المستعان، فليخلص المولى نيته في الاستعانة، فالأعوان قليل: [الوافر]

وقد كانوا إذا عُدُّوا قليلاً ... فقد صاروا أَقَلَّ من القليلِ

ومن كتابٍ آخر: وما تجدَّد للعدو من الشُّروع في آلات الحِصار لعكا، وما أرجف به من النَّجْدتين الفرنجيتين الواصلة والبعيدة، وافتراق العساكر في هذا الوقت للضَّرورة، والتماس العسكر الشَّرْقي الدُّسْتُور للضَّجر، وحاجة المولى من

---

(١) هو من حديث رسول الله ﷺ في حال أهل القيامة، الطويل، وأوّله أن ناساً قالوا لرسول الله ﷺ: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ الحديث بطوله... ومنه «ودعوى الرسل يومئذٍ: «اللهم ربّ سلّم ربّ سلّم». أخرجه البخاري في التوحيد باب ٢٤، والرقاق باب ٥٢، والأذان باب ١٢٩، ومسلم في الإيمان حديث ٢٩٩، ٣٠٢، ٣٢٩، والترمذي في القيامة باب ٩، والجنة باب ٢٠، وأحمد في المسند ٢/ ٢٧٥، ٢٩٣، ٣٦٩، ٥٣٤، ٣/ ١٦، ١٧، ٢٦، ٦/ ١١٠.

الإنفاق إلى ما لا يَسَعُهُ التدبير، ويضيق عنه الإمكان، ومطالبة الغنيِّ بالزِّيادة مع الغِنَىٰ، والضعيف بأكثر مما يحتاج إليه، وضياع فُرْصَةٍ بعد فرصة، واختلاف رأي بين المستشارين من الجماعة، وَجُود الألسنة بالآراء، وبُخْلُ الأيدي بالمعونة، وانفراد المولىٰ بالتَّعب، واشتراك الناس في الرَّاحة، وما ابتليَ به المسلمون من مَرَضٍ أظهروه ليكون لهم عُذْراً في القعود، وكتمه المولى على نَفْسِه لئلا يجلب لأصحابنا ضعف النُّفوس.

فهذه الأمور وإن كانت شدائد، وزائدات على العوائد، فقد ألهمَ الله مولانا فيها سَعَة الصَّدر، وحُسْنَ الصَّبْر، لِيُشعره أَنَّ صَبْرَهُ يَعْقِبُهُ النَّصْر، وحِسْبَتَهُ يعقبه الأَجْر، ولو لم يَرَ الله تعالى أن قُوَّةَ مولانا أكمل القُوَىٰ، وعُرْوَة عَزْمِهِ أوثق العُرَىٰ لما أَهَّلَه، لأَن يَنْصُرَ مِلَّة لا يعرف المملوك غير الله ينصرها، وغير مولانا يباشر النُّصْرة ويحضرها، فليس إلا التجرُّد للدُّعاء، والتَّجلُّد للقضاء، فلا بُدَّ من قَدَرٍ مفعول، ودُعاء مقبول، ومن الأمثال المنظومة: [الكامل]

نحن الذين إذا عَلَوْا لم يَبْطَروا يوم الهِيَاجِ وإنْ عُلُوا لم يَضْجَروا

ومعاذَ الله أن يفتح علينا البلاد ثم يُغلقها، وأن يُسْلِمَ على يدينا القدس ثم يُنَصِّره، ثم معاذ الله أن نُغلب على النَّصْر، ثم مَعَاذ الله أن نغلب على الصَّبْر.

وإذا كان ما يُقَدِّمُ الله إليه المماليك قبل المولىٰ لا بُدَّ منه، وهو لقاء الله سبحانه، فَلأَنْ نلقاه، والحجَّة لنا خيرٌ من أَن نلقاه والحُجَّة علينا، فلا تَعْظُمُ هذه الفتوق على مَوْلانا فَتَبْهَرَ صَبْرَه، وتملأَ صَدْرَه ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥].

وهذا دِينٌ ما غَلَبَ بكَثْرَةٍ، ولا نُصِرَ بثروة، وإنما اختار الله تعالى له أربابَ نِيَّات، وذوي قلوب معه وحالات، فليكن المولى نِعْمَ الخَلَفُ لذلك السَّلَفَ ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، واشتدِّي أزمة تنفرجي(١)،

(١) هو من حديث رسول الله ﷺ. أخرجه الذهبي في ميزان الاعتدال ٢٠١٣، وابن حجر في لسان الميزان ٢/ ١٢١٤، والعجلوني في كشف الخفا ١/ ١٤٦، والمتقي الهندي في كنز العمال ٦٥١٧، والسيوطي في الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ١٥.
وهو أيضاً مطلع القصيدة المنفرجة المشهورة أولها:

اشتدي أزمة تنفرجي قد آذن ليلك بالبلج

والقصيدة المنفرجة قيل: هي لأبي الفضل يوسف بن محمد بن يوسف التوزري المعروف بابن النحوي المتوفى سنة ٥١٣هـ، وقيل: هي لأبي الحسن يحيى بن العطار القرشي الحافظ، والأول أرجح (انظر كشف الظنون ٢/ ١٣٤٦ ـ ١٣٤٧).

والغَمَرات تذهب ثم لا تجي، والله تعالى يُسْمِعُ الأُذُنُ ما يُسِرُّ القلب، ويصرف عن الإسلام وأهله غاشية هذا الكَرْب، ونستغفر الله العظيم، فإنه ما ابتلى إلا بذنب.

ومن كتابٍ آخر: يا مولانا، اعلم أَنَّ الله تعالى قد فعل لك ما فعله لنفسه، وَدَلَّ على لُطْفِهِ بك كما دَلَّ على قُدْرَتِهِ، فإنه تعالى خَلَقَ الخَلْق من غير مادَّةٍ، وأقام السَّماء بغير عَمَدٍ، وكذلك فَعَلَ الله بك؛ خَلَقَك بغير شبيهٍ في الملوك كرماً وديناً، وسَهَّلَ لك من مِصْر مالاً من غير جهةٍ، وحمىٰ منها بلاداً بغير جُنْد، وسكَّن لك فيها رَعِيَّةً بغير وُلاة، فاشْكُرِ الله ولا تحتقر خدمة من يبيع الأنفاس والنَّوم والرَّاحة اجتهاداً فيما يريحك ويخفِّفُ عنك، ثم لا يريدُ العِوَض منك، إنما يريده من الله عنك، لأن خدمتك طاعةٌ له.

والوجوه التي وقعتِ الإشارةُ إليها خُضْنا فيها وفي غيرها فما وجدنا أكثر مما بلغنا إليه.

يا مولانا، ليس لك في مِصْر إلا الثغور، وما عملت في هذه السنة إلا بقدر ثمن حبالِ ما سُيِّر إليك من الأساطيل، إنَّ الله آخذٌ بيد الكريم، والمعونة بحسب المؤنة، فليهن المولىٰ العافية من الحساب، فشتانَ ما حِسابُ من كَنَزَ الذَّهب والفِضَّة ولم ينفقها في سبيل الله، وحساب من قال بيده هكذا وهكذا في سبيل الله.

ومن كتابٍ آخر: وما في نفس المملوك شائبة إلا بقية هذا الضعف الذي بجسم مولانا، فإنه بقلوبنا، ونفديه بأسماعنا وأبصارنا: [الطويل]

بنا مَعْشَرَ الخُدَّامِ ما بك من أذىً وإن أَشْفَقُوا مما أَقُول فبي وَحْدِي

ومن كتابٍ آخر: إنما أُتينا من قبل أنفسنا، ولو صَدَقْناه لَعَجَّل لنا عواقب صدقنا، ولو أطعناه لما عاقبنا بعدونا، ولو فعلنا ما نَقْدِرُ عليه من أمره لفعل لنا ما لا نقدر عليه إلا به، فلا يستخصم أحدٌ إلا عمله، ولا يَلُمْ إلا نفسه، ولا يَرْجُ إلا رَبَّه، ولا ينتظر العساكر أن تكثر، ولا الأموال أن تحضر، ولا فلان الذي يعتقد عليه أن يُقاتل، ولا فلان الذي ينتظر أنه يُشير، فكلُّ هذه مشاغل عن الله ليس النَّصْر بها، ولا نأمن أن يكلنا الله إليها، والنَّصْر به، واللُّطْف منه، والعادة الجميلة له، ونستغفر الله سبحانه من ذنوبنا، فلولا أنها تسدُّ طريقَ دُعائنا لكان جواب دعائنا قد نَزَل، وفيض دموع الخاشعين قد غَسَل، ولكنْ في الطَّريق عائق، خار الله لمولانا في القضاء السَّابق واللاحق.

وفي كتابٍ آخر وَصَفَ فيه الملكَ العزيز عثمان ابن السُّلْطان ثم قال: لو شاهد مولانا اليوم شَخْصَه الكريم، وصورته الجميلة، ونفسه الطَّاهرة، ونظرته

المُطْرقة، وصفحته الحَيِيَّة، وسكون حركاته الموزونة لخَلَعَ عليه فؤادَه، ووهَبَهُ عينه، وَرُقادَه.

ولقد يَرِدُ المولى عَرَصات القيامة، وثواب فراقه له لوجه الله أعظمُ من ثواب جهاده في سبيل الله، وإن إيماناً صَبَّره عن ذلك الولد الكريم لكريم، وإن إيماناً أَسْلَىٰ عن ذلك الملك العظيم لعظيم.

ومن كتابٍ آخر: وعسكرنا لا يشكو والحمد لله منه خَوَراً، إنما يشكو منه ضَجَراً، والقُوَىٰ البشرية لا بد أن يكون لها حَدٌّ، والأقدارُ الإلهية لها قَصْد، وكلُّ ذي قصد خادمٌ قصدها، وواقفٌ عند حَدِّها، وإنما ذكر المملوك هذا ليرفع المولى من خاطره مَقْتَ المتقاعس من رجاله، كما يثبت فيه شكر المسارع من أبطاله، قال الله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

يا مولانا، أليس الله تعالى اطَّلَعَ على قلوب أهل الأَرْضَ فلم يؤهِّل، ولم يستصلح، ولم يَخْتَر، ولم يسهِّل ولم يستعمل، ولم يستخدم في إقامة دينه، وإعلاء كلمته، وتمهيد سُلْطانه، وحماية شعاره، وحفظ قِبْلَة موحِّديه إلا أنت؟

هذا، وفي الأرض من هو للنُبوَّة قَرابة، ومن له المملكة وراثة، ومن له في المال كثرة، ومن له في العدد ثروة، فأقعدهم وأقامك، وكَسَّلهم ونَشَّطك، وقبضَهم وبسطك، وحَبَّبَ الدُّنيا إليهم، وبَغَّضها إليك، وصعَّبها عليهم وَهَوَّنها عليك، وأمسك أيديهم وأطلقَ يَدَكَ، وأغمد سيوفهم وجَرَّد سَيْفك، وأشقاهم وأنعم عليك، وَثَبَّطهم وَسَيَّرك ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [التوبة: ٤٦].

نعم، وأخرى أَهَمُّ من الأُولى أنه لما اجتمعت كلمةُ الكُفْر من أقطار الأرض وأطراف الدُّنيا، ومغرب الشمس ومزخر البحر، ما تأَخَّر منهم متأَخِّر، ولا استبعد المسافةَ بينك وبينهم مستبعد، وخرجوا من ذات أنفسهم الخبيثة، لا أموال تُنْفَق فيهم، ولا ملوك تحكم عليهم، ولا عصاً تسوقهم، ولا سيفٌ يزعجهم، مهطعين[1] إلى الدَّاعي، ساعين في أثر السَّاعي، وهم من كل حَدَبٍ يَنْسِلون، ومن كلِّ بَرٍّ وبحر يقبلُون، كنت يَا مولانا كما قيل ـ أبقاك الله ـ: [الطويل]

ولستَ بمَلْكٍ هازمٍ لنظيرهِ ... ولكنَّك الإسلامُ للشِّرْك هازِمُ

---

(١) مهطعين: من هطع وأهطع: أي أسرع مقبلاً خائفاً، ومنه قوله تعالى: **﴿مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر﴾** [القمر: ٨]، وقوله تعالى: **﴿فمال الذين كفروا قبلك مهطعين﴾** [المعارج: ٣٦].

هذا، وليس لك من المسلمين كافَّة مساعد إلا بدعوةٍ، ولا مجاهد معك إلا بلسانه، ولا خارج معك إلا بهمٍّ، ولا خارج بين يديك إلا بالأُجرة، ولا قانع منك إلا بزيادة، تشتري منهم الخُطُوات شبراً بذراع، وذراعاً بباع، تدعوهم إلى الله وكأنما تدعوهم إلى نَفْسك، وتسألهم الفريضة وكأنَّك تكلِّفهم النَّافلة، وتعرضُ عليهم الجَنَّة وكأنك تريد أن تستأثر بها دونهم.

والآراء تختلف بحضرتك، والمشورات تتنوَّع بمجلسك، فقائل: لِمَ لا نتباعد عن المنزلة، وآخر: لم لا نميل إلى المصالحة، ومتندِّم على فائت ما كان فيه حظ، ومشير بمستقبل ما يلوحُ فيه رُشْد، ومشيرٌ بالتخلِّي عن عكا حتى كأَنَّ تَرْكَهَا تغليق المعاملة، وما كأنها طليعة الجيش ولا قُفْل الدَّار ولا خَرْزَةُ السِّلْك إن وَهَتْ تداعىٰ السِّلْك، وانبتَّ في يد الملك، فألهمك الله قتل الكافر وخلاف المخذِّل، والتجلُّد وتحت قدمك الجمر، وأفرشك الطمأنينة وتحت جنبك الوَغْر: [الطويل]

ولكنَّ مولانا صفيحة وجهِهِ كَضَوْءِ شهابِ القابسِ المتنوِّرِ

* * *

[الطويل]

قليلُ التَّشكِّي للمهمِّ يصيبُهُ كثيرُ الهوىٰ شَتَّى النوى والمسالِك[1]

لا شُبْهَة أَنَّ المملوك قد أطال، ولكن قد اتسع المجال، وما مُرَاده إلا أن يشكر الله على ما اختاره له، ويَسَّره عليه، وحبَّبه إليه، فَرُبَّ ممتَحَنٍ بنعمة، ورُبَّ مُنْعَمٍ عليه بمشقَّة، وكم مغبوطٍ بنعمة هي داؤه، ومرحومٍ من بَلْوى هي دواؤه.

ويريد المملوك بهذا أن لا يتغيَّر لمولانا ـ أبقاه الله ـ وجهٌ عن بشاشة، ولا صَدْرٌ عن سَعَةٍ، ولا لسانٌ عن حَسَنة، ولا تُرَىٰ منه ضجرة، ولا تُسْمع منه نهرة، فالشِّدَّة تذهبُ ويبقى ذكرها، والأَزْمة تنفرج ويبقىٰ أجرُها.

وكما لم يُحْدِثْ استمرارُ النِّعَم لمولانا ـ عَزَّ نَصْرُه ـ بَطَراً، فلا تُحدث له ساعات الامتحان ضجراً، والمملوك يستحسن بيتي حاتم، ومولانا ـ أبقاه الله، وخَلَّد سُلْطانه وملكه ـ يحفظهما[2]: [الطويل]

شَرِبْنَا بكأس الفَقْرِ يَوْماً وبالغِنَىٰ وما منهما إلا سقَانا به الدَّهْرُ

---

(١) البيت لتأبط شراً في ديوانه ص١٤٨، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص٩٤.

(٢) يروى البيت الثاني:

وما زادنا بأواً على ذي قرابة غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقرُ

فما زادنا بَغْياً على ذي قَرابةٍ غِنانا ولا أَزْرَىٰ بأحسابنا الفَقْرُ

والمملوك بأن يسمع أن مولانا ـ عَزَّ نصره ـ على ما يعهده من سَعَة صدره، أسرُّ منه بما يسمعه من بشائر نصره، ويا ليتني كنتُ معهم. وماذا كانت تصنع الأيام؟ إما شيباً من مشاهدة الحروب؟ فقد شبنا والله من سماع الأخبار، أو غُرْماً يمكن خَلَفُهُ من الوفر؟ فقد غَرِمْنَا في بُعْد مولانا ما لا خَلَفَ له من العُمر، أو مرض جسم؟ فخيره ما كان الطبيبَ حاضرُه، ولقد مَرِضْنا أشدَّ المرض لفراقه إلا أنَّ التجلُّد ساتره.

ومن كُتُبٍ أُخَر: المملوك يوصي المولى بالإسلام، والإسلام هو قَلْبُ المولى فَيُرَوِّحه، ولا يُحَمِّله ما يُشْغله ويثقله، ويوصِّي المولى بقلوب المسلمين، وقلوبُ المسلمين جسمُ مولانا أبقاه الله.

مَنْ عَلِمَ أَنَّه لا توفيه رواتبُ الحياة اشتغل قَلْبُهُ، واستطار لُبُّه، وضَعُفَتْ نَفْسُه، فَيَحْسُبُ المولى من جهاده تَفَقُّدَ جسمه، وإلانة مَطْعَمِهِ، وترويح خَطَراته، فقد بلغ المملوك مِنْ حَمْلِهِ على نفسه ما يُخْشى على مولانا الإثم فيه، وإنما نتجشَّمُ كلَّ مَشَقَّة لنسلم منه، ونحن في ضُرٍّ قد مَسَّنا، ولا نرجو لكشفه إلا من ابتلي به، وفي طوفانِ فتنةٍ، ولا عاصِمَ اليوم من أَمْرِ الله إلا مَنْ رَحِمَ.

ولنا ذنوبٌ قد سَدَّتْ طريق دُعائنا، فنحن أَوْلى بأن نلوم أنفسنا، ولله قَدَرٌ لا سلاحَ لنا في دَفْعِهِ إلا أن نقول: لا حول ولا قُوَّة إلا بالله، وقد أَشْرَفْنا على أهوالٍ ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ [الأنعام: ٦٤] وقد جمع العدوُّ لنا وقيل لنا: اخشوه، فقلنا: حَسْبُنا الله ونِعْمَ الوكيل، متنجِّزين بذلك موعود الانقلاب بنعمةٍ من الله وفَضْلٍ، فما نرجو إلا ذلك الفَضْلَ العظيم(١)، وليس إلا الاستعانة بالله. فما دَلَّنا الله في الشَّدائد إلا على الدُّعاء له، وعلى طُروقِ باب كَرَمه، وعلى التضرُّعِ إليه، ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنعام: ٤٣].

ونعوذ بالله من القسوة، ومن القنوط من الرَّحمة، ومن اليأس من الفَرَج، فإنه لا ييأس منه إلا مسلوب الرَّشَد، مطرودٌ عن الله، مقطوع الحَظِّ منه.

والبيتان في ديوان حاتم الطائي ص٢٠٣، ولسان العرب (صعلك)، (بأي)، وأساس البلاغة (بأو)، وتاج العروس (صعلك)، (بأي)، وبلا نسبة في المخصص ١٢/ ١٩٥.

(١) الجمل السابقة مأخوذة من قوله تعالى: **﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم﴾** [آل عمران: ١٧٣ ـ ١٧٤].

ولا حيلة إلا بترك الحيلة، بل قَصْدُ من تمضي أَقْدَارُه بلا حيلة سبحانه وتعالى.

إنْ عَلِمَ اللَّهُ من جُنْد مولانا أَنَّهم قد بذلوا المجهود فقد عَذَرهم، فيعذرهم المولى، وإن عَلِمَ أنهم قد ذخروا قوة أو قَصَّروا في نُصْرَة كلمة الله، فيكفيهم مَقْتُ الله.

المملوك يذكُرُ المولى بصبره، وبرحب صدره، وبفضل خُلُقه، وبتقواه لربِّه، وبمداراة مِزَاجه، وببرء القلوب الإسلامية ببرءِ جسمه، ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ الآية إلى ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥] والمولى أَوْلى بهذا البيت: [المنسرح]

لا بَطِرٌ إن تتابَعَتْ نِعَمٌ وصابرٌ في البلاءِ مُحْتَسِبُ

قيل للمُهَلَّب: أيسرُّك ظَفَرٌ ليس فيه تَعَبٌ؟ فقال: أكره عادة العجز.

ولا بُدَّ أن تنفذ مشيئة الله في خَلْقه، ولا رادَّ لحكمه، فلا يتسخَّط مولانا بشيء من قَدَره، فلأَنْ يجري القضاءُ وهو راضٍ مأجور خيرٌ من أن يجري وهو ساخط موزور، فيصطلي نار الشِّدَّة ـ أعاذه الله منها ـ ولا يجدُ راحةَ الثَّواب، وَفَّرَ الله حَظَّه منه.

من شكا بَثَّه وحُزْنَه إلى الله شكا إلى مُشْتكى، واستغاث بقادر، ومن دعا ربَّه دُعاءً خَفِيّاً استجاب له استجابةً ظاهرة، فلتكن شكوى مولانا إلى الله خَفِيَّةً عَنَّا، ولا يقطع الظهور التي لا تشتدُّ إلا به، ولا يضيِّق صدوراً لا تنفرج إلا منه، وما شرَّد الكرى، وأطال على الأفكار ليل السرى إلا ضائقة القوت بعكا.

لم يبق إلا ضَعْفٌ نِعْمَ المعينُ عليه ترويحُ النَّفْس، وإعفاؤها من الفكر، فقد عَلِمَ مولانا بالمباشرة أنه لا يُدَبِّرُ الدَّهْرُ إلا بِرَبِّ الدَّهْر، ولا ينفذ الأمر إلا بصاحبِ الأمر، وأَنَّه لا يقل الهم إن كَثُرَ الفكر: [الكامل]

قَدْ قُلْتُ للرَّجُلِ المُقَسَّمِ أَمْرُهُ فَوِّضْ إليه تَنَمْ قريرَ العَيْنِ(١)

كل مُقْتَرَحٍ يُجاب إليه إلا ثَغْراً يصير نَصْرانياً بعد أن أَسْلَمَ، أو بلداً يخرَسُ فيه المِنْبَر بعد أن تكَلَّم.

يا مولانا، هذه اللَّيَّالي التي رابطتَ فيها والنَّاس كارهون، وسَهِرْتَ فيها والعيون هاجعة، وهذه الأيام التي يُنادى فيها: يا خيلَ الله اركبي، وهذه السَّاعات التي تَزْرَعُ الشَّيْبَ في الرؤوس، وهذه الغَمَراتُ التي تفيض فيها الصُّدور بمائها بل

(١) الرجل المقسّم: المشترك الخواطر بالهموم.

بنارها، هي نعمةُ الله عليك، وغِرَاسُك في الجنَّة، ومجملات محضرك، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، وهي مُجَوِّزاتك الصِّراط، وهي مُثَقِّلاتُ الميزان، وهي دَرَجاتُ الرِّضْوان.

فاشكرِ اللَّهَ عليها كما تشكرُهُ على الفتوحات الجليلة، واعلم أنَّ مثوبة الصَّبْر فوق مثوبة الشُّكْر، وَمِنْ رَبْطِ جَأْشِ أمير المؤمنين عمر بن الخَطَّاب ـ رضي الله عنه ـ قولُه: لو كان الصَّبْر والشُّكْر بعيرين ما باليتُ أيهما ركبتُ.

وبهذه العزائم سبقونا وتركونا لا نطمع بالغُبار، وامتدَّتْ خُطاهم ونعوذ بالله من العِثار.

ما استعمل الله في القيام بالحقِّ إلا خَيْرَ الخَلْقِ، وقد عُرِفَ ما جرى في سِيَرِ الأوَّلين وفي أنباء النَّبيين، وأن الله تعالى حَرَّض نبيَّه ﷺ أن يهتدي بِهُدَاهم، وأن يسلك سبيلهم، ويقتدي بأولي العَزْم منهم. وما تغلو الجَنَّة بثمن، وما ابتلى الله سبحانه من عباده إلا من يعلم أنه يصبر، وأمورُ الدنيا ينسخ بعضُها بعضاً، وكأنَّ ما قد كان لم يكن، ويذهب التعب ويبقى الأجر(١): [البسيط]

* وإنما يَقَظاتُ العَيْنِ كالحُلُم *

أَهَمُّ الوصايا أن لا يحمل المولى هماً يُضْعِفُ به جِسْمَه ويُضِرُّ مِزَاجه، والأُمَّة بنيان وهو ـ أبقاه الله ـ قاعدتُهُ، والله يثبِّتُ تلك القاعدة القائمة في نُصْرة الحقِّ.

ومما يستحسنُ من وصايا الفُرْس: إن نَزَلَ بك ما فيه حيلة فلا تعجز، وإن نَزَلَ بك ما ليس فيه حيلة ـ والعياذ بالله ـ فلا تَجزَع. وَرُبَّ واقع في أمرٍ لو اشتغل عن حمل الهَمِّ به بالتدبير فيه مع مقدور الله لانْصَرَفَ هَمُّه وكُفِيَ خطبه ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠].

هذا سُلْطان هو بحولِ الله أوثقُ منه بسلطانه، قاتلتِ الملوكُ بطمعها وقاتل هذا بإيمانه، وإذا نَظَرَ الله إلى قَلْب مولانا لم يجد فيه ثِقَةً بغيره، ولا تعويلاً على قُوَّةٍ إلا على قُوَّته، فهنالك الفَرَج ميعاده، واللُّطْف ميقاته، فلا يقنط من روح الله، ولا يَقُل ﴿مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤] وليصبر فإنما خُلِقَ للصَّبْر، بل ليشكر فالشُّكْرُ في موضعِ الصَّبْر أعلى درجات الشُّكر، وليقل لمن ابتلى أنت المعافي، وليرضَ عن الله سبحانه،

---

(١) البيت بتمامه:

هوِّن على بصر ما شقَّ منظره فإنما يقظات العين كالحُلُم

والبيت للمتنبي في ديوانه ٢/ ٢٦٢ (طبعة دار الكتب العلمية)، يرثي فيه أبا شجاع فاتك بمصر سنة ٣٥٠هـ.

فإنَّ الرَّضِيَّ عند الله هو المُسْلم الرَّاضي. فأما أخبار فتنة بلاد العجم فسبحان من ألحق قلوبهم بألسنتهم ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

وكتب السُّلْطان إلى القاضي الفاضل كتاباً من بلاد الفرنج يخبره عَمَّا لاح له من أمارات النَّصر ويقول: ما أخاف إلا من ذنوبنا أن يأخذنا الله بها.

فكتب إليه الفاضل: فأما قول مولانا إننا نخاف أن نؤخذ بذنوبنا، فالذنوبُ كانت مُثْبَتة قبلِ هذا المقام وفيه مُحِيَتْ، والآثام كانت مكتوبة ثم عُفي عنها بهذه الساعات وعُفِّيت، فيكفي مستغفراً لسانُ السَّيف الأحمر في الجهاد، ويكفي قارعاً لأبواب الجَنَّة صوتُ مقارعة الأضداد، وبعين الله موقفك، وفي سبيل الله مقامك ومنصرفك، وطوبى لقدم سَعَتْ في مِنهاجك، وطوبى لوجهٍ تَلَثَّم بمثار عَجَاجك، وطوبى لنفسٍ بين يَديك قَتَلَتْ وقُتِلَتْ، وأنَّ الخواطر بشُكْرِ الله فيك عن شُكْرها لك قد شُغِلَتْ.

فصل

[إرسال صلاح الدين رسالة إلى ملك المغرب يستنجد به على الفرنج]

كان بلغني أَنَّ السُّلْطان ـ رحمه الله ـ لما اشتدَّ أمرُ الفرنج على عكَّا، أرسل إلى ملك المغرب(١) يستنجد به عليهم، ليقطع عنه مادَّتهم من جهة البحر، وكنت أَتطَلَّبُ حقيقةَ ذلك، وأبحث عن شرح الحال فيه، فإنَّ العماد والقاضي لم يتعرَّضا له في كتبهما، غير أن العماد ذكر كتاباً كتبه القاضي الفاضل إلى رسولهم بالمغرب يستنجز منه ما كان أُرْسِلَ لأجله، وسيأتي.

وغَرَضِي كان الاطِّلاع على نفس كتاب الرِّسالة ومضمونها، ثم أراني بعضُ الشيوخ الصُّلَحاء الثقات بخطِّه ما كنت أرومُه، فنقلته على وجهه.

قال: نسخةُ كتابٍ كَتَبَهُ القاضي الفاضل، ونَقَلْتُه من خَطِّه لابن منقذ(٢) يأمره

(١) ملك المغرب: هو أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، من سلاطين الدولة الموحدية. توفي في ربيع الأول سنة ٥٩٦هـ، وكانت مدة ملكه ١٥ سنة (الذيل على الروضتين وفيات سنة ٥٩٦هـ).

(٢) ابن منقذ: هو الأمير أبو الحارث عبد الرحمن بن محمد بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ، ابن أخي أسامة بن منقذ الشاعر المشهور، ولد في شيزر سنة ٥٢٣هـ، وتوفي بالقاهرة سنة ٦٠٠هـ (الوافي بالوفيات ١٨/ ٢٥١ ـ ٢٥٢).

فيه بالسَّفَر إلى المغرب بأَمْرِ الملك النَّاصر صلاح الدين - رحمه الله - يستنصر بملك المغرب يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن لما حَصَرَ الفرنج - خَذَلَهم الله - عكًّا بعد كسرة حِطِّين وفَتْح بيت المقدس، والكتاب الذي سُيِّر إلى المغرب، والهدية التي حُملت، يأتي ذكر ذلك إن شاء الله تعالى.

بسم الله الرحمن الرحيم، الأمير الأَجَلّ، الإسفهسلار[1] الأصيل، العالم المحترم، شمس الدِّين، عُدَّة الإسلام، جمال الأنام، تاج الدولة، أمين المِلَّة، صفوة الملوك والسَّلاطين، شرف الأُمراء، مقدَّم الخواص، أدام الله توفيقه، ويَسَّر طريقه، وأنجح مَقْصِدَه، وأعذب مَوْرِدَه، وحَرَسَ مغيبه ومشهده، وأسعد يومَه وغَدَه.

تستخير الله سبحانه، وتتوجَّه كيفما يَسَّر الله إلى الجهة الإسلامية المغربية، حَرَسَ الله جانبها، ونَصَرَ كتائبها ومراكبها. وتستقري في الطَّريق وفي البلاد من أخبار القوم في أحوالهم وآدابهم وأخلاقهم وأفعالهم، وما يحبُّونه من القول نَزْرَه أو جَمَّه، ومن اللِّقاء منبسطه أو منقبضه، ومن القعود بمجالسهم مُخَفَّفه أو مُطَوَّله، ومن التحيات المتهاداة بينهم ما صيغته وما موقعه، وهل هي السُّنَن الدِّينية أو العوائد الملوكية؟

ولا تلقه إلا بما يحبه، ولا تخاطبه إلا بما يُسِرُّه، والكتاب قد نُفِّذ إليه ولم يُخْتم لتعلم ما خوطب به.

والمقصود أن تقصَّ القِصَصَ عليه من أول وصولنا إلى مِصْر، وما أَزَلْنا من البِدَع بها، وعَطَّلْنا من الإلحاد فيها، ووضعنا من المظالم عنها، وإقامة الجمعة، وعقد الجماعة فيها، وغزواتنا التي تواصلت إلى بلاد الكفر من مصر، فكانت مقدمة لملك الشَّام الإسلامي باجتماع الكلمة علينا، ومقدمة لملك الشَّام الفرنجي بانقياد المسلمين لنا، وإصفاق الملوك المجاورين على طاعتنا[2].

وتُفَصِّل ما جرى لنا مع الفرنج من الغَزَوات المتقدِّمة التي جُسْنا فيها خلال ديارهم، وجعلها الله تعالى مقدِّمات لما سبق في علمه من أسباب دمارهم، وما أعقبها من كسرتنا لهم الكسرة الكُبْرى، وفتح البيت المقدَّس، وتلك على الإسلام مِنَّة الله العُظْمى، إلى غير ذلك من أَخْذِ الثُّغور، وافتتاحِ البلاد، وإثخان القَتْلِ فيهم والأَسْر لهم، واستنجاد بقيَّتهم لفرنج المغرب، وخروج نجداتهم وكثرتها وقُوَّتها،

(١) إسفهسلار: معناه في الأصل مقدم العسكر، وهو مركب من لفظين: أولهما فارسي وهو «أسفه» ومعناه المقدم، والثاني تركي، ومعناه العسكر (صبح الأعشى ٦/ ٦).

(٢) إصفاق الملوك المجاورين على طاعتنا: أي اجتماع الملوك، والإصفاق: من الصفقة، وهي الاجتماع على الشيء، وأصفقوا على الأمر: اجتمعوا عليه.

ومَنَعَتها وغِناها وَثَرْوتها، ومُسارعتها ومبادرتها، وأنه لا يمضي يومٌ إلا عن قُوَّة تتجدَّد، ومِيرَةٍ تَصِل، وأموالٍ واسعة تخرج، ومعوناتٍ كثيرة تُحمل.

وأَنَّ ثغرنا حَصَرَه العدو، وحَصَرْنا نحن العدوَّ، فما تمكَّن من قتال الثَّغر، ولا تمكَّن من قتالنا، وخَنْدَقَ على نفسه عِدَّة خنادق، فما تمكَّنَّا من قتاله، وقَدَّم إلى الثَّغْر أبرجةً أحرقها أهلُه، وخرج مرَّتين إلى عسكرنا فكسرَ العدوَّ الكثير أَقَلُّهُ، فإنه اغتنم أوقاتاً لم تكنِ العساكرُ فيها مجموعة، وارتاد ساعاتٍ لم تكنِ الأُهَبُ فيها مأخوذة، وأقدم على غِرَّةٍ استيقظت فيها نُصْرَةُ الله لنا وخِذْلانه لهم، فقتل الله العدوَّ القَتْلَ الذَّريع، وأوقع به الفَتْك الشَّنيع، وأجلت إحدى الحركتين عن عشرين ألف قتيل من الكُفَّار، خَرَجَتْ أنفسُها إلى مصارعها، وهَمَدَتْ أجسامها في مضاجعها.

والعدوُّ وإن حَصَرَ الثَّغْرَ فإنَّه محصور، ولو أَبْرَزَ صَفْحَتَهُ لكان بإذن الله هو المثبور المكسور.

وتذكُرُ ما دَخَلَ الثَّغْرَ من أساطيلنا ثلاث مرَّات، واختراقها مراكبهم وهي الأكثر، ودخولها بالمِيرَة بحكْم السَّيْف الأَطْهر، وأنَّ أمر العدوِّ مع ذلك قد تطاول، وخَطْبَهُ قد تمادى ونجدته تتواصل، ومنها ملك الألمان في جموع جماهيرها مُجَمْهَرَة، وأموالٍ قناطيرها مُقَنْطَرَة، وأنَّ عساكرنا لو أدركتْهُ لما استَدرك، ولولا سَبْقُهُ لها بالدُّخول إلى أنطاكية لَتَلِفَ وهَلَك.

وتذكر أَنَّ الله قَصَمَ طاغية الألمان، وأخذه أَخْذَةً فِرْعَوْنِيَّة بالإغراق في نهر الدُّنيا الذي هو طريقه إلى الإحراق في نار الآخرة.

وأنَّ هذا العدو لو أرسل الله عليه أُسطولاً قوياً مستعداً، يقطع بحرَهُ ويمنع مُلْكَه، لأَخَذْنا العدوَّ بالجوع والحَصْرِ، أو بَرَزَ فأخذناه بيد الله تعالى التي بها النَّصْر، فإن كانتِ الأساطيل بالجانب المغربي مُيَسَّرَة، والعُدَّة منها متوفِّرة، والرِّجال في اللِّقاء فارهة، وللمسير غير كارهة، فالبِدَارَ البدار، وأنتَ أيها الأمير فيها أول من استخار الله وسار.

وإن كانت دون الأُسطول موانعُ إما من قِلَّة عُدَّة، وإما من شغل هناك بمهمَّة، أو بمباشرة عَدُوٍّ إما تُحَصَّن منه العورة أو قد لاحت منه الفُرْصة، فالمعونة ما طريقُها واحدة، ولا سبيلها مسدودة، ولا أنواعُها محصورة، تكون تارةً بالرِّجال، وتارةً بالمال.

وما رأينا أهلاً لخطابنا ولا كفؤاً لإنجادنا، ولا محقوقاً بدعوتنا، ولا ملبياً بنصرتنا إلا ذلك الجَناب، فلم نَدْعُه إلا لواجبٍ عليه، وإلى ما هو مستقلٌ به، ومطيقٌ له، فقد كانت تُتَوقَّع منه هِمَّة تَقِدُ في الغَرْب نارُها، ويستطير في الشَّرْق

سناها، وتُغرْس في العدْوة القُصْوى شجرتها، فينال مَنْ في العُدْوة الدّنيا جَنَاها، فلا ترضى هِمَّتُه أن يعين الكُفْرُ الكُفْرَ، ولا يعين الإسلامُ الإسلامَ، وما اخْتُصَّ بالاستعانة إلا لأنَّ العدو جارُه، والجارُ أقدرُ على الجار، وأهلُ الجَنَّةِ أَوْلى بقتال أهل النَّار، ولأنه بحرٌ والنَّجْدة بحرية، ولا غَرْوَ أن تجيش البحار.

وإن سُئِلَ عن المملوكين يوزبا وقَرَاقُوش، وَذُكِرَ ما فعلا في أطراف المغرب بمن معهما من نُفَايات الرِّجال الذين نفتهم مقاماتُ القتال، فيعلمهم أَنَّ المملوكين ومن معهما ليسوا من وجوه المماليك والأمراء، ولا من المعدودين في الطَّواشية[1] والأولياء، وإنَّما كَسَدَتْ سوقُهما، وتبعهما ألفافٌ أمثالهما، والعادة جاريةٌ أَنَّ العساكر إذا طالت ذيولها، وكَثُرَتْ جموعُها، خَرَجَ منها، وانضاف إليها، فلا يظهر مزيدُها ولا نَقْصُها.

ولا كان هذان المملوكان ممن إذا غابَ أُحضر، ولا ممن إذا فُقِدَ افْتُقِدَ، ولا يُقَدَّرُ في مثلهما أنه ممن يستطيع نكايةً، ولا يأتي بما يُوجب شكوَى من جناية. ومعاذ الله أن نأمر مفسداً بأن يُفْسِد في الأرض ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨].

إن سُئِلَ عن النَّوْبة المِصْرية وما فُعل بجندها، فليعلمهم الأمير أن القوم راسلوا الكُفَّار، وأطمعوهم في تسليم الدِّيار، فأَشْفَى الإسلام على أمرٍ شديد، وكاد يقربُ على الكُفْر أمرٌ بعيد، فلم يُعاقبِ الجيشُ، بل أعيان المفسدين، فقوبلوا بما يجب، وكانوا دُعاةَ كُفْرٍ وضلال، ومحاربين لله بما سَعَوْا في الأرض من فساد، فأما بقية الجيش وإنْ كان بينهم مَنْ هو تَبَعٌ للمذكورين في الرِّضا، فإنهم اقْتُصِرَ بهم على أن لا يكونوا جُنْداً، ومنهم من أُجريت عليه أرزاق تبلِّغه، وشَمِلَتْهُ أَمَنَةٌ تسكِّنه.

وأما الهدية المُسَيَّرة على يد الأمير فتفصيلها يَرِدُ في كتابِ الأمير الأجل الإسفهسلار، العالم الكبير، مجد الدين سيف الدولة ـ أدام الله عُلُوَّه ـ مقروناً بالهدية المذكورة، ومع قُرْب الشِّتاء فلم يبق إلا الاستخارة والتَّسْمية، ومبادرة الوقت قبل أن يُغْلِقَ البحرَ انفتاحُ الأشتية، والله سبحانه يوفِّق الأمير، ويسهِّلُ سبيله، ويهدي دليلَه، ويكلؤه بعينه، ويمدُّه بعونه، ويحمل رَحْلَه، ويبلِّغه أهلَه، ويشرح له صَدْرَهُ، وييسِّر له أمره، إنْ شاء الله تعالى، وكتب في ثامن وعشرين شعبان سنة ستٍّ وثمانين وخمسمائة.

(١) الطواشية: وهم المعروفون بالخدام والأستاذين، وكان لهم في دولتهم المكانة الجليلة (صبح الأعشى ٣/ ٥٥١ ـ ٥٥٢).

فصل

[في نُسْخَةِ الكتاب إلى ملك المغرب والهَدِيَّة]

العُنْوان: بلاغ إلى مَحَلِّ التَّقْوى الطَّاهر، ومستقر حزب الله الظاهر، من المغرب أعلى الله به كلمةَ الإيمان، ورفع به مَنَار البِرِّ والإحسان.

بسم الله الرَّحمن الرحيم، الفقيرُ إلى رحمة رَبِّه يوسف بن أيوب، أما بعد: فالحمدُ لله الماضي المَشِيّة، المُمْضي القضيّة، البَرِّ بالبَرِيَّة، الحَفِيِّ، بالحنيفية، الذي استعمل عليها من استعمر به الأرض، وأغنى من أهلها من سأله القَرْض، وأَجْزَلَ أَجْرَ من أجرى على يده النَّافلة والفَرْض، وزانَ سماء المِلَّة بدراري الذراري التي بعضُها من بعض.

وصَلَّى اللَّهُ على سَيِّدنا محمد الذي أنزلَ عليه كتاباً فيه الشِّفاء والتِّبْيان، وبَنَى الإسلامَ بأُمَّته التي شبَّهها صاحِبُها بالبُنْيان، وعلى آله وصحبه الذين اصْطَفَاهم وَطَهَّرهم، ونصروه وظاهروا رسولَه ﷺ، فنصرهم وأَظْهرهم، وَيَسَّر بهم السَّبيل، ثم السبيل يَسَّرهم، وإنَّ الله بهم لذو فَضْلٍ على النَّاس، ولكن أكثرهم[1]. ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

وهذه التحية الطَّيِّبة، الكريمة الصَّيِّبة، الواجبةُ الرَّدِّ، الموجبة للقصد، العذبةُ الوِرْد، المتنفِّسة عن العنبر الوَرْد، وقَّادةٌ على دار المُلْك، ومَدَارِ النُّسُك، وَجُلِّ الجلالة، وأصلِ الأصالة، ورأس الرِّياسة، ونفس النفاسة، وحَكَم الحُكْم، وعَلَم العِلْم، وقائم الدين وقَيِّمه، ومُقَدَّم الإسلام ومقدَّمه، ومقتضي دَيْن الدِّين، ومثبت المتَّقين على اليقين، ومُعْلي الموحِّدين على المُلْحدين، أدام الله له النُّصْرة، وجَهَّز به العُسْرة، وَرَدَّ له الكَرَّة، وبَسَطَ له باع القدْرة، وأَوْثَق به حَبْلَ الأُلْفة، ومَهَّد له درجات الغُرفة، وعَرَّفه في كل ما يعتزمه صُنْعاً جزيلاً جميلاً، ولُطْفاً خفياً جليلاً، ويسَّر عليه في سبيله كل ما هو أشدُّ وَطْأً، وأقومُ قيلاً.

تحيةً استُنير منها الكتاب، واستثيب عنها الجواب، وحَفَزَ لها حافزان: أحدهما شَوْقٌ قديم كان مَطْلُ غريمِه ممكناً إلى أن تَيَسَّر الأسباب، والآخر مَرَامٌ عظيمٌ ما كُرِهَ إذا

---

(١) الجملة السابقة مأخوذة من قوله تعالى: **﴿وإن ربك لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون﴾** [النمل: ٧٣].

اسْتُفْتِحَتْ به الأبواب، وكان وقتُ المواصلة، وموسم المكاتبة هناءةً بفتح البيت المُقَدَّس، وسكونِ الإسلام منه إلى المَقِيل والمُعَرَّس، وما فَتَحَ اللّهُ للإسلام من الثُّغور، وما شَرَحَ لأهله من الصُّدور، وما أنزله عليهم من النُّور، ولم يَخْلُ المسلمون فيه من دعوات أسرار ذلك الصَّدْر، ومُلاحظات أنوار ذلك البدر، ومطالعاتِ تلك الجهة التي هي وإن كانت غربيَّة فإنَّ الغَرْبَ مستودعُ الأنوار، وكنز دينار الشمس، ومَصَبُّ أنهارِ النَّهار، ومن جانبه يأتي سكونُ اللَّيل ومستروح الأسرار، وعنه ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾ [النور: ٤٤].

ولم تتأخر المكاتبة إلا ليتمَّ الله ما بدأ مِنْ فَضْله، وليفتح بقية ما لم ينقطع بتقطُّع يد الشِّرك من حبله، والمفتتح بيد الله من الشَّام مُدُنٌ وأمصار، وبلاد كبار وصغار، وثغورٌ وقلاع، كانت للشِّرْك معاقل، وللإسلام معاقر، ولبني الكُفْر مصانع، ولبني الإسلام مصارع، والباقي بيد الكفر منها ثغراً طرابُلُس وصور، ومدينة أنطاكية ـ يَسَّرَ الله أَمْرَها، وفَكَّ من يد الكُفْر أَسْرَها ـ وإذا أَمَّن المُؤْمن على هذه الدَّعْوة رُجي إيجابها، وما يتأخَّر من الله سبحانه جوابُها.

فالدُّعاء أحدُ السِّلاحين، ومع النيَّة يطير إلى وكره من السماء بجناحين، بعد أن كُسِرَ العدوُّ الكسرة التي لم يُجْبَرْ بعدها، وأُلجئ إلى حصونه التي للحَصْرِ أَعَدَّها، وكان يومها كريماً، ولطفُ الله فيها عظيماً، قضت كلَّ حاجةٍ في النَّفْس، وأغنتِ المسلمين. فأما العدو بعد يومها فكأنْ لم يَغْنَ بالأمسِ، وكانت على أثر غزواتِ قبلها، فما الظَّنُّ بالمجهَّزة بعد النُّكْسِ.

ولم يُؤَخِّر فَتْحُ البلاد بعدها إلا أَنَّ فَزَعَ الكُفَّار بالشَّام استصرخ بأَصْلِ الكُفَّار من الغَرْب، فأجابوهم رجالاً وفُرْساناً، وشِيباً وشُبَّاناً، وزُرَافاتٍ ووحداناً، وبَرّاً وبحراً، ومركباً وظَهْراً، وركبوا إليهم سَهْلاً وَوَعْراً، وبذلوا ماعوناً وذُخْراً، وما احتاجوا ملوكاً ترتادهم، ولا أرساناً تقتادهم، بل خَرَجَ كُلٌّ يلبِّي دعوة بطركه، ولا يحتاج إلى عَزْمةِ مَلِكه.

وخرجت لهم عِدَّةُ مُلوك أقفلت العُجْمةُ على أسمائها، وأتتِ العزمةُ ـ بحمد الله ـ على أشخاصها عند لقائها، ومنهم ملك الألمان خَرَجَ في جموعٍ بَرِّيَّة، مِنَ الله تعالى بَرِيَّة، ملأتِ الفِجاجَ، وازدحمت فما نَفَذَها العَجَاج، ومنهم من رَكِبَ ثَبَجَ البحر فركب الأُجاج العَجَّاج، وامتطى من البحر مَتْنَه الرَّجَّاج، لينصر ديناً مُشْبِهَ الزُّجاج؛ يقبل الكسر ولا يسرع إليه الجَبْر، وراكبُ ذلك الدِّين كراكب البحر، بلا ساحل سلامة، وإلى قاع كفر.

وجلب الكُفَّارُ إلى المحصورين بالشَّام كلَّ مجلوب، وملؤوا عليهم ثُغْرتهم

من كلِّ مطلوب؛ ما بين أقواتٍ وأَطْعِمَة، وآلاتٍ وأسلحة، وشِكَّةٍ وجُنَّة، وحديدٍ مضروب وَزُبْرة(١)، ونقدَيْ ذَهَبٍ وفِضَّة، إلى أن شَحَنوا بلادَهُمْ رجالاً مقاتلة، وذخائر للعاجلة من حَرْبهم والآجلة، لا تشرقُ شارِقَةٌ إلا طَلَعَتْ على العدو من البحر طالعة، تُعَوِّضُ من الرِّجال من قُتِلَ، وتخلُف مِنَ الزّاد ما أُكِلَ، فهم كل يوم في حصولِ زيادة، ووفور مادَّة، وقد هان عليهم موقع الحَصْر، وأعطاهم البحرُ ما منعهم البَرُّ، وبَطِروا لما كَثُرُوا، ونظروا في أنهم لا يستطيعون أن يلقَوْا أو يُصْحروا، ويستطيعون أن يُحْصِرُوا على أن ينحصروا.

ونزلوا على عكا بحيث يمدُّهم البحر بإمداده، ويصل إلى المقاتل ما يحتاجه من أسلحته وأزْواده، وبمن تكثَّر به من مقاتلته وأجناده، فانقطعت مادَّةُ عكا من البحر، وحَصَرْنا منازلهم من العدوِّ من جهة جانب البر، فحدقوا على نفوسهم، وحثوا التراب على رؤوسهم، وعقدت عِدَّتُهم مائة ألفٍ أو يزيدون، كلما أفناهم القَتْل أخلفتهم النَّجدة، فكأنَّهم بعد الممات يعودون.

فاهتممنا بعمارة بحرية لقينا عمارتهم بها، فنفذت عمارتُنا إلى الثَّغْر، وأوصلت إليه الأقوات التي حَملَ منها البحر ما لا يحمله الظَّهْر، والأسلحةَ التي أمضاها الله عَزَّ وَجَلَّ بيد الإسلام في صدور الكُفْر، وما لقينا عمارة العدو بأوفر منها عُدَّة، فَعَدُّ مراكبهم كبير، ولكن بأصدق منها عَزْمة، والقليل مع العَزْمِ الصَّادق كثير.

واستمرَّ مقام العدو محاصراً للثَّغر، محصوراً منا أَشَدَّ الحَصْر، لا يستطيع قتال الثَّغر لأنَّا من خَلْفه، ولا يستطيع الخروجَ إلينا خوفاً من حَتْفه، ولا نستطيع نحن الدُّخولَ إليه؛ لأنه قد سَوَّر وخَنْدَقَ، وحاجَزَ من وراء الحُجُرات وأغلق.

ولما خرج ملك الألمان بحشده وسُمْعَتِهِ التي هي منه أَحْشَد، وعاد جيشه الملعون على رَسْمٍ قديم إلى الشَّام، فكان العَوْدُ لأُمَّةِ أحمد ﷺ أَحْمَدَ، قَوِيَتْ فيه نفوسُهم، وجمحت به رؤوسهم، وظَنُّوا أنه يُزْعجنا من مجثمنا، ويخرجنا من مخيَّمنا، فبعثنا إليه من يلقاه بعساكرنا الشَّمالية، فسلك ذاتَ الشّمال متوعِّراً فيها، محتجزاً عن لقائها، مُظْهراً أنه صريعُ داءٍ وما به غير دائها.

وكان أبوه الطَّاغية ملك الألمان ـ شَيْبَة اللَّعْن اللَّعين، قائد جيشه إلى سِجْن سِجِّين ـ قد هَلَكَ في طريقه غَرَقاً، وخاض الماءَ فخاضَه الماءُ شَرقاً، وبقي له ولد هو الآن المُقَدَّم المؤخَّر، وقائد الجمع المُكَسَّر، وربما وَصَّلهم إلى عكا في البحر

---

(١) الزبرة: القطعة من الحديد، وجمعها: زُبَرٌ وزُبُرٌ، ومنه قوله تعالى: ﴿**آتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا**﴾ [الكهف: ٩٦].

تهيُّباً أن يسلك البر، ولو سبق أصحابنا إلى عساكر الألمان قبل دخولها إلى أنطاكية لأخذوه أَخْذاً سريعاً، وسبق ماءُ بحرِ سيوفهم إلى أن يكون الطَّاغية فيه لا في النَّهْر صريعاً، ولكنْ لله المشيئةُ في البَرِيَّة، والطَّاغية إنما يمشي إلى البَلِيَّة، فإنه لولا احتجاز مقيمهم بالخنادق، واجتياز واصلهم بالمضائق، لكان لنا ولهم شان، وكان ليومنا في النُّصْرة الكُبْرَى بحول الله ثانٍ، لا يثنيه من العدو ثانٍ.

ولما كانت حضرة سُلْطان الإسلام، وقائد المجاهدين إلى دار السَّلام أَوْلَى مَنْ تَوجَّهَ إليه الإسلام بشكواه وَبَثِّه، واستعان به على حماية نَسْله وحَرْثِهِ، وكانت مساعيه ومساعي سَلَفِهِ في الجهاد الغُرَّ المُحَجَّلةَ، المُؤَمَّرة المؤمَّلة، الكاسفة لكل مُعْضلة، الكاشفة لكل مُشْكلة. الأخبار بذلك سائرة، والآثار ظاهرة، والصُّحف عنه باسمة، والسِّيَر به مُعْلَمة وعالمة، وكُلٌّ بجهاده قد سَكَنَ إلا السيوف في أغمادها، وقد أَمِنَ إلا كلمة الكُفْرِ في بلادها. لا يزال في سبيل الله غادياً ورائحاً، ومواجهاً ومكافحاً، ومماسياً ومصابحاً، يجوز لُجَّة البحر بالمجاهدين ملوكاً على الأَسِرَّة[1]، وغُزَاةً تصافح وجوهَهَا السيوفُ فلا تُخْمِدُ نورَ الأَسِرَّة[2]، يذود الفِرَقَ الكافرة، ولو تَرَكَ سبيلَها لملأ قَراره كلَّ واد و﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ﴾ [المائدة: ٦٤] ولولاه لأخمدوا شَرَار كلِّ زناد.

كان المتوقَّع من تلك الدَّولة العالية، والعَزْمة الغادية، مع القُدْرَة الوافية، والهمّة المهدية الهادية، أن يُمِدَّ غَرْبُ الإسلام المسلمين بأكثر مما أَمَدَّ به غَرْبُ الكُفَّار الكافرين، فيملأها عليهم جواري كالأعلام، ومدناً في اللُّجَج سوائر، كأَنَّها اللَّيالي مقلعةً بالأيام، تَطْلُعُ علينا مَعْشَرَ الإسلام آمالاً، وتَطْلُعُ على الكُفَّار آجالاً، وتَرِدُنا إما جُمْلَةً وإما أرسالاً، مسوَّمة تمدُّها ملائكة مسوَّمة ومُعْلَمة، تقدم حيازِيمُها إقدام حَيْزُوم[3]، تحثّ أصحابه الحَزَمَة، وإنما هي منه عَزَمَة، كانت تعين أصحاب الميمنة على أصحاب المَشْأمة، وكلمة كانت تنفخ الرُّوح في الكلمة، ولما استُبْطئت ظُنَّ أنها توقَّفت على الاستدعاء، فصرخنا به في هذه التحية، فقد تَحَفَّل السحابُ ولا تُمْطِرُ إلى أن تُحَرِّكها أيدي الرِّياح، وقد يُنْزِلُ اللَّهُ النُّصْرة فلا تظهر إلى أن تضرع إليها ألسنة الصِّفاح.

---

(١) الأسرّة هنا جمع سرير وهو ما يجلس عليه.

(٢) الأسرّة هنا بمعنى مستقر الرأس في العنق.

(٣) حيزوم: في حديث بدر: «أقدم حيزوم» وجاء في التفسير أنه اسم فرس جبريل عليه السلام، أراد: أقدم يا حيزوم. والحيازيم: جمع الحيزوم، وهو الصدر، وقيل: وسطه. وهذا الكلام كناية عن التشمير للأمر والاستعداد له (النهاية في غريب الحديث لابن الأثير الجزري ١/ ٤٦٧).

وسُيِّر لحضور مجلسه الأَطْهر، ومَحَلِّه الأنور، الأمير الأَجَلُّ، المجاهد الأمين الأصيل، شمس الدين، ثقة الإسلام والمسلمين، سفير الملوك والسَّلاطين، أبو الحَزْم(١) عبد الرحمن بن مُنْقذ، كتب الله سلامته وأحسن صحابته، وما اختير للوفادة إلا مَنْ هو أهلُها، ولا حُمِّل الوديعة إلا مَنْ هو مَحَلُّها، ولا بُعِثَ لنهج الصِّلة إلا من هو مِفْتَاحُها، ولأداء الأمانة إلا من هو قُفْلها.

ومهما استوضح منه وسُئِلَ عنه فإنه على نَفْسه بصيرة، ومن البيان ذو ذخيرة، وفي العَرَبيَّة ذو بيتٍ وعشيرة، والمشاهدة له أَوْصَف، على أنّ تلك الجلالة رُبّما ذعرت البيانَ فَأَخْلَف، وما أجدره بأن يُصادف بسطةً على بساطه، ونظراً يأذن له في القول على اختصاره، وتوسُّطه وإفراطه، فكلٌّ هو به وافٍ، وكلٌّ هو للفهم الكريم كافٍ، والله تعالى يجعل هذه العَزْمة مِنَّا في استنهاض العَزْمَةِ منه بالغةً مبلغاً يُسِرُّ أهل دينه، ويوزعُهم بها اقتضاء ديونه، من الذين اتخذوا إلهاً من دونه.

والسَّلام الصَّادر عن القلب السَّليم، والوِدُّ الصَّميم، والعهد الكريم، على حضرة الكرم العَلِيَّة، وسُدَّة السِّيادة الجَلِيَّة، سلامَ مَوَدَّةٍ ما وَفَدَ الغَرْبَ قَبْلَها، ورسالةً ما خَطَرَتْ إلى أن بَعَثَتْ وراءها المحبةُ رُسْلَها، وليصل السلامَ رحمه الله وبركاته ورِضْوانُهُ وتحياتُه إنْ شاء الله تعالى.

وكَتَبَ في شعبان سنة ستٍّ وثمانين وخمسمائة، والحمد لله وَحْدَهُ، وصلواته على سَيِّدنا محمدٍ نَبيِّه وآله وسلامُه.

الهدية: ختمة كريمة في ربعة مُخَيَّشة(٢)، مسك ثلاثمائة مثقال، عنبر عشر قلائد عددها ستُّمائة حَبَّة، عود في سفط عشرة أمناء، دِهان بَلَسان(٣) مائة دِرْهَم واحدة، قِسِيّ بأوتارها مائة وقوسان، سروج عشرون، نصول سيوف هندِيَّة عشرون، نُشَّاب ناسج خاص مُرَيَّش كبير ومتوسط ضمن صندوقي خشب مُجَلَّدة سبعمائة سَهْم.

وكان إقلاعُهُ من الإسكندرية في شيني عمارته مائة وعشرون، في ثالث عشر

---

(١) أبو الحزم: كذا بالأصل، وهو تصحيف، والصحيح أبو الحارث، تقدّمت ترجمته في هذا الجزء.

(٢) المخيّش: المغشّى بالذهب.

(٣) البلسان: هو نبات يزرع ببقعة مخصوصة بأرض المصراية من ضواحي القاهرة، ويسقى من بئر مخصوصة يقال إن المسيح عليه السلام اغتسل بها حين قدمت به أمه إلى مصر. ومن خاصتها أن البلسان لا يعيش إلا بمائها ولا يوجد في بقعة من بقاع الأرض غير هذه البقعة. ويستخرج من البلسان دهن تداوى به الجروح (انظر صبح الأعشى ٣/ ٣١١ ـ ٣١٢).

رمضان سنة ستٍّ وثمانين وخمسمائة، ووصل إلى أطرابُلُس أَوَّل البلاد في الخامس والعشرين من شَوَّال، وأقام بها إلى ثامن ذي القَعْدَة، وتوجَّه إلى البلاد، وكان الاجتماع بالوزير أبي يحيى أبي بكر أبي محمد ابن الشيخ أبي حفص، ودفع كتاب السُّلْطان إليه يوم الخميس سابع ذي الحِجَّة، وكان الدُّخول على يعقوب[1] والسَّلامُ عليه في العشرين من ذي الحِجَّة.

وفي هذا النهار حُمِلَتْ هديةُ السُّلْطان إلى خزانته، وكان انفصالُهُ من مَرَّاكُش عاشر المحرَّم سنةَ ثمانٍ وثمانين وخمسمائة، ووصل إلى الإسكندرية في الثَّامن والعشرين من جُمادى الآخرة سنة ثمانٍ وثمانين.

فصل

[في عدم استجابة ملك المغرب إلى ما التمس منه من النجدة وسبب ذلك]

لم يَحْصُل من جهة سُلْطان الغَرْب ما التُمِسَ منه من النَّجْدة، وبلغني أنَّه عَزَّ عليهم كونه لم يُخَاطب بأمير المؤمنين على جاري عادتهم. وقد كان سُلْطاناً عادلاً، مظهراً للشَّريعة غازياً، وتوفي سنة خمسٍ وتسعين، وفيه يقول شاعره: [الكامل]

أَهْلٌ لأن يُسْعى إليه ويُرْتَجى ... ويُزَار مِنْ أقصَى البلادِ على الوَجَا
مَلِكٌ غدا بالمَكْرُمات مُقَلَّداً ... وموشَّحاً ومختَّماً ومُتَوَّجا
عُمِرَتْ مقاماتُ الملوكِ بذكره ... وَتَعَطَّرَتْ منه الرِّياح تَأَرُّجا
وَجَدَ الوجودَ وقد دَجَا فأضاءه ... ورآه في الكُرَبِ العِظامِ فَفَرَّجا

وفيه يقول ابنُ عَمِّه سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن، أبو الربيع من قصيدةٍ أَوَّلُها: [الكامل]

هَبَّتْ بِنَصْرِكُمُ الرِّياحُ الأَرْبَعُ ... وَجَرَتْ بِسَعْدكُمُ النُّجومُ الطُّلَّعُ
إن قيلَ مَنْ خَيْرُ الخلائف كلِّها ... فإليك يا يعقوب تومي الإِصْبَعُ
إن كنتَ تتلو السَّابقين فإنَّما ... أنتَ المُقَدَّمُ والخلائِقُ تُبَّعُ

---

(١) هو أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، تقدّمت ترجمته قبل قليل.

وقد مدحه أيضاً شمس الدين بن منقذ(١) هذا المُرْسَلُ إليه من جهة السُّلْطان بقصيدةٍ، منها: [الطويل]

سأشكر بحراً ذا عُبابٍ قَطَعْتُهُ   إلى بَحرِ جُودٍ ما لنعماه ساحِلُ
إلى مَعْدِنِ التَّقْوَى إلى كَعْبَةِ الهدى   إلى مَنْ سَمَتْ بالذِّكْرِ منه الأوائِلُ
إليك أميرَ المُسْلمين ولم تَزَلْ   إلى بابك المأمول تُزْجى الرَّواحِلُ
قطعتُ إليك البَرَّ والبحر موقناً   بأَنَّ نَداك الغَمْرَ بالنُّجْحِ كافِلُ
فما راعني من وَجْبَةِ البَرِّ رائعٌ   ولا هالني من زاخر البحر هائِلُ
وَمَنْ كان غاياتُ المعالي طِلابَهُ   يهونُ عليه كلُّ أمرٍ يحاوِلُ
رجوتُ بقَصْدِيك العُلا فَبَلَغْتُها   وأدنى عطاياكَ العُلا والفَضائِلُ
فلا زِلْتَ للعلياء والجُود ثانياً   تُبَلِّغُكَ الأَيَّامُ ما أنتَ آمِلُ

وابنُ منقذ هذا من أهل بيتٍ وأدبٍ وشِعْر، وله على ما وجدتُ بخطِّ بعض الثِّقاتِ: [الطويل]

تَصَرَّمَ عُمْري في التَّغرُّب والنَّوى   وأَفْنَى ارتحالي طارِفي وتِلادي
وَأَخْلَقَتِ الأيامُ بُرْدَ شبيبتي   وأَصْلَدَ من وَقْعِ الخُطُوب زِنادِي
وأشغَلَني الحِرْصُ المُوَكَّلُ في الوَرَى   عن العَمَلِ المُنْجي ليومِ مَعَادِي
فلا راحة الأُخْرى تَيَقَّنْتُ نَيْلَها   ولا أنا في الدُّنيا بَلَغْتُ مُرَادِي

وله على لسان بعض غِلْمانه: [المتقارب]

وَرُبَّ قميصٍ دعاني إلى احـ   ـتمالِ الرَّثاثةِ منه العَدَمْ
أُقَطِّبُ وَجْهي له كلَّما   تهلَّلَ لي ضاحكاً وابْتَسَمْ

ومن كتابٍ فاضلي إلى بعض إخوانه: وأما الأخبار الغربية وإخلال جانبها، وضعْف مطلوبها وطالبها، فإذا انجرَّتِ الظَّلماءُ إلى الغَرْبِ فَبِحَقٍّ، كما أَنَّ الأنوار النَّاصرية قد تناصرت في الشَّرْق، فالله يُسْعدُ بلاد الدُّنيا بالانخراط في سِلْك مُلْكه، ويُمكِّن من مؤمنها حُكْمَ عَدْله، ومن كافرها سَيْفَ فَتْكِهِ، واللَّهُ يجزيها الخير عن نِيَّتها في الخير، ويكتبُ سلامَةَ عَزْمها في طرق النَّفْعِ أَتَمَّه السَّيْر.

(١) هو الأمير أبو الحارث عبد الرحمن بن محمد بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ، ابن أخي أسامة بن منقذ الشاعر المشهور، توفي سنة ٦٠٠هـ (الوافي بالوفيات ١٨/ ٢٥١ ـ ٢٥٢).

ثم إني وقفتُ على كتابٍ فاضلي للسُّلْطان يُشْعر بأن الرِّسالة المغربية لم تكن برأي الفاضل، ولا هو مختار لها، صورته:

المملوك يقبِّلُ الأرض بالمقام العالي المولوي الملكي النَّاصري، جعل الله له في الدُّنيا والآخرة المقام العالي، وأبقى دولته التي هي الأيام بالحقيقة والأيام قَبْلَها هي اللَّيالي، ويُنْهي أَنَّ الظاهر بأن المملوك عند المولى ليس من أهل الاتِّهام، وأنَّ له ولله الحمد آثاراً في دولته تشهد بها الأيام، وآثار السيوف طاحت وبقيت آثار الأقلام.

والرِّسالة المغربية ليس المملوك مشيراً بتركها، ولا كارهاً لسفر رسولها، ولا مستبعداً مصلحة قريبة الأمر منها، لكن على وجهها، وقد نجّزت الهَدِيَّةِ المغربية على ما أُمر به، وكُتِبَ الكتاب على ما مُثِّل، وفُخِّم الخطابُ والوصف فوق العادة، وبما لا يمكن مخاطبة مخلوق بأكثر منه.

وعند وصول الأمير نجم الدين من المُخَيَّم المنصور، فاوضه المملوك في أَنَّه لا يمكن إلا التعريض لا التَّصريح بما وقع له أَنَّه لا تَنْجَحُ الحاجةُ إلَّا به من لفظة أمير المؤمنين، وأَنَّ الذين أفاضوا في هذا الحديث، وأشاروا به ما قالوه نقلاً، ولا أحاطوا به قياساً، ولا عرفوا مكاتبة المصريين قديماً، وآخر ما كُتِبَ في أيام الصَّالح بن رُزِّيك، فخوطب فيه أكبر أولاد عبد المؤمن وولي عهده: بالأمير الأصيل النِّجار، الجسيم الفَخَار، وعادت الأجوبة إلى ابن رُزِّيك ـ وهو وزير سُلْطان مِصْر الذي في أتباع مولانا اليوم مائة مثله ـ مترجمةً بمعظم أمره، وملتزم شكره.

هذا، والصَّالح يتوقع أن يأخذ ابن عبد المؤمن البلاد من يديه، ما هو أن يهرب مملوكان طريدان منا، فيستوليا على أطراف بلاده، ويصل المشار إليه بالأمر من مَرَّاكُش إلى القَيْروان في ستة أشهر، فيلقاهم، فَيُكْسَر مرة، ويتماسك أُخرى.

وأعلم الأمير نجم الدين بذلك، فأمسك مقدار عشرة أيام، ثم أنفذ الأمير المذكور إليه على يد ابن الجليس بأَنَّ الهدية أُشير عليه بأن لا يستصحبها، وإن استصحبها تكون هديَّةً برسم من حواليه، وأن الكتاب لا يأخذه إلا بتصريح أمير المؤمنين، وأن السُّلْطان ـ عَزَّ نَصْرُه ـ رسم له ذلك، والملك العادل ـ دامت قدرته ـ بأن لا يسير إلا به، وأنه إذا لقي القوم خاطبهم بهذه التحية عن السلطان ـ أبقاه الله ـ من لسانه.

فأجابه المملوك: بأَنَّ الخطاب يكفي، وطريق جحدنا له ممكن، والكتابةُ حُجَّة تقيد اللِّسان عن الإنكار، ومتى قرئت على منبرٍ من منابر الغرب، جعلنا خالعين في مكان الإجماع، مبايعين من لا ينصره الله ولا شوكة فيه، ولا يحل اتِّباعه، مُرْخصين الغالي، منحطين عن العالي، شاقِّين عصا المُسْلمين، مُفَرِّقين

كلمة المؤمنين، مطيعين لمن لا تحل طاعته، متقلِّدين لمن لا تصحُّ ولايته، فيفسد عقود الإسلام، وينفتح بابٌ تعجز موارده عن الإصدار، بل تمضي وتستشف الأمور وتكشف الأحوال.

فإن رأيت للقوم شوكةً ولنا زُبْدَة فَعِدْهُمْ بهذه المُخَاطبة، واجعل كل ما نأخذه ثمناً للوعد بها خاصَّة، فامتنع، وقال: أنا أقضي أشغالي، وأتوجَّه إلى الإسكندرية، وأنتظر جوابَ السُّلْطان ـ عَزَّ نَصْرُه ـ وما يفوت وقت، وإلى أن أُنَجِّزَ أمر المراكب، وأرتاد الركاب.

فسيَّر المملوك النُسْخة، فإن وافقت، فينعم المولى على المملوك بترجمةٍ يلصقها على ما كتبه، ويأمر نجم الدين بتسلُّم الكتاب، على أَنَّ ابن الجليس حَدَّثه عنه أنه ممتنعٌ من السفر إلا بالمكاتبة بها، فأما الذي يترجم به المولى ـ عَزَّ نَصْره ـ فيكون مثل الذي يُدْعى به على المنبر لمولانا، وهو: الفقير إلى الله تعالى يوسف بن أيوب، أدام الله غِنَى مولانا بالفَقْر إلى رَبِّه.

وإذا كَتَبَ الصَّالحُ بن رُزِّيك إليهم: من السَّيِّد الأَجَلِّ الملك الصَّالح، قَبُحَ أن يكتب إليه مولانا ـ أبقاه الله ـ: الخادم، وهذا مبلغ رأي المملوك، والمؤمن لا يذل نفسه، وقاسم الأرزاق يوصلها وإنْ رَغِمَ مَنْ جَرَتْ على يده، وإن كان مولانا أَعَزَّ الله نَصْرَه، يقول: أنت غافلٌ وغائب، وما تعرف ما الإسلام فيه، فلو حَضَرْتَ وعَرَفْتَ ما شقَّقْتَ الحديث، فجواب ما نكتب بعد سنتين، فما يتخلَّى الله عَنَّا، ولا تستمرُّ هذه الشِّدَّة، ولا نسيء الظَّنَّ بالله.

وإذا كانت لنا إنْ شاء الله أَخَذْتَ خالية من نطلب الآن مواساته، وإذا كان المملوك مُسْتَجْهَلاً وغير مُسْتَنْصَح، وللضرورة حكمها، والأحوال ـ المملوك ـ غائب عنها، فالمفهوم من الأمر للمملوك أن يتولى من المكاتبة ترتيب المقاصد، وتحرير الألفاظ، وتنضيد الخبر عَمَّا أجراه الله تعالى على يد مولانا ـ عَزَّ نَصْرُه ـ والتَّأني للمطلوب، فقد فعل هذا كله في النُسْخة، وبقيت اللَّفْظة التي ليست كتابة المملوك لها شرطاً فيها، والمملوك وعقبه مستجيرون بالله تعالى، ثم بالسُّلْطان ـ عَزَّ نصره ـ من تعريضهم لكدر الحياة، وتوقع الخوف، ومُعَاداة من لا يخفى عنه خبر، ولا تقال به عثرة.

ويكفي أَنَّ المولى أنعم بخطِّه في كتابه إلى المملوك، وفيها ما هو بخط حضرة سَيِّدنا الأجل عماد الدين الكاتب الأصفهاني ـ حرسه الله ـ لمَّا وُصي بأن لا يناظر في الخطاب ما صُرِّح باللَّفظة فهي إما تَقِيَّة، فالمملوك أَوْلَى بها، وإما استهانةً، فنفس الملك لا تُقَاسُ بنفس المملوك.

فإن كان لا بُدَّ، فالنُّسْخة بين يديه، والمقصود فيها من زيادة هذه اللفظة ما يحتاج إلى تعليم، والكُتَّاب الذين يستقلُّون بكتابة النُّسْخة معدومون، وقد ناب المملوك عنهم، والكُتَّاب الذين يستقلُّون بالتبييض موجودون، فينوبون عن المملوك في التبييض، وإلا فكيف يُسَيَّرُ رسولٌ بكتاب من مِصْر بلا خَطِّ سُلْطان، وبغير حضرته كُتِبَ، ولا بهدِيَّة سار، وبمحضرٍ من البغاددة والمغاربة يعلمون أَنَّ الكتاب كُتِبَ بمصر، ويشهدون بما لم يَرَوْه وما لم يقرؤوه من الخطاب.

وإذا وَصَلَ من المولى ـ أدام الله أيامه ـ كتابٌ مختومٌ، وسُيِّر ولم يعلم ما فيه انقطع فضولٌ كثير، وخمدت أراجيفُ شنيعةٌ، ولا يعتقد المولى أَنَّ المملوك يُعَظِّم القصص، فما للألسنة والأعين شغل إلا السَّلاطين وأفعالهم وأقوالهم، ولا للخَلْق خوض إلا في أوامرهم وأحوالهم.

ولو عَلِمَ المملوك أن هذا الذي استعفى منه يضره بحيث ينفع المولى ـ أبقاه الله ـ لهان عليه، ولكنَّه مَضَرَّةٌ بغير منفعة، وتَعَرُّضٌ لما تُذَمُّ عاقبته، أو يبقى على الخوف منه، وذلك مما لا يقتضيه حُسْنُ عهد المولى، وفَضْلُ رأفته. فمقصود المولى ـ أبقاه الله ـ تحصيل تبييضها بين يديه، وربَّما حصل استتاره، وأُمنت المكاره فيه، وغَمُضَتِ العيون عنه، وشَحَّتِ الأيام عليه، طالع المملوك بذلك.

فصل

[كتب من القاضي الفاضل إلى السلطان]

وللقاضي الفاضل ـ رحمه الله ـ من كتبٍ أُخَر يشرح لنا بعض ما تقدَّم، وما لم يذكره أحد من أرباب السِّيَر.

منها قوله: كتابٌ بغداد كتابٌ بارد غَثٌّ، جامد، ما فيه مقصودٌ لقاصد، ولا صِلَةٌ ولا عائد، ونحن نطلب الذهب الحار فنضربُ في حديدٍ بارد.

ومنها فيما خُرِّب من البلاد الفرنجية المغنومة: خَرَابُ البلادِ في هذا الوقت الضَّيِّق لا شُبْهَة في تقويته لنفس العَدُوِّ، وإضعافه لأَنْفُسِ المسلمين، وكل من يسمعه يَفْجَؤُه من بديهة اليأس ما يقطع رجاءه، والمولى يعلم أن العدو أخذها من المِصْريين في تمام ستين سنة، وحفظوها بالانحصار مرة، وبالهُدْنة أخرى، وبالقِتال مَرَّات، وبولاة سُوءٍ لو كان فيهم خيرٌ لما عَجَزوا عنها.

ونحن قد حملنا عن العدو المؤنة بتخريب البلاد التي كان العدو يريد أن يحاصرها ويُنازلها، ويَنْصِبَ المنجنيق والبُرْج عليها، ويخاف النجدة أن تَصِلَها،

وقوَّةَ الإسلام أن تثوب إليها، ويتوقع أن يبدهه المصافُّ قبل النُّزول عليها، فَعَرَّفْناه أنه قادمٌ على من لا سلاحَ له إلا أن يُلْقي السلاح، ولا حِفْظَ للبلاد إلا أن نخربها، فقد نَكَلْنَا عن اللِّقاء، وفَرَرْنا قبل المواجهة، وزدنا زيادةً عجيبة؛ وهو أن المنهزمَ ينهزِمُ بالرِّجال، ونحن ننهزم بالبلاد.

ثم قال: وثبوت مولانا على عكا هو حراستُها وحِفْظُها، وقُوَّةُ نَفْسِ مَنْ بها، وأهون الأعداء ملك الألمان، لا يشك مولانا أن جَمْعَه لا يفي بعشر قَرَاقر من ستين قُرْقُورة[1] وصَلَتْ إلى الفرنج نجدةً من بلاد المجوس في السَّنة الماضية، وإنما الزائد سُمْعَة ملكٍ وقد هلك، ورأسٍ وقد قُطِعَ، وقائد جيش وقد كبا الحمار.

ومنها عند ورودِ كتاب السُّلْطان إليه يبشِّر بعافيته من مَرَضٍ في شهر رمضان: أسفرت بشارته عن أنَّ المولى أتاه الفرج، وغَذَّاه الفَرُّوج، واستقلَّ بحمد الله وصَحَّ، وقالتِ العافيةُ للمرضِ تَنَحَّ.

وكان ما في كتابيه الأولين من تعريق النون من الحمد لله رَبِّ العالمين فيه أَثَرُ ضعفٍ ينتقده صيارفة الخطوط.

فأما هذا الكتاب المبارك فقد صَحَّت فيه التعريقة وقويت اليد، وطلعت النون أَهَمَّ إلينا من مطلع الهلال الفطري الذي يشبهه الشُّعراءُ بالنون، ومنهم من قال: [الطويل]

ولاحَ هــلالٌ مــثــل نــونٍ أجــادهــا بـذوب الـنُّـضَـار الـكـاتـبُ ابـنُ هـلالِ

وهذا من أنواع الفراغ الذي ما أوجبه للمملوك إلا مَسَرَّتُهُ بعافية المولى، أدامها الله، وأدام المَسَرَّة بها له وللخلق، فما يشبِّهها المملوك إلا بنور الشمس الذي له في كلِّ مكانٍ أَثَر، ولكل عينٍ به نَظَر، فلا أخلى الله الدُّنيا من آثاره، والعيونَ من أنواره.

وبعد عافية المولى قد انتظر الإسلامُ عافيته به من المرض الذي هو العدو، فيجمع الله تعالى للمولى وللخلق بين العافيتين، ويستخدم شكرهم للنعمتين، فقد جلا الله سبحانه بهذا المرض سيفَ الله الذي هو المولى، وما صَقَلَه إلا لتصدأ به قلوبُ أعدائه.

ومن فوائد هذا المرض أن المولى يستأنف العمر جديداً، والعَزْمَ حديداً، ويستقبل التدبير بنشاط قد حَضَر، وأعضاءٍ قد فارقها ما كان سببُ الضَّجَر.

---

(١) قرقورة: قال في القاموس المحيط (قرر): القُرْقُور، كعُصْفُور: السفينة، أو الطويلة، أو العظيمة. والقَرُّ: مركب للرِّجال، والهودج، والفرّوجة. ولعلها: القرقلات: وهي نوع من الدروع تتخذ من صفائح الحديد وتغشّى بالديباج الأحمر والأصفر، وقد تكون مبطنة (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص٢٧٢).

ومنها: وأما تَبَرُّمُ مولانا بكثرة المطالبات منه فلا أخلى الله مولانا من القُدْرة عليها، وهنيئاً له أَنَّ الله سبحانه يطالبه بحفظ دينه، والنبي ﷺ يطالبه بحُسْنِ الخلافة في أُمَّته، والسَّلَفُ الصَّالح من هذه الأُمة يطالبونه بمباشرة ما لو حضروه لما زادوا على ما يفعله المولى، وأهلُ الحرب يطالبونه بإزاحة عِلَّتهم من الذهب والفِضَّة والحديد، وبقية الأُمَّة تطالبه بالأمن في سِرْبهم، والاستقامة في كَسْبهم، والخُفارة في سُبُلهم، ونفسُهُ الكريمةُ تطالبه بالجَنَّة، بَلَّغه الله إليها، وبمعالي الأمور، أعانه الله عليها.

وإذا عُدِّد ما يُرَادُ منه فلا بُدَّ أن يُعَدَّد ما يُسِّر عليه، فهل عَدِمَ من الله تعالى قط نُصْرَةً؟ فهل استمرَّت به قَطُّ عُسْرة؟ فهل تمَّت لعدو قط عليه كَرَّة؟ هل بات قَطُّ إلا راجياً؟ هل أصبح إلا راضياً؟.

ألا يعلم أَنَّ الله تعالى ذَخَرَ له من الصَّالحات ما لم يَرَ كُفُوءاً له غَيْرَه؟ ألا يُحْصي مَنْ سَبَقَه من الملوك إلى الدُّنيا، فعَجزوا عما سبق إليه المولى من الآخرة؟ هل يعرف رايةً يُقَاتَلُ تحتها في سبيلِ الله إلا رايته؟

هل يعرف مالاً يُنفق في سبيل الله إلا ماله؟ هل يُسْمَعُ في مجلسه إلا كتابُ الله يُتْلى، وسُنَّةُ رسول الله ﷺ تقرأ؟ أو يُرَى به إلا الخيل تُعْرَض والسِّلاح يُقَلَّب، لا أقداح الشَّاربين، ولا أصوات المغنِّين، ولا رقائع الكذَّابين، ولا سِعَايات النَّمَّامين؟

وبحقٍّ إذا خَطَّ مولانا ـ أبقاه الله ـ على تشبيه المملوك مجلس ابن عبد المؤمن بالمسجد، فإنَّ مجلسه أولى بأن يكون مسجداً من كلِّ مجلس، ولا غَرْوَ أن تُعْتَرَفَ المدائح كما تُعْتَرَفُ الضَّوالُّ، وأن تُتَّبَعَ كما تُتَّبعُ الطَّرائد ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠].

لعلَّ المولى ـ عَزَّ نَصْرُه ـ قد نفَّذ إلى جانب الشمال جماعة، فإنَّ صاحب أنطاكية ـ خَذَلَه الله ـ عاث وشعَّث، وخلا الجبانُ بأرضٍ فَطَلَبَ الطَّعْن وحدَه[1].

لو قَرَنَ أهلُ عكا ـ وكذلك يفعلون بمشيئة الله ـ ما هم فيه من جهادٍ بنيَّة احتسابٍ لما سَبَقَهم إلى الجَنَّة سابق، ولا لَحِقَهم بعدهم لاحق، فليهنِ مولانا توفُّر ثوابه على كلِّ حال، فَلَه ثوابُ نَفْسه، وثوابُ مَنْ جاهد بسببه.

فلا أعدَمَ الله الخَلْقَ واحداً استقام به جميعُهُمْ، ومالكاً قام برعاياهم فأقعد ما يروعهم، وشفيقاً يَقيهم بنفسه وبولده وبإخوته، ويتقدَّم إلى الأهوال أمام مماليكه

---

(١) خلا الجبان بأرض فطلب الطعن وحده: مأخوذ من بيت المتنبي: [الخفيف]

وإذا ما خلا الجبان بأرضٍ طلب الطَّعْنَ وحده والنزالا

والبيت في ديوان المتنبي ٢/١٦٨ (طبعة دار الكتب العلمية).

وأمرائِهِ وعسكره وحَمْلته، كأنَّه منهم مكان بسم الله من الكتاب، ومكان الإمام من المحراب، ومكان النَّواصي من وجوه الصَّواهلِ، ومكان الأَسِنَّةِ من وجوه الذَّوابل، خير ما كان إذا لم تظنَّ نَفْسٌ بنفسٍ خيراً، وأَغْيَرُ ما كان على محارم الله إذا كانت أنفس الملوك غَيْرَ غيرى.

وقد اطمأنَّت القلوبُ إلى أنَّ الله سبحانه قد كَشَفَ الغُمَّة وفرجها، وأطفأ نار الحرب التي كان العدو أجَّجها، فما يتوقع من كتب مولانا ـ أبقاه الله ـ إلا أنَّ الإسلام قد رضي بما يسخط الكفر، ولا يُسْمِعُ من قَصَصه الذي هو أحسن القَصَص إلا أن يقول ما قاله سَمِيُّهُ[1] على نبيِّنا وعليه السَّلام: ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ [يوسف: ٤١].

فأما ملك الألمان فقد سَلَبه الله ما أضيف إليه كما كان المملوك رأى في منامه على كوكب، وأعلمَ به مولانا رسالةً فقال أبقاه الله: قد قبلتُ البُشْرى.

وصورة الرؤيا أَنَّ رسولاً جاء من السلطان ـ عَزَّ نصره ـ إلى المملوك، فقال: اكتب كتاباً ببشارة ملك الألمان. فقلتُ: حتى أفكر، فقال الرسول: أكتب بأنَّ الله قد سَلَبَ ملك الألمان ما أضيف إليه، والمشهور أنَّ ملك الألمان خرج في مائتي ألف، وأنه الآن في دون خمسة آلاف.

ومنها: ورَدَ كتابٌ من المهدية إلى الإسكندرية ثاني رجب بعد ستةَ عَشَرَ يوماً من المهدية، وذكر من فيه أخباراً، وقد طولع بها، ولما تكرَّرت عُلِمَتْ صِحَّتُها؛ وهو أن عساكر الغرب الإسلامية نازلةٌ على طُلَيْطُلَة، وقد افتتحت عِدَّة حصون كافرة، وأَنَّ يوزبا شوهد بالمهدية مُوثَقاً بالحديد، وقد نفَّذه قَرَاقوش إلى صاحب تونس ليسيِّرَه إلى بلاد الأندلس موضع نزول ابن عبد المؤمن بالعساكر.

وأن أهل صِقِلِّية من المسلمين إلى الآن في حَرْبٍ قائمة بينهم وبين فرنجها، ومعتصمون بالجبال في أعمالها، وأن عسكر الفرنج قد خَرَجَ لإنجاد أصحابهم بصِقِلِّية والمسلمون بها على تَوَقُّعٍ ورِقْبَةٍ، وحذارٍ وخِيفَةٍ، نَصَرَ الله كلمة التوحيد، وأهلك كُلَّ جبارٍ عنيد.

وأنَّ مراكب فيها أزواد للجنويين دخَلَتِ المهدية بأمانٍ من صاحبها، فباعت بها، وتزوَّدت منها، وأنها قاصدة الشَّام خَيَّبَ الله قَصْدَها.

ومنها: وقد سُيِّر الحِملُ الآن من المجلس العزيزي بحضور فلانٍ وفلان،

---

(١) سميّة: هو يوسف بن يعقوب عليه السلام، ويشير في قوله: **﴿قضي الأمر﴾** إلى قوله تعالى حاكياً عن يوسف عليه السلام: **﴿يا صاحبي السجن أما أحدهما فيسقي ربه خمراً وأما الآخر فتأكل الطير من رأسه وقُضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾** [يوسف: ٤١].

وكلُّهم مجتهدٌ في الخدمة، ولما عَرَفَ المملوك أنهم لا يطرقون المعنى الذي يطرقه المملوك من تنبيه مولانا على أن يقتصد في الإنفاق، ويُقَدِّر الإخراج للعِلْم أَنَّ هذا الحجر قد رُمينا بعدمه، وسمع بخبر المولى فانهزم فراراً من سَطْوة كَرَمه.

والبلاد ليست الآن كعهدها في انقطاع أسفارها، ووقوف معايشها، وكساد أسواقها، وانكسار تجارها، ولو لم تكن الدَّراهم سِلْعة لا تخرج من مِصْر كما يخرج الدِّينار لما وجدت كما لا يوجد الدينار، وإن تصريف الدَّراهم بعد أن تصير مستخرجاً بِذَهَبٍ شغل شاغل، واستخراج ثانٍ غير الأول، وعسى ﴿ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ [المائدة: ٥٢] يحدث للإسلام نَصْراً عزيزاً، وللكفر خِذْلاناً سريعاً وجيزاً.

مولانا ـ خلَّد الله مُلْكَه ـ من وراء ضرورةٍ لا تخفى عن المملوك، والمماليكُ من وراء ضرورةٍ لا تخفى عن المولى، وصدرُ المولى ـ بحمد الله ـ واسع، وفَرَجُ الله منه قريب، وهذه الضَّائقة لما يريده الله تعالى من حُسْنِ موقع الفَرَجِ بعدها.

فقد أنفق المولى مال مِصْر في فَتْح الشَّام، وأنفق مالَ الشَّام في فتح الجزيرة، وأنفق مال الجميع في فتح السَّاحل، وينفق إن شاء الله تعالى مالَ القُسْطَنْطينية في فتح رُومِيَة والملوك كلُّهم وكلاؤه وأمناؤه على خزائنهم إلى أن يُسَلِّموها إليه، فيشكره الله على ما أخرجه في سبيل الله منها، ويمقتهم على ما كنزوه من ذهبها وفِضَّتها، فلا يكن في صَدْر المولى حَرَجٌ ولا في خُلُقه، فإنَّ الله سبحانه لا يضيِّق رِزْقاً على يده الكريمة لا سيِّما وقد أجرى عليها أرزاق خَلْقه.

ومنها: ينهي المملوك وصول رسول ملك الرُّوم بما في صحبته من هَدِيَّةٍ، وبما على لسانه من رسالة، وبما على يده من كتاب. وحضر بين يدي الملك العادل، وجرى من المفاوضة ما زُبْدَتُه امتنان الملك بكونه لم يجب رسول ملك الألمان وصاحب صِقِلِّية وغيرهم من جيوش الفرنج إلى الموافقة على حَرْب السُّلْطان، وإطلاق طريقهم، وامتنعَ وسَدَّ الدَّرْبَنْدَات[1]، وحَفِظَ عليهم الطُّرق، ووصَّى أرباب الحصون بالتَّيَقُّظِ لهم، والمَنْع دونهم، وجعل عُذْره لملتمسي موافقته أنَّ البلاد في هذه السنة غالية السِّعْر، والمصلحة تقتضي أن لا تكون الحركة إلا بقوَّةٍ، وعلى تَمَكُّنٍ من المِيرَة، وتؤخر الحركة إلى السنة الأخرى.

ثم قال: وهذا ملك الرُّومِ خائفٌ من الفرنج على بلده، مُدَافِعٌ عن نفسه، إن

(١) الدَّرْبَنْدات: الدَّرْبَنْد، بفتح الدال والباء وسكون الراء والنون: باب الأبواب، ومدينة في وسطها مرسى السفن، تقع على بحر طبرستان (معجم البلدان ١/ ٣٠٣ ـ ٣٠٦، ٢/ ٤٤٩).
ولعله يقصد بسدّ الدربندات: أي سد الأبواب.

تَمَّ له الدفع ادَّعى أنه بسببنا، وإن لم يتمَّ ادَّعى أنَّه غائب عن مقصده ومقصدنا، وقد جعل ما أورده من أن تقام البطركة في قُمامة من قِبَلِه، وأن تُنْقَلَ من ولاية الفرنج إلى أن يوليها الطَّاغية من أهل عمله، سبباً يبسط به عُذْره بزعمه عند أهل جِنْسه، ويدفع به عن نفسه، لا سيما مع إقامة الخُطْبة الإسلامية ونَقْلِهِ المِنْبر، وفُسْحته في الصَّلاة، وإعزاز الكلمة الإسلامية، أَرْغَمَ اللَّهُ بها أنفه، وعَجَّلَ بسيفها حَتْفَه، ومولانا ـ أبقاه الله ـ يَتَثَبَّتُ في الأجوبة، ولا يجيبُ إلى ما على الإسلام فيه غَضَاضة[1]، ولا إلى ما للكُفْر فيه قُوَّة ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

ومن كتابٍ آخر: وصل إلى المملوك كتابٌ يذكر وصول رسل الملك العتيق من قُبْرُص إليه يخبره بعصيانه على ملك إنكلتير، ومكاشفته بالعداوة والحَرْب، وأنَّه قد كاتَبَ السُّلْطان ـ أَعَزَّ الله نصره ـ يبذل له من نَفْسه العبودية والطَّاعة والمظاهرة على ملك إنكلتير، والأخبارُ متواترةٌ بأَنَّ العتيق أحرق موانئ قُبْرُص، ووعَّرها، وقَطَعَ المِيرَة عن السَّاحل.

ولا شُبْهةَ أَنَّ مولانا يتقبَّل من المذكور، ويقوي نفسَه على هذه المُبَاينة، فإنَّ في تخاذلهم نُصْرة الإسلام، وشغل بعضهم ببعضٍ، وافتراق كلمتهم المجتمعة وقَطْعاً للميرة عن الشَّام، وأَمْناً لجانبٍ كبير من جوانب البحر.

وهذا الملك العتيق قد صار لمولانا صديقاً، وما سمِّي العتيق إلا لأنه صار لمولانا عتيقاً، ولا اعتبار بحديثنا مع صاحب القُسْطَنْطينية في أَنَّا نُنْجِدُه على قُبْرُص، فإنَّا إنما وَعَدْناه بالنَّجْدة عليها لما كانت بيد عدونا.

ووالله ما أفلح ملك الرُّوم قَطُّ ولا نَفَعَ إن يكن صديقاً، ولا ضَرَّ إن يكن عدواً، وكذلك صاحب الغَرْب ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقف المملوك على كتاب بغداد، والمقصود الذي نُدِبَ لأجله الرَّسول ما أَلَمَّ بذكره في الكتاب؛ وهي المعونة على الجهاد، وعرف استدعاء المساعدة على تَكْريت، ولو كان لنا فَرَاغٌ لها لما كان النظر الصحيح يقتضيها، لأنها مهما بقيت في يد مَنْ هو الآن بها، فهي في يد المولى ـ أبقاه الله تعالى ـ ومهما خرجت عنه خرجت عنها، وما نقول إنه ليس لنا تطلُّعٌ إلى مِثْلها، لا سيما وهي طريقٌ إلى غيرها، وقد فتح الله للمولى ببلادٍ هي مع سَعَتها ضيِّقة عن زُبونها.

فللمولى أولادٌ كَثَّرَ الله منهم، ما منهم إلا من هو متطلِّع إلى طَرَف، وله أهل

---

(١) الغضاضة: الذلة والمنقصة.

ما منهم إلا من هو متطلع إلى مملكة، وأمراء ما منهم إلا من هو متوقِّعٌ زيادة، ومماليك ما منهم إلا من يريد أن يوفي الحق عليه في الخِدْمة.

وَمَنْ سَيَّره المولى لهذا الأمر عَدِمَ من أصحابه منفعةً فيما هو أهم مما سار فيه، وما يليق أن يُسَيَّرَ إلا مَنْ يريهم ما يعجزون عنه، ويكون عنواناً لما لعلَّهم في شكٍّ منه، من قوة المولى على ما يريد وإمساكه مع القُدْرة، ويرى المملوك أنَّ مطلبهم نَقْد، ومطلبنا منهم وَعْد، وإن كان ولا بُدَّ من تسيير، فلا يُسَيَّر إلا من يقضي الشُّغْل، ويستزيد الجُعْل.

ما تضمَّنه الكتاب البغدادي من عَزْم الخليفة على الحَجِّ في هذه السَّنة المملوك يستبعده، بالإضافة إلى الوقت وإلى عادة أهله، آخرهم حَجّاً الرَّشيد ـ رحمه الله ـ ويستقربه بالإضافة إلى خُلُقه، وإن سار صَلُحَ أن يُهْتَمَّ بما أشار إليه ابن الشَّهْرُزوري[١]، ولا شكَّ أنه قد أُنسي الرِّسالة التي توجَّه فيها، فإنَّا بعثناه يلتمسُ لنا نفقة فالتمسها مِنَّا.

وكتب الفاضلُ إلى السُّلْطان:

ينهي أنه عُرف تسحُّبُ رجلٍ وصبي من القَصْر الغَرْبي، وأن المُؤَيَّد ـ يعني ابنَ السُّلْطان ـ وكان ينوب عن أخيه العزيز بمصر أحضر نائب الطَّواشي بهاء الدين، واستعلَم أمرهما، فذكر أنَّ هَرَبَهما صحيح، وأن أحدهما، وهو الصَّبي من جُمْلة ثلاثةٍ وثلاثين ولداً كانوا أطفالاً وقت الحوطة عليهم بالقصر الغَرْبي، وقد بلغ هذا وكَبِرَ، وزاحم عشرين سنة، والآخر كان معتقلاً في الإيوان، فحدثَتْ له خنازير[٢] في حَلْقه، وأشفى على الهلاك، فأمر الطواشي بنقله إلى القصر الغَرْبي من الإيوان، وفُكَّ حديدُه، وحُمِلَ ليتداوى في أوائل سنة ثلاث وثمانين، واستمرَّ مَرَضُه، واشتدَّ ضَعْفُه، وبقي في القَصْر الغربي إلى أن عَلِمَ أنَّه تسحَّبَ.

فسأله المملوك عن المستحفظ للقصر الغربي، فذكر أُستاذين كان الطَّواشي أقامهما، ورضي أمانتهما، وأنهما يذكران أنَّ هذا القصر الغربي قد خَرِبَ ودَثَرَ، وكَثُرَت التسليقات عليه، ويجاوره إصطبلان فيهما جماعة من الخَرْبَنْدِيَّة[٣]

---

(١) هو أبو الفضائل القاسم بن يحيى بن عبد الله بن القاسم، ضياء الدين الشهرزوري، المتوفى سنة ٥٩٩هـ (الذيل على الروضتين وفيات سنة ٥٩٩هـ).

(٢) الخنازير: قروح صلبة تكون في الرقبة والحلق.

(٣) الخربندية: ويقال لهم الخربندلية، وهم من طوائف التركمان في البلاد الشامية، وقد عدّ القلقشندي في صبح الأعشى ٧/ ٣٠٥، منهم: البوزقية، والأوشرية، والدلكرية، والخربندلية، والأغاجرية، والورسق. والقنقية، والبابندرية، والبكرلية، والبياضية.

والمُفسدين، والتطرُّقُ مستمرٌ من هذه الإصطبلات إلى مَنْ في القَصْر من النِّساء، وأنهما كانا أنهيا مرةً بعد أخرى أنَّ المكان غيرُ حريز، والاعتقال فيه غير وثيق.

قال: وجمعتُ أصحابَ الأرباع وجيرة القصر، ورجوتُ بترك الشَّناعة الظَّفَرَ بهما، والبحثُ واقعٌ عنهما.

وكتب الفاضلُ عن السُّلْطان إلى العادل وهو بمصر:

انتهى إلينا أنَّ بالدِّيار المِصْرية وبالحَضْرَة العَلِيَّة، جماعةً من الفقهاء قد اعتضدوا بجماعةٍ من أرباب السُّيوف، وبسطوا ألسنَتَهم بالقول غير المعروف، وأنشؤوا من العصبية ما أطاعوا به القُوَى الغضبية، وأحيوا بها ما أماته الله من أهل حَمِيَّة الجاهلية، والله سبحانه يقول، وكفى بقوله حُجَّة على من كان سميعاً مطيعاً ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ولم يزل التعصُّب للمذاهب يملأ القلوب بالشَّحْناء، ويشحنها، وقد نهى الله عن المجادلة لأهل الخلاف فكيف لأهل الوفاق إلا أن يقال أحسنُها، وما عَلِمْنا أنَّ في ذلك نيَّةً تُنْجَد، ولا مصلحةً توجد، ولا هدايةً تُعْتَقَد، بدراسةِ تُعْقَد، ونارِ عداوةٍ تُوقَد، وقلَّما أثمرت المُشَاجرة إلا خلافاً، فالمجلس - أَعَزَّه الله - يوعز بكَفِّ الألسنة الخائضة، وعَقْلِ الأَعِنَّة الرَّاكضة، فإن أقنع بلُطْفِهِ المَرْضَى وإلا كانت هِمَّتُه الرَّائضة، ومَنْ عاد بعد الزَّجْر أُبعد عن مُسْتَقَرِّه، وأُزعج، وليسع الخَلَف ما وَسِعَ السَّلَف من الأدب، وليعلم العَبْدُ أنه يكتب كتاباً إلى رَبِّه فليفكر فيما كَتب وإلى مَنْ كتب.

فصل

في ذكر خروج الفرنج - خذلهم الله - بعزم اللِّقاء، ووصولهم إلى رأس الماء

قال العماد: وذلك يوم الاثنين حادي عشر شَوَّال، بعد أن رتَّبوا على البلد مَنْ لازم القتال مع ملك الألمان وخرج معهم المركيس والكند هري، وأخذوا معهم عليق أربعة أيام وزادها، واستصحبوا أنجاب الكريهة وأنجادها.

وكان مخيم اليَزَك على تل العياضية، فركبوا، وأشعلوا القوم بنيران النِّصال وألهبوا، فَنَزَلَ العدو تلك الليلة على آبارٍ حفرناها عند نزولنا هناك، وباتوا ترميهم وتشويهم وتصميهم الأنزاك، وأصبحوا يوم الثلاثاء سائرين إلى اللِّقاء، ورفع السُّلْطان تلك الليلة الثَّقَل إلى ناحية القَيْمون، وقد امتدَّت ميمنته إلى الجبل صفاً، وميسرته إلى البحر زَحْفاً، وعنده في يمين قلبه أولادُه: الأفضل والظَّاهر والظافر،

وأخوه العادل في أول الميمنة، ويليه حسام الدِّين بن لاجين، ثم صارم الدين قايماز النَّجْمي، ثم حُسام الدين بشارة ومعه بدر الدين دُلْدُرُم الياروقي، فهؤلاء عُظماء دولته، وكُبَراء مملكته، ومعهم أمراء، ومقدَّمون جريئون مُقْدِمون.

وكان في الميمنة أيضاً ابنُ صاحب المَوْصِل، وعِزُّ الدين جُرديك النُّوري، وعلى ميسرته صاحب سنجار، وصاحب الجزيرة، وتقيُّ الدين، وابن المشطوب سيف الدِّين، وخشترين، والأمراء: الهَكَّارية(١) والحُمَيْدية(٢) والزُّرَّزارية(٣) والمهرانية(٤)، وأمراء القبائل من الأكراد. ورجال الحَلْقة المنصورة واقفون في القَلْب. وضُرب للسُّلْطان خيمة لطيفة بقرب الخَرُّوبة على تَلٍّ مُشْرِفٍ.

وفي مَرْجِ عكا عينٌ غزيرة الماء، يجري منه نهر كبيرٌ إلى البحر، فسار الفرنج ذلك اليوم شرقيَّ النهر حتى وصلوا إلى رأس الماء، وشاهدوا مواقفَ الهائجين إلى الهيجاء، فانحرفوا إلى غربيِّ النهر ونزلوا، واعتزوا بالاحتراز واعتزلوا، فأنهض السُّلْطان إليهم الجالشية(٥)، وانتظر من الله في كَسْرِهم المشية، فاستداروا بمركزهم، وأثخنوا باللتوت(٦) رَضّاً، وبالدَّبابيس(٧) فَضّاً، وبالنِّصال قَرْضاً، وبالأَسِنَّةِ وخزاً وخضاً، وقضوا فيهم مِنْ حَقِّ الجهاد سُنَّةً وفَرْضاً.

---

(١) الهكّارية: من طوائف الأكراد، وهم من بلاد العمادية وقلعة هارون من جبال الأكراد، يزيد عددهم على أربعة آلاف مقاتل، ولهم إمارة تخصهم (صبح الأعشى ٤/ ٣٧٨).

(٢) الحميدية: من طوائف الأكراد، وهم من بلاد مازنجان، وبيروه، وسحمة والبلاد البرانية، لا تنقص عدّتهم عن ألف مقاتل، ولهم إمارة تخصهم (صبح الأعشى ٤/ ٣٧٥).

(٣) الزرزارية: من طوائف الأكراد، وهم من بلاد ماذكرد والرستاق، ومرت، وجبل جنجرين من جبال الأكراد، ولهم عدد جم يكاد يبلغ خمسة آلاف، ولهم إمارة تخصهم (صبح الأعشى ٤/ ٣٧٦).

(٤) المهرانية: من طوائف الأكراد. وقد ذكر القلقشندي في صبح الأعشى عدداً من طوائف الأكراد منها: الكورانية، والكلالية، والزنكلية، واللوسة، والباسرية، والسولية، والقرياوية، والحسنانية، والتلية، والجاكية، والقرياوية، والمازنجانية، والشهرية، والجولمركية، والدينارية، والتنبكية، والسندية، والمحمدية، والراسنية، والدنيكية (انظر صبح الأعشى ٤/ ٣٧٣ ـ ٣٧٩).

(٥) الجاليش: كلمة فارسية معناها الحرب والمعركة، والجاليش أيضاً تستعمل بمعنى طليعة الجند (صبح الأعشى ١٣/ ٣٨).

(٦) اللتوت: جمع لُتّ وهو القدوم والفأس العظيمة، وهي فارسية معربة (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص٢٩٢).

(٧) الدبابيس: جمع الدبوس، ويسمّى العامود، وهو آلة من حديد ذات أضلاع ينتفع بها في قتال لابس البيضة (صبح الأعشى ٢/ ١٥١).

وكان المرادُ أن يحتموا فيثوروا حتى يَلْقاهم ويبوروا، فما راموا مكانهم.

وأصبحوا يوم الأربعاء راكبين، وعن سبيل اللِّقاء ناكبين، ووقفوا على صهوات الخيل إلى ضحوة النَّهار، والرَّاجل محدقٌ بهم كالإسْوار، وأصحابنا قد قربوا منهم حتى كادوا يخالطونَهُمْ، وأرادوا أن يباسطونهم، والسُّلْطان يمدُّ الرُّماة بالرُّماة، والكُماةَ بالكماةِ، وهم ثابتون نابتون، ساكنون ساكتون، ونحن نقول: لعلَّهم يحملون ويغضبون، فَيَجْهلون، فنتمكَّن من تفصيل جُمْلتهم بحملتهم، وتفريق جماعتهم.

وأَحَسَّ العدوُّ بالضَّعْف، وأنَّه متورِّطٌ في الحَتْفِ، فأُلجئوا لعجزهم عن الدِّفاع إلى الاندفاع، وساروا عائدين على هيئة الاجتماع، والنهر عن يمينهم، والبحر عن يسارهم، وقد أيقنوا إنْ صَحَّ منهم الثَّبات بانكسارهم، وأصحابُنا حواليهم ومن ورائهم، يغرقونهم في دمائهم، ويَشُلُّونهم[(١)] وَيَعْلُونهم، ويُنْهلونهم من ماء الحديد وَيعِلُّونهم[(٢)]، وهم يتحرَّكون في سكونٍ، ويتظاهرون في كمون، ويتذَوَّبون في جُمود، ويتلَهَّبون في خمود، وكلما صُرِعَ منهم قتيل حملوه وستروه، وطمُّوا مدفنه وطمروه، حتى يخفى أمرهم ولا يصحُّ لدينا كسرهم.

ونزلوا ليلة الخميس على جسر دَعُوق، وقطعوا الجسر حتى يمنع عبورنا إليهم ويَعُوق، وأبلى المسلمون في ذلك اليوم في الجهاد بلاءً حسناً، وأتوا كل ما كان فيه مستطاعاً ممكناً، وبذل أيازُ الطَّويل هذا اليوم جُهْدَه، وفَلَّ في فَلِّ جهدهم حَدَّه، وكذلك سيف الدين يازكوج عامَ في بحرهم، وقام بأمرهم، فأصبحوا يومَ الخميس إلى نارِ الوطيس، ووصلوا إلى مربضهم، ولم يحصلوا على غَرَضهم، ونقص منهم خَلْقٌ، وعُدْنا إلى الخيام، ظافرين ظَفَرَ الكِرام، فرحين بذُلِّ الكُفْرِ وعِزِّ الإسلام، وعَرَفَ الفرنج مَسَاق خِزْيهم، وإخفاق سعيهم، فاحترزوا من الهَلَكة، وما عادوا إلى مِثْل هذه الحَرَكة.

قال القاضي: وكانوا قد جعلوا راجلهم سوراً لهم يضرب النَّاس بالزنبورك والنُّشَّاب حتى لا يترك أحداً يصلُ إليهم إلا بالنُّشَّاب، فإنه كان يطير عليهم كالجَراد، وخَيَّالتهم يسيرون في وسطهم بحيث لم يظهر منهم أحدٌ في ذلك اليوم أصلاً، وعَلَم العدو مرتفعٌ على عَجَلة، وهو مغروسٌ فيها، وهي تُسْحَبُ بالبغال، وهم يَذُبُّون عن العَلَم، وهو عالٍ جداً كالمنارة، خِرْقَتُهُ بياضٌ مُلَمَّع بحمرة على شكل الصُّلْبان.

ولم يزالوا سائرين على هذا الوجه حتى وصلوا وقت الظهيرة إلى قبالة جسر

(١) يشلّونهم: أي يطردونهم بالسيوف.

(٢) ينهلونهم: من النهل وهو الشرب الأول، ويعلّونهم: من العلل وهو الشربة الثانية.

دَعُوق، وقد ألجمهم العطشُ من شِدَّة الحَرِّ، وأخذ منهم التَّعب، وأثخنتهم الجراح، وكان الفِعْلُ معظمه للحَلْقة المنصورة في ذلك اليوم، فإنهم أذاقوهم طَعْمَ الموت، وجُرِحَ منهم جماعةٌ كأياز الطَّويل، فإنَّه قام في ذلك اليوم أعظم مقام يُحْكَى عن الأوائل، وجُرح جراحاتٍ متعدِّدة وهو مستمرٌ على القتال، وجُرِحَ سيف الدين يازكوج جراحات متعدِّدة، وهو من فُرْسان الإسلام وشجعانه، وله مقاماتٌ متعدِّدة، وجُرِحَ خَلْقٌ كثير في ذلك اليوم.

وعَزَمَ السُّلْطان في تلك الليلة على كَبْس بقيتهم في الخِيَم، وكتب إلى البلد يُعَرِّفهم ذلك حتى يخرجوا هم من ذلك الجانب، ونحن من هذا الجانب، فلم يصل من أهل البلد كتابٌ، فرجع عن ذلك العَزْم بسبب تأخُّر الكتاب، فلما أصبحوا كَفَّ السُّلْطانُ النَّاسَ عن القتال خشيةَ أن يُغتالوا، فإنَّ العدو كان قد قرب من خِيَمِهِ، ووقف الأطلاب في الجانب الشرقي من النهر تسير قبالة العدو حتى وصل إلى مخيَّمه، وكان لهم فيها أطلاب مستريحة، فخرجت على اليَزَك الإسلامي، وحملت عليهم، وانتشب القتال بينهم، فقتل من العدو وجرح خَلْقٌ كثير، منهم شخصٌ كبيرٌ فيهم، مقدَّم عندهم، وكان على حصان عظيم مُلَبَّس بالزَّرَدِ إلى حافره، وكان عليه لبس لم يُرَ مثله، وطلبوه من السُّلْطان بعد انفصال الحَرْب، فدفع لهم جُثَّته، وطُلِبَ رأسه فلم يوجد.

وعاد السُّلْطان إلى مخيمه، وأُعيد الثَّقَلُ إلى مكانه، وعاد كلُّ قومٍ إلى منزلتهم.

وكان عماد الدين زَنْكي غائباً بنفسه مع الثَّقَل لمرضٍ كان به، وبقي عسكره، فعاد وقد أقلعت حُمَّاه، وبقي التياث مزاج السُّلْطان، وهو كان سبب سلامة هذه الطَّائفة الخارجة كونه لا يقدر على مباشرة الأمر بنفسه.

ولقد رأيته ـ رحمه الله ـ وهو يبكي في حالِ الحرب كيف لم يقدر على مخالطة القوم، ورأيته وهو يأمر أولاده واحداً بعد واحدٍ بمصافحة الأمر، ومخالطة الحرب، ولقد سمعتُ منه وقائل يقول: إنَّ الوخم قد عَظُمَ في مَرْجِ عكا، بحيث إنَّ الموت قد كَثُرَ في الطَّائفتين، فأنشد متمثلاً(١): [مجزوء الخفيف]

اقْــتُــلانــي ومــالــكــاً ... واقْــتُــلا مــالــكــاً مــعــي

(١) قائله عبد الله بن الزبير في وقعة الجمل سنة ٣٦هـ. وذلك أن عبد الله بن الزبير كان أخذ بخطام الجمل الذي عليه عائشة، فجاء مالك بن الحارث الأشتر النخعي فاقتتلا فضربه الأشتر على رأسه فجرحه جرحاً شديداً وضربه عبد الله ضربة خفيفة، ثم اعتنقا وسقطا إلى الأرض يعتركان فجعل عبد الله بن الزبير يقول:

اقــتــلــونــي ومــالــكــاً ... واقــتــلــوا مــالــكــاً مــعــي

يريد بذلك أنني قد رضيت بأن أتلف أنا إذا تلف أعداء الله. وحَدَث بذلك قوة عظيمة في نفوسِ العساكر الإسلامية.

وكان مَرَضُ السُّلْطان هو أحد الأسباب الحاملة للفرنج على هذه الحركة، منضمّاً إلى كثرتهم، وشِدَّة الغلاء والجَذْب عليهم.

فصــل

في وقعة الكمين وغيرها، ودخول البَدَل إلى عكا

قال العماد: لما كان يوم الجمعة الثاني والعشرون من شَوَّال انتخب السُّلْطانُ من أجناده عِدَّة وكَثَّر لهم العُدَّة، وأمرهم أن يكْمُنُوا في سفح تَلٍّ هو شمالي عكا، بعيد من عسكر العدو، بقرب المنزلة العادِليَّة القديمة عند السَّاحل، فكمنوا تلك الليلة، فلما أصبح الصَّباحُ ركب منهم عِدَّة يسيرة، وساروا نحو الفرنج، وصالوا عليهم وأغاروا، فاستقبلهم الفرنج، فخرج إليهم زُهاء أربعمائة فارس ـ هكذا قال العماد في «البرق». وقال في «الفتح» مائتا قنطاري[1]، وكذا قال ابنُ شَدَّاد مائتا فارس ـ وطمعوا في المُسْلمين، فتأخَّروا قُدَّامهم قليلاً قليلاً حتى أوصلوهم إلى الكمين، فخرج عليهم أُسْدُ العرين، وقتلوا وأسروا، واستولوا عليهم بأسرهم، فلم ينجُ منهم ناجٍ.

ووقع في الأَسْر مُقَدَّمون أكابر، منهم خازن الملك، وجماعة من الإفرنسيسيَّة، وركبَ السُّلْطانُ فرحاً بهذه البشارة، ووقف على تَلِّ كيسان وقد توافت إليه الأسرى والأسلاب، فترك الأسلاب والخيول لآخذيها، وكانت بأموالٍ عظيمة فما أعارها طَرْفاً، ولا تردَّدَ أمرُه فيها، وجلس، وأحضر الأسرى، وباسطهم، وأطعمهم وكساهم، وأَذِنَ لهم في أن يسيِّروا غِلْمانهم لإحضار ما يريدون إحضاره، ثم نقلهم إلى دمشق للاعتقال، وحِفْظهم بالقيود الثِّقال.

[دخول الشتاء وعودة العساكر الإسلامية إلى بلادها]

قال القاضي ابنُ شَدَّاد: ولما هَجَمَ الشِّتاءُ، وهاجَ البحر، وأَمِنَ العدوَّ من أن يَضْرِبَ مَصَافَّ، وأن يبالغ في طلب البلد وحصاره من شِدَّة الأمطار وتواترها، أَذِنَ السُّلْطان للعساكر في العَوْدِ إلى بلادها، ليأخذوا نصيباً من الرَّاحة، فسار عمادُ

= فضرب به المثل لكل من أراد بصاحبه مكروهاً وإن ناله منه ضرر (انظر البداية والنهاية ٧/ ١٩٥).

(١) القنطارية: نوع من الأسلحة في خزانة السلاح وتكون مدهونة ومذهبة (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص٢٧٧).

الدين صاحب سِنْجار خامس عشري شَوَّال، وعَقِيبُه ابنُ أخيه صاحب الجزيرة بعد أن أفيض عليها من التَّشْريف والإنعام والتُّحَف ما لم يُنْعَمْ به على غيرهما.

وسار علاء الدين ابن صاحب المَوْصِل في أول ذي القَعْدة مُشَرَّفاً مكرَّماً، وسار الظاهر في المُحرَّم من سنة سبع، وتقي الدين في صفر منها، ولم يبق عند السُّلْطان إلا نَفَرٌ يسير من الأُمراء والحَلْقة الخاص.

قال: واشتغل السُّلْطان بإدخال البَدَل إلى عكا، وحمل المِيَر والذَّخائر، وإخراج مَنْ كان بها من الأُمراء، لعظم شكايتهم من طول المُقام بها، ومعاناة التَّعب والسَّهر، وملازمة القتال ليلاً ونهاراً، وكان مُقَدَّم البَدَل الدَّاخل من الأُمراء سيف الدِّين المشطوب، دخل في سادس عشر المحرَّم سنة سبع، وفي ذلك اليوم خرج المقدَّم الذي كان بها، وهو الأمير حسام الدين أبو الهيجاء وأصحابه، ومَنْ كان بها من الأُمراء، ودخل مع المشطوب خَلْقٌ من الأُمراء وأعيان من الخلق، وتقدَّم إلى كلِّ واحد أن يصحب معه ميرة سنةٍ كاملة.

وانتقل العادِلُ بعسكره إلى حيفا على شاطئ النَّهر، وهو الموضع الذي تُحَمَّلُ منه المراكب، وتدخلُ إلى البلد، وإذا خرجت تخرجُ إليه، فأقام ثَمَّ يحثُّ النَّاس على الدُّخول، ويحرس الميرَ والذَّخائر لئلا يتطرق إليها من العدو من يتعرَّضُها.

وكان مما دخل إليها سبع بطس[1] مملوءة ميرة وذخائر ونفقات، كانت وَصَلَتْ من مِصْر، وكان دخولها يوم الاثنين ثاني ذي الحِجَّة، فانكسر منها مركبٌ على الصَّخْر الذي هو قريبُ الميناء، فانقلب كل مَنْ في البلد من المقاتلة إلى جانب البحر لتلقِّي البطس، وأَخْذ ما فيها.

ولما علم العدو انقلاب المقاتلة إلى جانب البحر اجتمعوا في خَلْقٍ عظيم، وزحفوا على البلد من جانب البَرِّ زحفةً عظيمة، وقاربوا الأسوار، وصَعِدُوا في سُلَّم واحد، فاندقَّ بهم السُّلَّم كما شاء الله تعالى، وأدركهم أهل البلد، فقتلوا منهم خَلْقاً عظيماً، وعادوا خائبين خاسرين.

[غرق البطس الإسلامية]

وأما البطس، فإنَّ البحر هاج هيجاناً عظيماً، وضَرَبَ بعضَها ببعضٍ على الصَّخرِ، فهلكت وهَلَك جميعُ ما كان فيها، وهلك فيها خَلْقٌ عظيم، قيل: كان عددهم ستين نفراً، وكان فيها ميرةٌ عظيمة لو سَلِمَتْ لَكَفَتِ البلدَ سنةً كاملة،

---

(١) البطسة: من السفن الكبيرة، تستعمل للحرب والتجارة.

ودَخَلَ على المسلمين من ذلك وَهْنٌ عظيم، وحَرِجَ السُّلْطانُ لذلك حرجاً شديداً، وكان ذلك أول علائم أخذ البلد.

وقال العماد: لما دَخَلَ الشتاءُ وعصفَتِ الأهواء، وهاج البحر، ووقع في سُفُنِ الفرنج الكَسْر، أنفذوها إلى الجزائر للاحتياط، وخافوا عليها من اختباط البحر.

وقال في «الفتح»: نَقَلَ الفرنجُ سُفنهم خوفاً عليها إلى صور، فربطوها بها، فخلا وجه البحر من مراكبهم، وحصل الأمن فيه من جانبهم.

وكان أصحابنا في البلد قد مَلُّوا، فشكوا ضررهم وضجرهم، وكانوا زُهَاء عشرين ألف رجل من أميرٍ ومُقَدَّم وجُنْدي، وأُسطُولي وبحري، ومتعيِّش وتاجر وبَطَّال[1]، وغِلْمان ونُوَّاب وعُمَّال، وقد تعذَّر عليهم الخروج، فرأى السُّلْطان أن يفسحَ لهم فيه، رِفْقاً بهم ورأفةً، وما أفكر أَنَّ في ذلك مخافةً وآفة.

وأُشير على السُّلْطان بترتيب البَدَل، وكفَّل العادلَ بذلك، وانتقل بمخيَّمه إلى سَفْح جبل حيفا قاطع النَّهر، وتقدَّم بجمعِ السُّفُن للنَّقْل، واجتمع المنتقلون بالسَّاحل على الرَّمْل، فمن نَجَزَ أمره انتقل.

وكان الرأي إزاحة عِلَّة المقيمين فإنهم قد جَرَّبوا وصبروا، وخبروا، وهم كَنَفْسٍ واحدةٍ، وكانوا في ثروةٍ وكرم ونَخْوة، وفيهم أبو الهيجاء السَّمين، وله أتباع وأشياع، وله في شَرْعِ السَّماحة اقتداءً بالسُّلْطان أوضاع، ولعلَّه أنفق من ماله في تلك السَّنة خمسين ألفَ دينار، فلما فَسَحَ لهم في الانتقال لأجل الاستبدال، انتشر ذلك الضَّمُّ، وانتثر ذلك النَّظْم، ودخل إلى عكا مَنْ لم يجرِّب حصارَها، ولم يَخْبُرْ منافعها ومَضَارَّها، وما ثَبَتَ ممن كان مقيماً بها إلا الأمير بهاء الدين قَرَاقُوش.

ودخل عشرون مُقَدَّماً وأميراً شبه المكرهين عوض سِتِّين، واسْتُخْدِمت الرِّجالُ، وأُنفقتِ الأموال، وتفاوتَ الدَّاخلون والخارجون، فلا جَرَمَ وقع الوَهْنُ، وقُضِيَ الأَمْر، وتكفَّل بالدَّاخلين المَشْطُوب، وطاب الزَّمان، وتعذَّر الإمكان بعود مراكب العدو، فلم يستتمَّ البلد ما كان يحتاجُ إليه من الرِّجال والأموال، فإن كُلَّ من عُيِّنَ للدخول كَرِهَهُ، وصار يتوسَّل في أن يُعْفَى، ويبذل في نفسه الفداء، ثم

(١) الأمير البطال، أو الطرخان: هو اصطلاح مملوكي يقصد به الذي يعيش من إقطاعه فقط، وكانت الطرخانية تكتب للأمراء تارة وللأجناد تارة أخرى، وأكثر ما تكتب لمن كبرت سنه وضعفت قدرته وعجز عن الخدمة السلطانية، وقد جرت العادة أن يسمى ما يكتب فيها مراسيم يعدد فيها من مزاياهم واستحقاقهم (صبح الأعشى ٤٨/١٣، ٥١، ٥٢).

لما حَقَّتْ كلمةُ الدُّخول على مَنْ تَعَيَّن له استُمْهِلُوا زماناً يتهيؤون فيه للدُّخول، ولإنفاذ قضاء الله تعالى أسباب لا بُدَّ من وقوعها.

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

[وقوع قطعة من سور عكا]

قال العماد: وفي ليلة سابع ذي الحِجَّة وقعت قطعةٌ عظيمةٌ من سور عكا، فانثلم الثَّغر، وبادر الفرنج إليها، فجاء أهل البلد، وسدُّوها بصدورهم، وقاتلوا عنها إلى أن بنوها، وعادت أقوى مما كانت.

[هلاك ابن ملك الألمان وتفشي الموت في صفوف الفرنج]

وفي ثاني ذي الحِجَّة هَلَك ابنُ ملك الألمان، وكند كبير يقال له كند بنياط، ومَرِضَ الكند هري، وصار يموت من الفرنج كل يوم مائة والمائتان، وحزن الفرنج على ابنِ ملك الألمان حُزْناً عظيماً، وأشعلوا نيراناً هائلة، بحيث لم تبق خيمة إلا اشتعل فِيها النَّاران والثلاثة، بحيث بقي عسكرهم كلُّه ناراً تَقِدُ، وحصل للمسلمين غنائم أُخر كثيرة في سرايا سرية، وأساطيل مرضية؛ ومن جملة ذلك مَلُّوطة[1]، مكلَّلة باللؤلؤ منوطة، وبأزرار الجوهر مربوطة، قيل إنَّها من ثياب ملك الألمان.

[استئمان جماعة من الفرنج وإسلام بعضهم]

وكان قد استأمن من الفرنج خَلْقٌ عظيم أخرجهم الجوع إلينا، وقالوا للسُّلْطان: نحن نخوض البحر في براكس، ونكسب من العدو ويكون الكَسْبُ بيننا وبين المسلمين.

فأَذِنَ لهم، وأعطاهم بركوساً ـ وهو المركب الصَّغير ـ فركبوا فيه، وظفروا بمراكب لتجار العدو، بضائعهم مُعْظَمُها فِضَّة مصوغة، وغير مصوغة، فأسروهم، وكبسوهم وأحضروهم بين يدي السُّلْطان، فأعطاهم السُّلْطان جميع ما غنموه.

قال العماد: فلما أُكرموا بهذه المَكْرُمة، أثنوا على اليد المُنْعمة، وأَسْلَمَ منهم شَطْرُهم، وأحضروا مائدة فِضَّةٍ عظيمةً، وعليها مكبَّة عالية، ومعها طَبَقٌ يماثلها في

---

(١) الملوطة: قباء واسع الكمين، جمعها ملاليط، وهي كلمة عامية.

الوزن، ولو وُزِنَتْ تلك الفِضّيات قاربت قنطاراً، فما أعارها السُّلْطان طَرْفَه احتقاراً.

قال: واستُشْهد في عكا سبعةٌ من الأُمراء؛ منهم الأمير سوار.

[استشهاد جمال الدين محمد بن أرككز]

والتقى في هذه السَّنة شواني المسلمين بشواني الفرنج في البحر، فأُحرقت للكفر شواني برجالها. وكان عند العود تأَخَّر لنا شيني، مقدَّمهُ الأمير جمال الدين محمد بن أرككز، فأحاطت به مراكب العدو، فتواقع ملَّاحُوه إلى الماء، وسَلَّموه إلى البلاء، فقاتل وصَبَرَ، فَعَرضُوا عليه الأمان، فقال: ما أضع يدي إلا في يد مقدَّمكم الكبير، فلا يخاطر الخطير إلا مع الخطير.

فجاء إليه المقدَّم الكبير، وظَنَّ أنه قد حصل له الأسير، فعاقره وعانقه، وقوَّى عليه وما فارقه، ووقعا في البحر وغَرِقا، وترافقا في الحِمام واتَّفقا، وعلى طريقي الجَنَّة والنَّار افترقا.

واستشهد أيضاً الأمير نُصَير الحُمَيْدي.

[مقتل القاضي المرتضى بن قريش]

قال: وفي تاسع جُمادى الأُولى قُتِلَ القاضي المرتضى بن قُريش الكاتبُ في خيمته؛ قَتَلَه شريكٌ له في دارٍ بنابُلُس أراده على بيعها، وخرج من خيمته فوجد قاضي نابُلُس فقتله، وضَرَبَه وما أمهلَه، ومَرَّ لينجو، فأُدْرِكَ وضُرِبَ بعمودِ خيمةٍ فأهلك، واستكتب السُّلْطان أخا المُسْتَشْهد مكانَه، فلم يبلغ في الإحسان مَيْدَانه.

[ورود كتاب من سيف الإسلام أخي السلطان يذكر فيه استيلاءه على صنعاء]

قال: وفي هذه السَّنة ورد كتابُ سَيْف الإسلام أخي السُّلْطان من اليمن يذكر استيلاءه على صَنْعاء، واستنابة ولده شمس الملوك فيها.

[وصول القاضي الفاضل من مصر إلى معسكر السلطان]

قال: ووصل القاضي الفاضل من مِصْر إلى المعسكر المنصور في ذي الحِجَّة، وكان السُّلْطانُ متشوِّقاً إلى قدومه، وطالت مُدَّة البين لغيبته عنه سنتين، على أن أمور الممالك بمصر كانت بحضوره مستتبَّة، وقد جمع للملك العزيز بمقامه هيبةً ومحبَّة.

وكان السلطانُ شديدَ الوثوق بمكانه، دائم الاعتماد والاستناد على إحسانه وإلى أركانه، فإن استقدمه خاف على ما وراءه من المهام، وإن تركه نال وحشة التفرُّد بالقضايا والأحكام.

وكان يكاتبه بشرح الأحوال ويستشيره، والنجَّابون متردِّدون بالمكاتبات والمخاطبات، والاستشارة في المهمَّات، فوصل إلى القُدْس، واعتاق بتوالي الأمطار، ثم وصل في ذي الحِجَّة، ورجع الفَضْل، واجتمع الشَّمْل، واستأنس الملكُ بصاحب تدبيره، وتأسَّسَ رُكْنُهُ برأي مُشيره.

[وفاة محيي الدين بن الشهرزوري]

قلت: وفي جمادى الأُولى من هذه السنة توفي بالمَوْصِل قاضي القُضاة محيي الدِّين أبو حامد محمد ابن قاضي القضاة كمال الدين بن الشَّهْرُزُوري(١)، وقد أثنى العمادُ الكاتب عليه في «الخريدة» ثناءً كثيراً، وأنشد له أشعاراً حَسَنة، منها في التوحيد(٢): [الكامل]

قامَتْ بإثباتِ الصِّفاتِ أَدِلَّةٌ ... قَصَمَتْ ظهورَ أئمَّة التَّعْطيلِ(٣)
وطلائعُ التَّنْزيه لما أَقْبَلَتْ ... هَزَمَتْ ذوي التَّشْبيه والتَّمْثيل
فالحقُّ ما صِرْنا إليه جميعُنا ... بأَدِلَّةِ الأخبار والتَّنْزيلِ
من لم يكن بالشَّرْعِ مقتدياً فقد ... ألقاه فَرْطُ الجَهْلِ في التَّضْليل(٤)

وله في مَدْحِ الصَّحابة رضي الله عنهم(٥): [مجزوء الخفيف]

لائمي في هوى الصَّحا ... بةِ إرجِعْ إلى سَقَرْ
لا بلغتَ المُنَى ولا ... نِلْتَ من رِفْضك الوَطَرْ
كيف تَنْهى عن حُبِّ قَوْ ... مٍ هُمُ السَّمْعُ والبَصَرْ

(١) في البداية والنهاية: محمد بن محمد بن عبد الله، أبو حامد قاضي القضاة بالموصل، كمال الدين الشهرزوري الشافعي. وفي الكامل في التاريخ: أبو حامد محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري. والصحيح هو قاضي القضاة محيي الدين أبو حامد محمد بن كمال الدين أبي الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري، ولد سنة ٥١٩هـ، وذكر ابن خلكان روايتين في ولادته: ٥١٠هـ، و٥١٩هـ (انظر ترجمته في: البداية والنهاية ١٢/ ٣٠١، الكامل في التاريخ ١٠/ ٢٠١، «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٢/ ٣٢٩ ـ ٣٣٩، التكملة للمنذري ١/ ١٣٦ ـ ١٣٧، وفيات الأعيان ٤/ ٣٤٦ ـ ٣٤٨، سير أعلام النبلاء ٢١/ ٦٠ ـ ٦١، العبر للذهبي ٤/ ٢٥٩، الوافي بالوفيات ١/ ٢١٠، وفيه أن وفاته سنة ٥٨٤هـ، طبقات الشافعية للسبكي ٦/ ١٨٥ ـ ١٨٦، النجوم الزاهرة ٦/ ١٠٨ ـ ١١٢، شذرات الذهب ٤/ ٢٨٧).

(٢) الأبيات في البداية والنهاية ١٢/ ٣٠١.

(٣) قصمت: قطعت.

(٤) فرط الجهل: كثرته.

(٥) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٢/ ٣٣٤ ـ ٣٣٥.

وهُـــمُ ســـادة الـــوَرَى وهُـــمُ صــفــوةُ الـــبَـــشَـــرْ
فـــأبـــو بـــكـــرِ الـــمُـــقَـــدَّ (م) مُ مـــن بـــعـــده عُـــمَـــرْ
ثـــم عـــثـــمـــانُ بـــعـــده وعـــلـــيٌّ عـــلـــى الأَثَـــرْ
أيـــهـــا الـــرَّافـــضـــيُّ حَـــسْـــبـــك فـــالـــحـــقُّ قـــد ظَـــهَـــرْ

[رحيل تقي الدين عمر إلى شرقي الفرات]

ثـم دَخَـلَـتْ سَـنـةُ سَـبْـعٍ وثـمـانـيـن[١]

ففيها وصل إلى الفرنج ملك إفرنسيس وملك إنكلتير وغيرهما، وأُخذت عكا يَسَّرَ الله فتحها.

قال العماد: والغيم في هطلانه، والبحر في هيجانه، والسُّلْطان مقيم بمخيَّمه على شَفْرَعَمّ، ولطفُ الله به قد خَصَّ وَعَمَّ، والعادل مخيِّم قاطع نهر حيفا على الرَّمْل، وسُفُنُ البَدَل إلى عكا مُتَّصلة السُّبل، والفرنجُ مستمرُّون على الحصار، متحرِّزون من الإصحار، ونُوَب اليَزَك راتبة، ووظائف الجهاد مواظبة.

ووصل من الدِّيوان العزيز مثال، ومعه مكاتبة للملك الأفضل، وفيها إكرامٌ وإجلال، وفَضْلٌ وإِفْضال.

وفي ثالث صَفَر رَحَلَ تقيُّ الدِّين لتسلُّم البلاد التي أُضيفت إليه شرقي الفُرَات، وكان له بالشَّام: المَعَرَّة وحماة وسَلَمْية وجَبَلَة واللاذقية، وبالجزيرة ودياربكر: حَرَّان والرُّها والمُوَزَّر وسُمَيْساط وضياعها، ومَيَّافارِقين وحُصُونها وأعمالها وقلاعها.

وسار على أنه يرجع عن قريب، فأبطأ وتشوَّف إلى افتتاح ما يجاوره من البلاد، وسار إلى مَيَّافارقين، فكان السُّلْطان ينسُب ما جرى من استيلاء الكُفَّار على عكا بعد قضاء الله تعالى إلى غيبته، فإنه تأَخَّرت عساكر تلك البلاد الشَّرْقية لخوف مَضَرَّته، وجَوْر مجاورته، وسيأتي ذِكْرُ وفاته في آخر السنة.

[إغارة أسد الدين شيركوه على جشار للفرنج]

ووصل كتابُ المجاهد أسدِ الدين شِيركُوه أنه أغار على جشير[٢] للفرنج بطرابُلُس فاستاقه، ولم يطق الكُفَّار لحاقه، واقتطع لخاصَّته منه أربعمائة رأس، تلف في الطريق

---

(١) وخمسمائة.

(٢) جشير: أي جشار، وهو مكان رعي الماشية من خيل وغيرها (انظر صبح الأعشى ١١/ ١٧٠ والتعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص٨٥).

منها أربعون، وغَنِمَ أبقاراً وغَنَماً، وأنفذ للعماد منها بغلة، وذلك رابع صفر.

وفي ليلة هذا اليوم ألقت الرِّيحُ مركباً للعدو على الزِّيب، فكسرته، وكان فيه خَلْقٌ عظيمٌ منهم، فَغَرِقَ بعضُهم، وأسر بعض، وفيهم امرأتان سُبيتا.

وفي ليلة أول ربيع الأول خَرَجَ أصحابُنا من البلد، وهجموا على العدو، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأخذوا منهم من خيمهم جمعاً عظيماً، منهم اثنتا عشرة امرأة.

وفي ثالث ربيع الأول كان اليزك للحَلْقة السُّلْطانية، وخرج إليهم من العدو خَلْقٌ عظيم، وجرى بينهم وقعةٌ شنيعة، وقُتِلَ فيها للعدوِّ جماعة منهم مقدَّمٌ كبير، ولم يفقد من المسلمين إلا خادم رومي صغير ـ عَثَرَ به في الحملة فَرَسُه ـ يسمَّى قَراقُوش، وكان شجاعاً له وقعات.

وفي تاسع ربيع الأول بلغ السُّلْطان أَنَّ العدو يخرج منه طائفة للاحتشاش، فأمر العادِلَ أن يكمن بالعسكر خلف التَّلِّ الذي كانت فيه الوقعة المعروفة به، وسار هو فكمن وراء تل العياضِيَّة، ومعه من أولاده الصِّغار والقاضي الفاضل، ونَذِرَ الفرنجُ فلم يخرج منهم أحد.

ووصل في أثناء ذلك اليوم خمسةٌ وأربعون أسيراً من الفرنج أُخذوا في بيروت، فيهم شيخٌ كبير هَرِم، لم يبق في فمه ضِرْس، ولم يبق فيه قوة إلا مقدار ما يتحرَّك، فسأله عن مجيئه، فقال: للحج إلى قُمامة، وبيني وبين بلادي مسيرة أشهر. فَرَقَّ له، وأطلقه، وأعاده إلى العدو راكباً على فَرَس. وطلب أولادُه الصِّغار أن يأذن لهم في قَتْلِ أسيرٍ، فلم يأذن. وسئل عن ذلك، فقال: لئلا يعتادوا من الصِّغَر سَفْكَ الدَّم، ويهون عليهم، وهم الآن لا يفرقون بين المسلم والكافر.

ثم لما أقبل الرَّبيع توافت العساكر وفاءً بموعدها، فوصَلَتْ في شهر ربيع الأول، فأَوَّل من قَدِمَ الأمير عَلَم الدين سُلَيمان بن جَنْدَر صاحب قلعتي عَزَاز وبَغْراس، وهو شيخ له رأي وتجربةٌ، ومنزلة كبيرة ومرتبة، والملك الأمجد صاحب بَعْلبك، وبدر الدين مودود والي دمشق في رجالهم وأبطالهم، وفي كلِّ يوم يقدم أميرٌ بعد أمير، والله يتولى التَّدْبير.

وكان قد شاع الخبر بأَنَّ ملوك الفرنج واصلون، وهم حاشدون حافلون، فوصل ملك إفرنسيس فيليب في عِدَّة من عَبَدَةِ الصَّليب ثاني عشر ربيع الأول في ستِّ بُطَس عظام، مملوءة بفوارس ذوي إقدام، فقلنا: ما أَحْمَلَ الماءَ لأهلِ النَّار، وما أجلبه للدَّوائر إلى الدِّيار! وكان عظيماً عندهم، من كبار ملوكهم، ينقادون له، بحيث إذا حَضَر حكم على الجميع، وما زالوا يتواعدونا به حتى قَدِمَ، وصحبه من

بلاده بازٌ عظيم عنده، هائل الخَلْق، أبيض اللون، نادر الجِنْس، وكان يعزُّه، ويحبُّه حُبّاً عظيماً، فطار من يده حتى سقط على سور عكا، فاصطاده أصحابُنا، وأنفذوه إلى السُّلْطان، وبذل الفرنج فيه ألف دينار، فلم يجابوا.

قال القاضي ابنُ شَدَّاد: ولقد رأيته وهو يضرب إلى البياض مشرق اللَّوْن، ما رأيت بازياً أحسنَ منه.

قال العماد: وكان مع هذا الملك بازيٌّ أشهب، كأنَّه عند إرساله نار تتلهَّب، ففارقه يوم وصوله بحيث عَجَزَ عن حصوله، وكان في ظَنِّ الفرنج أَنَّه يقدم في جمع جم، فلما رأوا جمعه قليلاً سُقِطَ في أيديهم، فوعدهم بالمدَد خَلْفه.

قال القاضي: وقَدِمَ بعده كند فرير، وكان مقدَّماً عظيماً عندهم مذكوراً، كان حاصَرَ حماة وحارم عامَ الرَّمْلة.

وفي ثاني عشر ربيع الآخر وصل كتابٌ من اللاذقيَّة أنَّ جماعةً من المستأمنين نزلوا ناحيةً من جزيرة قُبْرُص في عيدٍ لهم، وقد اجتمع جَمْعٌ كثير في بيعةٍ قريبة من البحر، وأَنَّهم صَلُّوا معهم صلاةَ العيد، فلما فَرَغوا من الصَّلاة ضربوا على كلِّ من كان في البِيعَةِ من الرِّجال والنِّساء عن آخرهم حتى القسِّيس، وحملوهم إلى مراكبهم، وساروا بهم إلى اللاذقية، وكان فيهم سبع وعشرون امرأة، وكانوا أغلقوا باب الكنيسة عليهم ليأمنوا إفلاتهم، وأسروهم بأَسْرِهم، وكنسوا جميع ما في الكنيسة من الأمتعة والأعلاق النفيسة واقتسموها، فوصل إلى كلِّ واحدٍ على ما قيل أربعة آلاف دِرْهم من الفِضَّة النُّقْرَة[1]، كذا في كتاب القاضي.

وقال العماد في «الفتح»: وقيل حصل لكلِّ واحدٍ منهم على كثرتهم أربعمائة دِرْهم، وهَجَمَ جماعةٌ من العسكرية على غَنَم للعدو، فأخذوها، وكان عَدَدُها مائةً وعشرين رأساً، وركبوا في طلبها بأَسْرهم؛ بخَيلهم ورَجْلهم في إثْرهم، فلم يظفروا بطائل، ولم يرجعوا بحاصل.

[وصول ملك الإنكلتير ريتشارد إلى قبرص وأخذها عنوة من صاحبها]

قال العمادُ: كان عِزُّ الدين سامة متولِّي بيروت، ولم يكن لمراكب العدو بُدٌّ من

(١) الفضة النقرة: أي الفضة المسبوكة، والنقرة: السبيكة. وفي صبح الأعشى للقلقشندي: الفضة النقرة وعيارها أنه يؤخذ ثلثمائة درهم فضة فتضاف إلى سبعمائة درهم من النحاس، ويسبك ذلك حتى يصير ماءً واحداً فيقلب قضباناً ويقطع من أطرافها خمسة عشر درهماً. ثم تسبك. . . وقال المقر الشهابي بن فضل الله: عيارها الثلثان من فضة والثلث من نحاس.

الجَوَاز بها أو بقُرْبها، وإذا عَبَرَتْ أُخذت وإن كانت مستعِدّةً لحربها، فغَنِمَ هو ورجالُه مغانم، خَلَّدت له ادِّخار الغِنى، وكَثُرَتْ في البحر غَزَواته، ووصل ملك الإنكلتير إلى قُبْرُص في السَّادس والعشرين من ربيع الآخر، واشتغل بها عن الوصول إلى عكا حتى أخذها عَنْوَةً من صاحبها، وكانت مقدِّمات سُفُنِه قد وصلت، فاستولى سامة على خَمْس منها مملوءة رجالاً ونساء، وأموالاً وخيلاً، وكان في الزِّيب ـ وهو شمالي عكا ـ طائفةٌ من المسلمين يجهِّزون السُّفُن الدَّاخلة إلى عكا، ويقطعون الطريق على الفرنج.

قال القاضي: وكان للمسلمين لصوصٌ يدخلون إلى خيام العدو، فيسرقون منهم حتَّى الرِّجال ويخرجون، فأخذوا ذات ليلة طفلاً رضيعاً له ثلاثة أشهر، فلما فَقَدَتْهُ أُمُّه باتت مستغيثة بالويل والثُّبُور في طول تلك الليلة، حتى وصل خبرها إلى ملوكهم، فقالوا لها: إنه رحيمُ القَلْب، وقد أَذِنَّا لك في الخروج إليه، فاخرجي واطلبيه منه، فإنه يَرُدُّه عليك.

فخرجت تستغيث لليزَك الإسلامي، وأخبرتهم بواقعَتها، فأطلقوها وأنفذوها إلى السُّلْطان، فأتَتْهُ وهو راكبٌ على تَلِّ الخَرُّوبة، وأنا في خدمته، وفي خدمته خَلْقٌ عظيم، فبكت بكاءً شديداً، ومَرَّغَتْ وجهها في التُّراب، فسأل عن قِصَّتها، فأخبروه، فَرَقَّ لها، ودَمِعَتْ عينُهُ، وأمر بإحضار الرَّضيع، فمضوا، فوجدوه قد بيع في السُّوق، فأمر بدفع ثمنه إلى المُشْتري، وأخذه منه، ولم يَزَل واقفاً ـ رحمه الله ـ حتى أُحضر الطِّفْل، وسُلِّم إليها، فأخذته وبكت بكاءً شديداً، وضمَّتْه إلى صدرها، والنَّاس ينظرون إليها ويبكون، وأنا واقفٌ في جُمْلتهم، فأرضعته ساعةً، ثم أمر بها، فَحُمِلَتْ على فرسٍ، وأُلحقت بمعسكرهم مع طفلها.

قال: فانظر إلى هذه الرَّحمة الشَّاملة لجنس الإنس، اللهم إنَّك خَلَقْتَه رحيماً، فارحمه رحمةً واسعةً، آمين.

قال: وفي ذلك اليوم وصل ظهير الدين بن البلَنكري، وكان مُقَدَّماً من أُمراء المَوْصِل، وصل مفارقاً لهم، طالباً خدمة السُّلْطان.

فصل

في مضايقة العدو ـ خَذَله الله ـ لعكا ـ يَسَّر الله فتحها ـ واستيلائهم عليها(١)

قال العماد: لما كان يوم الخميس رابع جُمادى الأُولى زحفَ الفرنج إلى

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٢٠٤ ـ ٢٠٧: ذكر وصول الفرنج من الغرب في البحر إلى =

عكا، ونصبوا عليها سبعة مجانيق، ووصَلَتْ كُتُبٌ من عكا إلى السُّلْطان بالاستنفار العظيم، والتماس شغل العدو عنهم، فركب السُّلْطان بعسكره، وكان هذا دأبه معهم كلَّما نابوا البلد نابهم، فإذا زحف إليهم رجعوا عن الحَصْر، وإذا رجع عنهم عاودوه، وكان علامة ما بين السُّلْطان وأهل البلد أنه متى زحف الفرنج عليهم دقُّوا كُوسَهم[1]، فيدقُّ كوس السلطان إجابةً لهم، واستبعد السُّلْطان منزلته، فتحوَّل إلى تل العياضية تاسع جُمادى الأولى.

[وصول ملك الإنكلتير من قبرص إلى عكا]

ووصل ملك الإنكلتير ثالث عشر جمادى الأولى من قُبرص، ومعه خمس وعشرون قطعةً، وهو في جمع شاكٍ وجمرٍ ذاكٍ، فَبُلِيَ الثَّغْرُ منه بغير البلاء الأوَّل، هذا ومجانيق الكفر على الغَيِّ مقيمة ولِلرَّمي مُديمة، وتمكَّن الفرنج بها من الخندق، فَدَنَوْا منه دُنُوَّ المُحْنَق، وشَرَعوا في هجمه، وأسرعوا إلى طَمِّه، وداموا يرمون فيه جُثَث الأموات، وجيف الخنازير، والدَّواب النافقات، حتى صاروا يلقون فيه قتلاهم، ويحملون إليه موتاهم، وأصحابنا في مقاتلتهم ومقابلتهم، قد انقسموا فريقين، وافترقوا قسمين، ففريقٌ يُلْقي من الخندق ما أُلقي فيه، وفريق يقارع العدوَّ ويلاقيه.

قال القاضي: وقد بلغ من مضايقتهم البلد، ومبالغتهم في طَمِّ خَنْدقه أنهم كانوا يلقُون فيه موتى دوابِّهم، وكانوا إذا جُرِحَ منهم واحدٌ جراحةً مثخنة موئسة ألقوه فيه. وانقسم أهلُ البلد أقساماً، قسم ينزلون إلى الخندق، ويقطعون الموتى والدَّواب التي يلقونها فيه قِطَعاً ليسهلَ نَقْلُها، وقسمٌ ينقلون ما يقطعه ذلك القسم ويلقونه في البحر، وقسم يذبُّون عنهم ويدافعون حتى يتمكَّنوا من ذلك، وقسمٌ في المنجنيقات وحراسة الأسوار، وأخذ منهم التَّعب والنَّصَب، وتواترت شكايتهم من ذلك.

قال: وهذا ابتلاء لم يبتلَ بمثله أحد، ولا يصبر عليه جَلِد.

هذا، والسُّلْطان ـ رحمه الله ـ لا يقطع الزَّحْف عنهم، والمضايقة على خنادقهم بنفسه وخواصِّه وأولاده، ليلاً ونهاراً حتى يشغلَهم عن البلد، وصوَّبوا منجنيقاتهم إلى بُرْج عين البقر، وتواترت عليه أحجار المنجنيقات ليلاً ونهاراً حتى أثَّرت فيه الأَثَرَ البيِّن.

= عكا. وذكر ملك الفرنج عكا. وانظر أيضاً البداية والنهاية ١٢/ ٣٠١ ـ ٣٠٤: في كيفية أخذ العدو عكا من يدي السلطان.

(١) الكوسات: هي صنوج من نحاس شبه الترس الصغير يدق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص ويتولى ذلك الكوسي (التعريف بمصطلحات الصبح ص٢٩٠).

وكلما ازدادوا في قتال البلد ازداد السُّلْطان في قتالهم، وكَبَسَ خنادقهم، والهجوم عليهم، ودام ذلك حتى وصل ملك الإنكلتير.

قال: وفي سادس عشر جُمادى وصلت بطسة من بيروت عظيمة هائلة مشحونة بالآلات والأسلحة والمِيرَ والرِّجال الأبطال المقاتلة. وكان السُّلْطان قد أمر بتعبئتها في بيروت وتسييرها، ووضع فيها من المُقاتلة خَلْقاً عظيماً حتى تدخل مُرَاغمةً للعدوّ.

وكان عِدَّة رجالها المقاتلة ستّ مائة وخمسين رجلاً، فاعترضها الإنكلتير الملعون في عِدَّة شواني، قيل: إنه كان في أربعين قطعة، فاحتاطوا بها من جميع جوانبها، واشتدُّوا في قتالها، وجرى القضاء بأن وقف الهواء، فقاتلوها قتالاً شديداً، وقُتِلَ من العدو عليها خَلْقٌ عظيم، وأحرقوا على العدو شانياً كبيراً فيه خَلْقٌ، فهلكوا عن آخرهم، وتكاثروا على أهل البطسة، وكان مقدَّمهم رجلاً جيداً، شجاعاً مجرِّباً في الحرب اسمه يعقوب من أهل حلب، فلما رأى أمارات الغَلَبة عليهم، قال: والله لا نُقتل إلا عن عز، ولا نسلِّم إليهم مِنْ هذه البطسة شيئاً، فوقعوا في البطسة من جوانبها بالمعاول يهدمونها حتى فتحوها من كل جانبٍ أبواباً، فامتلأت ماء، وغَرِقَ جميعُ مَنْ فيها وما فيها من الآلات والمِيَر، ولم يظفر العدوُّ منها بشيء أصلاً، وتلقَّف العدو بعض من كان فيها، وأخذوه إلى الشَّواني من البحر، وخَلَّصوه من الغرق ومثَّلوا به، وأنفذوه إلى البلد ليخبرهم بالواقعة.

وحَزِنَ النَّاس لذلك حزناً شديداً، والسُّلْطان يتلقى ذلك بيد الاحتساب في سبيل الله تعالى، والصَّبر على بلائه.

[صنع الفرنج دبابة عظيمة وإحراق عسكر عكا لها]

قال: وكان العدو المخذول قد صنع دَبَّابة عظيمة هائلة أربع طبقات: الأُولى من الخشب، والثَّانية من الرَّصاص، والثَّالثة من الحديد، والرَّابعة من النُّحاس، وكانت تعلو على السُّور وتركب فيها المقاتلة، وخاف أهل البلد منها خوفاً عظيماً، وحدَّثتهم نفوسُهم بطلب الأمان من العدو، وكانوا قد قَرَّبوها من السُّور بحيث لم يبق بينها وبين السور إلا مقدار خمس أذرع على ما نشاهد، وأخذ أهلُ البلد في تواتر ضَرْبها بالنِّفْط ليلاً ونهاراً حتى قَدَّر الله تعالى حريقها واشتعال النَّار فيها، وظهر لها ذُؤابة نار نحو السَّماء.

واشتدَّت الأصواتُ بالتكبير والتَّهليل، ورأى النَّاس ذلك جبراً لذلك الوَهْن، ومحواً لذلك الأثر، ونِعْمَةً بعد نِقْمة، وإيناساً بعد بأس، وكان ذلك في يوم غَرَقِ البُطْسة.

قال العماد: فكان ذلك تسميتاً لتلك العَطْسة[١].

ثم جرى بعد ذلك عِدَّة وقعات في هذا الشَّهر، وهو جُمادى الأُولى، وهَجَمَ المسلمون خيام العدو ونهبوها، ووصل رجلٌ كبيرٌ من أهل مازَنْدَان يريد الغَزَاة، فوصل والحرب قائمة، فحمل حملةً استشهد فيها في تلك السَّاعة.

ولم تَزَل الأخبارُ تتواصل من أهل البلد باستفحال أمر العدوِّ، والشكوى من مُلازمتهم قتالهم ليلاً ونهاراً، وذكر ما ينالهم من التعب العظيم من تواتر الأعمال المختلفة عليهم من حين قدوم الإنكلتير الملعون، ثم مَرِضَ مرضاً شديداً أشفى فيه على الهلاك، وجُرِحَ الإفرنسيس، ولا يزيدهم ذلك إلا إصراراً وعُتُوّاً.

وهرب إلى السُّلْطان خادمان، ذكرا أنهما لأُخت ملك الإنكلتير، وأنهما كانا يكتُمان إيمانهما، فقبلهما السُّلطان وأكرمهما.

وهرب أيضاً المركيس منهم إلى صور، وكان قد استشعر منهم أن يُخْرِجوا مُلْكها عن يده.

قال العماد في «البرق»: ولما أعوزت الفرنجِ الحِيَل، وأعجزتهم تفاصيل تدابيرهم والجُمَل، وذلك أنَّ أبرجتهم الخشبية أُحرقت، وستائرهم ودبَّاباتهم وكباشهم وُزِّعت، ومُزِّعت ومُزِّقت، أقاموا قُدَّام خيامهم صوب عكا تلاً من التُّراب مستطيلاً، ورفعوه كثيباً مهيلاً، ثم نقلوه وحَوَّلوه، وكانوا يقفون وراءَه، ويحوِّلون إلى قُدَّامه ترابَهُ، ويرفعون إلى قُرْب البلد رقابه، فهم من خلفه من النكايات محجوبون؛ يَشُبُّون ويذبُّون، ويدبِّرون الحرب الزَّبون، والتل المتحوِّل إلى البلد، قد أعيا على أهل الجَلَد، لا تعمل فيه النَّار، ولا يصل إلى دَفْعه الاقتدار، حتى صار من المدينة على نصف غَلْوةِ سَهْم، ورُمِيَ بكل جَمْر ورجم، فما يزيد في كلِّ يوم إلا قُرْباً، وما يجرُّ في كلِّ وقتٍ إلا خَطْباً وحَرْباً، وكان الأصحاب يخرجون من البلد إليه، ويقاتلون عليه، ويطيفون بحول الله حواليه.

[كتاب من السلطان
إلى الخليفة يخبره بحال عكا وحصارها]

ومن كتابٍ فاضليٍّ إلى الدِّيوان: ما قَطَعَ الخادمُ الخِدَم إلا أنَّه قد أضجر وأسأم من المطالَعة بخبر هذا العدو الذي قد استفحل أمرُه، واسْتَشْرَى شَرُّه، فإنَّ النَّاس ما سمعوا ولا رأوا عدوّاً حاصِراً محصوراً، غامراً مغموراً، قد تَحَصَّن

(١) فكان ذلك تسميتاً لتلك العطسة: يقال: سمت وشمت، والتسميت: الدعاء للعاطس، وهو قولك: رحمك الله! وقيل: معناه هداك الله إلى السمت، وذلك لما في العاطس من الانزعاج والقلق.

بخنادق تمنع الجائز من الجواز، وتعوق الفُرَص عن الانتهاز، ولا تقصر عِدَّتهم عن خمسة آلاف فارس، ومائة ألف راجل، وقد أفناهم القتل والأَسْر، وأكلتهم الحَرْب، ولفَظَهم النَّصْر، وقد أمدَّهم البحر بالبحار، وأعانَ أهلُ النَّارِ أهلَ النار، واجتمع في هذه الجموع من الجيوش الغربيَّة، والألسنة الأعجمية من لا يُحْصَرُ معدودُه، ولا يُصَوَّر في الدُّنيا وجودُه، فما أحقَّهم بقول أبي الطَّيِّب[1]: [الطويل]

تَجَمَّعَ فيه كلُّ لِسْنٍ وأُمَّةٍ   فما تُفْهِمُ الحُدَّاثَ إلا التَّراجِمُ

حتى أنه إذا أُسر الأسير، واستأمن المستأمن، احتيج في فهم لغته إلى عِدَّة تراجم، ينقل واحدٌ عن الآخر، ويقول ثانٍ ما يقول أول، وثالث ما يقول ثانٍ، والأصحاب كلُّوا ومَلُّوا، وصَبَروا إلى أن ضَجِروا، وتجلَّدوا إلى أن تبلَّدوا، والعساكر التي تصل من المكان البعيد لا تَصِلُ إلا وقد كَلَّ ظَهْرُها، وَقَلَّ وَفْرُها، وضاق بالبيكار[2] صَدْرُها، ولا تستفتح إلا بطلب الدُّستور، ويصير ضجرها مضرّاً بالسُّمْعة عند العدوِّ المخذول، ولهم ـ قاتلهم الله ـ تنوعٌ في المكايد، فإنهم قاتلوا مرَّة بالأبرجة، وأخرى بالمنجنيقات، ورادفة بالدّبابات، وتابعةً بالكِباش، وآونةً باللَّوالب، ويوماً بالنَّقْب، وليلاً بالسرابات، وطوراً بِطَمِّ الخنادق، وآناً بنَصْبِ السَّلالم، ودفعةً بالزُّحوف في اللَّيل والنّهار، وحالةً في البحر بالمراكب.

ثم شرعوا فأقاموا في وسط خيامهم حائطاً مستطيلاً يشبه السُّور من التُّراب، وتلالاً تُشْبه الأَبْرجة مدوَّرة، ورفعوها بالأخشاب، وعالوها بالحجارة، فلما كملت أخذوا التراب من ورائها ورموه قُدَّامها، وهم يتقدمون أول أول، وترتفع حالاً بعد حال حتى صارت منه كنصف غَلْوةِ سَهْم، وقد كان الحجرُ والنَّار تُؤَثِّران في أَبْرِجة الخشب، وهذه أبراج وستائر للرِّجال والمنجنيقات من العَطَب، لا تؤثر فيها الحجارة الرَّامية، ولا تعمل فيها النَّار الحامية.

قال: ووصل في آخر جُمادى الأُولى من العساكر الإسلامية مجاهد الدين يرنقش، ومعه عسكر سِنْجار.

وفي ثاني جمادى الآخرة ابن صاحب المَوْصِل، وجماعةٌ من أمراء مِصْر والقاهرة كعَلَم الدين كُرْجي، وسيف الدين سُنْقُر الدَّوَي وغيرهما من الأسدية والنَّاصرية.

---

(١) البيت في ديوان المتنبي ٢/ ١٤٠ (طبعة دار الكتب العلمية) وفي الديوان: «فما يُفهم» بدل: «فما تُفهم». والبيت من قصيدة مطلعها:

علـى قـدر أهـل العـزم تـأتـي العـزائـمُ

يمدح بها سيف الدولة، ويذكر بناءه ثغر الحدث سنة ٣٤٣هـ.

(٢) البيكار: لفظ فارسي معناه الحرب عامة (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص٧٠).

وأما عساكر دياربكر، فإنَّهم تأخَّروا واعتذروا بالخوف من جوار تقي الدين.
وكان قد تعرَّضَ للسُّويداء وغيرها، وصَعُبَ ذلك على السُّلْطان، وقال: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [القصص: ١٥]، وفي مثل هذا الوقت يتعرَّض لهذا المقت، وإني أخاف عليه في هذه السَّنة، حيث أساء عند إمكان الحَسَنة.

[مرض ملك الإنكلتير]

واشتدَّ مَرَضُ الإنكلتير بحيث شَغَلَ الفرنجَ مرضُهُ عن الزَّحْف، وكان ذلك خيرةً من الله عظيمة، فإن البلد كان قد ضَعُفَ مَنْ فيه ضَعْفاً عظيماً، وهدمت المنجنيقات من السُّور مقدار قامة الرجل، فكان في هذه الفترة للبلد بقاء رَمَق، وزوال فَرَق، وانتعاش عَثْرة، وانجبار كَسْرَة.

قال القاضي: واللصوص يدخلون عليهم إلى خيامهم ويسرقون أقمشتهم ونفوسهم، ويأخذون الرِّجال في عافية؛ بأن يجيئوا إلى الواحد وهو نائم، فيضعُوا على حَلْقه السِّكِّين، ويوقظونه ويقولون له بالإشارة: إن تكلَّمت ذبحناك. ويحملونه ويخرجون به إلى عَسْكر المُسْلمين، وجرى ذلك مراراً كثيرة.

ثم تكرَّرَتِ الرَّسائل من الفرنج إلى السُّلْطان شغلاً للوقت بما لا طائل تحته، منها أن ملك الإنكلتير طلب الاجتماع به، ثم فَتَرَ بعده أياماً، ثم جاء رسولُه يطلب الاستئذان في إهداء جوارح جاءت من البحر، ويذكر أنها قد ضَعُفَتْ وتغيَّرت، وطلب أن يُحْمَلَ لها دجاج وطير تأكله لتقوى، ثم تُهْدَى.

ففهم أنَّه محتاج إلى ذلك لنفسه، لأنه حديث عهدٍ بمرض، ثم نفَّذ أسيراً مغربياً عنده، فأطلقه السُّلْطان، ثم أرسل في طلب فاكهة وثَلْج، فأرسل إليه ذلك.

وكان غرضهم من ذلك تفتير العَزَمات، وتضييع الأوقات على المسلمين، وهم مشتغلون بالحَصْر، وموالاة الرَّمْي والجد بالزَّحْف، حتى تبدَّلَتْ قوة البلد بالضَّعْف، وتخلخل السُّورُ، وأنهك التَّعبُ والسَّهَرُ أهلَ البلد لِقلَّة عددهم، وكثرة الأعمال عليهم، حتى إن جماعةً منهم بقوا ليالي عِدَّة لا ينامون أصلاً ليلاً ولا نهاراً، والعدو عَدَد كثير، يتناوبون على قتالهم، واشتدَّ ذلك عليهم سابع جمادى الآخرة، فركب السُّلْطان بالعسكر الإسلامي، ورغَّبهم ونخَّاهم، وزَحَفَ على خنادق القوم حتى دخل فيها العسكر، وجرى قتالٌ عظيم، وهو كالوالدة الثَّكْلى يحرِّك فرسه من طُلْب إلى طُلْب، ويحثُّ النَّاس على الجهاد، وينادي بنفسه: يا للإسلام، وعيناه قد فارت بالدَّمع.

وكلما نَظَرَ إلى عكا، وما حلَّ بها من البلاء، وما يجري على مَنْ بها من

المُصَاب العظيم، اشتدَّ في الزَّحْف والحَثِّ على القتال، ولم يَطْعَم في ذلك اليوم طعاماً البتَّة، وإنما شَرِبَ شيئاً أشار به الطبيب.

ولما هَجَمَ الليل عاد إلى الخيم، وقد أخذ منه التعب والكآبة والحُزْن، ثم ركب سَحَراً، وصبَّحوا على ما أمسوا عليه.

وفي ذلك اليوم وصلت مطالعة من البلد يقولون فيها: إنا قد بلغ بنا العجز إلى غايةٍ ما بعدها إلا التسليم، ونحن في الغد إن لم تعملوا معنا شيئاً نطلب الأمان، ونُسَلِّم البلد، ونشتري مجرَّد رقابنا. وكان هذا أعظمُ خبرٍ وَرَدَ على المسلمين وأنكاه في قلوبهم، فإنَّ عكا كانت قد احتوت على جميع سلاح السَّاحل والقُدْس ودمشق وحلب ومِصْر أيضاً، فرأى السُّلْطان مهاجمة العدو، فلم يُساعده العسكر، فإنَّ الرَّجَّالة من الفرنج وقفوا كالسُّور المُحْكَم البناء بالسِّلاح والزنبورك والنُّشَّاب من وراء أسوارهم، وهجم عليهم بعضُ النَّاس من بعض أطرافهم، فثبتوا، وذَبُّوا غاية الذَّبِّ.

وحكى بعضُ مَنْ دَخَلَ عليهم أسوارهم أنه كان هناك واحد من الفرنج صَعِدَ سور خندقهم وجماعة يناولونه الحجارة وهو يرميها على المسلمين، ووقع فيه زُهاء خمسين سهماً وحجراً، وهو يتلقاها، ولم يمنعه ذلك عما هو بصدده من الذَّبِّ حتى ضَرَبه زَرَّاقٌ بنفطٍ فأحرقَه. ورؤيت امرأة عليها مَلُّوطة[١] خضراء، فما زالت ترمي بقوسٍ من خشب حتى جَرَحَتْ جماعةً، ثم قُتِلَتْ وحُملت إلى السُّلْطان، فعجب من ذلك.

ولم تزل الحربُ إلى الليل، وضَعُفَتْ نفوسُ أهل البلد، وتمكَّن العدوُّ من الخنادق، فملؤوها، ونقبوا سور البلد، وحشوه وأحرقوه، فوقعت بَدَنة من الباشورة، ودخل العدوُّ إليها، وقتل منهم فيها زُهاء مائةٍ وخمسين نفساً، وكان منهم ستة أنفس من كبارهم، فقال لهم واحدٌ منهم: لا تقتلوني حتى أُرَحِّل الفرنج عنكم بالكلِّية. فبادر رجلٌ من الأكراد وقتله، وقُتِلَ الخمسة الباقية.

وفي الغد ناداهم الفرنج: احفظوا السِّتَّة، فإنَّا نطلقكم كلكم بهم. فقالوا: إنا قد قتلناهم. فحزن الفرنج، وبطلوا عن الزَّحْف ثلاثة أيام.

وخرج سيف الدين المشطوب بنفسه بأمانٍ إلى ملك الإفرنسيس، وهو كان مقدَّم الجماعة في الرُّتْبة، وقال له: إنَّا قد أخذنا منكم بلاداً عِدَّة، وكنا نهدم البلد، وندخل فيه، ومع هذا إذا سألونا الأمان أعطيناهم، وحملناهم إلى مأمنهم

(١) الملوطة: قباء واسع الكمين.

وأكرمناهم، ونحن نُسَلِّم البلد، وتعطينا الأمان على أنفُسنا. فقال: أرى فيكم رأيي. فأغلظ له المشطوب القول، وانصرف عنه.

ولما دخل المشطوب بهذا الخبر خاف جماعةٌ ممن كان في البلد، فأخذوا لهم بركوساً ـ وهو مركب صغير ـ وركبوا فيه ليلاً خارجين إلى العسكر الإسلامي، منهم عِزُّ الدين أرسل، وحسام الدين تمرتاش ابن الجاولي، وسُنْقُر الوشاقي ـ وهو من الأسدية الأكابر ـ وذلك في ليلة الخميس تاسع جُمادى الآخرة.

فأما أرسل وسُنْقُر فتغيَّبا خوفاً من السُّلْطان، وأما ابن الجاولي فظُفِرَ به ورُمي في الزردخاناه[١]، وكان شاباً أول ما توفي والده، فأقطع السُّلْطان إقطاعاتهم وقطعها، وحَبَسَ عنهم عند الرِّضا بعد مُدَّة مديدة بشاشةَ وجهه ومنعها. وكان من جُمْلة الهاربين عبد القاهر الحلبي نقيب الجاندارية[٢] النَّاصرية، فشفع فيه على أنَّه يضمن على نفسه العودة، فعاد من ليلته. ووقع بعد ذلك في الإسار، واستفكَّه السُّلْطان بعد سنةٍ بثمانمائة مائة دينار.

ومن كتابٍ إلى صاحب إربل مُظَفَّر الدين: لما عاين أصحابُنا بالبلد ما عليه من الخَطَر، وأنهم قد أَشْفَوْا على الغَرَر، فَرَّ من جماعةِ الأُمراء مَنْ قَلَّ بالله وثوقُه، وأعمى قَلْبَه فجورُه وفسوقُه، ولقد خانوا المسلمين في ثَغْرهم، وباؤوا بوبال غَدْرهم، وما قَوَّى طَمَعَ العدوِّ في البلد إلا هَرَبُهُمْ، وما أرهَبَ قلوبَ الباقين من مقاتلته إلا رَهَبُهُمْ، والمقيمون من أصحابنا الكرام قد اسْتَحْلَوْا مُرَّ الحِمام، وأجمعوا أنَّهم لا يُسلِّمون حتى يقتلوا من الأعداء أضعاف أعدادهم، وأنهم يبذلون في صون ثَغْرهم غاية اجتهادهم.

وكانوا تحدَّثوا مع الفرنجي في التسليم، فاشتطُّوا واشترطوا، فصبروا بعد ذلك وصابروا، ومدُّوا أيديهم في القوم وبسطوا، فتارةً يخرجونهم من الباشورة، وتارةً من النُّقوب، والله تعالى يُسَهِّل تنفيس ما هم فيه من الكروب.

---

(١) الزرد خاناه: ومعناها بيت الزرد، لما فيها من الدروع الزرد، وتسمّى أيضاً السلاح خاناه: ومعناها بيت السلاح. وتشتمل على أنواع السلاح: السيوف، والقسي العربية، والنشاب، والرماح، والدروع (صبح الأعشى ٤/ ١١).

(٢) الجاندارية: فئة من مماليك السلطان أو الأمير، ومثلها الخاصكية، والكلمة مركبة من لفظين فارسيين، أحدهما: جان، ومعناها السلاح. والثاني: دار، ومعناه ممسك، ووظيفة الجاندار أن يستأذن السلطان بدخول الأمراء للخدمة. وفي النجوم الزاهرة ٥/ ٢٣٠، حاشية (١) أن الكلمة فارسية مركبة من «جان» ومعناها الروح، و«دار» بمعنى حافظ. والجاندار: حافظ الروح، وهم الحرس أو العسس.

قال القاضي: وفي سُحْرَةِ تلك اللَّيلة رَكِبَ السُّلْطان مشعراً أنه يريد كَبْسَ القوم، ومعه المساحي وآلات طَمِّ الخنادق، فما ساعده العسكر على ذلك، وتخاذلوا وقالوا: نخاطر بالإسلام كلِّه!

وفي ذلك اليوم خرج من عند الإنكلتير رُسُلٌ ثلاثة طلبوا فاكهةً وثلْجاً، وذكروا أنَّ مقدَّم الإسبتاريَّة يخرج في الغد ـ يعني يوم الجمعة ـ يتحدَّث ويتحدَّثون معه في معنى الصُّلْح، فأكرمهم السُّلْطان، ودخلوا سوق العَسْكر، وتفرَّجوا فيه، وعادوا تلك الليلة إلى عَسْكرهم.

وفي ذلك اليوم تقدَّم إلى قايماز النَّجْمي حتى يدخُلَ هو وأصحابه إلى أسوارهم عليهم، وترجَّلَ جماعةٌ من أمراء الأكراد كالجناح وأصحابه، وهو أخو المشطوب ولفيفهم، وزحفوا حتى بلغوا أسوار الفرنج. ونَصَبَ قايماز عَلَمه بنفسه على سورهم، وقاتل عن العَلَم قطعةً من النَّهار.

وفي ذلك اليوم وصل عِزُّ الدين جُرْديك النُّوري، وسوق الزَّحف قائمة، فترجَّلَ هو وجماعتُهُ، وقاتل قتالاً شديداً، واجتهد النَّاس في ذلك اليوم اجتهاداً عظيماً.

قال العمادُ: وباتَ العسكرُ تلك الليلة على الخيل تحت الحديد، منتظراً لنُجح الأمل البعيد، ولما عرف السُّلْطان أنَّه لا سلامة، وأن عكا عَدِمَتِ الاستقامة، نَفَّذ إلى جماعةِ عكا سرّاً، وقال لهم: خُذُوا من العدو حِذْراً، واتَّفِقوا واخرجوا ليلاً من البلد يداً واحدة، وسيروا على جانب البحر، وصادِمُوا العدوَّ بالقَهْر، وخَلُّوا البلد بما فيه، واتركوه بما يحويه.

فشرعوا في ذلك، واشتغل كلٌّ منهم باستصحاب ما يملكه، ولم يعلم أنَّ التهاءه به يُهلكه، فما تمكَّنوا من المراد حتى أسفر الصَّباح، ولم يصحَّ ذلك في الليلة الثانية لمصير السِّرِّ إلى العلانية.

قال: ولو صَحَّ ذلك لنجح المقصد، لكن الفرنج اطَّلعوا على هذا السِّرِّ، فحرسوا الجوانب والأبواب، وكان سببُ علمهم اثنين من غِلْمان الهاربين خرجا إلى الملاعين، وأخبراهم بجليَّة الحال، وعزيمة الرِّجال.

قال: وخرج يوم الجمعة العاشر من الشهر جماعةٌ من رُسُلِ الفرنج، ونحن على الحرب، ومحاولة الطَّعْنِ والضَّرْبِ، وفيهم صاحب صيدا، فطلب نجيب الدين العَدْل، وكان السُّلْطان يعذق[1] به في رسالاتِ الفرنج العقد والحَلّ، وعوَّل السُّلْطان

(١) يعذق به: أي يخصه بذلك.

في سماع الرسائل على ولده الأفضل وأخيه العادل، وتردَّد العدل مراراً في الخطاب والجواب، فلم ينفصل الأمرُ على الصَّواب، وبذلنا لهم عكا على ما فيها دون مَنْ فيها، وأنَّا نطلق لهم أسرى بعَدَد العِدَّة التي تحويها، فأبوا غير الاشتطاط، فزدناهم صليب الصَّلبوت، فلم يحصُل لهم به كمال الاغتباط، هكذا قال في «البرق».

وقال في «الفتح»: إنَّ ذلك كان يوم السبت وقال: اشترطوا إعادة جميع البلاد، وإطلاق أساراهم من الأقياد. وضَعُفَ البلد وعَجَزَ مَنْ فيه، ضَعْفاً لا يمكن تلافيه، ووقف كرام أصحابنا، وَسَدُّوا الثُّغَر بصدورهم، وشرعوا في بناء سورٍ يقتطع جانباً، حتى ينتقلوا إليه إذا شاهدوا العدوَّ غالباً.

وكذا قال ابنُ شَدَّاد: إن ذلك كان يوم السبت الحادي عشر.

وقال: لبست الفرنج بأسرها لباس الحَرْب، وتحرَّكوا حركةً عظيمة، بحيث اعْتُقِدَ أنه رُبَّما كان مصافّ، واصطفُّوا، وخَرَجَ من الباب الذي تحت القُبة زُهاء أربعين نَفْساً، واستدعوا جماعةً من المماليك، وطلبوا منهم العَدْل الزَّبداني، وذكروا أنه ـ يعني الخارج ـ صاحب صيدا طليق السُّلْطان، فذكر نحو ما تقدَّم.

قال: وتَصَرَّم نهارُ السبت، ولم ينفصل حال.

قال: ولما كان يوم الأحد ثاني عشر الشهر وصل من البلد كتبٌ يقولون فيها: إنَّا قد تبايعنا على الموت، فإياكم أن تَخْضَعُوا لهذا العدو، وتلينوا له، فأما نحن فقد فات أمرُنا. وذكر العَوَّام الواصل بهذه الكتب أنَّه وَقَعَ بالليل صوتٌ انزعج منه الطَّائفتان، وظَنَّ الفرنج أن عسكراً عظيماً قد عبر إلى عكا، وسَلِمَ، وصار فيها، واندفع كيد العدو في تلك الأيام بعد أن كان قد أشفى البلد على الأَخْذ.

ووصل من عساكر الإسلام صاحب شَيْزَر سابق الدين، وبدر الدين دُلْدُرُم، ومعه تُرْكمان كثير، كان السُّلْطان أنفذ إليه ذهباً أنفقه فيهم، وصاحب حمص. واشتدَّ ضعف البلد، وكثُرَت ثُغَر سوره، فبنوا عِوَض الثُّلْمة سوراً مِنْ داخلها، حتى إذا تَمَّ انهدامها، قاتلوا عليه، وَثَبَتَ الفرنج ـ لعنهم الله ـ على أنهم لا يصالحون، ولا يعطون الذين في البلد أماناً حتى يطلق جميع الأسرى الذين في أيدي المسلمين، وتعاد البلاد السَّاحلية إليهم.

وفي يوم الجمعة سابع عشر الشهر خَرَجَ العَوَّام، وفي كتبه أَنَّ أهل البلد ضاق بهم الأمر، وتيقنوا أنه متى أُخذ البلد عَنْوَةً ضُرِبَتْ رقابُهم عن آخرهم، وأخذ جميع ما فيه من العُدَد والأسلحة والمراكب وغير ذلك، فصالحوهم على أنهم يُسَلِّمون إليهم البلد، وجميعَ ما فيه من الآلات والعُدَد والمراكب، ومائتي ألف

دينار، وألفاً وخمسمائة أسير مجاهيل الأحوال، ومائة أسير مُعَيَّنين من جانبهم يختارونهم، وصليب الصَّلبوت، على أنهم يخرجون بأنفسهم سالمين، وما معهم من الأموال والأقمشة المختصَّة بهم، وذراريهم ونسائهم، وضمنوا للمركيس الملعون ـ فإنه كان قد استُرضِيَ وعاد ـ عشرة آلاف دينار، لأنه كان واسطة، ولأصحابه أربعة آلاف دينار، واستقرَّت القاعدةُ على ذلك بينهم وبين الفرنج.

ولما وقف السُّلْطان على ذلك أنكره وأعظَمه، وعَزَمَ على أن يكتبَ إليهم في إنكار ذلك عليهم، فهو في مثل هذه الحال وقد جمع أمراءه وأصحاب مشورته، فما أَحَسَّ المسلمون إلا وقد ارتفعت أعلام الكُفْر وصُلْبانُه، وشعارُه ونارُه على أسوار البلد، وذلك ظهيرة نهار الجمعة سابع عشر جُمادى الآخرة، وصاح الفرنج صيحةً واحدةً، وعَظُمَت المصيبة على المسلمين، واشتدَّ حُزْنُ الموحِّدينِ، وانحصر كلام العقلاء من النَّاس في ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

وغَشِيَ النَّاسَ بهتةٌ عظيمة، وحيرةٌ شديدة، ووقع في العسكر الصِّياح والعويل، والبكاء والنَّحيب، وكان لكل قلبٍ حظٌّ في ذلك على قَدْر إيمانه، ولكل إنسانٍ نصيبٌ من هذا الحظ على مقدار ديانته ونخوته، وأَقْشَعَتِ الحالُ على أَنَّ المركيس ـ لعنه الله ـ دَخَلَ البلد، ومعه أربعة أعلام للملوك، فنصب عَلَماً على القلعة، وعلماً على مئذنة الجامع في يوم الجمعة، وعلماً على بُرْج الدَّاوية، وعلماً على برج القتال عِوَضاً عن علم الإسلام، وحيز المسلمون إلى بعض أطراف البلد، وجرى على أهل الإسلام المُشاهدين لتلك الحال ما كَثُرَ التعجُّب من الحياة معه.

قال: وَمَثَلْتُ بخدمة السُّلْطان ـ رحمه الله ـ عشية ذلك اليوم، وهو أشدُّ حالةً من الوالدة الثَّكْلَى، والوالهةِ الحَيْرَى، فَسَلَّيْتُهُ بما تَيَسَّر من التَّسْلية، وأذكرتُهُ الفكر فيما قد استقبله من الأمر في معنى البلاد السَّاحلية والقُدْس الشريف، وكيفية الحال في ذلك، وإعمال الفكر في خلاص المسلمين المأسورين في البلد، وانفصل الحالُ على أن رأى التأخّر عن تلك المنزلة مصلحةً، فإنه لم يبق غَرَضٌ في المضايقة.

فتقدَّم بنقل الأثقال ليلاً إلى المنزلة التي كان عليها أولاً بشَفْرَعَمّ، وأقام هو جريدةً مكانه لينظر ماذا يكون من أمر العدو وحال أهل البلد، فانتقل النَّاس في تلك الليلة إلى الصَّباح، واشتغل العدو بالاستيلاء على البلد، وأقام السُّلْطان إلى التاسع عشر، ثم انتقل إلى الثَّقَل، ووصل ثلاثون نفر، ومعهم أقوش حاجب بهاء الدين قَرَاقُوش ـ وكان لسانه، فإنه كان رجلاً عاقلاً ـ مستنجزين ما وقع عليه عقد الصُّلح من المال والأَسْرى، فأقاموا ليلةً مُكرَّمين، وساروا إلى دمشق يبصرون الأسارى.

قال العماد: وخرج سيف الدين مشطوب، وحسين بن باريك، وأخذا أمان الفرنج، يعني على القطيعة المقدَّم ذِكْرُها.

قال: ولم نشعر إلا بالرَّايات الفرنجية على عكا مركوزة، وأعطاف أعلامها مهزوزة، وعَمَّ البلاء، وتمَّ القضاء، وعَزَّ العَزَاء، وقنط الرَّجاء، وحَضَرْنا عند السُّلْطان وهو مُغْتَمّ، وبالتدَّبير للمستقبل مهتمّ، فعزَّيناه وسلَّيناه، وقلنا: هذه بلدة مما فتحه الله قد استعادها عُداه، وقلتُ له: إن ذهبت مدينة فما ذهب الدِّين، ولا ضَعُفَ في نَصْر الله اليقين.

قال: ودخلوا عكا وتسلَّموها، ولم يقفوا على الشرائط التي أحكموها، فإنَّهم منعوا أصحابنا من الخروج، واحتاطوا عليهم وعلى أموالهم، بحبسهم واعتقالهم، ثم طلبوا المال، فجمعه السُّلْطان وكَمَّله، وأودعه خزانته بعدما حَصَّله، وأحضر صليبهم المطلوب المسلوب، وأتمَّ شرطهم المخطوب، فظهرت أمارات غدرهم، وبدت دلائل مكرهم.

وفي كتابٍ كتبه الفاضل عن السُّلْطان إلى شمس الدَّولة بن منقذ[١] وهو بالمغرب في الرسالة: لقد تجاوزت عِدَّة من قُتِلَ على عكا ـ يعني من الفرنج ـ الخمسين ألفاً، قولاً لا يطلقه التسمُّح، بل يحزره التصفُّح. فانبروا في هذه السنة ملكا إفرنسيس وإنكلتير، وملوكٌ آخرون في مراكب بحرية وحَمَّالة، حملوا فيها الخيول والخَيَّالة، والمقاتلة والآلة، ووصلت كلُّ سفينةٍ تحمل كل مدينة، وأحدقت بالثَّغْر، فمنعت الناقل بالسِّلاح إليه، والدَّاخل بالميرة عليه.

ثم قال: وأخذ البلد على سِلْم كالحَرْب، ودخله العدو ولو لم يدخل من الباب دَخَلَ من النَّقْب، وما وهَنَّا لما أصابنا في سبيل الله، وما ضعفنا، ولا رجعنا وراءنا، ولا انصرفنا، بل نحن بمكاننا ننتظر أن يبرزوا فنبارزهم، ويخرجوا فنناجزهم، وينتشروا فنطويهم، وينبثُّوا فنزويهم، وأقمنا على طرقهم، وخيَّمنا على مِخْنَقِهم، وأخذنا بأطراف خندقهم، وأحوج ما كُنَّا إلى النجدة البحرية، والأساطيل المغربية، فإن عاريتنا بها تُرَدّ، وعاديتنا بها تشتد.

والأمير يبلِّغ ما بلغه من خَطْب الإسلام وخُطُوبه، ويقوم في البلاغ يوم الجمعة مقام خطيبه، ويعجل العودة وقبلها الإجابة، ويستصحب السَّهْم ويسبق

---

(١) هو الأمير أبو الحارث، عبد الرحمن بن محمد بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ، ابن أخي أسامة بن منقذ الشاعر المشهور، ولد في شيزر سنة ٥٢٣هـ، وتوفي بالقاهرة سنة ٦٠٠هـ (الوافي بالوفيات ١٨/ ٢٥١ ـ ٢٥٢).

بِبُشْرى الإصابة، ويُشعر أن الرَّاية قد رفعت لنصرٍ تقدَّم به عِرَابَه، فإن للإسلام نظرات إلى الأُفُق الغربي يقلِّبها، وخطرات من اللُّطْف الخفي يقرِّبها، ويكفي من حُسْنِ الظَّنِّ أنها نظرةٌ رَدَّتِ الهوى الشَّرْقي غَرْباً، وخَطْرَةٌ أوهمت أن تلك الهِمَّة لو تُلِمُّ بالسَّفَائن لأخذت كلَّ سفينةٍ غَصْباً.

قال العماد: وعَزَمَ الملك إفرنسيس على المسير إلى بلاده لأمرٍ اختلَّ عليه، فأخذ قسماً من الأسارى، وسَلَّمهم إلى المركيس، ووكَّله في قَبْض نصيبه، ورضي بتدبيره وترتيبه.

وخرج الفرنج يوم الخميس انسلاخ الشَّهر من جانب البحر، وانتشروا بالمَرْج، ووصلوا إلى الآبار التي حفرها اليَزَك، وتواقعوا مع اليزك، وأمدَّهم السُّلْطان، ففلُّوا العدوَّ، وصُرِعَ منهم خمسون فارساً.

قال القاضي: وخرج خَلْقٌ عظيم، ولم يزل السيف فيهم حتى دخلوا خنادقهم.

قال: ولم تزل الرُّسُل تتردَّد بين الطَّائفتين حتى كان يوم الجمعة تاسع رجب، فخرج حسام الدين حُسين بن باريك المهراني، ومعه اثنان من أصحاب الإنكلتير، فأخبر أَنَّ ملك الإفرنسيس صار إلى صور، وذكروا أشياء من تحرير أمر الأسارى، وطلبوا أن يشاهدوا صليب الصَّلبوت، وأنه هل هو في العَسْكر أو حُمِلَ إلى بغداد؟

فأُحْضِرَ صليب الصَّلبوت، وشاهدوه وعظَّموه، ورموا نفوسهم إلى الأرض، ومَرَّغوا وجوههم على التُّراب، وخضعوا خضوعاً عظيماً لم يُرَ مثله، وذكروا أنَّ الملوك قد أجابوا السُّلْطان إلى أن يكون ما وقع عليه القرار، يُدْفَع في تُرومٍ[١] ثلاثة ـ أي نجوم[٢] ـ كُلُّ ترم شَهْر.

ولم تزل الرُّسل تتواتر في تحرير القاعدة وتنجيزها حتى حَصَلَ لهم ما التمسوه من الأسارى والمال المختصِّ بذلك الترم، وهو الصَّليب ومائة ألف دينار وستمائة أسير، وأنفذوا ثقاتهم، وشاهدوا الجميع ما عدا الأسارى المُعَيَّنين من جانبهم، فإنَّهم لم يكونوا فرغوا من تعيينهم، ولم يكملوهم حتى يحصلوا، ولم يزالوا يطاولون ويُقَضُّون الزَّمان حتى انقضى الترم الأول من ثامن عشر رجب.

ثم أنفذوا في ذلك اليوم يطلبون ذلك، فقال لهم السُّلْطان: إما أن تنفِّذوا إلينا أصحابنا، وتتسلَّموا الذي عُيِّن لكم في هذا الترم، ونعطيكم رهائن على الباقي يصل إليكم في ترومكم الباقية، وإما أن تعطونا رهائن على ما نسلِّمه إليكم حتى

(١) تروم: جمع ترم، وهي من الإنكليزية Term. أي الوقت.
(٢) نجوم: جمع نجم، وهو الوقت المضروب.

تخرجوا إلينا أصحابنا. فقالوا: لا نفعل شيئاً من ذلك، بل تسلِّمون ما نقبضه بهذا الترم، وتقنعون بأمانتنا حتى نسلِّم إليكم أصحابكم. فأبى السُّلْطان ذلك لعلمه أنَّهم إن تسلَّموا المال والصَّليب والأَسْرى، وأصحابنا عندهم، لا يُؤْمن غَدْرهم.

فلما رأوه قد امتنع من ذلك أخرجوا خيامهم إلى ظاهر خنادقهم مُبَرِّزين في الحادي والعشرين: الإنكلتير وجماعة من الخَيَّالة والرَّجَّالة والتركيل[1]، وركبوا في وقت العَصْر السَّابع والعشرين من رجب، وساروا حتى أتوا إلى الآبار التي تحت تل العياضية، ثم أحضروا من الأسارى المسلمين من كَتَبَ الله شهادَتَه، وكانوا زُهاء ثلاثة آلاف مُسْلم في الحبال، ووقَّفوهم، وحملوا عليهم حَمْلَةَ الرجل الواحد، فقتلوهم صبراً؛ طَعْناً وضَرْباً بالسَّيْف ـ رحمةُ الله عليهم ـ واليَزَك الإسلامي يُشاهدهم ولا يعلمُ ماذا يصنعون لبُعْده عنهم.

وكان اليَزَك قد أنفذ إلى السُّلْطان، وأعلمه بركوب القوم ووقوفهم، فأنفذ إلى اليزك من قَوَّاه، وبعد أن فرغوا منهم حَمَلَ المسلمون عليهم، وجَرَتْ بينهم حَرْبٌ عظيمة، جرى فيها قَتْلٌ وجَرْحٌ من الجانبين، ودام القتال إلى أن فَصَلَ اللَّيل بين الطَّائفتين، وأصبح المسلمون يكشفون الحال، فوجدوا المسلمين الشُّهداء في مصارعهم، وعرفوا مَنْ عرفوا منهم، وغَشِيَ المسلمين بذلك حُزْنٌ عظيم، ولم يُبْقوا من المسلمين إلا رجلاً معروفاً مقدَّماً، أو قوياً أَيِّداً للعمل في عمائرهم.

قال العماد: وطلب السُّلْطان منهم أن يضمنهم الدَّاوِيَّة في قبض المال. فقال الدَّاوية: ما ندخل في الضَّمان، فاقْنَعُوا منهم بالقَوْل والأمان. فظهر من فحوى كلامهم الخُلْفُ.

ثم ذكر قَتْلَ الأسارى. قال: فشاهدناهم مستشهدين، وبالعَرَاء عَرايا مجرَّدين، ولا شكَّ أنَّ الله كساهم من سُنْدُس النَّعيم، ونقلهم إلى دار المقامة في العِزِّ المقيم. وتصرَّف السُّلْطان حينئذٍ في الحال، وفرَّق مجموعَهُ في رجاء الرِّجال، وأعاد الأسارى إلى أربابها، واحتوت عليها بدمشق أيدي أصحابها، وحفظ الصَّليب

---

(١) التركيل: كذا بالأصل، وهو تصحيف، والصحيح: التركبل، أو التركبلي: وهم من الجند الفرنج الذين كانوا يجندون من العناصر المحلية، وكانوا مسلحين ومدربين على غرار فرق الخيالة البيزنطية الخفيفة من عناصر مسيحية محلية، ومن المسلمين الذين اعتنقوا المسيحية (حاشية البرق الشامي ٣/١٦٧). وقيل: تركبلي جند في خدمة الفرنج، آباؤهم أتراك أو عرب وأمهاتهم يونان، وكانوا رماة الفرنج، ورد ذكرهم كثيراً في تواريخ هذا العصر، وذكرهم ابن العديم باسم: كافر ترك (انظر النوادر السلطانية ص٢٢٤).

السَّليب، ورَدَّه إلى مكانه، وأعاده إلى صِوَانه[١]، لا لعِزِّه بل لهوانه، فإنه لا مُصَاب عندهم أعظم من استيلائنا عليه، وامتداد أيدينا إليه، وقد بذل فيه الرُّوم، ثم الكُرْج[٢] بذولاً، وأنفذوا بعد رسولٍ رسولاً، فما وجدوا قَبُولاً، ولا صادفوا سُولا.

ومن كتاب عمادي عن السلطان في ذلك:

وللكرام آجال، والحَرْبُ سِجَال، ولله مِنَ المؤمنين رجال، والآن فقد ثارت الحمِيَّات، وهَبَّتِ النَّخوات، ووجَبَ على كلِّ مُسْلم أن ينهض لنُصْرة الإسلام، ويتدارك ما حدَثَ من الكَسْر والوَهْن بالجَبْر والإحكَام، ويعيد ما وَهَى من عُقدة الفتوح إلى النِّظام، فأين ذوو الأَنَفة والحَمِيَّة، والهِمَم العَلِيَّة والنفوس الأبية؟

أما يغتمُّون لمصرع من استُشهد من إخوانهم؟ أما يثورون لثأر إيمانهم؟ أما تبكي العيون لمن قُتِلَ من أماثلهم وأعيانهم؟ فإنَّ مُصَابهم عظيم، ومقامهم عند رَبِّهم الكريم كريم، وأراد الله بذلك تنبيه الهِمَمِ الرَّاقدة، وإثارة العزائم الرَّاكدة.

فصل

فيما جرى بعد انفصال أمر عكا[٣]

[رحيل الفرنج صوب عسقلان]

قال العماد: ثم إنَّ الفرنج رَحَلَتْ صوب عَسْقَلان مستهل شعبان، وسار السُّلْطان في عِرَاضهم، والمسلمون يخطفونهم ويقتلون منهم ويأسرون، ويجرحون ويسلبون ويسرقون، وكل أسيرٍ أُتي به السُّلْطان أمر بقتله. ووصلوا إلى حيفا، فأقاموا بها، ونزل المسلمون بالقَيْمون، وقدَّم السُّلْطان ثَقَلَه إلى مَجْدَل يابا، وأضحى نازلاً على النَّهْر الجاري إلى قَيْسارية، وودَّع الفاضلُ السُّلْطان، وسار إلى دمشق لأنها مدرج الوافدين من الأكابر، والنُّوابُ بها ربما جبنوا عن إقامة الوظائف، وكان الأمر الفاضلي عندهم كالأمر السُّلْطاني، فإذا استشاروه خلصوا من كلِّ تَبِعَة ودَرَك.

---

(١) الصوان، بضم الصاد وكسرها: الوعاء الذي يصان به.

(٢) الكرج، بضم الكاف وسكون الراء: جيل من الناس نصارى، من بني إيران بن أشوذ بن سام، وإلى إيران هذا تنسب مملكة إيران التي كان بها ملوك الفرس، كانوا يسكنون في القبق وبلد السرير، فقويت شوكتهم حتى ملكوا مدينة تفليس، ولهم ولاية تنسب إليهم وملك ولغة (معجم البلدان ٤/ ٤٤٦، قلائد الجمان ص٣١).

(٣) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٢٠٧ ـ ٢٠٩: ذكر رحيل الفرنج إلى ناحية عسقلان وتخريبها، وانظر أيضاً البداية والنهاية ١٢/ ٣٠٤ ـ ٣٠٥: فيما حدث بعد أخذ الفرنج عكا.

وفي تاسع شعبان جاء الخبر بأنَّ الفرنج ركبوا وتألَّبوا، وهم يسيرون في السَّاحل بالفارس والرَّاجل، وعن يمينهم البحر، وعن يسارهم الرَّمْل. وكانت الرَّجَّالة حولهم كالسُّور، وعليهم الكبورة الثخينة، والزرديات السابغة المُحْكَمة بحيث يقع فيهم النُّشَّاب، ولا يتأثرون وهم يرمون بالزنبورك، فتجرح خيول المسلمين وغيرهم.

قال القاضي: ولقد شاهدتهم وفي ظهر الواحد منهم النُّشَّابة والعشرة مغروزة، وهو يسير على هينته من غير انزعاج. وثَمَّ قسم آخر من الرَّجَّالة مستريح يمشون على جانب البحر، ولا قتال عليهم، فإذا تَعِبَ هؤلاء المقاتلة أو أثخنتهم الجراح، قام مقامهم القسم المستريح، واستراح القسم العَمَّال.

هذا، والخيالة في وَسَطهم لا يخرجون عن الرَّجَّالة إلا في وقت الحملة لا غير، وقد انقسموا أيضاً ثلاثة أقسام: **الأول**: الملك العتيق جُفري وجماعة السَّاحلية معه في المقدِّمة، والإنكتار والفرنسيسية معه في الوَسَط، وأولاد الست أصحاب طبرية وطائفة أُخرى في السَّاقة، وفي وسط القوم بُرْجٌ على عَجَلة، وعَلَمهم على ما وصفته مِنْ قَبْلُ يسير أيضاً في وسطهم على عجلة كالمنارة العظيمة، وساروا على هذا المثال، وسُوق الحرب قائمةٌ بين الطَّائفتين، والمسلمون يرمونهم من جوانبهم بالنُّشَّاب، ويحرِّكون عزائمهم حتى يخرجوا، وهم يحفظون نفوسهم حفظاً عظيماً، ويقطعون الطَّريق على هذا الوضع، ويسيرون سيراً رفيقاً، ومراكبهم تسير في مُقَابلتهم في البحر إلى أن أتوا المنزل، فنزلوا، وكانت منازِلُهُمْ قريبةً لأجل الرَّجَّالة، فإنَّ المستريحين منهم كانوا يحملون أثقالهم وخيمهم لِقلَّة الظَّهْر عليهم.

قال: فانظر إلى صبر هؤلاء القوم على الأعمال الشَّاقَّة من غير ديوانٍ ولا نَفْع. وطاف الجيش حولهم من كلِّ جانبٍ، ولزُّوهم بالنُّشَّاب، وكلما ضَعُفَ قسم عاونه الذي يليه، وهم يحفظ بعضُهم بعضاً، والمسلمون محدقون بهم من ثلاثةِ جوانب.

ورأيت السُّلْطان وهو يسير بنفسه بين الجاليشية[١] ونُشَّاب القوم يتجاوزه، وليس معه إلا صبيَّان بجنيبين[٢] لا غير، وهو يسير من طُلْب إلى طُلْب، يحثُّهم على التقدُّم، ويأمرهم بمضايقة القوم، والصِّياح بالتَّهليل والتكبير يرتفع، والعدوُّ على أتمِّ ثبات، على ترتيبهم لا يتغيَّرون ولا ينزعجون، وجَرَتْ حملاتٌ كثيرة،

(١) الجاليشية: تقدّم التعريف بهم.

(٢) الجنيب: جمعها جنائب، وهي الخيول التي تسير وراء السلطان أو الأمير في الحروب استعداداً لاحتمال الحاجة إليها.

ورجَّالتهم تجرح المسلمين وخيولهم بالزنبورك والنُّشَّاب، إلى أن أَتَوْا إلى نهر القصب، فنزلوا عليه، وقد قام قائمُ الظهيرة، وضربوا خيامهم، وتراجع النَّاس عنهم، فإنهم كانوا إذا نزلوا أَيِسَ النَّاس من أمرٍ يَتِمُّ معهم.

[مقتل أياز الطويل]

وفي ذلك اليوم قُتِلَ من فُرْسان المسلمين وشجعانهم أياز الطَّويل؛ وهو من مماليك السُّلْطان، وكان قد فَتَك بهم، وقَتَلَ خَلْقاً من خَيَّالتهم وشُجْعانهم، وكان قد استفاضت شجاعتُهُ بين العسكرين، بحيث إنه جرت له وقعاتٌ كثيرة صَدَّقت أخبار الأوائل، وصار بحيث إنه إذا عَرَفَه الفرنج في موضع تجافوا عنه، فاتفق أَنْ تَقَطَّرَ به فَرَسُه، فاستُشْهِدَ في ذلك اليوم، ودُفِنَ على تلٍّ مُشْرف على البركة، وحَزِنَ المسلمون عليه حُزْناً عظيماً، وقُتِلَ عليه مملوكٌ له.

ونَزَلَ السُّلْطان بالثَّقَلِ على البركة، وهو موضعٌ تجتمع فيه مياه كثيرة، ثم رحل بعد العَصْر، وأتى نهر القصب، فنزل عليه أيضاً، فكُنَّا نشرب من أعلاه، والعدو يشرب من أسفله ليس بيننا إلا مسافة يسيرة، وبات الفريقان هناك.

قال العماد: وكانت نوبة اليَزَك لعِزِّ الدين إبراهيم بن المُقَدَّم في السَّاقة، وكانت الفرنج قد أَنِسَتْ بانقضاء الحرب، فخرج منها جماعة مسترسلين، وتقدَّموا على اليَزَكية مُشْرفين، فَبَصُرَ بهم ابنُ المُقَدَّم، فعبر إليهم من ورائهم هو ومن معه النَّهر، وهم لم يأخذوا من خلفهم الحَذَر، ففجأهم وفجعهم، وَفرَغَ من شُغْلهم قبل أن يُدْركهم الصَّريخ، وسَلَبهم، وغنمهم، ثم نهض الفرنج إليه، وحملوا عليه، وجَرَتْ وقعةٌ شديدة، لحزبِ الضَّلال مبيدة، جَلَبَتْ لنا غنيمةً وعليهم هزيمة.

وأُحضر الأسارى عند السُّلْطان بحزام الذُّلِّ والهوان، فأخبروا أنهم جُرِحَ منهم بالأمسِ ألف، وسَرَى فيهم وَهْنٌ وضعف، ثم رحل السُّلْطان، وعَبَرَ شَعْرَاء أَرْسُوف، ونَزَلَ على قريةٍ تُعْرف بدير الرَّاهب.

[اجتماع ملك الإنكلتير مع العادل أخي صلاح الدين]

وطلب ملك الإنكلتير الاجتماع بالملك العادل خَلْوَةً، فاجتمعا، فأشار بالصُّلْح، وكان حاصلُ كلامه أنه طال بيننا القتال، ونحن جئنا في نُصرة إفرنج السَّاحل، فاصطلحوا أنتم وهم، وكلٌّ منا يرجعُ إلى مكانه.

فقال: على ماذا يكون الصُّلْح؟ قال: على أن يُسَلَّم إلى أهلِ السَّاحل ما أُخذ منهم من البلاد. فأبى الملك العادل، وأخبره أن دون ذلك قتل كلِّ فارسٍ وراجل. فرجع مُغْضَباً.

[وقعة أرسوف]

وفي يوم السبت رابع عشر شعبان كانت وقعة أَرْسُوف، تأهَّبَ المسلمون للقائهم، فأزعجوهم وأبلوهم ببلائهم، فلما رأى العدو ما فيه من الضِّيقة، احتَموا، وحملوا حملةً واحدة، فانكشف من كان قُدَّامهم، واندفعوا، وثَبَتَ ذلك اليوم العادل وأصحابُهُ وقايماز النَّجمي، وعسكر المَوْصِل، ثم كَرَّت العساكر إليهم، وجَرَت النَّوائبُ عليهم، فجرت ين الفئتين مقتلةٌ عظيمة، فلجؤوا إلى جُدْران أَرْسُوف، ولولا ذلك لاستوعبت فيهم الحتوف، فنزل السلطان على نهر العَوْجاء، ورحل العدو إلى يافا، فنزلوها، والمسلمون على العادة في عراضهم، مقيمة على تبديد جموعهم واعتراضهم.

وقُتِلَ يوم أرسوف لهم كندٌ كبير تحت حكمه من الفرنج عددٌ كثير، وكان من عُظْم شأنه، وفخامة مكانه أنه يوم صُرِعَ قاتل دونه جماعةٌ من المقدَّمين، فما قُتِلَ حتى قُتِلوا، ولا بَذَلَ روحه حتى بذلوا.

قال القاضي ابنُ شَدَّاد: رأيتهم وقد اجتمعوا في وسط الرَّجَّالة، وأخذوا رماحهم، وصاحوا صيحة الرجل الواحد، وفَرَجَ لهم رَجَّالتُهم، وحملوا حملةً واحدةً من الجوانب كلِّها، فاندفع النَّاسُ بين أيديهم، ولم يبق في طُلْب[1] السُّلْطان إلا سبعة عشر مقاتلاً، والأعلام باقية، والكوس يُدَقُّ لا يفتر، فلما رأى السُّلْطان ما نزل بالمسلمين سار حتى أتى طُلْبه، فوقف فيه، والنَّاس يَفِرُّون من الجوانب، وكلما رأى فارّاً أَمَرَ من يحضره عنده، فاجتمع في الطُّلْب خلقٌ عظيم، ووقف العدو قُبَالتهم على رؤوس التُّلول والرَّوابي، وخاف العدو أن يكون في الشَّعراء كمين، وثابَتِ العساكر كلُّها، فتراجع العدو إلى منزلته، وجَلَس السُّلْطان ينتظر الناس من العَوْد من السَّقْي، والجرحى يحضرون بين يديه، وهو يتقدَّم بمداواتهم وحملهم، وقُتِلَ رجَّالة كثيرة، وجُرِحَ جماعةٌ من الطَّائفتين، وصُدِمَ الملك الأفضل، وانفتح دُمَّلٌ كان في وجهه، وسال منه دم كثير على وجهه، وهو صابر محتسب في ذلك كلِّه، وقُتِلَ من العدو جماعة، وأُسِرَ واحد، فأُحضر، وأمر بضرب عنقه.

وفي بعض الكتب السُّلْطانية: سار العدو من عكا على قَصْد عَسْقلان، وسُقْنا

---

(١) طُلْب: بضم الطاء: هي وحدات عسكرية صغيرة قد تبلغ أربعمائة يرأسها أمراء يعملون في وظائف البلاط أو الدولة، وكان للسلطان نفسه أطلاب من الفرسان في عدد صغير، ويقول ابن إياس: إن هذا اللفظ ظهر في أيام صلاح الدين الأيوبي. ويذكر المقريزي أن الطلب في لغة الغز هو أمير له لواء وبوق ومائتا فارس إلى مائة إلى سبعين (مصطلحات صبح الأعشى ص٣٦).

لمعارضتهم في كل طريق، ومضايقتهم في كلِّ مضيق، ومنازلتهم في كل منزل، ومُدَافعتهم عن كلِّ مَنْهَل، وهم يسرون البحرَ البحرَ لا يفارقون ساحله، ولا يتجاوزون مراحله، والمواضع مضائق، وشَعْراء[1] ورمال، وما للقتال فيها مَجَال، وما وجدنا فُسْحَةً إلا وضايقناهم فيها، وأخذنا عليهم في نواحيها.

من جُملة أيامنا المشهورة المشهودة، ومواسمنا المعروفة المحمودة يوم الاثنين تاسع شعبان عند رحيلهم من قَيْسارية فذكر الواقعة السَّابقة، وفيها: أنه نَفَقَ من خَيْلهم ألف رأس. ثم ذكر يوم أَرْسُوف، وحُسْن عاقبته للمؤمنين بعد اليأس.

ثم رحل السُّلْطان تاسع عشر شعبان، ونزل بالرَّمْلة، واجتمعت الأثقال بها في تلك الرِّحلة، ورحل ليلاً، وأصبح على تبنا، وجاوزها إلى نهر أَمَرَ أَنَّ الخيام عليه تُبْنَى.

قال: وزُرْنا بتبنا قبر أبي هُريرة ـ رضوان الله عليه ـ وبادَرَ النَّاسُ بالتيمُّن به إليه.

قلتُ: اعتمد العمادُ في هذا على ما اشتهر بين العامة من ذلك، وأما أهل العلم المصنِّفون في أخبار الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ كابن سَعْد وغيره، فذكروا أنَّ أبا هُريرة توفي بالمدينة، ولم يذكروا غيره على ما ذكرناه في ترجمته في «التَّاريخ»، والله أعلم.

قال العماد: ورحل السُّلْطان، ونزل بظاهر عَسْقلان بعد العَصْر، وشرع فيما عَزَمَ عليه من الأمر. وكان لما نزل بالرَّمْلة أحضر عنده أخاه العادل وأكابر الأمراء، وشاور في أمر عَسْقلان ذوي الآراء، فأشار علم الدين سليمان بن جَنْدَر بخرابها للعجز عن حِفْظها على ما بها، ووافقه الجماعة، وقالوا: قد ضاق عن صونها الاستطاعة، فإنَّ هذه يافا قد نزلوا بها، وسكنوا فيها، وهي مدينة بين القُدْس وعَسْقلان متوسطة، ولا سبيل إلى حفظ المدينتين، فاعمد إلى أشرف الموضعين فحصِّنْه وأحكمه، فاقتضت الآراء إقامة العادل بقرب يا فامع عشرة من الأمراء، حتى إذا تحرَّك العدو كانوا منه على عِلْم.

[تخريب عسقلان]

قال القاضي: أشاروا عليه بتخريب عَسْقلان خشية أن يستولي عليها الفرنج وهي عامرة، فيتلفوا مَنْ بها من المُسْلمين، ويأخذوا بها القُدْس الشريف، ويقطعوا طريق مصر.

(١) الشعراء: الأرض ذات الشجر، وقيل: هي الكثيرة الشجر.

وخشي السُّلْطان من ذلك، وعلم عَجْزَ المسلمين عن حِفْظها لقُرْب عهدهم من عَكا، وما جرى على مَنْ كان مقيماً بها، فسار حتى أتى عَسْقلان وقد ضُرِبَتْ خيمته شماليها، فبات هناك مهموماً بسبب خرابِ عَسْقلان، وما نام تلك الليلة إلا قليلاً، ولقد دعاني إلى خدمته سَحَراً، وكنت فارَقْتُهُ بعد مضي نصف الليل، فحَضَرْتُ، وبدأ بالحديث في معنى خرابها، وأحضر ولدَه الأفضل، وشاوره في ذلك، وطال الحديث، ولقد قال لي ـ رحمه الله ـ: والله، لأن أفقد أولادي بأَسْرهم أحبُّ إلي من أن أهدم منها حجراً واحداً، ولكن إذا قضى الله بذلك وعَيَّنه لحفظ مصلحة المسلمين طريقاً، فكيف أصنع؟

قال: ثم استخار الله تعالى، فأوقع في نفسه أَنَّ المصلحة في خَرَابها، فاستحضر الوالي، وأمره بذلك في تاسع عشر شعبان، ولقد رأيته وقد اجتاز بالسُّوق والوطاق[1] بنفسه يستنفر النَّاس للخراب، وقَسَمَ السُّور على النَّاس، وجعل لكل أميرٍ وطائفة من العسكر بَدَنَةً معلومة، وبُرْجاً معلوماً يخربونه، ودخل النَّاسُ إلى البلد، ووقع فيه الضجيج والبكاء، وكان بلداً نَضِراً، خفيفاً على القَلْب، مُحْكَمَ الأَسْوار، عظيم البناء، مرغوباً في سُكْناه، فَلَحِقَ النَّاسَ عليه حُزْنٌ عظيم.

وكان هو بنفسه وولده الأفضل يستعملان النَّاس في الخراب خشيةَ أَن يسمع العدو فيحضُر، ولا يمكِّن من خرابها، وأباح النَّاس الهُرْيَ[2] الذي كان ذخيرةً في البلد للعجز عن نَقْله، وضيقِ الوقت، والخوفِ من هجوم الفرنج، وأمر بحريق البلد، فأُضرمت النَّار فيه، والأخبار تتواتر من جانب العدو بعمارة يافا.

وخرب من سور عسقلان مُعْظَمُه، وكان عظيم البناء؛ بحيث إنه كان في موضعٍ تسع أذرع، وفي موضع عشراً. وذكر بعضُ الحَجَّارين للسُّلْطان وأنا حاضر أن عرض البُرْج الذي ينقبون فيه مقدار رُمْحٍ. فلم يزل الخرابُ والحريقُ يعمل في البلد وأسواره إلى سَلْخ شعبان.

وعند ذلك وصل من جُرْديك كتابٌ يذكر فيه أَنَّ القوم قد تَفَسَّحوا، وصاروا يخرجون من يافا، ويغيرون على البلاد القريبة منها، فلو تحرَّك السُّلْطان لعلَّه يبلغُ

(١) الوطاق: في التركية: أوتاق وأوتاغ وأوطاق: وقد دخلت في اللغة الفارسية في صيغة أطاق وأتاق، والأرجح أن تكون هذه الكلمة هي أصل الكلمة التركية (أوده) بمعنى حجرة، وفي بعض بلاد الشام يقال: (أوضه)، والأطاق في التركية اسم للخيمة الكبيرة المزخرفة تعد للعظماء، والوطاق في العربية هو الخيمة والمعسكر المكون من خيام (تأصيل الدخيل ص١٩٨).

(٢) الهري: جمعه الأهراء، وهي الأماكن التي تخزن بها الغلال والأتبان الخاصة بالسلطان احتياطاً للطوارئ الاقتصادية، وكانت لا تفتح إلا عند الضرورة (مصطلحات صبح الأعشى ص٥٢).

منهم غَرَضاً في غِرَّتهم. فعزم على الرَّحيل، وعلى أن يخلِّف في عَسْقلان حَجَّارين، ومعهم خيلٌ تحميهم يستقصون في الخراب، ثم رأى أن يتأخَّر بحيث يحرق البُرْج المعروف بالإسبتار، وكان بُرْجاً عظيماً، مُشْرفاً على البحر كالقلعة المنيعة، ولقد دَخَلْتُهُ وطفْتُه، فرأيتُ بناءه أحكم بناء لا تعمل فيه المعاول، وإنما أُحرق ليبقى بالحريق قابلاً للخراب، وبقيت النَّار تشعل فيه يومين بليلتيهما.

قال العماد: ونقض منها الأبراج التي على ساحل البحر، ودَخلتُها، فرأيتها أحسنَ مدينة منيعة حصينة، فطال بكائي على رُسُومها وفَضِّ ختومها، وقَبْضِ أرواحها من جسومها، وحلول الدَّوائر بدورها، ونزول السُّوء بسورِها، فما بَرِحَ السُّلْطان منها حتى رأينا طلولها دوارس، ورسومها طوامِس، والرؤوس حياء من معاهدها نواكس.

قال: ولو حُفِظَتْ لكان حفظها متعيناً، وصَوْنُها ممكناً، لكن وَجَدَ كلاً له متجنِّباً متجبِّناً، وقد راعتهم نوبة عكا وحفظها ثلاث سنين، وعادت بعد ذلك بمَضَرَّة المُسْلمين، وقال مَنْ تعلَّل، واعتذر عن دخولها: تدخلها أنت أو أحد أولادك فندخلها اتِّباعاً لمرادك. فحينئذٍ لم يجد بُدّاً من نَقْضِ أسوارها، وفَضِّ سوارها، وسُكَّانها كانوا في رفاهية، فانتقلوا عنها على كراهية، وباعوا أنفس الأعلاق بأبخس الأثمان، وفجعوا بالأوطار والأوطان.

فــصــل

فيما جرى بعد خَرَاب عَسْقلان

قال العمادُ: فارقها السُّلْطان يوم الثلاثاء ثاني رمضان، ونزل على تبنا، ونزل بالرَّمْلة يوم الأربعاء، وأمر بتخريب حِصْنها، وتخريب كنيسة لُدّ، وركب جريدةً إلى القُدْس فأتاه يوم الخميس، وأعاد إليه رسوم التأنيس، وخرج منه يوم الاثنين ثامن رمضان، وبات في بيت نوبة، وعاد إلى المخيَّم يوم الثلاثاء.

ووصل مُعِزُّ الدِّينِ قيصر شاه صاحب مَلَطية ابن قليج أرسلان وافداً عليه، مستنصراً به على أبيه وإخوته، فإنهم كانوا يقصدون أخذ بلده من يده، فأقام في الخدمة السُّلْطانية مُدَّة، وتزوَّج بابنة العادل على صَدَاق مائة ألف دينار، وسار مستهل ذي القَعْدة.

[خروج كمين على ملك الإنكلتير]

وفي ثامن الشهر أيضاً خرج الكمينُ على ملك الإنكلتير، وكان خرج في

فوارسه مخفراً للحطَّابة والحشَّاشة، وكاد يؤخذ الملك لكن أحد خواصِّه فداه بنفسه بأن أظهر حُسْنَ لباسه، فظنَّ أنه الملك فأُسِرَ.

وقال ابنُ شدَّاد: حال بينهم وبينه فرنجي، فَقُتِلَ الفرنجي وجُرِحَ هو.

وفي ثاني عشره جَرَتْ أيضاً وقعة كان النَّصر فيها للمسلمين، وقُتِلَ مقدَّم كبير من المشركين، وما زال يقع بينهم وبين اليَزَك وقعات، وتسرق العربُ من خيولهم وبغالهم ورجالهم.

ومن كتاب إلى صاحب سِنْجار: قد تقدَّم الإعلامُ بما جرى عند رحيل العدو على قَصْد عَسْقلان، وما تَمَّ عليه مِنَّا في طريقه من النِّكاية والخِذْلان، وأنه قطع في سبعة عشر يوماً مسافة يومين لما لابسه وغامره من الحَيْن[1]، وما صَدَّق كيف وصل إلى يافا، فأظهر بها الاستيطان، وأقام يَعْمُرُ المكان.

وهذه مدينة يافا متوسِّطة بين القُدْس وعَسْقلان، ومنها إلى كلِّ واحدةٍ منهما مسافة نصف نهار، وكلتاهما من العدو على خَوْفٍ وحِذار، وكُلُّ واحدٍ من الموضعين يحتاج في تحصينه إلى ثلاثين ألف مقاتل، وتعذَّر الجمع بين حفظ الثغرين وتحصين البَلَدين، وتعيَّنتْ في تخريب عَسْقلان عمارة القُدْس وتحصينه، وعِصْمَتُهُ من العدوِّ وتأمينه.

[رحيل السلطان إلى النطرون]

ثم رحل السُّلْطان إلى النطرون، وخيم على تلٍّ عالٍ، والنطرون حِصْنٌ حصين كان للدَّاوية لكن لما فتح تشعثت أسوارُه، وانقض جداره، فأمر بهدمه فَهُدِم.

[عرض ملك الإنكلتير أن يتزوج العادل أخته]

ثم بعث ملك الإنكلتير راغباً في المصالحة والمسالمة إلى العادل، وزعم أَنَّ له أُختاً عزيزةً عليه، كبيرة القَدْر، وأنَّها كانت زوجة ملك كبير من ملوكهم، وهو صاحب صِقِلِّية توفِّي عنها، ورغب أن يتزوجها العادل، ويُجعل له الحكم على بلاد السَّاحل ينفِّذ فيها أمره، وهو يقطع الدَّاوية والإسبتار من البلاد والقُرَى دون الحصون، وتكون أُخته مقيمةً بالقدْس، ومعها فيه قِسِّيسون ورُهْبان، حافظةً لها من آفات الزَّمان.

فرأى العادِلُ في ذلك عينَ الصَّواب، وشاور السُّلْطان، فوافقه فيما أجاب.

فنفَّذ الرسول إلى الإنكلتير بالإجابة، فدخل الفرنج على المرأة، وخوَّفوها،

---

(١) الحَيْن: الهلاك.

واتهموها في دينها، وعنَّفوها، وقالوا لها ما معناه: هذه فضيحة فظيعة، وسُبَّةٌ شنيعة، وقطعٌ على النَّصْرانية وقطيعة، وأنتِ عاصيةٌ للمسيح لا مُطيعة. فرجعت عن ذلك وما أجابت، فاعتذر الإنكلتير بعدم موافقتها إلا أن يدخل العادل في دينها، فعرف أنها خديعةٌ كانت من الإنكلتير.

[وصول رسول من مركيس صور في معنى الصلح]

قال القاضي: ووصل رسولٌ من المركيس يذكر أنه يصالح الإسلام بشرط أن يُعْطَى صيدا وبيروت، على أن يجاهر الفرنجَ بالعداوة، ويقصد عكا ويحاصرها، ويأخذها منهم. فأُجيب إلى ذلك على أن يطلق مَنْ بها وبصور من الأسارى، ولما سَمِعَ الإنكلتير بذلك رجع إلى عكا لفَسْخ هذه المصالحة، واسترجاع المركيس إليه.

[موت ملك فرنسا في أنطاكية]

وجاء الخبر أَنَّ ملك الإفرنسيس ماتَ بأنطاكية.

[مقتل قزل بن الدكز]

ووصل كتابٌ من تقي الدين يخبر فيه أَنَّ قزل صاحب ديار العَجَم ابن الدكز قُتِلَ، وجرى بسبب قَتْلِهِ في بلاد العجم خَطْبٌ عظيم.

قال العماد: وكان محتقراً للعظائم، مقترفاً للمآثم، واضعاً للشُّرْب والقصف المواسم، وقَتَلَ بأصفهان عشرة من رؤساء الشَّافعية المعروفين، وكبرائهم الموصوفين.

ووصل من الديوان كتابٌ ينكر فيه قَصْدَ تقي الدين خِلاط، ويظهر فيه العناية التامة ببَكْتَمُر، ويشفع في حسن بن قفجاق، ويتقدم بإطلاقه. وكان قد قبض عليه مُظَفَّر الدِّين بإربل، ويتقدم بمسير القاضي الفاضل إلى الديوان لبتِّ حالٍ، وفصل أمرٍ.

فأجاب السُّلْطان بأَنَّا لم نأمر تقيَّ الدين بشيء من ذلك، وإنما عَبَرَ ليجمع العساكر، ويعود إلى الجهاد. وأما ابن قفجاق فقد تقدَّم إلى مظفر الدِّين حتى يحضره إلى الشام فنقطعه فيه، ويكون ملازماً للجهاد. وأما الفاضل فاعتذر عنه بأنه كثير الأمراض، وقوته تضعُفُ عن الحركة إلى العراق.

قلت: وبلغني أَنَّ الفاضل ـ رحمه الله ـ كَتَبَ في الاعتذار بالحضور إلى الدِّيوان، وتمثَّل في كتابه بهذين البيتين[1]: [البسيط]

مـا كـنـتَ أَوَّل سـارٍ غَـرَّه قَـمَـرٌ ورائـدٍ خَـدَعَـتْـهُ خُـضْـرَةُ الـدِّمَـنِ

---

(١) يروى البيتان:

مـا أنـت أوّل سـائـرٍ غـرّه قـمـرٌ ورائـد أعـجـبـتـه خـضـرةُ الـدِّمـنِ

مَثِّلْ لنفسكَ شخصي إنني رجلٌ مِثْلَ المُعَيْدي فاسْمَعْ بي ولا تَرَني(١)

[رسالة من ملك الإنكلتير إلى صلاح الدين يدعوه إلى الصلح]

قال القاضي: وأرسل الإنكلتير إلى السُّلْطان أَنَّ الفرنج والمسلمين قد هلكوا، وخَرِبَتِ البلادُ، وتَلِفَت الأَموال والأرواحُ، وقد أخذ هذا الأمر حَقَّه، وليس هناك حديث سوى القُدْس والصَّليب والبلاد، والقُدْسُ متعبَّدُنا ما ننزل عنه، ولو لم يبق منا واحد، وأما البلاد فيعاد إلينا ما هو قاطع الأردن، وأما الصَّليب فهو خَشَبَةٌ عندكم لا مقدار له، وهو عندنا عظيم، فيمنُّ السلطان به علينا، ونستريح من هذا العَناء الدائم.

فأرسل السُّلْطان في جوابه: القدسُ لنا كما هو لكم، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم، فإنه مسرى نبينا، ومجتمع الملائكة، فلا يتصور أن ننزل عنه، ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين، وأما البلاد فهي لنا أيضاً في الأصل، واستيلاؤكم كان طارئاً عليها لضَعْف مَنْ كان بها من المسلمين ذلك الوقت. وأما الصَّليب فهلاكه عندنا قُرْبة عظيمة لا يجوز أن نفرِّط فيه إلا لمصلحةٍ راجعة إلى الإسلام هي أوفى منها.

فاختر لنفسك غيري إنني رجل مثل المعيدي فاسمع بي ولا ترني

والبيتان للحريري في تاج العروس ٨/ ٣٦٤ (عدد)، ووفيات الأعيان ٤/ ٦٦ ـ ٦٧. والحريري هو القاسم بن علي بن محمد بن عثمان، جمال الدين، أبو محمد الحريري البصري الحرامي، ولد سنة ٤٤٦هـ، وتوفي سنة ٥١٦هـ، من تصانيفه: «توشيح البيان»، «درة الغواص في أوهام الخواص»، «ديوان الرسائل»، «شرح الملحة له»، «المقامات» مشهورة، «ملحة الأعراب وسخنة الآداب» منظومة في النحو (كشف الظنون ٥/ ٨٢٧ ـ ٨٢٨).

وقال ابن خلكان في وفيات الأعيان ٤/ ٦٦ ـ ٦٧: وحكي أن الحريري كان دميماً، قبيح المنظر، فجاءه شخص غريب يزوره، ويأخذ عنه شيئاً، فلما رآه استزرى شكله ففهم الحريري ذلك منه، فلما التمس منه أن يملي عليه، قال له: اكتب وأملى عليه:

ما أنت أوّل سائرٍ غرّه قمرٌ ورائد أعجبته خضرةُ الدِّمنِ

فاختر لنفسك غيري إنني رجل مثل المعيدي فاسمع بي ولا ترني

(١) قوله: «مثل المعيدي فاسمع بي ولا ترني» هو من المثل المشهور: «تسمع بالمعيدي لا أن تراه» ويروى أيضاً: «أن تسمع بالمعيدي خيرٌ من أن تراه»، والمثل للنعمان بن المنذر، يضرب مثلاً للشيء لم تره، ويعظم في نفسك بالسماع، فإذا رأيته اقتحمته عينك (جمهرة الأمثال ١/ ٢٦٦).

[هروب شيركوه بن باخل]

وهرب شِيركُوه بن باخل الكُرْدِي من عكا، وكان أسيراً بها، وكان ادَّخَر حبلاً في مخدَّته، فتدلَّى به من طاقة في بيت الطَّهارة، واشتدَّ هرباً في قيوده إلى تل العياضية، فكمن في الجبل وقد طلع عليه النَّهار، ثم كسر قيوده، وسار إلى المسلمين.

[مسير السلطان من النطرون إلى الرملة]

ثم تواتر الخبر أَنَّ الفرنج على عَزْم النُهوض، فسار السُّلْطان من المخيَّم بالنطرون إلى الرَّمْلة سابع شَوَّال، وأقام بها عشرين يوماً، فجرت وقعات، وتمَّت دفعات، منها وقعة في ناحية يازُور، وكان النَّصْر فيها للمسلمين، وفقد من المُسْلمين ثلاثة، وذلك ثامن شَوَّال.

وفي سادس عشر شَوَّال وقعت وقعةٌ أُخرى عظيمة قُتِلَ فيها جماعةٌ من الأُمراء، وأُسِرَ فارسان من الكَفَرَة معروفان بالبأس سوى غيرهما، وقُتِلَ منهم زُهاء ستين نَفَراً.

[استيلاء الأسطول المصري على مراكب للفرنج]

وفي خامس شَوَّال وصل الخبر أَنَّ الأسطول المِصْري استولى على مراكب الفرنج، وفيها مركب يعرف بالمسطح، قيل: إنه كان فيه خمسمائة نفر وزائد على ذلك، وأنه قُتِلَ منهم خَلْقٌ عظيم، واسْتُبْقِيَ منهم أربعة نَفَرٍ مذكورون.

[اجتماع العادل وملك الإنكلتير]

وفي ثامن عشر شَوَّال اجتمع العادل والإنكلتير على طعام ومحادثة، وانفصلا عن توادُدٍ ومطايبة، وطلبَ منه الاجتماعَ بخدمة السُّلْطانْ، فامتنع ـ رحمه الله ـ وقال: الملوكُ إذا اجتمعوا تَقْبُحُ بينهم المخاصمة بعد ذلك، وإذا انتظم أَمْرٌ حَسُنَ الاجتماع.

ورحل الفرنج ثالث ذي القعدة إلى الرَّمْلة، وأظهروا قصد القُدْس بتلك الرِّحْلة، ودامت الوقعات بينهم وبين المسلمين، ورحل السُّلْطان إلى القُدْس بنيَّة المقام في الثَّالث والعشرين من ذي القَعْدَة، وكان الشِّتاءُ قد دخل، والغيث قد اتَّصل، فوصل إلى القُدْس وقت العَصْرِ، ونزل بدار الأقساء مجاورة كنيسة قُمامة.

وفي ثالث ذي الحِجَّة وصل عسكرٌ من مِصْرَ بأموالٍ ورجال مع أبي الهيجاء السَّمين، وتحوَّل الفرنج إلى النطرون، فقوَّى السُّلْطان اليَزَك، فوقعوا على سريَّة للفرنج فغنموها، وسيق منهم إلى القُدْس نيف وخمسون أسيراً سوى من قُتِلَ منهم، وواقعهم سابق الدين عثمان صاحب شَيْزَر يوم عيد الأضحى، فنحر منهم وضَحَّى، واحتوى على عشرةٍ من مقدَّميهم أَسْراً وقتلاً، وتسلَّق باقي الفرنج في الجبال، وتركوا خيلهم، فغنمها المسلمون.

ولم يزل المسلمون عليهم مستظهرين مُدَّة مقامهم بالنَّطْرون، وجعل المسلمون يقطعون الطَّريق على تُجَّارهم حتى إنهم أخذوا قافلةً ثقيلة بما فيها، ولم يقدروا على تخلصيها، فرحلوا عائدين إلى الرَّمْلة في الثَّاني والعشرين من ذي الحِجَّة.

وفي ذلك اليوم وَصَلَ من المَوْصِل خمسون رجلاً برسم قَطْع الصُّخور من الخندق، فإنَّ السُّلْطان شَرَعَ في تحصين القُدْس، وعمارة أبراجه وأسواره، وحَفْرِ خنادقه، وأرسل إلى البلاد في جَمْع رجال هذه الأعمال، وتقبَّل الأمراء فيه العمل، وعمل فيه السُّلْطان بنفسه بنقل الحجارة هو وأولاده وأمراؤه وأجناده، ومعهم القُضَاة والعلماء، والولاة والأمراء.

قلت: وفي قَصْدِ الفرنج للسُّلْطان بالقُدْس يقول الرَّشيد ابن النابلسي[1] من جملة قصيدةٍ له: [البسيط]

وَيْحَ الفِرَنْجَةَ بل ويل امِّهِمْ أَوَ ما ... فيهمْ لبيبٌ على العِلات يعتبرُ
فكم نَشَرْتَهُمُ ضَرْباً إذا انتظموا ... وكم نَظَمْتَهُمُ طَعْناً إذا انْتَشَروا
كم قد سَقَيْتَهُمُ ذُلاً فلا عَجَبٌ ... إنْ عَرْبَدُوا سَفَهاً فالقَوْمُ قد سَكِرُوا
إنْ يمَّموك فلا بِدْعٌ لجهلهمُ ... تَسْعَى إلى الأسْدِ في غاباتها الحُمُرُ
زاروا نموراً ولا تُغْني وَقَاحَتُهُمْ ... إذا أُسودُك في أبطالهمْ زأروا
فَحَامِ عن حَوْطَةِ البَيْتِ المقدَّسِ لا ... خوفٌ وحاشاك من خَوْفٍ ولا ضَرَرُ
هو الشَّريفُ وقد ناداك مُعْتَصِماً ... فما على مَجْدِهِ من بَعْدِها حَذَرُ
وسوف تَسْتَغْفِرُ الأيامُ هَفْوَتها ... وَتَحْصُدُ الفئةُ الأوغادُ ما بَذَرُوا

---

(١) الرشيد ابن النابلسي: هو عبد الرحمن بن محمد بن بدر، المعروف بمدلويه، كان شاعراً محسناً، توفي سنة ٦١٩هـ (وفيات الأعيان ٥/ ٢٦٦).

فصل

في بقايا حوادث هذه السنة

[ولاية ابن الزكي قضاء دمشق]

قال العماد: وفي ربيع الأول منها تولَّى القاضي محيي الدين محمد بن الزكي[١] قضاءَ دمشق.

[وفاة تقي الدين عمر ابن أخي السلطان]

وفيها يوم الجمعة تاسع عشر رمضان كانت وفاةُ تقيِّ الدين عمر ابن أخي السُّلْطان[٢] وهو على محاصرة مَنَازكِرْد، وكان ـ كما تقدَّم ـ قد توجَّه إلى بلاده التي زاده إياها السلطان وراء الفرات، فامتدَّت عينه إلى بلاد غيره، واستولى على السويداء، وعلى مدينة حاني، وعَزَمَ على قَصْدِ خِلاط، وكسر صاحبها سيف الدين بكْتَمُر، وتملَّك مُعْظم تلك البلاد، ثم أناخ على منازكرد يحاصرها ومعه عساكر كثيرة، فأناخت بجسده المَنِيَّة بسبب مرضٍ اعتراه، وزاد إلى أن بلغ منه المراد.

وأخفى ولدُه الملك المنصور وفاته، ورحل عن البلد المحصور وفاتَه، وعاد به إلى البلاد التي في يده، وعَجِبَ النَّاسُ من حَزْمه وعَزْمه، وثباته وجَلَده، وجاءت رُسُلُه إلى السُّلْطان يخبره بأنه قام مقام والده فيما كان له من البُلْدان، وطلب منه شروطاً نسبه بسببها إلى العصيان، وكاد أمره يضطرب، وقلبه يكتئب، وشأنه ينعكس وينقلب، حتى احتمى بالملك العادل فنصره، وأظهره إلى الوجود وأظهره.

وقال القاضي ابن شَدَّاد: كانت وفاته في طريق خِلاط عائداً إلى مَيَّافارِقِين، فَحُمِل مَيْتاً حتى وصل به إلى مَيَّافارقين، ثم عُمِلت له تُرْبة عليها مدرسةٌ مشهورة بأَرْض حماة، وحمل إليها فَدُفِنَ بها.

---

(١) هو قاضي دمشق محيي الدين أبو المعالي محمد بن علي بن محمد بن يحيى القرشي، وهو أول من خطب بالبيت المقدس لما فتحه السلطان صلاح الدين سنة ٥٨٣هـ، توفي سنة ٥٩٨هـ (الذيل على الروضتين وفيات سنة ٥٩٨هـ).

(٢) هو الملك المظفر عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذي، تقي الدين بن نور الدين، كان شجاعاً شديد البأس، له شعر حسن (انظر ترجمته الوافية في: شفاء القلوب ص٢٣٤ ـ ٢٣٥، الفتح القسي ص٥٦٦، وفيات الأعيان ٣/ ١٢٨، السلوك ١/ ١٠٧، تاريخ ابن الوردي ٢/ ١٤٨، طبقات الشافعية للسبكي ٤/ ٢٨٦، الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٢١٦، العبر ٤/ ٢٦٢، كنز الدرر ص١١٠، البداية والنهاية ١٢/ ٣٤٦، النجوم الزاهرة ٦/ ١١٣، شذرات الذهب ٤/ ٢٨٩).

[وفاة حسام الدين لاجين]

قال العماد: وفيها توفي ابن أُخت السُّلْطان حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين بدمشق ليلة الجمعة تاسع عشر رمضان، ففجع السُّلْطان بابن أخيه وابن أخته في تاريخٍ واحد، وكانا له من أعظم الأعوان على ما يكابده من الشَّدائد.

قلت: ودفن بالتُّربة الحُسَامية المنسوبة إليه من بناء والدته ستّ الشَّام بنت أيوب، وهي المدرسة الشَّامية ظاهر دمشق بالعوينة.

[وفاة سليمان بن جندر]

قال: وفيها في أواخر ذي الحجة توفِّي الأمير عَلَمُ الدين سليمان بن جَنْدر من أكابر أمراء حلب، وكان في خدمة السُّلْطان بالقُدْس، وهو شيخ الدَّولة وكبيرها، وظهيرها ومشيرها، وهو الذي أشار بتخريب عَسْقلان لتتوفَّر العناية والاهتمام بالقُدْس، ثم مَرِضَ بالقُدْس، وطلب المسير إلى الوطن، فأدركته المَنِيَّة بقرية غباغب على مرحلةٍ من دمشق.

[وفاة الصفي بن القابض]

وفيها في الثَّالث والعشرين من رجب كانت وفاة الصَّفي بن القابض، نائب السُّلْطان بدمشق، وكان قد خدم السُّلْطان في أيام عُدْمه، وهو في كفالة أبيه وعَمِّه، فلما ملك مِصْر أمّره في أموالها، وحكَّمه في أعمالها، حتى نال المُنَى ووجد الغِنى، وكتب لمماليكه دُورَه وأملاكه وجميعَ أمواله.

[وفاة جمال الدين ابن عبد كويه]

وفيها توفي نسيبُ العماد وهو جمال الدين أبو الفتح إسماعيل بن محمد بن عبد كويه سابع عشر ذي الحِجَّة بدمشق. قال العماد: وكنتُ استنبته في كتابة الإنشاء وخَرَّجته، وقَلَّبته في مراتب المعالي ودرَّجته، واعتمد السُّلْطان عليه في التَّرسُّل إلى سلاطين العَجَم، وخواص الأمراء منهم والخدم، وكان نبيلاً نبيهاً، كريماً وجيهاً.

[وفاة أسعد بن المطران]

وفيها توفي الحكيم الموفَّق أسعد بن المِطْرَان[١] في شهر ربيع الأول،

(١) أسعد بن المطران: هو أسعد بن إلياس بن جرجيس، موفق الدين، الحكيم الدمشقي المعروف بابن المطران، كان نصرانياً أسلم على يد السلطان صلاح الدين الأيوبي، توفي سنة =

وكان من أهل النظافة والظرافة، ومن ذوي الفصاحة والحَصَافة، وفَّقه الله في بدايته لهداية الإسلام، ونال أسباب الاحترام، وتقدَّم عند السُّلْطان، وما شانه كِبَرٌ وهو كبير الشَّان.

[وفاة نجم الدين الخبوشاني]

وفي أواخر هذه السَّنة توفي الشيخ الفقيه نجم الدين الخُبُوشاني[1] بمصر، وهو الذي عمر تُرْبة الشَّافعي ـ رضوان الله عليهما ـ وبنى المدرسة في جوارها، وأحيا شعار التوحيد، وبنى أمره على التسديد والتشديد، وحَفِظَ شمل الشَّافعية من التبديد، وكان السُّلْطان مجيباً له إلى كل ما يستدعيه، ويقضي له من الحوائج ما يقتضيه، ووقَّف على المدرسة التي بناها وقوفاً، وأعطاه في بنائها أُلوفاً، فلما توفي الخُبُوشاني طلبَ المدرسةَ جماعةٌ من العلماء، فَرُدُّوا، وشفع العادِلُ في صدر الدين أبي الحسن محمد بن حمُّويه شيخ الشيوخ[2]، فكُتِبَ بها له، ورُتِّب بوقفها وتدريسها استقلاله، وذلك في أواخر سنة ثمانٍ وثمانين، ثم صُرِفَ بعدَ السُّلْطان عن المدرسة، وتبدلت بالوحشة الأنسة.

قلت: ثم استمرَّت عليها يدُ أولاده واحداً بعد واحدٍ إلى الآن.

= ٥٨٧هـ، من تصانيفه: «آداب طب الملوك»، «الأدوية المفردة»، «بستان الأطباء وروضة الأولياء» في النوادر، «لغز في الحكمة»، «المقالة الناصرية في حفظ الأمور الصحية»، «المقالة النجمية في التدابير الصحية»، «كتاب على مذهب دعوة الأطباء» (كشف الظنون ٥/ ٢٠٤، مرآة الزمان ٨/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤، طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ص٦٥١ ـ ٦٥٩، الوافي بالوفيات ٩/ ٤٠ ـ ٤٣، النجوم الزاهرة ٦/ ١١٣، أعيان الشيعة ١١/ ١٨٨، البداية والنهاية ١٢/ ٣٠٥).

(١) نجم الدين الخبوشاني: هو الأمير العالم محمد بن موفق الدين سعيد بن الحسن بن عبد الله الخبوشاني (نسبة إلى خبوشان بليدة بناحية نيسابور)، نجم الدين، أبو البركات الشافعي، ولد سنة ٥١٠هـ، وتوفي بمصر سنة ٥٨٧هـ، من تصانيفه: «تحقيق المحيط في شرح الوسيط للغزالي»، من فروع الشافعية (كشف الظنون ٦/ ١٠٢، الفتح القسي ص٥٧٧، رحلة ابن جبير ص٤٨، وفيات الأعيان ٤/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠، سير أعلام النبلاء ٢١/ ٢٠٤، العبر للذهبي ٤/ ٢٦٢، الوافي بالوفيات ٥/ ٩٩ ـ ١٠٠، طبقات الشافعية للسبكي ٧/ ١٤، طبقات الشافعية للإسنوي ١/ ٤٩٣، النجوم الزاهرة ٦/ ١١٥ ـ ١١٦، حسن المحاضرة ١/ ٤٠٦ ـ ٤٠٧، البداية والنهاية ١٢/ ٣٠٥ ـ ٣٠٦، وقد سماه ابن كثير في البداية والنهاية: الجيوشاني، وهو تصحيف).

(٢) محمد بن حموية: هو محمد بن عمر بن علي بن محمد بن حموية الجويني، صدر الدين الشافعي الصوفي المعروف بابن حمويه، توفي بالموصل سنة ٦١٧هـ، له من الكتب «سلوة الطالبين» في التصوف (كشف الظنون ٦/ ١١٠، الذيل على الروضتين وفيات سنة ٦١٧هـ).

[وفاة الوجيه ابن النفيس]

قال: وفيها توفي الوجيه ابن النَّفيس مستوفي ديوان دمشق بها وكان بهياً مهيباً، نَزِهاً عارِفاً مُصيباً.

[وفاة أمين الدين أبي القاسم]

وفيها توفي القاضي أمين الدين أبو القاسم بحماة في حادي عشر رمضان، وكان كريماً سخياً، نابهاً سَرِيّاً.

[نقل تربة محيي الدين الشهرزوري]

وفيها نُقِلَتْ تُرْبة القاضي محيي الدين أبي حامد محمد بن محمد بن عبد الله بن القاسم الشَّهْرُزُوري إلى المدينة النبوية على ساكنها أفضل السَّلام، وكان قاضي المَوْصِل، وقد بنى رباطاً هناك، وكانت وفاته بالمَوْصِل في الثَّامن والعشرين من جُمادى الأولى سنة ستٍّ وثمانين، وقد تقدَّم ذلك.

وسأل ابنُ أخيه القاضي بعده كتاباً إلى أمير المدينة، فكُتِبَ له كتابٌ، منه: سببُ إصدارها إلى الأمير مسير نائب القاضي كمال الدين بضريح عمه محيي الدِّين من المَوْصِل إلى المدينة المقدَّسة على ساكنها أفضل الصلوات، ليدفن في الرِّباط الذي أنشأه، حيث يُبْعَثُ مع شفيع الأُمة يوم البعث والنُّشور، ويأمن ظلام اللَّحد المحفور في جوار الضِّياء والنُّور، ويحشر بما يناله من البركة والحبور، منشرح الصَّدْر ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝١٠﴾ [العاديات: ٩، ١٠]، ولقد وفِّق في اختياره أيام حياته نَقْلَهُ إلى ذلك البيت المعمور، فَلْيُعِنِ الأميرُ على هذه المَكْرُمة، وليعتن بمواراته في التُّرْبة المجاورة للبقعة المعظَّمة.

قال: وكان هذا القاضي خِرْقاً(١) جوَاداً، لِبَذْلِ اللُّهى(٢) مُعتاداً، واسع المروَّة، جامع أشتات الفتوَّة، يحبُّ معالي الأمور، وفضائله متجاوزة حَدَّ الوفور.

قال ابن القادسي(٣): ووصل الحاج في صفر بعدما اعتاقت أخبارهم، وأخبروا أنَّ داود أمير مكة أخذ ما في الكعبة من الأموال، وأخذ طوقاً كان يلزم الحجر الأسود، فأوجب ذلك تشعُّثه، وكان قد دخل بعض الباطنية بعد سنة

---

(١) الخِرق: الكريم المتخرق في الكرم.

(٢) اللُّهى: جمع اللهية واللهوة وهي العطية.

(٣) ابن القادسي: هو محمد بن أحمد بن محمد بن علي، أبو عبد الله القادسي، المتوفى سنة ٦٣٢هـ تقدّمت ترجمته في الجزء الثالث.

أربعمائة، فضربه بدبُّوس[١]، وقال: إلى كم حجر! وفي يد ذلك الرجل سيف، فما تجاسر أحدٌ يقرب منه، فتطوَّع رجلٌ، وبذل نفسه للقتل، وتقدَّم إليه فقتله، فأُخِذَ الحجر، وجُمِعَتْ شظاياه، وأُلْفَتْ، وجُعِلَ له طوقٌ، فأخذ أمير مكَّة ذلك الطَّوق، فلما وصل أمير الحاجِّ عزل داود، وولَّى أخاه مكثراً، ونقض قلعةً كان بناها داود على جبل أبي قُبَيْس، وهو داود بن عيسى بن فَلِيتَة بن قاسم بن محمد بن أبي هاشم الحَسَني، ولما صُرِفَ عن مكة، أقام بنخلة، وتوفي بها في رجب سنة تسعٍ وثمانين، وهو أمير ابن أمير إلى آخر ما ذكرنا من آبائه، وهم به ستة نَفَر.

[محاصرة عز الدين صاحب الموصل جزيرة ابن عمر]

قال ابنُ الأثير[٢]: وفي ربيع الأوّل سنة سبع وثمانين سار عِزُّ الدين يعني صاحب المَوْصِل إلى جزيرة ابن عمر، فحصرها وبها ابنُ أخيه مُعِزُّ الدين سِنْجر شاه، لأنه كان سيئ السِّيرة معه، خارجاً عن طاعته، مساعداً للأعداء عليه، فعزم على أخذها منه، فخضع وطلب العفو والصَّفْح، فأجابه، وصالحه على قاعدةٍ استقرَّت بينهما، وعاد عنه إلى المَوْصِل، فعاد سِنْجر شاه إلى حالته الأُولى، فتجاوزَ عنه واطَّرَحه.

[شروع السلطان في إنشاء سور جديد للقدس]

ثُـمَّ دَخَـلَـتْ سَـنـةُ ثـمـانٍ وثـمـانـيـن[٣]

قال العماد: والسُّلْطان مقيمٌ بالقُدْس، وقد قَسَمَ سورَ البلد على أولاده، وأخيه وأجناده، فشرعوا في إنشاء سورٍ جديد، محدقٍ به مديد، وكان يركب كلَّ يوم، وينقل الصَّخْر على قربوس سَرْجه، فيستنُّ الأكابر والأمراء في نَقْل الحجارة بنهجه، ولو رأيت وهو يحمل حجراً في حِجْره لعلمتَ أَنَّ له قلباً كم حمل جبلاً في فكره، ولقد جَدَّ في حماية الصخرة المقدَّسة حتى حمل لها الصخور، وانشرح صدره لانضمامها إلى صدره، حتى باشر صدور مماليكه بها الصُّدور، وما تغلو دار يبنيها في الجنَّة بنقل حجارتها، ليكون مَلِكاً في دارها، وقمراً في دارتها. وداوم البكور بالركوب، وعَرَّض وجهه الكريمَ للشُّحوب.

---

(١) الدبوس: ويسمى العامود، وهو آلة من حديد ذات أضلاع، ينتفع بها في قتال لابس البيضة (صبح الأعشى ٢/ ١٥١).

(٢) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣: ذكر حصر عز الدين صاحب الموصل الجزيرة.

(٣) وخمسمائة. وانظر البداية والنهاية ١٢/ ٣٠٦، ٣٠٧.

[رحيل الفرنج نحو عسقلان]

قال: وفي ثالث المحرَّم رحل الفرنج على سَمْتِ عَسْقلان، وأشاعوا أنهم يعيدون بها العُمْران، وهم نازلون بظاهرها، جائلون في مواردها ومصادرها، فرأى الإنكلتير دُخاناً على بُعْدٍ، فقصده، وكان ثَمَّ جماعةٌ من الأسدية، وسيف الدين يازكوج، وعلم الدين قيصر وهم غارُون عما دَهِمَهُمْ، فوصل اللَّعين إليهم وقت المغرب، فوقع عليهم، وكانوا فريقين نازلين في موضعين، فلما وقع على أحدهما رَكِبَ الفريقُ الثَّاني ودافعه حتى ركب الفريقُ الآخر، فدافعوهم وواقعوهم، وساقوا قُدَّامهم أثقالَهُمْ، وخلصوا ناجين، وسَلَّم الله أنفسهم من أيدي الملاعين، ولم يُفْقَد من المسلمين إلا أربعة، وكانت نوبةً عظيمة، دفع الله خَطَرها، وهوَّن ضَرَرها.

وفي حادي عشر المحرَّم كبس عِزُّ الدين جُرْديك تبنى على مَنْ نَزَلَ بها من الفرنج، فأوقع بهم البلاء، وساق منهم اثني عشر أسيراً، ومتاعاً كثيراً، وأغار أيضاً ثاني صفر على ظاهر عسقلان، وجاء بثلاثين أسيراً.

وفي ليلة رابع عشر صفر كَمَنَتْ سَرِيَّةٌ مقدَّمها فارس الدين ميمون القَصْرِي عند تُبْنى إلى أن عَبَرَتْ قوافلُ الفرنج، فساقَها بأحمالها وأثقالها، ونسائها ورجالها.

وفي مُسْتهلِّ ربيع الآخر وصل سيف الدين المشطوب، وقد خَلَص من الأسر، وقطعت عليه الفرنج خمسين ألف دينار عَجَّلَ منها عشرين ألفاً، وأعطاهم بالباقي رهائن، فأحسن السُّلْطان لقاءه، وأقطعه نابُلُس بأعمالها، فتوفي بها في آخر شَوَّال.

[مقتل المركيس بصور وجلوس الكند هري مكانه]

وفي ثالث عشر ربيع الآخر قُتِلَ المركيسُ لعنه الله بصور، وذلك أن رَجُلين دخلا صور، وتنصَّرا، وأظهرا التعبد والترهُّب، ولزما الكنيسة، وشكرهما الأقساء والرُّهْبان، وأحبَّهما المركيس، ولم يكن يصبرُ عنهما.

ففي بعض الأيام وَثَبا عليه، وقتلاه، فأُخذا وقُتِلا، وعُرِفَ أَنَّهما كانا من الحشيشية، فجلس مكانه الكند هري بأمر الإنكلتير، وسُرَّ الإنكلتير بمُصَاب المركيس، فإنه كان يضادُّه، ويراسل السُّلْطان في الإعانة عليه، فلما قُتِلَ سَكَنَ رَوْعُه، وذهب عنه ضَرُّه، وتزوَّج الكند هري بالملكة زوجة المركيس في ليلته، ودخل بها وهي حامل، وما الحمل في مِلَّة الفرنج عن النِّكاح حائل، ويكون الولد منسوباً إلى الملكة، هذه قاعدة هذه الطائفة المشركة.

وهذا الكند هري ابن أُخت ملك إفرنسيس من أبيه، وملك إنكلتير من أُمِّه، ودخل الفرنج في حُكْمه، وعاش إلى آخر سنة أربعٍ وتسعين، وتولاهم دون سَبْعِ سنين.

وقال العماد في «الفتح»: أضافه الأسقف بصور، فاستوفى رزقه وتعدَّى، وما درى أنه يتردَّى، وأكل وشَرِبَ، وشَبِعَ وطَرِبَ، وخرج وركب، فَوَثَبَ عليه رجلان وسكَّنا حركته بالسكاكين، ودكَّاه عند تلك الدكاكين، وهرب أحدُهما ودخل الكنيسة، وقد أخرج تلك النَّفس الخسيسة، فقال المركيس وهو مجروح، وفيه روح: احملوني إلى الكنيسة، فحملوه.

فلما أبصره أحد الجارحين وَثَبَ عليه، وزاده جُرْحاً على جُرْح، وقَرْحاً على قَرْح، فأخذ الفرنج الرَّفيقين، فألفوهما من الفداويَّة الإسماعيلية مرتدين، فسألوهما مَنْ وَضَعَهما على تدبير هذا التَّدْبير؟ فقالا: ملك الإنكلتير. فَقُتِلا شَرَّ قِتْلَة، فياالله من كافِرَيْن سفكا دَمَ كافر، وفاجرين فتكا بفاجر.

قال: ولم يعجبنا قَتْلُ المركيس في هذه الحالة، وإن كان من طواغيت الضَّلالة، لأنه كان عدو ملك الإنكلتير، ومنازِعُهُ على الملك والسرير، ومناقِشُهُ على القليل والكثير.

[استيلاء الفرنج على قلعة الداروم]

قال: وفي تاسع جمادى الأُولى استولى الفرنجُ على قلعة الدَّاروم، ثم خَرَّبوها، ورحلوا عنها، وأسروا مَنْ فيها. وكان الإنكلتير الملعون قد استفسَدَ من نوبة عكا نقَّابين حلبيّين فتمكّنوا من نَقْبِ المكان، وأحرقوا النَّقْب، وطلب أهلُ الحِصْن مُهْلَةً يشاورون فيها السلطان، فلم يمهلهم.

وفي رابع عشرة خرجت اليَزَكية[1] على الفرنج على قلعة تعرف بمجدل جناب ـ كذا قال في «الفتح»، وقال في «البرق»: بمجدل يابا، وكذا قال ابنُ شَدَّاد ـ وقُتِلَ كند كبير، ثم نزلوا تل الصَّافية، ثم إلى النّطرون، ثم إلى بيت نوبة، وهي وطأة بين جبالٍ، بينها وبين القُدْس مرحلة، وقد ألهبهم المسلمون بنهبهم، وأضعفوهم بسلبهم، يتسلَّطون عليهم من كلِّ ناحية، ويكمنون لهم تحت كلّ رابية، وقد قويت قلوبهم بثبات السلطان بالقُدْس.

وفي انسلاخ الشهر التقى الجمعان، وقد وصل العدو إلى قلونية، وهي من القُدْس على فرسخين، فلما رأى العدو ما لا يَدَانِ له به رَجَعَ ناكصاً على عقبيه، والمسلمون في إثرهم يكمنون لهم، وينالون منهم. وكان بدر الدين دُلْدُرُم في اليَزَك، فبعث مَنْ كَمَنَ لهم عند طريق يافا، فمرَّت بهم فوارس، فاستولى عليهم الكمينُ، وما سَلِمَ منهم أحد.

---

(١) اليزكية: أي طلائع العسكر. تقدّم التعريف بهم أكثر من مرة.

وفي ثالث جمادى الآخرة كبست الكُمناء قافلة، فكسبت وسلبت وأسرت.

وفي تاسعِهِ وصل الخبر أن الفرنج رحلوا بأَسْرهم، وأدلجوا ليلاً، ولم نعلم قصدهم، فعرف السُّلْطان أنه إلى طريق العسكر المِصْري، فندب الأمير فخر الدين الطُّنبا العادِلي، وشمس الدين أسلم النَّاصري حتى يُعلما العسكر، فالتقيا بهم بالحسي، وأخبراهم الخبر، فنزلوا وعَرَّسوا، وهم يظنُّون أن لا حس للعدوّ بأرض الحسي، فجاءهم، وفجأهم، فاستولى على بعض الأموال، وخَلَص أكثرُها مع الرجال، ومن جملة مَنْ كان في العسكر فلك الدين أخو العادل لأُمه[(١)]، فنجا بما قدر عليه من القوافل.

قال العماد: وجرى هذا كلُّه والملكان العادِلُ والأفضلُ غائبان، وعساكر المَوْصِل، واسِنْجار وديار بكر متباطئة في الإتيان، وسببه ما كان من تقيّ الدين وموته، وتشرُّطِ ولده في بقاء بلاد أبيه عليه، وأنَّ الأفضل كان طَلَبَ من والده البلادَ قاطع الفرات، ونَزَلَ عن جميع ما لَهُ من الولايات، وأنه إذا عَبَرَ إلى الرُّها وحَرَّان مَلَكَ تلك البُلْدان، ورحل من القُدْس في ثالث صَفَر، وأطلق له السُّلْطان عشرين ألف دينار سوى ما أصحبه برسم الخِلَع والتَّشريفات، ووصل إلى حلب، فاحتفل أخوه الظَّاهر لقدومه، وأقام له سُنَن المكارم ورسومه، ووقف بخدمته ماثلاً، وهز عطف الابتهاج إليه مائلاً، وأحضر له مفاتيح بلده، وقدَّم له كل ما في يده.

وسَمِعَ ناصر الدين بن تقيِّ الدين بما أقلقه، ودفع منه إلى ما أرهجه وأرهقه، ووصل رسولُه إلى العادل وهو بالقُدْس لاجئاً إلى ظِلِّه، راجياً لفضله، لائذاً بجنابه، عائذاً ببابه، فاحتمى له واحتمله، وقوَّى في تقويته أمله، وخاطب السُّلْطان في حَقِّه واستعطَفه.

وقال: أنا أمضي إليه وأحضره، وأؤمنه مما يحذَرُهُ، وتبقي هذه السَّنة عليه حَرَّان والرُّها، وتُعطيه في السَّنة الأُخرى حماة والمعرَّة، ثم قَرَّر السُّلْطان مع أخيه العادل أن يأخذ هو تلك البلاد، وينزل عن إقطاعاته بمصر ونصف خاصِّه ففعل، واستزاد قلعة جَعْبَر، فامتنع الملك الظَّاهر من تسليمها حتى استظهر، فسار العادلُ في العَشْر الأول من جُمادى الأُولى، وكتبَ السُّلْطان إلى الأفضل بالعَوْد، فجاء هذا راجعاً، وذهب ذلك مسارعاً، ووصل إلى حَرَّان والرُّها، وعاد في آخر جُمادى الآخرة، ومعه ابن تقي الدِّين.

قال القاضي ابنُ شَدَّاد: عاد الأفضل منكسراً متعتِّباً، فوصل دمشق، ولم

---

(١) هو سليمان بن شيرويه بن جندر. علم الدين (كذا في الذيل على الروضتين) توفي في التاسع والعشرين من المحرم سنة ٥٩٩هـ (الذيل على الروضتين وفيات سنة ٥٩٩هـ).

يحضر إلى خدمة السُّلْطان، فلما اشتدَّ خبر الفرنج سَيَّر إليه، وطلبه فما وَسِعَه التأخُّر، فسار إليه مع العساكر الواصلة إليه من الشَّرْق، فلقيه السُّلْطان، وتَرَجَّل له جَبْراً لقلبه، وتعظيماً لأمره.

قال: ولما بلغ ابنَ تقي الدين مَوْجِدَةُ السُّلْطان أنفذ إلى العادل يستشفع به ليطيِّب قَلْبَ السُّلْطان عليه، ويقترح أحد قسمين: إما حَرَّان والرُّها وسُمَيْساط وإما حماة ومَنْبج وسَلَمْية والمَعَرَّة مع كفالة إخوته، فراجع العادلُ السُّلْطانَ مراراً، فلم يفعل ذلك، ولم يُجِبْ إلى شيء منه، فكَثُرَتِ الشَّفاعة إليه، فحلف له على حَرَّان والرُّها وسُمَيْساط، على أنه إذا عَبَرَ الفُرَات أُعطي المواضع التي اقترحها، وتكفَّل إخوته، وتخلَّى عن تلك المواضع التي في يده، ثم التمس العادلُ خَطَّ السُّلْطان، فأبى، وألحَّ عليه، فَخَرَّق نُسخة اليمين، وانقطع الحديث، وأخذ من السُّلْطان الغيظُ، كيف يُخاطَبُ بمثل ذلك من جانب بعض أولاد أولاد أخيه ثم أعطاه خَطَّه بما استقرَّ من القاعدة.

ثم إنَّ العادلَ التمس من السُّلْطان البلاد التي كانت بيد ابن تقي الدِّين بعد انتقاله، وجرت مراجعاتٌ كثيرة في العِوَض عنها، وكان آخر ما استقرَّ أنَّه ينزلُ عن كلِّ ما هو شامي الفُرَات ما خلا الكَرَك والشَّوْبك والصَّلْت والبَلْقاء، وخاصَّه بمصر بعد النزول عن خُبْزه، وعليه في كلِّ سنة ستة آلاف غِرَارة غَلَّة، تُحمل للسلطان من الصَّلْت والبلقاء إلى القُدْس.

فصل

في عَزْم الفرنج على قَصْدِ القُدْس، وسببه

قال القاضي ابنُ شَدَّاد: وكان تقدَّم السُّلْطان إلى عسكر مِصْر بالمسير، وأوصاهم بالاحتراز عند مُقاربة العدو، فأقاموا ببِلْبِيس أياماً حتى اجتمعت القوافل إليهم، واتصل خَبَرهم بالعدو، ثم ساروا طالبي البلاد، والعدو يترقَّبُ أخبارهم، ويتوصل إليهم بالعرب المفسدين.

ولما تحقَّق العدوُّ أَمْرَ القَفْلِ أَمَرَ عسكره بالانحياز إلى سَفْح الجبل، وركِبَ في ألف راكب مُرْدِفين ألفَ راجل، فأتى تَلَّ الصَّافية، فبات، ثم سار حتى أتى ماءً يقال له الحَسي، فأنفذ السُّلْطان إلى القافلة ينذرهم نهضة العدو، وأمرهم أن يُبْعدوا في البرِيَّة.

وركب الإنكلتير الملعون مع العَرَب بجمعٍ يسير، وسار حتى أتى القَفْل،

وطاف حوله في صورة عَرَبي، ورآهم ساكنين قد غَشِيَهُمُ النُّعاس، فعاد، واستركب عسكره، وكانت الكَبْسةُ قريبةَ الصَّباح، فَبَغَتَ النَّاسَ، ووقع عليهم بخيله ورَجْله، فكان الشجاعُ الأيِّد القوي الذي ركب فرسَه ونجا بنفسه.

وانقسم القَفْل ثلاثة أقسام: قسم قصدوا الكَرك مع جماعةٍ من العَرب، وقسم أوغلوا في البرية مع جماعةٍ من العرب، وقسم استولى العدو عليهم، فساقهم بجمالهم وأحمالها، وجميعَ ما معهم، وكانت وقعة شنعاء لم يُصَبِ الإسلامُ بمثلها من مُدَّة مديدة، وتبدَّد النَّاسُ في البرية، ورموا أموالهم، وكان السعيد منهم من نجا بنفسه، وجمعَ العدو ما أمكنه جَمْعُه من الخيل والبغال والجمال والأقمشة وسائر أنواع الأموال، وكلَّف الجَمَّالين خدمة الجمال، والخَرْبَنْدِيَّة خدمة البغال، والسَّاسة خدمة الخيل، وسار في جَحْفَلٍ من غنيمةٍ يطلُبُ عسكره.

ولقد حكى مَنْ كان أسيراً معهم أنه في تلك الليلة وقع فيهم الصَّوتُ أَنَّ العسكر السُّلْطاني قد لحقهم، فتركوا الغنيمة، وانهزموا، وبَعُدُوا عنها زماناً، ثم انكشف الأمر، فعادوا وقد هَرَبَ جمعٌ من الأَسْرى، وكان الحاكي منهم، وأخبر أنَّ الأسارى خمسمائة، والجمال تناهز ثلاثة آلاف جمل.

ووصل العدو إلى مخيَّمه سادس عشر جُمادى الآخرة، وكان يوماً عظيماً عندهم، وَصَحَّ عزمهم على القُدْس، وقويت نفوسهم بما حَصَلوا عليه من الأموال والجمال التي تنقل المِيرَة والأزواد، ورتَّبوا جماعة على لُدّ يحفظون الطريق على من ينقل المِيرَة، وأنفذوا الكند هري إلى صور وأطرابُلُس وعكا يستحضر مَنْ فيها من المقاتلة ليصعدوا إلى القُدْس حرسه الله تعالى.

ولما عَرَفَ السُّلْطان ذلك منهم عَمَدَ إلى الأسوار فَقَسمها على الأُمراء، وتقدَّم إليهم بتهيئة أسباب الحصار، وأَخَذَ في إفساد المياه ظاهر القُدْس، فخرَّب الصَّهاريج والجباب، بحيث لم يبق حول القُدس ماء يُشْرَبُ أصلاً، وأرض القُدْس لا يُطْمَعُ في حفر بئرٍ فيها ماء مَعِين في جميعها، لأنها جبلٌ عظيم، وحَجَرٌ صُلْبٌ، وسَيَّر إلى العساكر يطلبها من الجوانب والبلاد.

قال: ولما كانت ليلة الخميس تاسع عشر جُمادى الآخرة أحضَر السُّلْطان الأُمراءَ عنده، فحضر الأمير أبو الهيجاء السَّمين بمشقَّةٍ عظيمة، وجلس على كُرْسي في خدمة السُّلْطان، وحضر المشطوبُ والأَسَدِية بأَسْرِهم وجماعة الأمراء، ثم أمرني أَنْ أكلِّمهم وأَحُثَّهم على الجهاد.

فذكرتُ ما يَسَّر الله من ذلك، وكان مما قُلْتُه إنَّ النبي ﷺ لما اشتدَّ به الأمر بايعه الصَّحابة ـ رضوان الله عليهم ـ على الموت في لقاء العدو، ونحن أَوْلى من

تأسّى به ﷺ، والمصلحة الاجتماع عند الصَّخْرة، والتحالف على الموت، فلعلَّ ببركة هذه النِّية يندفع هذا العدو. فاستحسن الجماعة ذلك، ووافقوا عليه.

ثم شَرَعَ السُّلْطان بعد أن سكت زماناً في صورة فِكْرٍ، والنَّاس سكوت كأَنَّ على رؤوسهم الطير، ثم شرع، وقال:

الحمد لله، والصَّلاة على رسول الله، اعلموا أنكم جُنْدُ الإسلام اليوم ومَنَعَتُه، وأنتم تعلمون أَنَّ دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم مُعَلَّقة في ذممكم، وأَنَّ هذا العدو ليس له من المسلمين مَنْ يلقاه إلا أنتم، فإنْ لويتم أَعِنَّتكم ـ والعياذ بالله ـ طوى البلاد كطيِّ السِّجِلِّ للكتاب، وكان ذلك في ذِمَّتكم، فإنَّكم أنتم الذين تصديتُم لهذا كلِّه، وأكلتم مال بيت مال المسلمين، فالمسلمون في سائر البلاد متعلِّقون بكم، والسلام.

فانتدب لجوابه سيف الدِّين المشطوب، وقال: يا مولانا نحن مماليكك وعبيدك، وأنت الذي أنعمت علينا، وكَبَّرْتنا، وعَظَّمتنا، وأعطيتنا، وأغنيتنا، وليس لنا إلا رقابنا وهي بين يديك، والله ما يرجع أحدٌ مِنَّا عن نُصْرتك إلى أن يموت.

فقال الجماعة مِثْلَ ما قال، وانبسطت نَفْسُ السُّلْطان بذلك المجلس، وطاب قَلْبُه، وأطعمهم، ثم انصرفوا.

ثم انقضى يوم الخميس على أشدِّ حالٍ في التأَهُّب والاهتمام، حتى كان العِشاءُ الآخرة اجتمعنا في خدمته على العادة، وسمَرْنا حتى مضى هَزِيعٌ من الليل، وهو غير منبسطٍ على عادته، ثم صَلَّينا العشاء، وكانت الصَّلاة هي الدُّستور العام، فصلَّينا وأخذنا في الانصراف، فدعاني ـ رحمه الله ـ وقال: أَعَلِمْتَ ما الذي تجدَّد؟ قلتُ: لا. قال: إنَّ أبا الهيجاء السَّمين أنفذ إليَّ اليوم، وقال: إنَّه اجتمع عندي جماعة المماليك الأُمراء، وأنكروا علينا موافقتنا لك على الحصار، والتأَهُّب له، وقالوا: لا مصلحة في ذلك، فإنَّا نخافُ أن نُحْصَرَ، ويجري علينا ما جرى على أهل عكا، وعند ذلك تؤخذ بلادُ الإسلام جمعاً، والرأي أن نلقى مَصَافَّ، فإنْ قَدَّر الله أن نهزمهم ملكنا بقيَّة بلادهم، وإن تكن الأُخرى سَلِمَ العسكر، ومضى القُدْس، وقد انحفظت بلادُ الإسلام بعساكرها مُدَّة بغير القدس.

وكان ـ رحمه الله ـ عنده من القُدْس أمرٌ عظيم لا تحمله الجبال، فشقَّ عليه هذه الرِّسالة، وأقمتُ تلك الليلة في خدمته حتى الصَّباح، وهي من اللَّيالي التي أحياها في سبيل الله ـ رحمه الله ـ وكان مما قالوه في الرِّسالة: إنك إن أردتنا نقيم فتكون معنا أو بعض أهلك، حتى نجتمع عنده، وإلا فالأكراد لا يدينون للأتراك، والأتراك لا يدينون للأكراد.

وانفصل الحال على أن يقيم من أهله مجد الدين بن فَرُّخْشاه صاحب بَعْلَبَك[١]، وكان ـ رحمه الله ـ يحدِّث نفسه بالمقام، ثم منعه رأيه عنه لما فيه من خَطَرِ الإسلام.

فلما قارب الصُّبْح أشفقتُ عليه وخاطبتُهُ في أن يستريح ساعةً لعلَّ العينَ تأخذ حَظَّها من النَّوْم، وانصرفتُ عنه إلى داري، فما وصلتُ إلا والمؤذن قد أَذَّن، فأخذتُ في أسباب الوضوء، فما فرغتُ إلا والصُّبْح قد طلع، وكنتُ أُصَلِّي الصُّبْح معه في غالب الأحوال، فَعُدْتُ إلى خدمته وهو يجدِّد الوضوء، فصلَّينا، ثم قلتُ له: قد وقع لي واقعٌ أعرضه، فأَذِنَ لي فيه.

فقلتُ: المولى في اهتمامه وما قد حَمَّل نفسه من هذا الأمر مجتهدٌ فيما هو فيه، وقد عَجَزَتْ أسبابُهُ الأَرْضية، فينبغي أن ترجع إلى الله تعالى، وهذا يوم الجمعة، وهو أبرك أيام الأُسبوع، وفيه دعوةٌ مستجابة في صحيح الأحاديث، ونحن في أبرك موضعٍ نقدر أن نكون فيه في يومنا هذا، فالسُّلْطان يغتسل للجمعة، ويتصدَّق بشيءٍ خِفْيَةً بحيث لا يُشْعَر أنه منك، وتصلِّي بين الأذان والإقامة ركعتين تُنَاجي فيهما رَبَّك، وتفوِّض مقاليد أمورك إليه، وتعترف بعجزك عما تصدَّيت له، فلعلَّ الله يرحمك ويستجيب دُعاءك.

قال: وكان ـ رحمه الله ـ حسن العقيدة، تامَّ الإيمان يتلقَّى الأمور الشَّرْعية بأكمل انقيادٍ وقَبُول. ثم انفصلنا، فلما كان وقتُ الجمعة صلَّيْتُ إلى جانبه في الأقصى، وصلَّى رَكْعتين، ورأيتُهُ ساجداً وهو يذكر كلمات، ودموعُهُ تتقاطَرُ على مُصَلَّاه، رحمه الله.

ثم انقضت الجمعة بخير، فلما كان عَشِيَّتُها، ونحن في خدمته على العادة وصلت رُقْعة جُرْدِيك ـ وكان في اليَزَك ـ يقول فيها: إن القوم ركبوا بأَسْرهم، ووقفوا في البَرِّ على ظهر، ثم عادوا إلى خيامهم، وقد سَيَّرْنا جواسيس تكشِفُ أخبارهم.

ولما كان صبيحة السبت وصلت رُقْعة أُخرى يخبر فيها أن الجواسيس

(١) هو بهرام شاه بن فرّوخ شاه بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذي، الملك الأمجد، مجد الدين، أبو المظفر، صاحب بعلبك، أعطاه الناصر يوسف عم أبيه بعلبك بعد وفاة أبيه، وكان أديباً فاضلاً شاعراً محسناً جواداً، كاتباً ممدحاً، وهو أشعر بني أيوب وشعره مشهور، وله ديوان، قتل سنة ٦٢٨هـ (شفاء القلوب ص٣٣٣ ـ ٣٣٧، مرآة الزمان ٨/ ٦٦٦، تاريخ أبي الفداء ٣/ ١٤٦، فوات الوفيات ١/ ١٥٠، مرآة الجنان ٤/ ٦٥، البداية والنهاية ١٣/ ١٣١، السلوك ١/ ٢٤٠، النجوم الزاهرة ٦/ ٢٧٥، شذرات الذهب ٥/ ١٦٩، مفرج الكروب ٤/ ٢٨٤، كنز الدرر ٧/ ٣٠١).

رجعوا وأخبروا أَنَّ القوم اختلفوا في الصُّعود إلى القُدْس والرَّحيل إلى بلادهم، فذهب الفرنسيسية إلى الصُّعود إلى القُدْس، وقالوا: نحن إنما جئنا من بلادنا بسبب القدس، ولا نرجع دونه. وقال الإنكلتير: إنَّ هذا الموضع قد أفسدت مياهه، ولم يبق حوله ماء أصلاً، فمن أين نشرب؟ قالوا له: نشرب من نهر نقوع، وبينه وبين القُدْس مقدار فرسخ. فقال: كيف نذهب إلى السَّقي؟ فقالوا: ننقسم قسمين، قسم يذهب إلى السقي مع الدوابِّ، وقسم يبقى على البلد مع اليَزَك، ويكون الشُّرْب في اليوم مرَّة.

فقال الإنكلتير: إذاً يؤخذ العسكر البَرَّاني الذي يذهب مع الدَّواب، ويخرج عسكر البلد على الباقين، ويذهب دين النَّصْرانية. فانفصل الحالُ على أَنَّهم حكَّموا ثلاثمائة من أعيانهم، وحَكَّمَ الثلاثمائة اثني عشر من أعيانهم، وحكَّم الاثنا عشر ثلاثة منهم، وقد باتوا على حُكْم الثلاثة، فما يأمرونهم به يُفْعل، فلما أصبحوا حكموا عليهم بالرَّحيل، فلم تمكن المخالفة، وأصبحوا في بُكْرة الحادي والعشرين من جُمادى الآخرة راحلين إلى نحو الرَّمْلة، ناكصين على أعقابهم، ولله الحمد.

[رحيل الفرنج نحو الرملة]

ووقف عسكرهم إلى أن لم يبق في المنزلة إلا الآثار، ثم نزلوا بالرَّمْلة، وتواتر الخَبَرُ بذلك، فركب السُّلْطان ـ قَدَّس الله روحه ـ وركب النَّاس، وكان سرور وفرح، ولكن السُّلْطان خاف على مِصْر لما حصلوا عليه من الجمال والظَّهْر، وكان قد ذكر الإنكلتير مثل هذا مراراً.

فصل

في تردُّد رُسُل الإنكلتير في معنى الصُّلْح وما جرى في أثناء ذلك إلى أَنْ تَمَّ، ولله الحمد(١)

وقد ساق ذلك القاضي ابن شَدَّاد أحسنَ سياق، واستقصى الأمر فيه بخلاف العماد، فقال: إنَّ الإنكلتير جاء منه رسول يقولُ: قد هلكنا نحنُ وأنتم، والأصلح حَقْنُ الدِّماء، ولا ينبغي أن يُعتقد أن ذلك عن ضَعْفٍ مني بل للمصلحة، ولا يُغترّ بتأَخُري عن منزلي، فالكبش يتأخَّر لينطح.

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/٢١٨ ـ ٢١٩: ذكر الهدنة مع الفرنج وعود صلاح الدين إلى دمشق.

ثم جاء رسولُه يقول: لا يجوز لك أن تُهلك المسلمين كُلَّهم، ولا يجوز لي أَنْ أُهلك الفرنج كُلَّهم، وهذا ابن أُختي الكند هري قد مَلَّكْتُهُ هذه الدِّيار، وسَلَّمْتُهُ إليك يكونُ هو وعسكره بحكمك، ولو استدعيتَهُمْ إلى الشَّرْق سَمِعُوا وأطاعوا، وأَنَّ جماعةً من الرُّهْبان والمنقطعين قد طلبوا منك كنائس، فما بخلت عليهم بها، وأنا أطلبُ منك كنيسةً، وتلك الأمور التي كانت تضيِّق صدرك لما كانت تجري المراسلة مع الملك العادل قد قلتُ بتركها، وأعرضت عنها، ولو أعطيتني مِقْرَعة أو قَرِيَّةً[1] قَبَّلْتُها وقَبِلْتُها.

فاستشارَ السُّلْطان الأُمراء في جوابه، فأشاروا بالمحاسنة وعَقْدِ الصُّلحْ؛ لما كان قد أخذ المسلمين من الضَّجر والتَّعب، وعلاهم من الديون، واستقرَّ الحالُ على هذا الجواب: إنك إذا دَخَلْتَ معنا هذا الدُّخول فما جزاءُ الإحسان إلا الإحسان، ابنِ أُختك يكون عندي كبعض أولادي، وسيبلغك ما أفعل في حَقِّه من الخير، وأنا أُعطيك أكبر الكنائس وهي القيامة، وبقيَّة البلاد نَقْسِمُها، والسَّاحلية التي بيدك تكون بيدك، والتي بأيدينا من القلاع الجبلية تكون لنا، وما بين العملين يكون مناصفة، وعَسْقلان وما وراءها تكون خَرَاباً لا لنا ولا لكم، وإن أردتم قُرَاها كانت لكم، والذي كنتُ أكرهُهُ حديث عسقلان. فانفصل الرَّسول طَيِّب القَلْب.

قال: واتصل الخبر أنهم بعد وصول الرَّسول إليهم راحلون إلى جهة عَسْقلان، طالبون جهة مِصْر.

ووصل رسولٌ من جانب قُطْب الدِّين بن قَلِيج أَرْسلان يقول: إن الباب قد وَصَلَ إلى قُسْطنطينية في خَلْق لا يعلم عدَدَهم إلا الله تعالى، وقال الرَّسول: إني قَتَلْتُ في الطَّريق اثني عشر فارساً، ويقول: تقدَّم إلى مَنْ يتسلَّم بلادي مني، فإني قد عَجَزْتُ عن حِفْظها. فلم يصدِّق السُّلْطان هذا الخبر، ولا اكترث به.

ثم جاء رسول الإنكلتير يطلبُ أن يكون في قلعة القُدْس عشرون نَفَراً، وأَنَّ من سَكَنَ من النَّصارى والفرنج في البلد لا يُتَعَرَّض لهم، وأما بقية البلاد فلنا منها السَّاحليات والوطأة، والبلاد الجبلية لكم، وأخبر الرسولُ من عند نفسه مناصحةً أنهم قد نزلوا عن حديث القُدْس ما عدا الزِّيارة، وإنما يقولون هذا تصنُّعاً، وأَنَّهم راغبون في الصُّلح، وأَنَّ الإنكلتير لا بُدَّ له من الرَّواح إلى بلده.

فأُجيب بأنَّ القُدْس ليس لكم فيه حديثٌ سوى الزِّيارة. فقال الرَّسول: وليس على الزُّوار شيءٌ يؤخَذ منهم؟ فَعُلِمَ من هذا القول الموافقة.

---

(١) المقرعة: السوط، وكل ما قرعت به، والقريّة: العصا.

وأما البلاد فعسقلان وما وراءها لا بُدَّ من خَرَابه. فقال الرسول: قد خَسِرَ الملكُ على سورها مالاً جزيلاً، فسأل المشطوبُ أن يجعل مزارِعَها وقُرَاها في مقابل خسارته. فأجاب السُّلْطان: وأن الدَّاروم وغيره يُخْرَب، ويكون بلدها مناصفة، وأما باقي البلاد فيكون لهم من يافا إلى صور بأعمالها، ومهما اختلفنا في قرية كانت مُنَاصفة.

ثم جاء الرسول يقول: الملك يسألك ويخضع لك في أن تترك له هذه الأماكن الثلاثة عامرةً، وأي قَدْرٍ لها عند ملكك وعظمتك، وما سببُ إصراره عليها إلا أَنَّ الفرنج لم يسمحوا بها، وهو قد ترك القُدْس بالكُلِّيَّة لا يطلب أن يكون فيه لا رُهْبان ولا قسوس إلا في القيامة وحدَها، فتترك له أنت هذه البلاد ويكون الصُّلْح عامّاً، فيكون لهم كل ما في أيديهم من الدَّاروم إلى أنطاكية، ولكم ما في أيديكم، وينتظم الحال ويروح، وإن لم ينتظمِ الصُّلْح، فالفرنج ما يمكِّنونه من الرَّوَاح، ولا يمكنه مخالفتهم.

قال القاضي: فانظر إلى هذه الصِّناعة في استخلاص الفُرَص، باللِّين تارةً، وبالخشونة أُخرى، وكان ـ لعنه الله ـ مضطراً إلى الرَّوَاح، وهذا عمله مع اضطراره، والله المسؤول في أن يكفي المسلمين مكره، فما بُلُوا بأعظم حيلةً، ولا أشدّ إقداماً منه.

فأجابه السُّلْطان بأَنَّ أنطاكية لنا معهم حديث، ورُسُلنا عندهم، فإنْ عادوا بما نريد أدخلناهم في الصُّلْح، وإلا فلا، وأما البلاد التي سألها فلا يوافق المسلمون على دَفْعها إليه، وإلا فلا قدر لها. وأما سُورُ عسقلان فيأخذ في مقابلة ما خَسِرَ عليه لُدّاً في الوطأة.

ثم عاد الرسولُ، وقال: إن الملك قال لا يمكننا أن نخرِّب من عَسْقلان حجراً واحداً، ولا يُسْمع عنا في البلاد مثل ذلك. وأما البلاد فحدودها معروفة، لا مناكرة فيها. وعند ذلك تأَهَّب السُّلْطان للخروج إلى جهة العدوِّ، وإظهار القوة، وشدَّة العَزْم على اللِّقاء.

[رحيل الفرنج نحو بيروت]

وبلغه في العاشر من رجب أَنَّ الفرنج ـ خذلهم الله ـ قد رحلوا طالبين نحو بيروت، فبرَّز من القُدْس إلى منزلةٍ يقال لها الجيب، وجاء العادلُ من الشَّرْق، والظَّاهر من حلب، ورحل من الجيب إلى بيت نوبة، ثم رحل إلى الرَّمْلة، فنزل بها على تلالٍ بين الرملة ولدّ، وركب جريدةً حتى أتى يازُور وبيت دَجَن، وأشرف على يافا، ثم نزل عليها من الغد، ورتَّب عسكره، في الميمنة ولده الظاهر، وفي

الميسرة أخوه العادل، وركَّب المنجنيقات، وزحف عليها، فأرسل العدو رسولين نَصْرانياً وفرنجياً يطلبان الصُّلْح، فطلب منهم قاعدة القُدْس وقطيعته، فأجابوا إلى ذلك، واشترطوا أن يُنْظروا إلى يوم السبت تاسع عشر رَجَب، فإن جاءتهم نجدة، وإلا تَمَّتِ القاعدة على ما استقرَّ.

فأبى السُّلْطان الإنظار، وأمر بالنَّقْب فَحُشِيَ وأُحرق، فوقع بعض البدنة، فوضع العدو أخشاباً عظيمة خلف النَّقْب، فالتهب فمنع من الدُّخول في الثُّلْمة، وقاتلت خارج الأبواب إلى الليل، فلما أصبحوا وقعت البدنة فعلا غُبارٌ مع الدُّخان، فأظلم الأفق، وما تجاسر أحد على الولوج خوفاً من اقتحام النَّار، فلما انكشفت الغَبَرَة ظَهَرَتْ أَسِنَّةٌ قد نابت مناب الأسوار، ورماح قد سَدَّتِ الثُّلْمة حتى عن نفوذ الأبصار، ورأى النَّاس هولاً عظيماً من صَبْرِ القوم وثباتهم، ولقد رأيتُ رجلين على ممشى السور يمنعان المتسلِّق فيه من جهة الثُّلْمة، وقد أتى أحدَهما حَجَرُ المنجنيق، فأخذه، ونزل إلى داخل، فقام رفيقُه في مقامه، مُتَصدِّياً لمثل ما لحقه أسرع من لمح البصر، بحيث لم يفرق بينهما إلا ناقدٌ بصير.

ولما رأى العدو ما قد آل الأمرُ إليه سَيَّروا يطلبون الأَمان، فقال ـ رحمه الله ـ: الفارس بفارس والتركبلي[1] بمثله، والرَّاجل بالرَّاجل، والعاجز فعلى قطيعة القُدْس.

فنظر الرَّسولُ ورأى القِتال على الثُّلْمة أشد من إضرام النَّار، فسأل السُّلْطان أن يُبَطِّل القتال إلى أن يعود، فقال: ما أقدرُ على مَنْع المُسْلمين من هذا الأمر، ولكن ادخل إلى أصحابك فَقُلْ لهم ينحازون إلى القَلعة، ويتركون النَّاس يشتغلون بالبلد فما بقي دونه مانع. ففعلوا، وانحازوا إلى قلعة يافا بعد أن قُتِلَ منهم جماعة، ودخل النَّاس البلد عَنْوَةً، ونهبوا منه أقمشةً عظيمة، وغلالاً كثيرة، وأثاثاً وبقايا قُماشِ ما نُهِبَ من القافلة المِصْرية، واستقرَّتِ القاعدةُ على الوجه الذي قَرَّره السُّلْطان.

وكان قايماز النَّجْمي في طرف الغور لحمايته من عسكر العدو الذي بعكا، فوصل منه كتابٌ يخبر فيه أَنَّ الإنكلتير الملعون لما سَمِعَ خبر يافا أعرض عن قصد بيروت، وعاد على قَصد يافا، فاشتدَّ عَزْمُ السُّلْطان على تتمة الأمر، وتسلُّم القلعة، وكنتُ ممن لم يَرَ الأمان لأنه قد لاح أخذُهم، وكان النَّاس لهم مُدَّة لم يظفروا من العدو بمغنمٍ يوثبهم عليه، فكان أَخْذُهم عَنْوَةً مما يبعث هِمَم العسكر، غير أَنَّ

---

(١) التركبلي: من الجند الفرنج الذين كانوا يجندون من العناصر المحلية، من عناصر مسيحية محلية، ومن المسلمين الذين اعتنقوا المسيحية. تقدّم التعريف بهم في الجزء الثاني.

الأمان وقع واتفق الصُّلْح، فكنتُ بعد ذلك ممن يحثُّ على إخراجِ العدو من القلعة وتسلُّمِها خوفاً من لحوق النجدة.

وكان السُّلْطان يشتدُّ حِرْصُهُ على ذلك غير أَنَّ النَّاس قد أقعدهم التَّعَبُ عن امتثال الأمر، وأخذ منهم الحديد وشِدَّةُ الحَرِّ ودخان النَّار، بحيث لم يبق لهم استطاعة على الحركة.

وسَمِعْنا بوق الفرنج في السَّحَر، فعلمنا بوصول النجدة، فسيَّر السلطانُ معي عِزَّ الدين جُرْديك وعَلَم الدين قيصر، ودرباس المهراني، وعدل الخزانة شمس الدين، وقال: امضِ إلى الملك الظَّاهر وقُلْ له يقف ظاهر الباب القِبْلي، وتدخل أنت ومن تَرَاه إلى القَلْعة، وتُخْرجون القوم، وتستولون على ما فيها من الأموال والأسلحة، وتكتبها بخطِّك إلى الظَّاهر، وهو ظاهر البلد، وهو يسيِّرها إلينا.

ففعلنا ودخَلْنا القلعة، وأمرنا الفرنج بالخروج، فأجابوا وتهيؤوا، فقال جُرْديك: لا ينبغي أن يخرج منهم أحد حتى يخرجَ النَّاسُ من البلد خشيةَ أن يتخطَّفوهم. وكان النَّاس قد داخلهم الطَّمع في البلد، وأخذ يشتدُّ في ضَرْب النَّاس وإخراجهم، وهم غير مضبوطين بعِدَّةٍ، ولا محصورين في مكان، فكيف يمكن إخراجهم؟!

وطال الأمر إلى أن علا النَّهار، وأنا ألومُهُ، وهو لا يرجع عن ذلك، والزمان يمضي، فلما رأيت الوقت يفوت، قلتُ له: إن النجدة قد وصلت، والمصلحة المسارعة في إخراجهم. فأجاب، وأخرجنا خمسةً وأربعين نفراً بخيولهم ونسائهم، وسَيَّرناهم، ثم اشتدَّتْ أنْفُس الباقين، وحدَّثتهم نفوسُهُمْ بالعِصْيان، وكانوا استقلُّوا المراكب التي جاءتهم، وظنُّوا أن لا نجدةَ لهم فيها، ولم يعلموا أنَّ الإنكلتير مع القوم، ورأوهم قد تأخَّروا عن النزول إلى عُلُوِّ النَّهار، فخافوا أن يمتنعوا، فيؤخذوا ويقتلوا، فخرج من خَرَجَ، ثم بعد ذاك قويت النجدة حتى صاروا خمسةً وثلاثين مركباً، فقويت نفوسُ الباقين في الحِصْن، فظهرت منهم أمارات العِصْيان ودلائله.

فقلتُ لأصحابنا: خذوا حِذْركم فقد تغيَّرت عزائمُ القوم. فما كان إلا ساعة بحيثُ صِرْتُ خارجَ البلد، وقد حَمَلَ القومُ من القلعة، وأخرجوا مَنْ كان في البلد من الأجناد، ولقد ازدحَمَ النَّاس في الباب حتى كاد يتلفُ منهم جماعة، وبقي في بعض الكنائس جماعة من رعاع العَسْكر مشتغلين بما لا يجوز، فهجموا عليهم، وقتلوا منهم وأسروا، وعُرِّفَ السُّلْطان، فأمر النَّاسَ، فزحفوا، وعاد الحصارُ كما كان، وحشروا العدو في القلعة، واستبطؤوا نزول النجدة إليهم، وخافوا خوفاً عظيماً، فأرسلوا بطركهم والقسطلان إلى السُّلْطان يعتذران مما جرى، ويسألانه القاعدة الأولى.

وكان سببُ امتناع نزول النجدة أنهم رأوا البلد مشحوناً ببيارق المُسْلمين ورجالهم، فخافوا أن تكون القلعة قد أُخذت، وكان البحر يمنع من سماع الصَّوْت وكثرة الضجيج والتهليل والتكبير، فلما رأى مَنْ في القَلْعة شِدَّةَ الزَّحْف عليهم، وامتناع النجدة من النُّزول مع كَثْرتها، فإنَّها بلغت نيفاً وخمسين مركباً، منها خمسة عشر من الشواني علموا أَنَّ النجدة قد ظنوا أَنَّ البلد قد أُخِذ، فوهب رَجُلٌ منهم نفسه للمسيح، وقفز من القلعة إلى الميناء، وكان رملاً، فلم يُصِبْه شيء، وعدا إلى البحر، فحدَّث الإنكلتير بالحديث، فما كان إلا ساعة حتى نزل كل من في الشَّواني إلى الميناء، هذا كلُّه وأنا أشاهد ذلك، فحملوا على المسلمين، فأخرجوهم من الميناء، فقبَضَ السُّلْطان على الرُّسُل، وأمر بتأَخُّر الثَّقَل والأسواق إلى يازُور، فرحل النَّاس، وتخلف لهم ثَقَل عظيم مما كانوا نهبوا من يافا.

وخرج الإنكلتير إلى موضع السُّلْطان الذي كان فيه لمضايقة البلد، وأمر مَنْ في القَلْعة أن يخرجوا إليه لتعظيم سوادُه.

ثم اجتمع به جماعةٌ من المماليك طلبهم، وحَضَرَ الحاجبُ أبو بكر العادِلي، وكان قد صادَقَ جماعةً من خواصِّ المماليك، ودخل معهم دخولاً عظيماً، بحيث كانوا يجتمعون به في أوقاتٍ متعدِّدة، وكان قد صادق من الأُمراء جماعةً كبدر الدين دُلْدُرُم وغيره، فلما حضروا عنده جَدَّ وهَزَلَ، ومن جُمْلة ما قال:

هذا السُّلْطان عظيمٌ، وما في الأرض للإسلام ملكٌ أكبر ولا أعظمُ منه، كيف رَحَلَ عن المكان بمجرَّد وصولي، ووالله ما لِبِسْت لأَمَة حَرْبي ولا تَأَهَّبْتُ لأمرٍ، وليس في رِجْلَيَّ إلا زربول البحر، فكيف تأخر؟!

ثم قال: والله إنه لعظيم، والله ما ظننتُ أنه يأخذ يافا في شهرين، فكيف أخذها في يومين؟! ثم قال لأبي بكر الحاجب: تُسَلِّم على السُّلْطان، وتقول له: بالله عليك أَجِبْ سؤالي في الصُّلْح، فهذا أمر لا بُدَّ له من آخر، وقد هلكت بلادي وراء البحر، وما دوام هذا مصلحة لا لنا ولا لكم.

فأرسل السُّلْطان إليه في الجواب: إنك كنتَ طَلَبْتَ الصُّلْح أولاً على قاعدةٍ، وكان الحديث في يافا وعَسْقَلان، والآن فقد خَرِبَتْ هذه يافا، فيكون من قَيْسارِيَّة إلى صور.

فأرسل الإنكلتير يقول: إنَّ قاعدة الإفرنج أَنَّه إذا أعطى واحدٌ لواحدٍ بلد صار تبعه وغُلامه، وأنا أطلب منك هذين البلدين: يافا وعَسْقلان، وتكون عساكرهما في خدمتك دائماً، وإذا احتجتَ إليَّ وصلتُ إليك في أسرع وقتٍ، وخدمتك كما تعلم خدمتي.

فقال السُّلْطان: حيثُ دَخَلْتَ هذا المدخل، فأنا أجيبك على أن تجعل البلدين قسمين: **أحدهما**: لك، وهو يافا وما وراءها. **والثاني**: لي، وهو عَسْقلان وما وراءها. ثم رَتَّبَ السُّلْطان اليَزَك بيازُور، وأمر بخرابها وخراب بيت دَجن ورَتَّب النَّقَّابين لذلك، وسار إلى الرَّمْلة، فعاد رسول الإنكلتير يشكر على إعطائه يافا، ويجدِّدُ السؤال في عسقلان، ويقول له: إن وقَعَ الصُّلْح في هذه الأيام الستة سار إلى بلاده، وإلا احتاج أن يشتِّي هاهنا.

فأجابه السُّلْطان في الحال، وقال: أما النزول عن عسقلان فلا سبيل إليه، وأما تشتيته هاهنا فلا بُدَّ منها، لأنه قد استولى على هذه البلاد، ويعلم أنَّه متى غاب عنها أُخذت بالضَّرورة، وإذا أقام أيضاً إن شاء الله تعالى، وإذا سَهُلَ عليه أن يشتِّي هاهنا، ويبعُدَ عن أهله ووطنه مسيرةَ شهرين، وهو شابٌّ في عُنْفُوان شبابه، ووقت اقتناصِ لذاته ما يسهُلُ عليَّ أن أُشتِّي وأُصيِّف، وأنا في وسط بلادي، وعندي أهلي وأولادي، ويأتي إليَّ ما أريدُه ومَنْ أريده، وأنا رجل شيخ، قد كرهت لذَّات الدُّنيا، وشَبِعْتُ منها، ورفضتها عنِّي، والعسكر الذي يكون عندي في الشِّتاء غير الذي يكون في الصَّيف، وأنا أعتقد أني في أعظم العبادات، ولا أزال كذلك حتى يعطي الله النَّصر لمن يشاء.

ثم جاء رسوله يقول: كم أطرحُ نفسي على السُّلْطان، وهو لا يقبلني، وأنا كنتُ أحرص حتى أعود إلى بلادي، والآن فقد هَجَمَ الشِّتاء، وتغيَّرَتِ الأنواء، وعَزَمْتُ على الإقامة، وما بقي بيننا حديث.

[رحيل الفرنج نحو يافا ومنازلة السلطان لهم]

ثم بلغ السُّلْطان أنَّ عسكر العدو قد رحل من عكا قاصداً يافا، فسار ـ رحمه الله ـ فنزل على العَوْجاء، ووصل من أخبره أَنَّ العدو دخل قيساريَّة، ولم يبق فيه طمع، وبلغه أن الإنكلتير نازِلٌ خارج يافا في نَفَر يسير، فوقع له أن يكبسه، فأتاه فوجد خِيَمَهُ نحو عشر خِيَم، فحملوا عليهم فثبتوا، ولم يتحرَّكوا من أماكنهم، وكَشَّروا عن أنياب الحَرْب، وكانوا على الموت أصبر، فارتاعَ المسلمون منهم، ووجموا من ثَبَاتهم، وداروا حولهم حَلْقةً، وكانت عِدَّة الخيل سبعة عشر، وقيل: تسعة، والرجَّالة ثلاثمائة أو أكثر، فوجد السلطان من ذلك مَوْجِدَةً عظيمة، ودار على الأطلاب بنفسه يحثُّهم على الحملة، ويَعِدُهُم بالحُسْنى على ذلك فلم يُجب دعاءه أحدٌ سوى ولدِه الظَّاهر.

قال: وبلغني أنه قال له الجناح أخو المشطوب: قُلْ لغِلْمانك الذين ضربوا النَّاس يوم فتح يافا، وأخذوا منهم الغنيمة يحملون. وكان في قلوب العسكر من

صُلْح السُّلْطان على يافا حيث فَوَّتهم الغنيمة، فلما رأى السُّلْطان ذلك أعرض عن القتال، وغضب، وسار إلى يازُور.

قال: ولقد بلغني أنَّ الإنكلتير أخذ رُمْحه ذلك اليوم، وحمل من طَرَفِ الميمنة إلى طَرَفِ المَيْسرة، فلم يتعرض له أحد.

قلت: ووصل من الفاضل كتابٌ من دمشق، يقول فيه: كَثُرَ الإرجاف بهلاك ملك الإنكلتير، فإن كان كذلك فجوابُ كلٍّ من قَصَّر في يافا عن أخذه عن السُّلْطان ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٤٠]، وجوابُ السُّلْطان لهم عن ملك الإنكلتير: إلا تقتلوه فقد قتله الله. ولم يزل لطيفاً، ولم يزل مولانا يحمل الثقل ثقيلاً وخفيفاً، ومن كان الله عليه لم يكن قوياً، ومن كان الله معه لم يكن ضعيفاً.

[رحيل السلطان إلى النطرون ثم إلى القدس]

قال القاضي: ثم سار السُّلْطان إلى النطرون، ثم إلى القُدْس، فنظر العمائر ورَتَّبها، ثم عاد إلى النطرون، وتوافت إليه فيه العساكر، ووصل علاءُ الدين ابن صاحب المَوْصل، ثم قَدِمَ عسكر مِصْر، وفيهم سيف الدين يازكوج، وجماعةُ الأسدية في خدمة ولده الملك المؤيَّد مسعود، ووصل المنصور ناصر الدين محمد بن تقي الدين، فلقيه الظَّاهر إلى بيت نوبة، ودخل به على السُّلْطان، فنهض واعتنقه، وضمَّه إلى صَدْره، وغشيه البكاءُ، فَصَبَّر نفسَهُ حتى غلبه الأمر، فبكى النَّاسُ لبكائه ساعةً، ثم باسطه، وسأله عن الطريق، وكان معه عسكر جميل، فقرَّتْ عينُ السُّلْطان به، ثم سار ونزل في مقدِّمة العسكر مما يلي الرَّمْلة.

ولما رأى السلطانُ العساكر قد اجتمعت جَمَعَ أرباب الرأي، وقال: إن الإنكلتير قد مَرِضَ مرضاً شديداً، والإفرنسيسيَّة قد ساروا راجعين ليعبروا البحر من غير شكٍّ، ونفقاتُهُم قد قَلَّتْ، وأرى أن نسير إلى يافا، فإن وجدنا فيها طمعاً، وإلا عُدْنا إلى عَسْقلان، فما تلحقها النجدة إلا وقد بلغنا منها غَرَضاً. فوافقوه على ذلك، فأرسل عِزَّ الدين جُرْديك، وجمال الدين فرج سادس شعبان حتى يكونا قريباً من يافا.

[مرض ملك الإنكلتير ورحيل الإفرنسيسة إلى بلادهم]

هذا، ورُسُل الإنكلتير لا تنقطع في طلب الفاكهة والثَّلْج، وأوقع الله عليه في مرضه شهوة الكُمَّثْرَى والخوخ. وكان السُّلْطان يمدُّه بذلك ويقصد كشف الأخبار بتواتر الرُّسُل، والذي انكشف له أَنَّ فيها ثلاثمائة فارس على قول المكثِّر، ومائتي فارس على قول المقلِّل، وأن الكند هري تردَّدَ بينه وبين الفرنسيسية في مقامهم، وهم عازمون على عبور البحر قولاً واحداً.

[مسير السلطان إلى جهة الرملة]

فسار السُّلْطان إلى جهة الرَّمْلة، وجاء رسول الإنكلتير مع الحاجب أبي بكر يشكر السُّلْطان على إسعافه بالفاكهة والثلج، وذكر أبو بكر أنه انفرد به، وقال له: قُلْ لأخي - يعني الملك العادل - يبصر كيف يتوصل إلى السُّلْطان في معنى الصُّلْح، ويستوهب لي منه عَسْقلان، وأمضي، ويبقى هو هاهنا مع هذه الشِّرْذِمة اليسيرة، ويأخذ البلاد منهم، فليس غرضي إلا إقامة جاهي بين الفرنجية، وإن لم ينزل السُّلْطان عن عسقلان، فتأخذ لي منه عِوَضاً عن خسارتي على عمارة سورها. فأرسل السُّلْطان إلى العادل: إنْ نزلوا عن عسقلان فصالحهم، فإنَّ العسكر قد ضَجِرَ من ملازمة البيكار(١)، والنفقات قد نَفِدَتْ.

[عقد الهدنة بين السلطان والفرنجة]

ثم إنَّ الإنكلتير نزل عن عَسْقلان وعن العِوَض عنها، واستوثق منه على ذلك، فأحضرَ السُّلْطان الديوان يوم السبت ثامن عشر شعبان، وذكر يافا وعملها، وأخرج الرَّمْلَة منها، ولُدّ، ومجدل يابا، ثم ذكر قَيْسَارِيَّة وأعمالها، وأَرْسُوف وعملها، وحيفا وعملها، وعكا وعملها، وأخرج منها النَّاصرة وصفورية، وأثبت الجميع في ورقةٍ، وقال للرسول: هذه حدودُ البلاد التي تبقى في أيديكم، فإن صالحتم على ذلك فمبارك، وقد أعطيتكم يدي، فينفِّذ الملك من يحلف في بُكْرة غد، وإلا فنعلم أنَّ هذا تدفيع ومماطلة.

وكان من القاعدة أن تكون عَسْقلان خراباً، وأن يتفق أصحابُنا وأصحابهم على خَرَابها، واشترط دخول بلاد الإسماعيلية، واشترطوا هم دخول صاحب أنطاكية وطرابُلُس في الصُّلْح، وشرط أن تكون الرملة وَلُدّ بين المسلمين وبينهم مناصفة.

واستقرَّت القاعدة على أنهم يحلفون يوم الأربعاء الثَّاني والعشرين من شعبان، ورضي الإسبتارية والدَّاوية(٢) وسائر مقدَّمي الإفرنجية بذلك، ولم يحلف الإنكلتير، بل أخذوا يده، وعاهدوه، واعتذر بأنَّ الملوك لا يحلفون، وقنع من السُّلْطان بمثل ذلك.

ثم حلف الجماعةُ، فحلف الكند هري ابن أخته المُسْتخلف عنه في

(١) البيكار: أي الحرب والمعركة.

(٢) الإسبتارية والداوية: هم من الرهبان المحاربين، ويسمون أيضاً فرسان المعبد. تقدّم التعريف بهم أكثر من مرة.

السَّاحل، وباليان بن بارزان ابن صاحبة طبرية، ووصل ابن الهنفري وابن بارزان وجماعةٌ من مقدَّميهم إلى السُّلْطان، فأخذوا يده على الصُّلْح، واقترحوا حلف جماعة العادل، والأفضل، والظَّاهر، والمنصور، وسيف الدين المشطوب، ودُلْدُرم، وابنِ المقدَّم، وصاحب شَيْزَر، وكل مجاورٍ لبلادهم، وحُلِفَ لصاحب أنطاكية وطرابُلُس، وعَلَّق اليمين بشرط حلفهم للمسلمين.

قال: ووصل رسولُ سيف الدِّين بَكْتُمَر صاحب خِلاط يُبْدي الطاعة والموافقة، وتسيير العسكر، وحضر رسولُ الكُرْج[1]، وذكر فصلاً في معنى الدِّيارات التي لهم في القُدْس وعمارتها، وشكوا من أَنَّها أُخِذَتْ من أيديهم، ويسأل رَدَّها إلى أيدي نُوَّابهم، ورسول صاحب أَرْزَن الرُّوم يبذل الطَّاعة والعبودية.

قال العماد: وعُقِدَتْ هُدْنة عامَّة في البَرِّ والبحر، والسَّهْل والوَعْر، وجعل لهم من يافا إلى قَيْساريَّة إلى عكا إلى صور، وأدخلوا في الصُّلْح أطرابُلُس وأنطاكية، ووقعت المصالحة مُدَّة ثلاث سنين وثلاثة أشهر، أولها مُبْتدأ أيلول الموافق للحادي والعشرين من شعبان.

قال: وكان الفرنج قد ملؤوا يافا من الرِّجال والأسلحة والأقوات ليتقوَّوا بها على فَتْحِ القُدْس، لتكون لهم ظهراً وعوناً لقُرْبها من البيت المقدَّس.

قلت: ومن الألفاظ الفاضلية: وقد فعلت الأقدار في رياضة عرائكهم ما كان سببه هذه الحركات المباركة، وكيف يشنِّع ملك إنكلتير بالغَدْر، وهو ـ لعنه الله ـ قد أتى بأقبح الغَدْر وأفحشه في أهل عكا نهاراً جِهاراً، وشهد فيها بخَزْيته وفضيحته المسلمون والنَّصارى، وغَدْرُ الفرنجِ معلومٌ: [الطويل]

إذا غَدَرَتْ حَسْناءُ أَوْفَتْ بعَهْدِها وَمِنْ عَهْدِها أَنْ لا يدوم لها عَهْدُ

القوم هادنوا لما ضعفوا، ويفسخون إذا قووا، ونحن ننتظر في ملك إنكلتير ما تُفْصح عنه المقادير في أمره، إما الهلاك ولا بأس لها، فيلقى الأَحِبَّة: المركيس ودوك وملك الألمان، ويؤنس في النَّار غُرْبتهم، ويكثر عِدَّتهم، وإما أن يُعافى فهو بين أمرين، إما أن يرجع إلى لعنة الله، وإلى مروءة البحر في تغريقه، وإما أن يقيم، فهنالك قد أبدى الشَّرُّ ناجذيه، ونكص الملعون من الوفاء على عقبيه، وانتظر الفُرْصة لتُنْتَهز، والعورة لِيَثِب.

ومما قيل في هذه الهُدْنة أبياتٌ من قصيدة نجم الدين يوسف بن الحسين ابن

(١) الكرج: جيل من الناس نصارى، من بني إيران بن أشوذ بن سام، وإلى إيران هذا تنسب مملكة إيران التي كان بها ملوك الفرس.

المجاور[١] التي تقدَّمت في فَتْح البيت المقدَّس، وهي: [الكامل]

يا صاحِ قُلْ للإنكلتير الكَلْبِ دَعْ عَنْكَ الجنونَ وخُذْ مقالةَ مُنْصِفِ
القُدْسُ ما فيه لِسَرْجِك مَطْمَعٌ كلا ولا نورُ الإله بمُنطَفي
والمسجدُ الأقصى فعنه تَقَصَّ مِنْ وَقْعِ الدَّبابيسِ الأليمةِ تَعْرِفِ
واسْتَفْتِ نَفْسَك فهي أَخْبَثُ ناصحٍ واتْرُكْ متابعةَ اللَّجاجِ المُتْلِفِ
واعْجَبْ لِرُمْحٍ بالرؤوس مُعَمَّمٍ واطْرَبْ لسيفٍ بالدِّماءِ مُغَلَّفِ
قد قُلْتُ لما قِيل صُلْحٌ قد جرى هذا حديثُ مُجَزِّفٍ ومُحَرِّفِ
سَلَفٌ تولّى السيفُ عَقْدَ شروطه أَخْبِبْ به مِنْ مُسْلَمٍ ومُسَلَّفِ
ظَنُّوه سِلْماً وهو في أرواحهم سَلَمٌ إلى أجلٍ لهم متخلِّفِ

وذكر أبو الحسن ابن السَّاعاتي[٢] الإنكلتير هذا في شِعْره في قصيدةٍ مَدَحَ بها السُّلْطان ـ رحمهما الله ـ يقول فيها: [الكامل]

مُنِعَتْ ظِبَاءُ المُنْحنى بأسوده وأشدّ ما أشكوه فَتْكُ ظِبائه
فَعَلَتْ بنا وهي الصَّديق لحاظُها كظُبَى صلاح الدين في أعدائه
سَلْ عنه قلب الإنكتار فإنَّ في خَفَقَانِهِ ما شئتَ من أنبائه
لولاك أَمَّ البيتَ غير مُدَافَعٍ ولسال سيل نَدَاك في بطحائه
وبَكَتْ جفونُ القُدْسِ ثانيةً دماً لترنُّمِ النَّاقوس في أَفْنائِهِ

فصل

فيما جرى بعد الهُدْنة
[عزم السلطان على الحج وإرسال عسكر لتخريب سور عسقلان]

قال القاضي: أمر السُّلْطان أن يُنَادى في الوطاقات[٣] والأسواق: ألا إن

(١) نجم الدين يوسف بن الحسين ابن المجاور، الوزير العزيزي، ولد سنة ٥٤٩هـ، وكان قد اتخذ مكتباً على باب جامع دمشق يعلم فيه الصبيان، وقد أنس به العزيز بن صلاح الدين، حتى أنه استوزره في نيابته عن أبيه بمصر، ثم لما مات صلاح الدين فوّض العزيز إليه جميع أمور دولته، توفي ابن المجاور بالقاهرة سنة ٦٠٠هـ (التكملة للمنذري ٢/ ٣٠ ـ ٣١).

(٢) أبو الحسن بن الساعاتي: هو علي بن محمد بن رستم بن هردوز، بهاء الدين، أبو الحسن الدمشقي، ثم المصري المعروف بابن الساعاتي، الأديب الشاعر ولد بدمشق، وتوفي بالقاهرة سنة ٦٠٤هـ، تقدّمت ترجمته في الجزء الثالث.

(٣) الوطاق في العربية، هو الخيمة والمعسكر المكون من خيام (تأصيل الدخيل ص١٩٨).

الصُّلْح قد انتظم، فمن شاء من بلادهم يدخل بلادنا فليفعل، ومن شاء من بلادنا يدخلُ إلى بلادهم فليفعل. وأشاع ـ رحمه الله ـ أن طريق الحج قد فُتِحَ من الشَّام، ووقع له عَزْمُ الحجِّ في ذلك المجلس، وكنت حاضراً ذلك جميعَهُ، وأمر أن يُسَيِّر مائة نقَّابٍ لتخريب سور عسقلان، معهم أمير كبير، ولإخراج الفرنج منها، ويكون معهم جماعة من الفرنج إلى حين وقوع الخراب في السُّور خشيةً من استبقائه عامراً، ففعل ذلك، وخربت.

وكان يوم الصُّلْح يوماً مشهوداً غشيَ النَّاسَ من الطَّائفتين من الفرح والسُّرور ما لا يعلمه إلا الله تعالى، والله العليم أنَّ الصُّلْح لم يكن من إيثاره، فإنه قال لي في بعض محاوراته في الصُّلْح: أخاف أن أُصالح، وما أدري أَيش[1] يكون مني، فيقوى هذا العدو، وقد بقي لهم هذه البلاد، فيخرجون لاستعادة بقية بلادهم، وترى كلَّ واحدٍ من هؤلاء الجماعة قد قعد في رأس تَلِّه ـ يعني حِصْنه ـ وقال: لا أنزل، ويهلك المسلمون.

فهذا كلامه، وكان كما قال ـ رحمه الله ـ لكنَّه رأى المصلحةَ في الصُّلْح لسأم العسكر ومظاهرتهم بالمخالفة، وكان مصلحةً علمها الله تعالى، فإنه اتفقَتْ وفاتُهُ بُعيد الصُّلْح، ولو كان اتَّفق ذلك في أثناء الوقعات لكان الإسلام على خَطَر، فما كان الصُّلْح إلا توفيقاً وسعادةً من الله، رحمة الله عليه.

ورحل السُّلْطان إلى النَّطرون، واختلط العسكران، وذهب جماعةٌ من المسلمين إلى يافا في طلب التِّجارة، ووصل خَلْقٌ عظيمٌ من العدو إلى القُدْس للحج، وفَتَحَ السُّلْطان لهم الباب في ذلك، ونفَّذ معهم الخُفَراء يحفظونهم حتى يردُّوهم إلى يافا، وكان غرضُ السُّلْطان بذلك أن يقضوا وَطَرهم من الزِّيارة، ويرجعوا إلى بلادهم، فيأمن المسلمون شَرَّهم.

ولما علم الملك كثرة من يزور منهم صَعُبَ عليه ذلك، وسَيَّر إلى السُّلْطان يسأله منع الزُّوَّار، واقترح أن لا يأذن لأحدٍ إلا بعد حضور علامةٍ من جانبه أو بكتابه، وعلمت الفرنجية ذلك، فَعَظُمَ عليها، واهتَمُّوا في الحج، فكان يَرِدُ في كلِّ يوم منهم جموعٌ كثيرة: مقدَّمون وأوساط وملوك متنكِّرون، وشَرَعَ السُّلْطان في إكرام من يَرِدُ، ومدِّ الطَّعام لهم، ومباسطَتِهِم ومحادثتهم، وَعرَّفهم إنكار الملك ذلك، وأذن لهم السُّلْطان في الحَجِّ، وعَرَّفهم أنه لم يلتفت إلى مَنْعِ الملك من

(١) أَيْش: أي أيُّ شيء، يقال: أيش هذا.

ذلك، واعتذر إلى الملك بأَنَّ قوماً قد وصلوا من ذلك البُعْد، ويُسر لهم زيارة هذا المكان الشريف لا استحلُّ منعهم.

ثم اشتدَّ المَرَضُ بالملك، فرحل ليلة الأربعاء التَّاسع والعشرين من شعْبان، وقيل: إنَّه مات، وسار هو والكند هري، وسائر المقدَّمين إلى جانب عكا، ولم يبق في يافا إلا مريضٌ أو عاجز، ونفر يسير، ثم أعطى السُلْطان للنَّاس دُسْتوراً، فسار عسكر إِرْبل والموصل وسِنْجار والحِصْن، وأشاع ـ رحمه الله ـ أمر الحج، وقوي عَزْمُهُ على براءة الذِّمَّة منه.

قال القاضي: وكان هذا مما وَقَعَ لي، وبدأتُ بالإشارة به في يوم تتمة الصُلْح، ووقع منه ـ رحمةُ الله عليه ـ موقعاً عظيماً، وأمر الدِّيوان أَنَّ كلَّ من عَزَمَ على الحج من العسكر يثبت اسمَهُ حتى نُحصي عِدَّة من يدخُلُ معنا الطَّريق. وكتب جرائد بما يحتاج إليه في الطَّريق من الخِلَع والأزواد وغير ذلك، وسَيَّرها إلى البلاد ليعُدُّوها.

ورحل من النَّطرون رابع شهر رمضان، وسار حتى أتى مار صَمْويل يفتقد أخاه العادِل، وكان مريضاً بها، فوجده قد سار إلى القُدْس، وكان قد انقطع عن أخيه مُدَّة بسبب المرض. وكان قد تماثَلَ، فَعُرِّف بمجيء السُلْطان إلى مار صَمْويل لعيادته، فحمل على نفسه، وسار حتى لقيه بذلك المكان، وهو أول وصوله، ولم ينزل بعد، ونزل، وقَبَّل الأرض، وعاد ركب فاستدناه، وسأله عن مِزَاجه، وسارا جميعاً حتى أتيا القُدْس بقية ذلك اليوم.

[ولاية عز الدين جرديك القدس وأعمالها]

وقال العماد: عاد السُلْطان بعد السِّلْم إلى القُدْس لتفقُّد أحواله، وعَرْضِ رجاله، واشتغل بتشييد أسواره وتحصينها، وتخليد آثاره وتحسينها، وتعميق خنادقه، وتوثيق طرائقه، وزاد في وَقْفِ المدرسة سُوقاً بدكاكينها، وأرضاً ببساتينها، وكذلك رَتَّبَ أحوال الصُّوفية في رعايتها، والوقف الكافل بكفايتها، وعَيَّن الكنيسة التي في شارع قمامة للبيمارَسْتان، ونقل إليه العقاقير والأدوية من جميع الأنواع والألوان، وأدار سور القُدْس على قُبَّةِ صهيون، وأضافها إلى المدينة، وأمر بإدارة الخنادق على الجميع، وصمَّم العَزْم على الحج، فلم يوافقه القَدَر، وتأسَّفَ على فواته بعد أن قدَّم مقدِّماته، وأقام شهر رمضان، وأفاض الإحسان، وفَوَّض ولاية القُدْس وأعمالها إلى عزِّ الدين جُرْديك حين استعفى منها حُسام الدِّين سياروخ، وولَّى مملوكه علم الدين قيصر ما دون القُدْس كعمل الخليل وغَزَّة والدَّاروم وعَسْقلان.

قلت: ولما بلغ القاضي الفاضل من قبل السُلْطان أنه عازِمٌ على الحج كتب

إليه مشيراً بتبطيله: إنَّ الفرنج لم يخرجوا بَعْدُ مِنَ الشَّام، ولا سَلُوا عن القُدْس، ولا وُثِقَ بعهدهم في الصُّلْح، فلا يؤمَنْ مع بقاء الفرنج على حالهم، وافتراق عسكرنا وسفر سلاطيننا سفراً مقدَّراً معلوماً مُدَّة الغيبة فيه أن يَسْرُوا ليلةً فيصبِّحوا القُدْسَ على غَفْلَةٍ، فيدخلوا إليه ـ والعياذ بالله ـ ويَفْرُطُ من يد الإسلام، ويصيرُ الحج كبيرةً من الكبائر التي لا تُغْفر، ومن العَثَرات التي لا تُقال.

ثم قال: وحاجُّ العراق وخُرَاسان أليس هم مائتي ألف أو ثلاثمائة ألف أو أكثر، هل يؤمن أن يقال قد سار السُّلْطان لطلب ثار، وسَفْكِ دم، وتشويش موسم، فاقعُدُوا، فيكون تاريخَ سَوْءٍ، أعوذُ بالله منه، ما هذه الشَّناعة مُمتنعة الوقوع، ولا مستبعدة من العقول السَّخيفة، فَيُنْعِمُ المولى بتأَمُّلِ ما أنهاه المملوك مستوراً، فإنه يَسْأل مولانا أن لا يُشارك أحداً فيما يكتُبُه، لا من مُهِمٍّ، ولا من غير مُهِمٍّ.

يا مولانا، مظالمُ الخَلْقِ كَشْفُها أَهَمُّ من كل ما يُتَقَرَّب به إلى الله، وما هي بواحدةٍ، في أعمال دمشق من المظالم من الفلاحين ما يُسْتَغرب معه وقوع القَطْر، ومن تَسَلُّطِ المُقْطَعين على المنقطعين ما لا يُنادَى وليدُه[١]، وفي وادي بَرَدى والزَّبَدَاني من الفِتْنة القائمة والسَّيف الذي يَقْطُر دماً ما لا زاجر عنه، وللمسلمين ثغورٌ تريد التحصين والذَّخيرة، ومن المهمَّات إقامة وجوه الدَّخْل وتقدير الخَرْج بحسبها، فمن المستحيل نفقة من غير حاصل، وفرع من غير أصل، وهذا أمرٌ قد تقدَّم فيه حديثٌ كثير، وعَرَضَتْ للمولى شواغِلُ دونه، وَمَشَتِ الأحوالُ مشياً على ظَلْع[٢]، فلما خَلَتِ النُّوَب ـ أعاذ الله مِنْ عَوْدها ـ كان خُلُوُّ بيتِ المال أشدَّ ما في الشِّدَّة، وليس المملوك مطالباً بذخيرة تُحَصَّل، إنما يطلُبُ تمشيةً من حيث تستقر.

[نبذة عن بيت المقدس بعد صلاح الدين]

قلتُ: ولم يزل البيتُ المقدَّسُ ـ شَرَّفه الله تعالى ـ ملحوظاً بالعِمارة والتحصين من عهد السُّلْطان ـ رحمه الله ـ إلى سنة ستة عشرة وستِّمائة، فإنَّه خُرِّبَ في المحرَّم منها بسبب خروج الفرنج ـ لعنهم الله ـ وانتشارهم في البلاد، فخيف من استيلائهم عليه. وفي السنة التي قبلها توفي الملك العادل أبو بكر بن أيوب أخو السُّلْطان[٣]، وتشتَّتَ النَّاسُ بعد خَرَابه، ورغبوا عن السُّكْنى به، ورثاه الرَّئيس

(١) الوليد: المولود، والصبي، والعبدة، وأنثاهما بهاء. ويقال: «أمرٌ لا ينادى وليده» في الخير والشر، أي: اشتغلوا به حتى لو مَدَّ الوليد يده إلى أعزّ الأشياء لا ينادى عليه زجراً (القاموس المحيط «ولد»).

(٢) الظلع: العرج.

(٣) هو محمد بن أيوب بن شاذي، الملك العادل، سيف الدين، أبو بكر، وكنيته أشهر من =

الفاضل شهاب الدين أبو يوسف يعقوب بن محمد المجاور[١] بقصيدَةٍ حَسَنة، منها: [الطويل]

أَعَيْنَيَ لا تَرْقَى من العَبَرَاتِ ... صِلِي في البُكا الآصالَ بالبُكُراتِ
لَعَلَّ سيولَ الدَّمع يُطْفِئُ فَيْضُها ... تَوَقُّدَ ما في القَلْبِ مَنْ جَمَرَاتِ
ويا قَلْبُ أسْعِرْ نارَ وَجْدِك كلَّما ... خَبَتْ بادِّكارٍ يَبْعَثُ الحَسَرَاتِ
ويا فَمُ بُحْ بالشَّجْوِ منك لَعَلَّه ... يروِّحُ ما أَلْقَى مِنَ الكُرُبات
على المَسْجِدِ الأقصى الذي جَلَّ قَدْرُه ... على مَوْطِنِ الإخْبَاتِ والصَّلَواتِ
على مَنْزِلِ الأَملاك والوحي والهُدَى ... على مَشْهَدِ الأَبدال والبَدَلات
على سُلَّم المِعْرَاج والصَّخْرة التي ... أنافَتْ بما في الأَرْض مِنْ صَخَرَاتِ
على القِبْلَةِ الأُولى التي اتَّجهَتْ لها ... صلاةُ البَرَايا في اختلافِ جهاتِ
على خيرِ معمورٍ وأَكْرَم عامرٍ ... وأَشرَفِ مَبْنِيٍّ لخيرِ بُنَاةِ
وما زالَ فيه للنَّبيينَ مَعْبَدٌ ... يُوالونَ في أرجائِهِ السَّجَداتِ
عَفَا المَسْجِدُ الأَقْصَى المُبَارَكُ حَوْلَه الرَّ (م) فيعُ العمادِ العالي الشُّرُفاتِ
عَفَا بعدما قد كان للخير مَوْسِماً ... وللبِرِّ والإحسانِ والقُرُباتِ
يُوافي إليه كلُّ أَشْعَثَ قانِتٍ ... لمولاه بَرٍّ دائم الخَلَواتِ
خلا مِنْ صلاةٍ لا يَمَلُّ مُقيمُها ... تُوَشَّحُ بالآياتِ والسُّوَرَاتِ
خلا من حَنِينِ التَّائبين وحُزْنهم ... فمن بين نُوَّاحٍ وبين بُكاةِ
لِتَبْكِ على القُدْسِ البلادُ بَأَسْرِها ... وتعلنُ بالأَحْزَانِ والتَّرَحاتِ
لِتَبْكِ عليها مكَّةُ فَهْي أُخْتُها ... وتشكو الذي لاقَتْ إلى عَرَفاتِ
لِتَبْكِ على ما حَلَّ بالقُدْسِ طَيْبَةٌ ... وتَشْرَحُهُ في أكْرَمِ الحُجُرات

اسمه، ولد سنة ٥٣٩هـ، وقيل: سنة ٥٤٠هـ، وتوفي في جمادى الآخرة سنة ٦١٥هـ (انظر ترجمته في شفاء القلوب ص٢٠٠ - ٢٢٩، مرآة الزمان ٨/ ٥٩٤، وفيات الأعيان ٢/ ٢٠٧، الذيل على الروضتين وفيات سنة ٦١٥هـ، الوافي بالوفيات ٢/ ٢٣٥، الكامل في التاريخ ١٠/ ٢٤٢ - ٢٤٧، ٢٦٥ - ٢٦٦، ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٥٩، ٣٩٣ - ٣٩٤، تاريخ أبي الفداء ٣/ ١٥٨، البداية والنهاية ١٣/ ٧٩، الدارس في تاريخ المدارس ٢/ ٢٦٢، تاريخ ابن الوردي ٢/ ١٩٢، النجوم الزاهرة ٦/ ١٦٠).

(١) هو يعقوب بن محمد بن علي الشيباني الدمشقي، ابن أخت الوزير نجم الدين يوسف بن الحسين المجاور، المتوفى بالقاهرة سنة ٦٠٠هـ (تقدّمت ترجمته في الجزء الثالث). توفي يعقوب بن محمد سنة ٦٤٣هـ (سير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٤٧).

لقد أشمتوا عكا وصورَ بهدمها ويا طالما غادَتْهما بشَماتِ
لقد شَتَّتُوا عنها جماعة أهلها وكلُّ اجتماع مُؤذِنٌ بشَتاتِ
وقد هَدَّموا مَجْدَ الصَّلاحِ بهَدْمِها وقد كان مجداً باذِخَ الغُرُفاتِ
وقد أخمدوا صَوْتاً وصيتاً أثاره لهم عُظْمُ ما والَوْا من الغَزَواتِ
أَما عَلِمَتْ أبناءُ أيوبَ أنَّهُمْ بِمَسْعَاتِهِ عُدُّوا من السَّرَوَاتِ
وأنَّ افتتاحَ القُدْس زهرةُ مُلْكهم وَهَلْ ثَمَرٌ إلا مِنَ الزَّهَراتِ
فمن لي بِنُوَّاحٍ يَنُحْنَ على الذي شَجَاني بأصواتٍ لَهُنَّ شُجَاةِ
يُرَدِّدْنَ بيتاً لِلْخُزاعيِّ قاله يُؤَبِّنَّ فيه خِيرَةَ الخِيَرَاتِ
مدارِسُ آياتٍ خَلَتْ من تِلَاوةٍ ومَنْزِلُ وَحْيٍ مُقْفِرُ العَرَصَاتِ

قلت: هذا البيتُ الأخير لدِعْبِل بن علي الخُزاعي[1] في أوَّل قصيدة يرثي بها أهلَ بيتِ النبي ﷺ.

وهذه السنة التي توفِّي فيها العادل قبل التي خَرِبَ فيها القُدْس هي السنةُ التي نَزَلَ فيها الفرنج ـ خَذَلهم الله ـ على ثَغْر دِمْياط حَرَسَهُ الله تعالى، وهي المَرَّة الأُولى في زماننا، وأقاموا عليه إلى أن استولوا عليه بعد أن جَرَى لهم نحو مما جرى لهم على عَكَّا، ثم أخذه المسلمون منهم، وقُتِلُوا وأُسروا.

ثم إنَّ الفرنج استولوا عليه صُلْحاً في سنةِ خمسٍ وعشرين وستِّمائة، وشرعوا في بناء طائفةٍ منه، ثم أُخرجوا منه عَنْوَةً مَرَّتين، أخرجهم في إحدى المرتين الملك النَّاصر صلاح الدين داود بن المُعَظَّم شرف الدين عيسى بن العادل أبي بكر بن أيوب[2]، وقال فيه حينئذٍ بعضُ شعراء العَصْر.

---

(١) هو دعبل بن علي بن رزين الخزاعي، شاعر هجّاء أصله من الكوفة، أقام ببغداد، وكان صديق البحتري، توفي سنة ٢٤٦هـ (الأعلام ٢/ ٣٤٠). والبيت في ديوان دعبل ص١٣١ (جمع وتحقيق محمد يوسف نجم، دار الثقافة بيروت). وتاج العروس (ثفن). وفي الديوان: «ومنزل وهى» بدل: «ومنزل وحي».

(٢) هو داود بن عيسى بن أبي بكر بن أيوب بن شاذي، الملك الناصر، صلاح الدين، أبو المظفر، وكان يلقب أولاً بالحاكم، ابن المعظم بن العادل، صاحب الكرك، وهو أكبر إخوته. ولد سنة ٦٠٣هـ، ولما مات أبوه استقر في السلطنة بدمشق وقام بأمره أستادار أبيه أيبك المعظمي. في سنة ٦٣٧هـ استنقذ الناصر القدس من الفرنج وكان بأيديهم منذ سلّمه إليهم الكامل سنة ٦٢٦هـ، توفي الناصر داود سنة ٦٥٦هـ، من مرض الطاعون. وكان ناظماً شاعراً (شفاء القلوب ص٢٤٦ ـ ٢٥٨، وانظر ترجمته أيضاً في: الذيل على الروضتين وفيات سنة ٦٥٦هـ. فوات الوفيات ١/ ٣١٢، ذيل مرآة الزمان ١/ ١٢٦، تاريخ أبي الفداء ٣/ ١٩٥، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٨٣، السلوك للمقريزي ١/ ٤١٢، البداية والنهاية ١٣/ ١٩٨، شذرات الذهب ٥/ ٢٨٥.

هذا الشاعر هو الصَّاحِبُ جمال الدِّين يحيى بن مَطْروح[١]، ـ رحمه الله ـ تعالى:

الـمَـسْـجِـد الأَقْـصَـى لـه عـادَةٌ سـارَتْ فـصـارَتْ مَـثَـلاً سـائـرا
إذا غـدا لـلـكُـفْـر مـسـتـوطَـنـاً أن يَـبْـعَـثَ الـلَّـهُ لـه نـاصِـرا
فـنـاصِـرٌ طَـهَّـرَهُ أَوَّلاً ونـاصِـرٌ طَـهَّـرَهُ آخـرا

ثم استولى الفرنج أيضاً على طبرية وعَسْقلان، ثم أُخذتا منهم عَنْوَةً في شهور سنةِ خمس وأربعين وستِّمائة في دولة الملك الصَّالح نجم الدِّين أيوب ابن الملك الكامل ناصر الدين محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب[٢]، وقد استولوا أيضاً على الشَّقيف وصفد، والله يُسَهِّل عودهما إلى أهل الإسلام، ويؤيِّد الدِّين الحنيفي على ممرِّ الأيام.

فـصـل

في مسير السُّلْطان ـ رحمه الله ـ من القُدْس إلى دمشق[٣]

قال العماد: ولما استتمَّ السُّلْطان النَّظر في أحوال القُدْس وعمارته، وفوَّض القضاء والنَّظر في الوقوف إلى القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم[٤]، وعَوَّل منه على أمينٍ كريم، آثَرَ أن يعود إلى دمشق على الثُّغور عابراً، وفي أحوالها ناظراً.

(١) يحيى بن مطروح: هو جمال الدين أبو الحسن يحيى بن عيسى بن إبراهيم بن الحسين بن علي الصعيدي، المصري الأديب، المعروف بابن مطروح، ولد سنة ٥٩٢هـ، وتوفي سنة ٦٥٤هـ. قال جلال الدين السيوطي عند ترجمته في حسن المحاضرة: له تصانيف في الأدب منها ديوان شعر مشهور (كشف الظنون ٦/ ٥٢٣). وقد ذكره أبو شامة في الذيل على الروضتين في وفيات سنة ٦٥٠هـ.

(٢) هو أيوب بن محمد بن أبي بكر بن أيوب بن شاذي، الملك الصالح، نجم الدين بن الكامل بن العادل، صاحب مصر، ولد بالقاهرة سنة ٦٠٣هـ، وأمه جارية سوداء اسمها ورد المنى، توفي ليلة الأحد لأربع عشر ليلة خلت من شعبان سنة ٦٤٧هـ (شفاء القلوب ص٣٦٧ ـ ٣٨٠، وانظر ترجمته أيضاً في: مرآة الزمان ٦/ ٣٦١، السلوك ١/ ٢٩٦، الذيل على الروضتين وفيات سنة ٦٤٧هـ، تاريخ أبي الفداء ٣/ ١٣٩، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٦٠، خطط المقريزي ٢/ ٢٣٦، النجوم الزاهرة ٦/ ٣٦١، شذرات الذهب ٥/ ٢٣٧، البداية والنهاية ١٣/ ١٤٩).

(٣) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٢١٨ ـ ٢١٩: ذكر الهدنة مع الفرنج وعود صلاح الدين إلى دمشق.

(٤) هو بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم الموصلي ثم الحلبي. القاضي بها، المعروف بابن شداد الفقيه الأديب الشافعي، ولد سنة ٥٣٩هـ، وتوفي بحلب سنة ٦٣٢هـ، من تصانيفه: «الأعلاق الخطيرة في تاريخ الشام والجزيرة»، «دلائل الأحكام فيما يتعلق =

وكان عَزَمَ على الحج وصمَّمَ، وكتب إلى مِصْر واليمن بما عَلَيه عَزَم، وأمر أن يُحمل له في المراكب كل ما يحتاج إليه من الأزواد والنفقات والثياب والكسوات، فقيل له: لو كتبتَ إلى أمير المؤمنين، وأعلمته بحَجِّك، وعَرَّفْته بنَهْجك، حتى لا يَظُنَّ بك أمر أنتَ منه بريء، ويعلم أَنَّ قَصْدَك في المُضِيِّ مُضيء، والوقتُ قد ضاق، ويبلغ الخبرُ الآفاق.

ثم هذه البلاد إذا سافَرْتَ تركْتَها على ما بها من الشَّعَث، وهذه المعاقل التي في الثُّغور حِفْظُها من أهمِّ الأمور، ولا تغتر بعقد الهُدْنة، فإنَّ القوم على ترقُّبِ المُكْنة، والغَدْرُ دَأْبُهُم.

فما زال به الجماعةُ حتى حَلُّوا عَقْدَ عَزْمِهِ على الحج، فشرع في ترتيب قاعدة القُدْس في ولايته وعمارته، ثم خرج من القُدْس يوم الخميس خامس شَوَّال، وجاوز ناحية البيرة، وبات على بركة الدَّاوية، ونزل يوم الجمعة بظاهر نابُلُس، وأقام بها إلى ظُهرِ يوم السبت حتى كَشَفَ مظالم، ووظَّف مكارم، وكان بها سيف الدين المشطوب، وشكا أهلُها نوائب من جهته تنوب، فأزال الشكوى، وأزاح البَلْوى.

ورحل بعد ظهر السبت، وبات عند عقبة ظهر حِمَارٍ بموضع يُعرف بالفُريديسة، ورتعنا في مروجها الأنيسة، وأصبحنا راحلين، ونزلنا ضحوةً على جِينِين، وهناك ودَّعنا المشطوب وداعَ الأبد، فإنه انتقل بعد أيام إلى رحمةِ الواحد الصَّمد.

وجئنا ضحوة الاثنين إلى بَيْسَان، وصَعِدَ إلى قلعتها المهجورة الخالية، فأبصر قُلَلَها[1] العالية، وقال: الصواب بناءُ هذه وتخريب كوكب.

[خلاص بهاء الدين قراقوش من الأسر]

ثم رحل ظهراً، وبات بقلعة كوكب، وصعَّدَ نَظَرَ رأيه فيها وصَوَّب، ورحل ضحوة الثُّلاثاء، ونزل بطبرية وقت العِشاء، وهناك لقينا بهاء الدِّين قَرَاقوش[2]، وقد خرج من الأَسْر، فتلقَّيناه بالبِشْر والبِرِّ، ووصل مع السُّلْطان إلى دمشق، وأقام إلى أن خلص أصحابه من الأَسْر، وتوجَّه إلى مِصْر، وقد ضاق نفسه ببذل ماله، وأخرج ثروته ودخل في إقلاله.

بالأحاديث المستنبعة منها الأحكام»، «فضائل الجهاد»، «ملجأ الحكام عند التباس الأحكام»، «الموجز الباهر في الفروع»، «النوادر السلطانية في سيرة صلاح الدين الأيوبي» (كشف الظنون ٦/٥٥٣ ـ ٥٥٤).

(١) القلة: أعلى القلعة، وقلة كل شيء أعلاه.

(٢) هو بهاء الدين قراقوش الأسدي، توفي سنة ٥٩٧هـ (الذيل على الروضتين وفيات سنة ٥٩٧هـ).

قال: وتوالت تلك اللَّيلة الأمطار، وواصلها النَّهار، فأقمنا يوم الأربعاء، وسرنا بُكْرة الخميس، ونزلنا بسفح الجبل الذي عليه قلعة صَفَد، وصَعِدَ إليها، وكمَّل فيها الرِّجال والعُدَد.

ثم سار يوم الجمعة على طريق جبل عاملة إلى قلعة تِبْنين وجاز يوم الأحد على هُونين، وخيَّمنا على عين الذَّهب عند نزولنا من الجبل، واجتمعنا تلك الليلة بالثَّقَل، ثم سرنا إلى مرج عيون مرحلة، وإلى جسر كامد منزلة، وطريقنا بين عمل صيدا ووادي التَّيْم، وطلعنا من تلك الأودية والشِّعاب طلوع الأنوار من الغَيْم.

وقال في «الفتح»: على صيدا يَسْرَةً وعمل وادي التيم يَمْنةً، وعَرَّسْنا على مرج تَلْفِيَاثا مقابل مرج القُنَّعْبة، ودفعنا إلى سلوك المسالك الصَّعْبة، ورحلنا يوم الثلاثاء إلى البقاع، فخيَّمنا على جسر كامد، ويوم الأربعاء بناحية قَبِّ إلياس، ودخل يوم الخميس بيروت، وبها واليها عِزُّ الدين سامة، فاهتمَّ له بالكرامة.

ولما أراد عن بيروت الانفصال، في الحادي والعشرين من شَوَّال، قيل له: إن الإبرنس الأنطاكي بيمند مع عصابةٍ من الوَفْد وصل إلى الخدمة، مُسْتمسكاً بحبل العِصْمة.

فثنى عِنانه ونَزَل، وأقام وما ارتحل، وأَذِنَ للإبرنس في الدّخول، وشَرَّفه في حَضْرته بالمثول، وقَرَّبه وآنَسَهُ، ورفع مَجْلِسَه، وكان معه من مقدَّمي فُرْسانه أربعة عشر بارونياً، فوهب كلاً منهم تشريفاً سَرِيّاً، وأجزل له ولهم العطاء، وأبدى بهم الاعتناء، وكتب له من مُناصفات أنطاكية معيشة بمبلغ عشرين ألف دينار، وخَصَّ أصحابه بمبارٍّ، وأعجبه استرساله إليه، ودخوله بغير أمانٍ عليه، فلا جَرَمَ تلقَّاه بالإحسان ووافقه، وَوَدَّعه يوم الأحد وفارقه.

وكانت الأثقال قد انتقلت من قَبِّ إلياس إلى مَرْج فلميطية من البقاع، فبات بمخيَّمِهِ، وعَبَرَ يوم الاثنين عين الجَرِّ إلى مرج يَبُوس، وقد زال البوس، وهناك توافد أعيانُ دمشق وأماثِلُها، وأفاضلها وفواضلها.

[وصول السلطان إلى دمشق]

ونزلنا يوم الثلاثاء بالعَرَّادة[1]، وجرى الملتقون بالطُّرَف والتُّحَف على العادة، وأصبحنا يوم الأربعاء إلى جَنَّة دمشق داخلين، بسلامٍ آمنين، لولا أننا غير

---

(١) العرّادة: هي من آلات الحرب، أصغر من المنجنيق، ترمي بالحجارة المرمى البعيد (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص٢٤٢).

خالدين، وكانت غيبة السُّلْطان عنها طالت أربع سنين، فأخرجت دمشق أثقالها، وأبرزت نساءها ورجالها، فكان يوم الزِّينة، وخرج كلُّ مَنْ في المدينة، وحُشِرَ النَّاس ضُحَى، وأشاعوا استبشاراً وفرَحاً.

وكانت غيبةُ السُّلْطان في الجهاد طالت، فاهتزَّتْ بقدومه واختالت، وقَرَّتْ بفضائله الأَعْيُن، وأَقَرَّت بفواضله الأَلْسُن، وأبدوا وجوه الاستبشار، وأَلْسُن الاستغفار، وأعين الاستعبار، ورفعوا أيدي الابتهال بصالح الدُّعاء، عن خالص الولاء، وجاء ربيع الفضل في فَصْل الخريف، واتصل تليدُ الجد بالطَّريف، واتَّسع فضاءُ الفضائل، وارتدع جاه الجاهل، وحَلَّ في القلعة حلولَ الشمس في بُرْجها، وأخذت بحار سماحِهِ في موجها، وجلس في دار العَدْل فأجاب وأجار، وأنال وأنار، وخرجت السَّنة والسُّلْطان في أسنى سنائه، وأبهى جلاله، وأجلى بهائه، والنَّاس راتِعون في رياض نعمائه، ورُسُل الممالك الغربية والشَّرْقية، يخطبونه ويطلبونه، وينتظرون عَزْمَهُ وَيرقُبونه، وهو يعدهم بانحسار الشِّتاء وانكساره، وابتسام ثَغْر الرَّبيع وافترار.

وأقمنا على هذا العَزْم إلى آخر السَّنة، والسُّلْطان مشتغل بالصَّيْد والقَنَص، منتهزٌ من العُمر للفُرَص، وقَرَّب العلماء، وأكرم الفضلاء، وفضل الكرماء، وما كان أحسنَ إلى الحقِّ إصغاءه، وأسرع للباطل إلغاءه.

وقال القاضي أبو المحاسن: أقام السُّلْطان بالقُدْس يُقْطِع النَّاس ويعطيهم دُسْتوراً، ويتأهَّب للمسير إلى الدِّيار المِصْرية، وانقطع تشوُّفه إلى الحجِّ، ولم يزل كذلك حتى صَحَّ عنده إقلاعُ مركب الإنكلتير المخذول، متوجِّهاً إلى بلاده في مستهلِّ شَوَّال، فعند ذلك حَرَّرَ السُّلْطان عَزْمَه على أن يدخل السَّاحل جريدةً، ويتفقَّد القلاع البحرية إلى بانياس، ويدخُل دمشق يقيم بها أياماً قلائل، ويعود إلى القُدْس الشَّريف، سائراً إلى الدِّيار المِصْرية لتفَقُّدِ أحوالها، وتقرير قواعدها، والنَّظر في مصالحها.

قال: وأمرني بالمقام بالقُدْس إلى حين عَوْدِهِ لعمارة بيمارَسْتان أنشأه فيه، وإدارة المدرسة التي أنشأها فيه إلى حين عَوْده، وخرج من القدس، وَوَدَّعْتُهُ إلى البيرة، ونزل بها.

ثم ذكر إزالته للمظالم عن بلد نابُلُس، ثم رحل ونزل بسَبَسْطِيَة، فتفقَّدَ أحوالها، ثم أتى في طريقه إلى كوكب في عاشر شَوَّال، وانفكَّ بهاءُ الدِّين قراقوش من الأَسْر حادي عشر شَوَّال، ومَثَلَ بالخِدْمة السُّلْطانية، ففرح به فرحاً شديداً، وكان له حقوق كثيرة على السُّلْطان والإسلام، واستأذن السُّلْطانَ ـ رحمه الله ـ في المسير إلى دمشق لتحصيل القطيعة، فأَذِنَ له في ذلك، وكانت القطيعة على ما بلغني ثمانين ألفاً.

قال: ولما وصل السُّلْطان إلى بيروت وصل إلى خدمته البرنس صاحب أنطاكية مسترفداً، فبالغ في إكرامه واحترامه ومباسطته، وأنعم عليه بالعَمْقِ وأرزغان ومزارع تعمل خمسة عشر ألف دينار.

ثم سار السُّلْطان إلى دمشق بعد الفراغ من تَصَفُّحِ أحوال القلاع السَّاحلية بأَسْرِها، والتقدُّم بسَدِّ خَلَلِها، وإصلاح أجنادها، وإشحانها بالرِّجال، فدخل دمشق بُكْرة الأربعاء سادس عشري شَوَّال، وفيها أولاده: الأفضل والظافر والظَّاهر، وأولاده الصِّغار، وكان يحبُّ البلد ويُؤْثر فيه الإقامة على سائر البلاد.

وجلس للنَّاس في بُكْرة الخميس، وحَضَر النَّاسُ عنده، وبَلُّوا شوقَهم من رؤيته، وأنشده الشُّعراء، وعَمَّ ذلك المجلس الخاص والعام، وأقام يَنْشُرُ جناحَ عَدْله، ويَهْطِلُ سحابُ إنعامِهِ وفَضْله، ويكشف مظالمَ الرَّعايا في الأوقات المعتادة.

واتخذ الأفضلُ يوم الاثنين مستهلِّ ذي القَعْدة دعوةً لأخيه الظَّاهر، وكان الظَّاهر لما وصل دمشق بلغه حركةُ السُّلْطان إليها، فأقام بها حتى يتملَّى بالنَّظر إليه ثانياً، وكأَنَّ نفسهُ الشَّريفة كانت قد أَحَسَّتْ بدنو أجل السُّلْطان، فودَّعَه في تلك الدفعة مراراً متعدِّدة، وهو يَعود إليه، ولما اتخذ الأفضل له الدَّعوة أظهر فيها من بديع التجمُّلِ وغريبه ما يليقُ بهمَّته، وكأَنَّه أراد مجازاته عما خَدَمه به حين وصل إلى حلب المحروسة، وحضَرها أرباب الدُّنيا وأبناءُ الآخرة، وسأل السُّلْطان ـ رحمه الله ـ الحضورَ، فحضر جبراً لقلبه.

قال: وكان العادِلُ قد استأذنَ السُّلْطان في أواخر رمضان في القُدْس بالمضي إلى الكَرَك لتفقُّدها، فمضى وأمر بإصلاح ما قصد إصلاحه، وعاد طالباً المضيَّ إلى البلاد الفُرَاتية التي أعطاه السُّلْطان إياها، فوصل دمشق سابع عشر ذي القَعْدَة، وخرج السُّلْطان إلى لقائه، وأقام يتصيَّد حول غباغب إلى الكُسْوة، حتى لقيه وسارا جميعاً يتصيدان، وكان دخولهما إلى دمشق في الحادي والعشرين منه.

وأقام السُّلْطان بدمشق يتصيد هو وأخوه وأولاده، ويتفرَّجون في أراضي دمشق ومواطن الصِّبا، وكأنَّه وجَدَ به راحةً مما كان فيه من ملازمة التَّعبِ والنَّصَب، وسَهَرِ اللَّيل ونَصَبِ النَّهار، وما كان ذلك إلا كالوداع لأولاده ومرابع نُزَهِهِ، وهو لا يشعر ـ رحمة الله عليه ـ ونسي عَزْمَه المِصْري، وَعَرَضَ له أمورٌ أُخَر، وعزماتٌ غير تلك، ووصلني كتابُهُ إلى القُدْس يستدعيني إلى خدمته، وكان شتاءً شديداً، ووحلاً عظيماً.

قلت: وفي عيد الأضحى من هذه السنة أنشده الرَّشيد النَّابُلُسي[١] قصيدةً حسنةً على وزن قصيدة التِّهامي[٢]: [الخفيف]

حازَكِ البَيْنُ حين أَصْبَحْتِ بَدْرا

يقول فيها، يعني قصيدته: [الخفيف]

وأبيها لولا تَغَزُّلُ عَيْنَيْـ ـها لما قُلْتُ في التَّغَزُّلِ شِعْرَا
ولكانت مدائحُ الملكِ النّا صر أوْلَى ما فيه أَعْمَلُ فِكْرَا
مَلِكٌ طَبَّقَ الممالك عَدْلاً مِثْلَ ما أَوْسَعَ البَرِيَّةَ بِرّا

ثم قال في آخرها:

فَتَمَلَّ الأعيادَ صَوْماً وفطراً وتَلَقَّ الهَنَاءَ عَشْراً ونَحْرا
يا مُسِرَّ الطَّاعات لله إنْ أَضْـ ـحى مَلِيكٌ على الهَنَاةِ مُصِرّا
نِلْتَ ما تبتغي من الدِّين والدُّنْـ ـيا فَتِيْهاً على الملوك وفَخْرا
قد جَمَعْتَ المَجْدَيْنِ أَصلاً وفَرْعاً وَمَلَكْتَ الدَّارَيْنِ دُنْيا وأُخْرَى

فصل

في ذِكْر أمورٍ جَرَتْ في هذه السَّنة من وَفَياتٍ وغيرها

[وفاة شمس الدين ابن الفراش]

قال العماد: في شهر ربيع الآخر تُوفِّي القاضي شمس الدين محمد بن محمد بن موسى المعروف بابن الفرَّاش[٣] من أهل دمشق، قاضي العسكر، وكانت وفاته بمَلْطية وهو عائد من الرِّسالة إلى أولاد قليج أرسلان بالرُّوم.

وكان هذا القاضي من أَصْدَق الأصدقاء، وأكرم الكرماء، وما فارقني من أيام الملك العادل نور الدين ـ رحمه الله ـ في السَّرَّاء والضَّرَّاء، وكنتُ بأحواله شديدَ

(١) هو عبد الرحمن بن محمد بن بدر، المعروف بمدلويه، كان شاعراً محسناً، توفي سنة ٦١٩هـ (وفيات الأعيان ٥/ ٢٦٦).

(٢) التهامي: هو علي بن محمد بن فهد، أبو الحسن التهامي، الشاعر، المتوفى مسجوناً بالقاهرة سنة ٤١٦هـ، له ديوان شعره (كشف الظنون ٥/ ٦٨٦، وفيات الأعيان ٣/ ٣٧٨ ـ ٣٨١، سير أعلام النبلاء ١٧/ ٣٨١ ـ ٣٨٢).

(٣) كان قاضي العساكر بدمشق، ويرسله السلطان إلى ملوك الآفاق. انظر ترجمته في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ٢٨٩ ـ ٣٠٦، البداية والنهاية ١٢/ ٣٠٩.

الاعتناء، وتوصَّلْتُ له عند السُّلْطان في تخصيصه بالمُوَاصلة المَوْصِلِيَّة، والمراسلة في المهام الخفية والجَلِيَّة، ثم تولَّى نيابةً عن السُّلطان في الولاية الشَّهْرُزُورِيَّة، والحكم على المُقْطَعين بها وإنصاف الرَّعية، فلما فُوِّضَتْ إلى مُظَفَّر الدين صاحب إرْبِل رَجَعَ شمسُ الدين، ودامت غَيْبَتُهُ عن الحَضْرة مُدَّة سبع سنين.

وكان تولَّى قضاءَ العسكر موضعه بهاءُ الدين بن شَدَّاد. وكان خَطْبُ أولاد السلطان قليج أرسلان مهمّاً عند السلطان، فاعتمد على القاضي شمس الدِّين في الوصول إليهم، والحكم بتأليف ذات بينهم عليهم، فمضى وعاد، وأدركته المنية بمدينة مَلَطْية.

[وفاة سيف الدين المشطوب]

قال: وفي يوم الخميس السادس والعشرين من شَوَّال توفي الأمير سيف الدين علي بن أحمد الهكَّاري المعروف بالمشْطُوب[1] بنابُلُس، وقد سبق ذكر هذا الأمير وبأسه وبسالته، وإصابته وأصالته، وإقدامِهِ في الحروب، وتقدُّمِهِ في الخطوب.

وقد حَضَرَ مع أسد الدين شِيركُوه النُّوَب الثَّلاث التي فَتَحَ في آخرها مِصْر، ولازم صلاح الدين إلى مُنتهى العُمْر، ولما احتيج إلى البَدَل في عكا، لما ضَجِرَ مِن أقام به وتشكَّى، أجاب إلى دخوله، وقابل الأمر بقبوله، وحصل بقضاء الله في الأَسْر، واحتوت عليه قَبْضَةُ الكُفْر، وفدَى نفسه بخمسين ألف دينار ونجا، وآتاه الله من نِعَمِهِ خُلاصة ما رجا، وأنعم السُّلْطان عليه بنابُلُس وأعمالها، وخُصَّ بأموالها، وحين جُزْنا به ودَّعنا عند جِينين، ودَاعَ الأبد إلى جَنَّة عِلِّيين.

وإنما سُمِّيَ مَشْطوباً لِشَطْبَةٍ في وَجْهه مَنْ أَثَرِ طَعْنَةٍ في غَزَاةٍ حَضَرها، وله مواقفُ في الجهادِ كثيرةٌ موفورة، ومقاماتٌ مشهودة مشهورة، ووقَّفَ السُّلْطان بعده ثُلُثَ نابُلُس وأعمالها على مصالح القُدْس، وأقطع ولده وأميرين معه الثُّلُثين، محافظةً على حَقِّه الذي التزمه التزام الدَّيْن.

وقال القاضي ابنُ شَدَّاد: وكان السلطان خَلَّف المَشْطوب بالقُدْس من جُملة العسكر المقيمين به، ولم يكن واليه، وإنما كان واليه عِزّ الدِّين جُرْديك، وتوفي

(١) كان من أصحاب أسد الدين شيركوه، حضر معه الوقعات الثلاث بمصر، ثم صار من كبراء أمراء صلاح الدين، وهو الذي كان نائباً على عكا لما أخذوها الفرنج، فأسروه في جملة من أسروا فافتدى نفسه بخمسين ألف دينار، وجاء إلى السلطان وهو بالقدس فأعطاه أكثرها، وولاه نابلس. قال ابن كثير في البداية والنهاية: ١٢/ ٣١٠: توفي يوم الأحد ثالث وعشرين شوال بالقدس، ودفن في داره.

المَشْطُوب ـ رحمه الله ـ بالقُدْس يوم الأحد الثَّالث والعشرين من شَوَّال، ودُفِنَ في داره بعد أن صُلِّيَ عليه في المسجد الأقصى.

[وفاة عز الدين قليج أرسلان]

قال العماد: وفي منتصف شعبان توفي سُلْطان بلاد الرُّوم عِزُّ الدين قَلِيجْ أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان[1] بقُونيَة، وكان أولاده لما كَبِروا تجبَّروا، وتفرَّد كلٌّ منهم بإقليم، فضعف بقوَّتهم، وعَجَزَ بقُدْرتهم، وانخفض برفعتهم، فإنَّه فَرَّق بلاده على جماعتهم، طمعاً في طاعتهم، واختار لتدبير مُلْكه اختيار الدين حسن بن غفراس، فخالفه عليه من أولاده قُطْب الدين مَلِكْشاه صاحب سيواس، فجاء وغلَبَ على والده وأخذ عليه الأنفاس، وقال له: أنا بين يديك عِوَض الاختيار، ثم أخلى منه الدِّيار، ثم أبعد عن خِدْمة والده خواصَّه وأولياءه، وأفنى بالقَتْل والاغتيال أمراءه وكبراءه، واستخلصه لنفسه، وأجلسه على مُلْكه وهو في حَبْسه.

ثم جاءَ به إلى قيصرية ليأخذَها من أخيه، وأظهر أنَّه بأمر أبيه، فوجد قليج أرسلان فُرْصَةً في خلاصه، فساق وحده، ودخل البلد، ونجا من الولد إلى الولد، فعاد مَلِكْشاه إلى قُونيَة وأقصرا داري ملك أبيه، فتملَّكهما، ولم يزل قليج أرسلان يتحول من ولد إلى ولد، ومن بلد إلى بلد، يتردَّد في بلاده، في ضيافة أولاده، وكلهم يضجر منه، ويُعرِضُ عنه، حتى حَصَلَ عند ولده غياث الدِّين كَيْخُسْرو صاحب بُرْغُلُو، فلما حَضَرَه وأبصره آواه ونَصَرَه، وجاء به إلى قُونية، فدخَلَها، وحَلَّى عَطَلَها، ومات بها، فجلس مكان والده، وَقوِيَ على أخيه.

قال: وجاء الرَّبيع في شهر ربيع الأول، فكتب إليَّ نشو الدَّوْلة أحمد بن نفاذة[2] أبياتاً يدعوني إلى دمشق في خامس جُمادى الأولى وقد دخل أوانُ المِشْمِش، وهو موسم دمشق المشهود، أوَّلها: [الطويل]

دعا النَّاسَ لِلَّذَّاتِ مِشْمِشُ جِلَّقٍ ... فقد أَسْرَعُوا من كلِّ غَرْبٍ ومَشْرِقِ
فَقُمْ يا عمَادَ الدِّين تَحْظَ بأَكْلِهِ ... ولا تَثْنِ عنه عَزْمَةَ السَّيْرِ تُسْبَقِ
وَقُلْ حين يبدو أَصْفَرَ اللَّوْنِ مُشْرِقاً ... ويا حُسْنَهُ من أَصْفَرِ اللَّوْنِ مُشْرِقِ

---

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٢١٩ ـ ٢٢١: ذكر وفاة قلج أرسلان. والبداية والنهاية ١٢/ ٣١٠.

(٢) هو أحمد بن عبد الرحمن بن علي، نشو الدولة، بدر الدين السلمي الدمشقي، المعروف بابن نفاذة، ولد بدمشق سنة ٥٤١هـ، كان عند صلاح الدين في عداد رؤساء الأجناد الذين يسمونهم بالأمراء، وكان شاعراً له مدائح في صلاح الدين وأولاد أخيه وغيرهم من رجالات الدولة، توفي سنة ٦٠١هـ («خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ٣٢٩ ـ ٣٣٤، فوات الوفيات ١/ ٨٤ ـ ٨٦، الوافي بالوفيات ٧/ ٣٩ ـ ٤٤).

لأكلك ما يَلْقَى الفؤادُ وما لقي ... وللتُّوت ما لم يَبْقَ مِنِّي وما بقي
فليس سوى الحَلْواء في القُدْسِ مأكلٌ ... وما جلبوه من زَبيبٍ وفُسْتُقِ

قال: فعرضتُ أبياته على السُّلطان وقال: ما قُلْتَ في جوابه؟ فأنشدتُهُ:

[الطويل]

هَلُمُّوا نُسابِقْ نَحْوَ مِشْمِشِ جِلِّقِ ... وَثَمَّ كما نهوى على الأكل نَلْتَقِي
تَصَفَّر شَوْقاً لانتظارِ قُدومِنا ... وَمَنْ يَتَعَشَّقْ ذا الفَضائِلِ يَشْتَقِ
إذا حَضَرتْ أطباقُهُ غاب رُشدُنا ... لما يتلاقى مِنْ مَشُوقٍ وشَيِّقِ
حَكَى جَمَراتٍ بالأَضَا قد تَعَلَّقَتْ ... فيا عَجَبِي مِنْ جَمْرِهِ المُتَعَلِّقِ(١)
كَأَنَّ نجومَ الأَرْضِ فوق غُصُونِهِ ... فيا حَيْرتِي مِنْ نَجْمِهِ المتألِّقِ
وجناتها مُحْمَرَّةٌ وَجَنَاتُها ... فَمَنْ يَرَها مِثْلِي يحبَّ وَيَعْشَقِ
بَدَتْ بين أَوراقِ الغُصُونِ كَأَنَّها ... كُرَاتُ نُضَارٍ فِي لُجَيْنٍ مُطَرَّقِ

قال: فلما أَنْشَدْتُ السُّلطان هذا البيت، قال: تشبيه الوَرَقِ باللُّجَيْن غير موافق، فإنَّ الورق أخضر، فقلتُ:

.... كُراتُ نُضارٍ بالزُمرُّد مُحْدِقِ
تُسَاقِطُها أشجارُها فكأنَّها ... دنانيرُ فِي أيدي الصَّيارِفِ تَرْتَقِي
وَمِشْمِشُ بُسْتان الزَّكيِّ بشهْدِهِ ... شهادَتُهُ تقضي فَزَكِّ وصَدِّقِ
يقولُ رفيقي في دمشقَ تعجُّباً ... أَما لك بُستان؟ مقالةَ مُشْفِقِ
فَقُلْتُ إلى باب البريد وسُوقه ... لأمثالنا تُجْبَى بساتِينُ جِلِّقِ
ولو كان لي بالسَّهْم سَهْمٌ وَجَدْتُ لي ... مَنَالي بأيام الثِّمار ومَرْفَقِي
إذا كنتُ مُبْتاعاً من السُّوق مِشْمِشي ... فما لِيَ إلا لَذَّةُ المُتَسَوِّقِ
وما لي بأَرْبَاب البساتين خِلْطَةٌ ... فَيُصْبِحُ في حيطانها متسلِّقي
كرامٌ وثوقي في الشِّتاء بودِّهم ... ولكنهمْ في الصَّيْف ينسون مَوْثقي
وما ثَمَّ مَنْ يُقري ويُجْدِي وَيَقْتني ... ثَنائي سوى المحيي الكريم الموفَّقِ
وذلك يومٌ واحدٌ ليس غيرَه ... أَمِنْ أَجْلِ يوم واحدٍ قُلْتَ لي اسبقِ
على أنني لو قيل بالصِّين دَعْوَةٌ ... أَثَرْتُ إليها لَوْعَةَ المتحرِّقِ

---

(١) الأضاة: المستنقع من سيل وغيره. جمعه: أضوات وأضيات وأضًى وإضاءٌ وإضون. واستعير للدروع، فقيل: دروع كالأضاة، ومنه قولهم: خرجوا لابسين الأضا رامين بجمر الغضا، وقد شبهت الدروع في صفائها بالغدران.

فإنْ جئتَ قَبْلِي جِلَّقاً فارمِ مُنْعِماً حديثي بنادي المنعمين وجِلَّقِ
لعلَّ كريماً ينتخي لضيافتي بمِشْمِشَةٍ عند القُدُوم وينتقي
فلا تَنْسَ نَشْوَ الدِّين نَشْوَة خاطري وَقُلْ عن صَبُوحي كيف شِئْتَ وَرَقِّقِ
وهاتِ وساعدني وَخُذْ من قريحتي لطيمة دَارِيٍّ مِنَ الحَمْدِ واعْبَقِ(١)

قال: فقال لي السُّلطان: عن صَبُوحٍ تُرَقِّق(٢)، كأنَّك تريد تمضي إلى دمشق وتسبق. فقلت: الأهل والولد، وقد عيل عنهم الجَلَد، ولكن مغيبي عن الخِدْمة لا يدور به الخَلَد، فظلك هو السَّكَنُ والبَلَد.

قال: وكتبتُ أيضاً في جوابه وصفة المِشْمِش، وذكرت تشبيهاته، وقد أَذِنَ لي السُّلطان لمهمٍّ له أيضاً اتفق: [المنسرح]

قد صَحَّ عَزْمِي على المسيرِ فلا أبغي مَقَامِي والْقَلْبُ قَدْ رَحَلا
أمضي إلى دُمْيَةٍ مُقَبَّلُها أَرْشُفُ منه المُدَام والعَسَلا
مُصَوَّرٌ بل مُدَوَّرٌ عَجَبٌ تَرَى بِهِ وهو جَامِدٌ شُعَلا(٣)
ففي قلوبِ الأشجارِ منه جُذًى وفي ظُهور الغُصُونِ منه كُلا
طلوا بماء النُّضَارِ ظاهِرَهُ لباطنٍ في حشاه نار طِلا(٤)
يخفى إذا ما بدا لعينك في فِيكَ وفيه النَّوى إذا وَصَلا
حُلِيُّ تِبْرٍ على عَرائسِ أغـ ـصانٍ تَشكَّتْ من قَبْلها عَطَلا
حُمْرٌ حِسَانُ الوجوه قد لَبِسَتْ من خُضْرِ أَوْراقها لها حُلَلا
عرائسٌ من خدورها بَرَزَتْ تَحْسَبُ أشجارها لها كِللا
حلاوةٌ لا يَمَلُّ آكِلُها إذا الحلاوات أَحْدَثَتْ مَلَلا
زُهْرٌ كَشُهْبِ السَّماءِ راجمةٌ جِنَّ جُنَاةٍ بِقَطْفِها كُفَلا
عيونُها الرُّمْدُ في ترقُّبِنا جاحظةٌ أَبْرَزَتْ لنا مُقَلا
ماذا التَّواني وذا التَّأَخُّر والـ إبطاء قَدِّم مَسِيرَنا عَجَلا

(١) لطيمة داريّ: اللطيمة: قطعة المسك، وداريّ: نسبة إلى دارين، وهي فرضة بالبحرين كان يجلب إليها المسك من الهند (معجم البلدان ٢/ ٤٣٢).
(٢) رقّقه: ضد غلّظه. ونزل جابان بقوم، فأضافوه وغبقوه، فلما فرغ قال: إذا صبّحتموني كيف آخذ في طريقي؟ فقيل له: أعن صبوح ترقّقُ؟ أي: تكني عن الصبوح. فذهب مثلاً يضرب لمن يوجب عليك ما لا يجب بكلام يلطّفه (القاموس المحيط «رقق»).
(٣) شُعَلٌ: جمع شعلة، وهي لهب النار، والقبس والشهاب.
(٤) الطلا: الخمر.

نَـغْـدُو خِـفَـافـاً إلـى مـواسِـمِـهـا ... مِـنْ قَـبْـلِ نُـبْـلَـى بـصُـحْـبَـةِ الـثُّـقَـلا
قـدِ انـتـظـرنـا مـن الـخِـزَانـةِ مـا ... نُـعْـطَـى فَـأَكْـدَى نُـوَّابُـهـا الـبُـخَـلا[١]
فَـإِنْ عَـدِمْـنـا مِـنْ عـنـدهـمْ ذَهَـبـاً ... فـمـا عَـدِمْـنـا عـنـه بـه بَـدَلا
وَكُـلُّـنـا فـي عـوارِفِ الـمـلـك الـنَّــ (م) ــاصِـرِ نَـرْعَـى وَنَـسْـلُـكُ الـسُّـبُـلا

قال: وقلتُ فيه رباعية: [الدوبيت]

الـمِـشْـمِـشُ لانـتـظـارِنـا مُـصْـفَـرُّ ... والـرَّوْضُ إلـى لـقـائـنـا مُـفْـتَـرُّ
قُـمْ نَـغـتـنـمِ الـوقـتَ فـهـذا الـعُـمْـرُ ... لا لُـبْـثَ لـه فـمـن بـه يَـغْـتَـرُّ

قال: وفي هذه السنة نُصِرَتِ الأساطيل في البحر مراراً، وأنفذ السُّلطان في استدعائها استظهاراً.

[القبض على أمير الحاج طاشتكين]

قال محمد بن القادسي[٢]: وفي مستهلِّ رجب وُكِّلَ بأمير الحاج طاشتِكين[٣] ـ يعني الذي قَتَل أميرَ حاجِّ الشَّام شمس الدين ابن المُقَدَّم بِعَرَفَات سنة ثلاثٍ وثمانين ـ ثم قُبِضَ عليه. وسَبَبُهُ أَنَّهُ اتُّهِمَ بمكاتبة السُّلْطان صلاح الدين رحمه الله فيما يتعلَّق بقلب الدَّولة، وأظهر عليه أُستاذ الدار أبو المُظَفَّر بن يونس كتاباً، قيل: إنه خَطُّه، وفيه: المصلحة مهادنة الفرنج، والمجيء إلى البلاد، فما يقف بين أيديكم، والبلاد لكم إذا ملكتم العراق، وهذا وقتكم إن كان لكم نِيَّة، وأنا مشدودُ الوسط في الخدمة.

ثم ذكر ابنُ القادسي أَنَّ ذلك مستبعد في حَقِّ طاشتِكين، وزور وبهتان، ونُسِبَ ذلك إلى افتعال ابن يونس عليه. وكان طاشتِكين أمير الحاج عشرين سنة يُخْطَبُ له بمكَّة بعد الخُطْبة لأمير المؤمنين، وله إقطاع بمائة ألف دينار.

[وفاة أبي المرهف نصر بن منصور النميري]

قال: وفيها في ربيع الآخر توفي أبو المُرْهِف نصر بن منصور النُّمَيْري[٤]،

---

(١) أكدى: يقال: أكدى الحافر: بلغ الكدية الكدية فلا يمكنه أن يحفر. وأكدى الرجل: أخفق في طلب حاجته. وأكدى: بخل.

(٢) تقدّمت ترجمته في الجزء الثالث.

(٣) هو طاشتكين بن عبد الله المقتفوي، أمير الحاج، ولقبه فخر الدين، حج بالناس ستاً وعشرين سنة، توفي سنة ٦٠٢هـ (انظر ترجمته في: الكامل في التاريخ ١٠/٣٢١، الذيل على الروضتين وفيات سنة ٦٠٢هـ).

(٤) هو أبو المرهف نصر بن منصور بن الحسن بن جوش الدمشقي الضرير، الشاعر المعروف =

الشَّاعر الأديب الزَّاهد، سمع قاضي البيمارَسْتان[١]، وروى عن ابن نَبْهان، وكان قد رُبِّيَ بالشَّام، وخالط أهل الأدب، وأَضَرَّ بالجُدَري وله أربعَ عشرةَ سنة، وكان يبصر الأشياءَ القريبة منه، ولا يحتاج إلى قائدٍ إذا مشى، ثم قدِمَ العراق لمداواة عينه، فآيسه الأطبَّاء من ذلك، فاشتغل بالقُرْآن وحَفِظَهُ، وصاحَبَ المتديِّنين والزُّهَّاد من أهل الفِقْه والحديث واللُّغة، وله ديوانُ شِعْر كبير، وسُئِلَ عن مذهبه فأملى[٢]: [الطويل]

أُحِبُّ علياً والبَتُول وَوُلْدَها ... ولا أجْحَدُ الشَّيخين فَضْلَ التَّقدُّم[٣]
وأبرأ مِمَّن نال عُثْمانَ بالأذى ... كما أَتَبَرَّا مِنْ ولاءِ ابنِ مُلْجَمِ
ويُعْجِبُنِي أهلُ الحديث لِصِدْقهم ... فَلَسْتُ إلى قَوْمٍ سواهم بمنتمي

وله أيضاً في غير ذلك: [المتقارب]

وَزَهَّدني في جميع الأَنا ... م قِلَّةُ إنصافِ من تَصْحَبُ
هُمُ النَّاس ما لم تُجَرِّبْهُمُ ... وَطُلْسُ الذِّئاب إذا جُرِّبوا
وليتك تَسْلم عند البعا ... د منهم فكيف إذا تَقْرُبُ

قال: ودُفِنَ بمقابر الشهداء بباب حَرْب.

[خروج السلطان للصيد في شرق صيدا]

ثم دخلت سنة تسع وثمانين[٤]

قال العماد: والسلطانُ مقيمٌ بدمشق في داره، وممالك الآفاق في انتظاره، والأنام مشرقة بمطالع أنواره، ورُسُلُ الأمصار مجتمعون على بابه، منتظرون

= بالنميري، ولد بالرافقة قرب الرقة سنة ٥٠١هـ، سمع الحديث واشتغل بالأدب، أصابه جدري وهو ابن أربع عشرة سنة، وفي كشف الظنون توفي سنة ٥٨٥هـ. له ديوان شعره (انظر ترجمته في: كشف الظنون ٦/ ٤٩١، البداية والنهاية ١٢/ ٣١٠، مرآة الزمان ٨/ ٢٧٠، التكملة للمنذري ١/ ١٧٠، معجم الأدباء ١٩/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣، وفيات الأعيان ٥/ ٣٨٣ ـ ٣٨٤، سير أعلام النبلاء ٢١/ ٢١٣ ـ ٢١٤، نكت الهميان ص٣٠٠، النجوم الزاهرة ٦/ ١١٨، شذرات الذهب ٤/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦، وورد اسمه في مرآة الزمان: نصر بن مسعود. وفي معجم الأدباء: نصر بن الحسن).

(١) قاضي البيمارستان: هو محمد بن عبد الباقي بن محمد، أبو بكر السلمي البغدادي، توفي سنة ٥٣٥هـ، وكان ينظر في أوقاف البيمارستان العضدي (سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢٣ ـ ٢٨).

(٢) الأبيات في البداية والنهاية ١٢/ ٣١٠.

(٣) البتول: فاطمة بنت رسول الله ﷺ. الزهراء، والشيخان: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب.

(٤) وخمسمائة.

لجوابه، والضيوف في فيوض إنعامه عائمون، والفُقَراء في رياض صدقته راتعون، ويجلس في كلِّ يومٍ وليلة لإسداء الجود، وإبداء السُّعود، وبَثِّ المكارم، وكَشْفِ المظالم، وبَرَزَ إلىٰ الصَّيْدِ شرقي دمشق بزاد خمسة عشر يوماً، واستصحب معه أخاه العادل وأبعد في البَرِّيَّة، وظهر عن ضَمِير ضُمَير إلى الجهة الشَّرْقية، وطابت له الفُرَص، ووافق مرادَه القَنَص.

[عودة الحاج الشامي]

ثم عاد يوم الاثنين حادي عشر صَفَر، ووافق ذلك عَوْد الحاج الشَّامي، فخرج للتَّلَقِّي، وسعاداتُه في التَّرَقِّي، ولما لقي الحُجَّاج استعبرت عَيْناه، كيف فاتَه من الحج ما تَمَنَّاه، وسألهم عن أحوال مكَّة وأميرها وأهلها، وخِصْبها ومَحْلِها، وكم وَصَلهم من غَلَّات مِصْر وصدقاتها، والفقراء والمجاورين ورواتبها وإدراراتها، وسُرَّ بسلامة الحاجِّ، ووضوح ذلك المِنْهاج. ووصل من اليمن ولدُ أخيه سيف الإسلام، فتلقَّاه بالإكرام.

قال القاضي ابن شَدَّاد: وخرجتُ من القُدْس الشَّريف يوم الجمعة الثالث والعشرين من المحرَّم، وكان الوصولُ إلى دمشق ثاني عشر صَفَر، وكان الأفضل حاضراً في الإيوان الشَّمالي، وفي خدمته خَلْقٌ من الأُمراء وأرباب المناصب ينتظرون جُلُوس السُّلطان، فلما شعر بحضوري استحضرني وهو وَحْدَه قبل أن يَدْخُلَ إليه أحد، فدخلت عليه رحمه الله، فقام ولقيني مَلْقًى ما رأيتُ أشدَّ من بِشره فيه، ولقد ضَمَّني إليه، ودمعت عينه.

وفي ثالث عشر صفر طلبني فحضرتُ، فسأَلني عَمَّن في الإيوان، فأخبرتُهُ أَنَّ الملك الأفضل جالسٌ في الخِدْمة، والأُمراء والنَّاس في خدمته، فاعتذر إليهم على لسان جمال الدَّولة إقبال، ثم استحضرني بُكْرَة الخميس رابع عشر صَفَر وهو في صُفَّة البُسْتان، وعنده أولاده الصِّغار، فسأل عن الحاضرين فقيل: رُسُل الفرنج وجماعة الأُمراء والأكابر.

فاستحضر رُسُلَ الفرنج إلى ذلك المكان، فحضروا، وكان له ولدٌ صغير، وكان كثير الميل إليه يُسمّى الأمير أبا بكر، وكان حاضراً، وكان رحمة الله عليه يداعبه، فلما وَقَعَ بصرُه على الفرنج، ورأى أشكالهم، خاف منهم وبكى، فاعتذر إليهم، وصرفهم بعد أن حضروا، ولم يسمع كلامهم، وقال لي: أكلتَ اليوم شيئاً ـ وكانت عادَتُهُ رحمه الله هذه المُبَاسَطة ـ ثم قال: فأحضروا لنا ما تَيَسَّر. فأحضروا أرزاً بلبن، وما يشبه ذلك من الأطعمة الخفيفة، فأكل ـ رحمه الله ـ وكنتُ أظنُّ أن ما عنده شهوة.

وكان في هذه الأيام يعتذر إلى النَّاس لثقل الحركة عليه، وكان بدنُهُ ممتلئاً، وعنده تَكَسُّل، فلما فرغنا من الطَّعام قال: ما الذي عندك من خَبَرِ الحاجِّ؟ فقلت: قد اجتمعت بجماعةٍ منهم في الطَّريق، ولولا كثرةُ الوحل لدخلوا اليوم، ولكنَّهم في غدٍ يدخلون، فقال: نخرج إن شاء الله إلى لقائهم. وتقدَّم بتنظيف طُرُقاتهم من المياه فإنها كانت سنة كثيرة الأَنْداء، وقد سالت المياه في الطُّرق كالأنهار، وانفصلتُ عن خِدْمته، ولم أجد عنده من النَّشاط ما أعهده منه.

ثم بكَّر في يوم الجمعة، فركب، ثم لحقتُهُ وقد لقي الحاج، ولم أجد عليه كَزَاغَنْده، وما كان له عادة يركب بدونه، وكان يوماً عظيماً قد اجتمع فيه للقاء الحاجِّ والتفرُّج على السُّلطان مُعْظمُ من في البلد، فأذكرتُهُ ذلك فكأنَّه استيقظ، فطلب الكزَاغَنْد فلم يُوجد، وأوقع الله في قلبي تطيراً بذلك.

ثم سار رحمه الله بين البساتين يطلُبُ جهة المُنَيْبع حتى أتى القلعة، فعبر على الجسر إليها، وهو طريقه المعتاد، وكانت آخر ركباته، رحمه الله.

فصل

في مرض السُّلطان ووفاته أحلَّه الله بُحْبوحَة جنَّاته[(١)]

قال القاضي: لما كانت ليلة السبت وجد كسلاً عظيماً، فما انتصف اللَّيل حتى غَشِيَتْهُ حُمَّى صفراوية كانت في باطنه أكثر منها في ظاهره، وأصبح يوم السبت سادس عشر صَفَر عليه أَثَرُ الحُمَّى ولم يُظْهر ذلك للنَّاس لكن حَضَرْتُ عنده أنا والقاضي الفاضل، ودخل ولدُه الأفضل، وطال جلوسُنا عنده، وأخذ يشكو من قلقه بالليل، وطاب له الحديث إلى قريب الظُّهر، ثم انصرفنا والقلوبُ عنده، فتقدَّم إلينا بالحضور على الطَّعام في خدمة ولده الأفضل، ولم يكن للقاضي عادةٌ بذلك، فانصرف.

ودخلتُ إلى الإيوان القِبْلي، وقد مُدَّ الطَّعام وولدُهُ الأفضلُ قد جلس في موضعه، فانصرفتُ، وما كان لي قوَّةٌ للجلوس استيحاشاً.

وبكى في ذلك اليوم جماعةٌ تفاؤلاً بجلوس ولده في موضعه، ثم أخذ

---

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥: ذكر وفاة صلاح الدين وبعض سيرته. وانظر أيضاً البداية والنهاية ١٣/٣ ـ ٦.

المرضُ في تَزَايُدٍ من حينئذٍ، ونحن نلازمُ التردُّد في طَرَفَي النَّهار، وأدخُلُ إليه أنا والقاضي الفاضل في النَّهار مراراً، ويُعطى الطريق في بعض الأيام التي يجدُ فيها خِفَّة، وكان مرضُهُ في رأسه، وكان من أمارات انتهاء العمر غيبة طبيبه الذي كان قد أَلِفَ مِزاجه سَفَراً وحَضَراً، ورأى الأطباء فَصْدَه ففصدوه في الرَّابع، فاشتدَّ مرضُه، وقَلَّتْ رطوباتُ بَدَنِهِ، وكان يغلبه النَّفَسُ غلبةً عظيمةً، ولم يَزَل المرض في تزايدٍ حتى انتهى إلى غايةِ الضَّعْف.

ولقد أجلسناه في السَّادس من مرضه، وأسندنا ظهره إلى مخدَّة، وأُحضر ماء فاتر يشرَبهُ عقيب شرابٍ يُلَيِّن الطَّبع، فشربَه، فوجدَه شديدَ الحرارة، فشكا من شِدَّة حَرِّه، فَغُيِّر، وعُرِض عليه ثانياً، فشكا من برده، ولم يغضب ولم يصخب رحمه الله، ولم يقل سوى هذه الكلمات: سبحان الله لا يمكن أحداً تعديل الماء!

فخرجتُ أنا والقاضي من عنده، وقد اشتدَّ مِنَّا البكاءُ، والقاضي الفاضل يقول لي: أبصر هذه الأخلاق التي قد أشرف المسلمون على مفارقتها، والله لو أَنَّ هذا بعض النَّاس كان قد ضرب بالقَدَح رأس مَنْ أَحْضره.

واشتدَّ مرضُهُ في السَّادس والسَّابع والثَّامن، ولم يزل متزايداً، وتغيَّب ذهنُهُ، ولما كان التَّاسع حدَثَتْ به رَعْشة، وامتنع من تناول المشروب، واشتدَّ الإرجافُ في البلد، وخاف النَّاسُ، ونقلوا الأقمشةَ من الأسواق، وغشي النَّاسَ من الكآبة والحُزْن ما لا يمكن حكايته.

ولقد كنتُ أنا والقاضي الفاضل نقعد كُلَّ ليلةٍ إلى أن يمضي من الليل ثُلُثه، أو قريبٌ منه، ثم نحضُر في باب الدَّار، فإن وجدنا طريقاً دخلنا وشاهدناه وانصرفنا، وإلّا تعرَّفنا أحواله وانصرفنا، وكُنَّا نجد النَّاس يرتقبون خروجَنا إلى بيوتنا حتَّى يقرؤوا أحواله من صفحات وجوهنا.

ولما كان العاشر من يوم مرضه حُقِنَ دفعتين، وحصل من الحقنة راحةٌ، وحصل بعض الخِفِّ، وتناول من ماء الشَّعير مقداراً صالحاً، وفَرِحَ النَّاسُ فرحاً شديداً، فأقمنا على العادة إلى أن مضى من اللَّيل هزيعٌ، ثم أتينا بابَ الدَّار، فوجدنا جمال الدولة إقبالاً، فالتمسنا منه تعريف الحال المتجدِّد، فدخل، ثم أنفذ إلينا مع الملك المعظَّم تورانشاه يقول: إنَّ العَرَق قد أخذ في ساقيه. فشكرنا الله تعالى على ذلك، وانصرفنا طيِّبةً قلوبنا، ثم أصبحنا فأُخبرنا أَنَّ العرقَ أفرط حتى نفذ في الفُرُش، وتأثَّرت به الأَرْض، وأنَّ اليَبَسَ قد تزايد به تزايداً عظيماً، وخارت القوة، واستشعر الأَطِبَّاء.

ولما رأى الملك الأفضل ما حَلَّ بوالده، وتحقَّق اليأسَ منه شَرَعَ في تحليف

النَّاس، وجلس في دار رضوان المعروفة بسكنه، واستحضر القُضاة، وعُمِلَ له نُسْخة يمين مختصرة، مُحَصِّلة للمقاصد، تتضمَّن الحَلِفَ للسُّلطان مُدَّة حياته، وله من بعد وفاته، واعتذر إلى النَّاس بأَنَّ المَرَضَ قد اشتدَّ، وما نعلم ما يكون، وما نفعل هذا إلا احتياطاً على جاري عادة الملوك.

ثم سمَّى القاضي ممن حَلَفَ له جماعة، منهم سعد الدين مسعود أخو بدر الدِّين مودود الشِّحْنة، وناصر الدين صاحب صِهْيَوْن، وسابق الدين صاحب شَيْزَر، وخشترين الهَكَّاري، ونوشروان الزرزاري، وعلَّكان ومنكلان، ثم مُدَّ الخِوان، وأَكلوا.

ولما كان العَصْر أُعيد مجلس التَّحليف، وأُحضر ميمون القَصْري، وشمس الدين سُنْقُر الكبير، وأسامة، وسُنْقُر المَشْطُوب، واليكي الفارس، وأَيْبَك الأَفْطَس، وأخو الأمير سياروخ، وحسام الدين بشارة، وبعضهم اشترط في يمينه، وبعضهم لم يشترط ولم يحضر أحد من الأُمراء المِصْريين، ولم يُتَعَرَّض لهم.

ولما كانت ليلة الأربعاء السَّابع والعشرين من صَفَر، وهي ليلة الثَّاني عشر من مَرَضه اشتدَّ مرضُهُ وضَعُفَتْ قُوَّتُهُ، ووقَعَ في أوائل الأمر من أوائل اللَّيل، وحال بيننا وبينه النِّساء، واستُحْضِرْتُ أنا والقاضي الفاضل في تلك الليلة وابن الزَّكي، ولم تكن عادته الحضور في ذلك الوقت.

وعَرَضَ علينا الملكُ الأفضل أن نبيت عنده، فلم يَرَ الفاضل ذلك رأياً، فإنَّ النَّاس كانوا في كلِّ ليلةٍ ينتظرون نزولنا من القلعة، فخاف أن لا ننزل، فيقع الصَّوْت في البلد، وربما نَهَبَ النَّاسُ بعضهم بعضاً، فَرَأَى المصلحةَ في نزولنا، واستحضار الشيخ أبي جعفر(١) إمام الكَلَّاسة ـ وهو رجل صالح ـ يبيت بالقَلْعة، حتى إن احتضر باللَّيل حَضَرَ عنده، وحالَ بينه وبين النِّساء، وذكَّره بالشهادة، وذكر الله تعالى، ففعل ذلك، فنزلنا وكلٌّ منا يودُّ لو فداه بنفسه، وبات في تلك الليلة على حال المنتقلين إلى الله تعالى، والشيخ أبو جعفر يقرأ عنده القرآن، ويذكّره بالله تعالى، وكان ذهنه غائباً من ليلة التاسع، لا يكادُ يفيق إلا في الأحيان.

وذكر الشيخ أبو جعفر أنَّه لما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ﴾ [الحشر: ٢٢] سَمِعَهُ وهو يقول: صحيح. وهذه يَقَظَةٌ في وقت الحاجة، وعنايةٌ من الله تعالى به، فللّه الحمدُ على ذلك.

وكانت وفاته ـ رحمة الله عليه ـ بعد صلاة الصُّبْح من يوم الأربعاء السَّابع

(١) هو أبو جعفر أحمد بن علي بن أبي بكر بن إسماعيل القرطبي إمام الكلاسة، توفي يوم الاثنين تاسع عشر شهر رمضان سنة ٥٩٦هـ (الذيل على الروضتين وفيات سنة ٥٩٦هـ).

والعشرين من صَفَر سنة تسع وثمانين وخمسمائة، وبادر القاضي الفاضل بعد طلوع الصُبح، فحضر وفاته، ووصلْتُ أنا وقد مات وانتقل إلى رِضْوان الله، وَمَحَلِّ كرامته.

ولقد حُكيَ لي أَنَّهُ لما بلغ الشيخ أبو جعفر إلى قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [الرعد: ٣٠] تَبَسَّم، وتهلَّل وجهه، وسَلَّمها إلى رَبِّه، وكان يوماً لم يُصَبِ الإسلامُ والمسلمون بمثله منذ فُقِدَ الخلفاءُ الرَّاشدون، وغَشِيَ القلعة والبلد والدُّنيا من الوحشة ما لا يعلمه إلّا الله تعالى.

وتالله لقد كنتُ أسمع من بعض النَّاس أنهم يتمنون فِدَاء من يعزُّ عليهم بنفوسهم، فكنت أحمل ذلك على ضَرْبٍ من التجوُّز والترخُّص إلى ذلك اليوم، فإني علمتُ من نفسي ومن غيري أَنَّهُ لو قُبِلَ الفِداء لَفُدِيَ بالنَّفْس.

ثم جلس ولدُهُ الأفضلُ للعَزَاء في الإيوان الشَّمالي، وحُفِظَ بابُ القلعة إلا عن الخواص من الأُمراء والمعمَّمين، وكان يوماً عظيماً قد شَغَلَ كلَّ إنسانٍ ما عنده من الحُزْنِ والأَسَفِ والبكاء والاستغاثة عن أن ينظر إلى غيره، وحُفِظَ المجلس عن أن يَنْشُدَ فيه شاعرٌ أو يتكلَّم فيه قصّاص أو وَعَّاظ.

وكان أولادُهُ يخرجون مُسْتَغيثين بين النَّاس، فتكاد النُّفوس تُزْهق لهولِ منظرهم، ودام الحالُ على ذلك إلى بعد صلاة الظُّهْر، ثم اشتغل بتغسيله وتكفينه، فما مَكَّنَّا أن نُدخل في تجهيزه ما قيمتُهُ حَبَّة واحدة إلا بالقرض حتى في ثمن التِّبْن الذي يُلَتُّ به الطِّين، وغَسَّله الدَّوْلعي الفقيه(١)، ونُدِبْتُ إلى الوقوف على غُسْله فلم يكن لي قوَّة تحمُّلِ ذلك المنظر، وأُخرج بعد صلاة الظُّهر في تابوت مُسَجَّى بثوب فوط، وكان ذلك وجميع ما احتاج إليه من الثِّياب في تكفينه قد أحضره الفاضل من وجه حِلٍّ عَرَفَه.

وارتفعتِ الأصواتُ عند مشاهدته، وعَظُمَ الضَّجيج حتى إن العاقل يتخيَّل أَنَّ الدُّنيا كلَّها تصيح صوتاً واحداً، وغَشِيَ النَّاس من البكاء والعويل ما شَغَلَهم عن الصَّلاة، وصَلَّى عليه النَّاسُ أَرسالاً، وكان أولُ من أَمَّ بالنَّاس القاضي محيي الدِّين بن الزكي، ثم أُعيد رحمة الله عليه إلى الدَّار التي في البُستان التي كان متمرِّضاً بها، ودُفِنَ في الصُّفَّة الغربية منها، وكان نزوله في حُفْرته قريباً من صلاة العَصْر، ثم نزل في أثناء النَّهار ولدُه الظَّافر، وعَزَّى النَّاسَ فيه، وسكَّن قلوبَ النَّاس.

---

(١) الدولعي: هو ضياء الدين، أبو القاسم، عبد الملك بن زيد بن ياسين التغلبي، والدولعية قرية من قرى الموصل. ولد سنة ٥١٨هـ، وتوفي بدمشق سنة ٥٩٨هـ (الذيل على الروضتين وفيات سنة ٥٩٨هـ).

وكان النَّاسُ قد شَغَلَهم الحُزْنُ والبكاء عن الاشتغال بالنَّهْب والفَسَاد، فما يوجد قلب إلا حزين، ولا عينٌ إلا باكية إلا مَنْ شاء الله، ثم رجع النَّاسُ إلى بيوتهم أقبَحَ رجوع، ولم يَعُدْ منا أحدٌ في تلك اللَّيلة، إلا أنَّا حضرنا وقرأنا وجدَّدنا حالاً من الحُزْن، واشتغل ذلك اليوم الملك الأفضل بكَتْبِ الكُتُبِ إلى إخوته وعَمِّه يُخْبرهم بهذا الحادث.

وفي اليوم الثاني جَلَس للعَزاء جلوساً عاماً، وأطلق بابَ القَلْعة للفُقهاء والعلماء، وتكلَّم المتكلمون، ولم ينشد شاعرٌ، ثم انفضَّ المجلس في ظهيرة ذلك اليوم، واستمرَّ الحال في حضور النَّاس بُكْرَة وعشيَّة لقراءة القُرْآن، والدُّعاء له، رحمه الله.

وقال العماد: جلس السُّلْطان ليلة السبت سادس عشر صَفَر ونحن عنده حتى مضى من الليل ثُلُثُه، وهو يحدِّثنا ونحن نحدِّثه، ثم صَلَّى به وبنا إمامه، وحان قيامه، وانفصلنا بإحسانه مُغْتَبطين، وبامتنانه مرتبطين، وأصبحنا يوم السبت، وجلسنا في إيوانه ننتظر خروجَهُ لوضع الخِوان، ووجدناه وقد أَغلق بإغلاق بابه رَهْنَه، ولم نَشْعُر بما قضاه القَدَرُ وأَجَنَّه، وخرج مِنْ خَدَمه من أخبر بسَقَمِهِ، ودخول الخوف إلى حُرَمِهِ.

وأمر الملك الأفضل بأن يجلس في الإيوان لبسط الخِوان، فجلس في مكان والده متربِّعاً، وكان من شَرْط الأدب أن يخليَ له موضعاً، فتطيَّرْنا من تلك الحالة، وتكرَّهْنا منها سُوء الدَّلالة، فتلاعبت فيه العيون، وتراجمتِ الظُّنُون، ودخلنا إليه ليلةَ الأحد للعيادة، ومرضُهُ في الزِّيادة، وفي كلِّ يوم تَضْعُفُ القلوب، وتتضاعفُ الكروب، وانتقل من دار الفَنَاء إلى دار البقاء في سُحْرَةِ يوم الأربعاء، ونابتِ الظَّلْماء عن الضِّياء، ودخل قَمره ليلة السَّابع والعشرين في السِّرَار[1]، ودَجَت مطالِعُ الأنوار، ومات بموته رجاءُ الرِّجال، وأظلم بغروب شمسه فضاءُ الأفضال، وغاضت الأيادي، وفاضَت الأعادي، ودُفِنَ بقلعة دمشق في مسكنه، ودُفِنَ جِماعُ الكَرَم والفَضْل والدِّين بمدفنه، ثُمَّ بنى الملكُ الأفضل قُبَّةً شمالي الجامع في جواره، بشُبَّاك إلى الجامع لزوَّاره ونقله إليها يوم عاشوراء سنةَ اثنتين وتسعين، واسترجعنا وقلنا: ما لنا إلا أَن نستعيذ بالله ونستعين.

قال: ومما قلتُه رباعية في المرثية: [الدوبيت]

قال الملكُ النَّاصِرُ مَنْ كَلَّفني ... في الجود بشيمتي فما أنصفني
ما يعلَمُ أَنَّ ذا الملك فني ... لم يَبْقَ من الجُوْد إلا كَفَني

(١) ليلة السِّرار: هي الليلة التي يستسر فيها القمر، أي يخفى ولا يُرى.

وقال العماد أيضاً في رسالته الموسومة «بِعُتْبَى الزَّمان»: وكان السُّلْطان رحمه الله لما توفي دُفِنَ بالقلعة في منزله، وما زال الأفضل يتروَّى في موضع ينقله إليه، واستشار في ذلك، فأُشير عليه في سنةِ تسعين بأن تُبْنَى تُرْبته عند مسجد القدم، ويُبْنَى عندها مدرسةٌ للشَّافعية، وقالوا: إذا وصل الملك العزيز استغنى بزيارتها عن الدُّخول إلى دمشق لأجلها.

وقالوا: إنَّ السُّلْطان ـ رحمه الله ـ لما مَرِضَ سنة إحدى وثمانين بحرَّان كان قد أوصى أَنْ يُدْفَنَ بدمشق قبليِّ مَيْدَان الحصى، ويكون قبره على النَّهج السَّابل، وطريق القوافل، ليدعو له الوارد والصَّادر، والبادي والحاضر، وتجوز عليه في الغَزَوات العَسَاكر.

قالوا: وإنْ تناءت هذه الأرض عن مكان الوَصِيَّةِ، فهي منه قريبة، فأمر الأفضل ببناء التُّرْبة عند مسجد القدم، وتولى عمارتها بدر الدِّين مودود والي دمشق، فاتَّفق وصول العزيز تلك السَّنة للحصار، وهم قد شرعوا في عمارتها، فخرَّب ما كان قد ارتفع من البناء، ثم استقرى الأفضل حدودَ الجامع ليجعل التُّرْبة فيها، فوُفِّق لدارٍ كانت لبعض الصالحين، وهي في حَدِّ المكان الذي زاده الأَجَل الفاضل في المسجد، فاشتراها منه، وأمر بعمارتها فيه فَعُمِرَتْ، ونُقِلَ إليها السُّلْطان يوم عاشوراء من سنة اثنتين وتسعين بُكْرة الخميس، ومشى الأفضل بين يدي تابوته.

وأراد العلماء والفقهاء حَمْلَه على أعناقهم التي فيها مِنَّته، فقال الأفضل: كَفَتْهُ أَدْعِيَتُكُم الصَّالِحة، التي هي في المَعَادِ جُنَّتُهُ، وحمله مماليكه وخدمُهُ، وأولياؤه وحَشَمه، وأُخرج من باب القلعة في البلد على دار الحديث، إلى باب البريد، وأُدخل منه إلى الجامع، ووضع قُدَّام باب النَّسْر، وصَلَّى عليه القاضي محيي الدين محمد بن علي القُرَشي بإذن الأفضل، ثم حُمِلَ منه على الرؤوس إلى بطن مُلْحَده، ثم جاء الأفضل وحده، ودخل لحده، وأودعه وخرج، وسَدَّ البابَ على أبيه، وجلس هناك في الجامع ثلاثة أيامٍ للعَزَاء، وأنفقت سِتُّ الشام أُختُ السُّلْطان في هذه النَّوْبة أموالاً كثيرة.

قال محمد بن القادسي: وفي يوم السبت ثالث عشر ربيع الأَوَّل شاعتِ الأخبار يعني ببغداد بوفاة صلاح الدين يوسف بن أيوب، وذُكِرَ أَنَّهُ دُفِنَ معه سَيْفُهُ الذي كان مَعَهُ في الجهاد، وكان ذلك برأي الفاضل، وقيل عنه: هذا يتوكأ عليه إلى الجنَّة. وأَنَّ الفاضل كَفَّنه من ماله، وتولى غُسْله الفاضل وخطيب دمشق.

قلتُ: وحُكي لي أَنَّهُ رؤي النبيُّ ﷺ في جماعةٍ من الصَّحابة رضي الله عنهم زاروا

قبر صلاح الدين رحمه الله، وأنهم لما صاروا عند الشُّبَّاك سجدوا. ووجدتُ في بعض الكُتُب الفاضلية أنَّ رجلاً رأى ليلة وفاة السُّلْطان كأَنَّ قائلاً يقول له: قد خرج الليلة يوسف من السِّجْن، وهو من الأَثَرِ النَّبوي: «الدُّنيا سِجْنُ المُؤمِن وجنة الكافر»(١).

قال: وما كان يوسفنا ـ رحمة الله عليه ـ في الدُّنيا بالإضافة إلى ما صار إليه في الآخرة إلا في سِجْنٍ، رضي الله عن تلك الرُّوح، وفتح له بابَ الجَنَّة، فهو آخر ما كان يرجو من الفُتُوح.

ومن كلام غيره في وفاة السُّلطان رحمه الله تعالى: أَفَلَت الشَّمْسُ عند الصَّباح، وذهبت روح الدُّنيا الذي ذَهَبَ بذهابها كثيرٌ من الأرواح، وتلك ساعةٌ ظلَّت لها الألباب حائرة، وتمثَّلت فيها السَّماء مائرة، والجبال سائرة، وأُغْمِدَ سَيْفُ الله الذي كان على أعدائه دائم التجريد، وخَفَّت الأرض من جبلها الذي كان يمنعها أن تميد، وأصبح الإسلامُ وقد فُقِدَ ناصِرُه، فهو أعظم فاقدٍ لأعظم فقيد، وليس أحدٌ من النَّاس إلا وقد صُمَّ عن الخبر، وأُصيبَ في سواد القلب والبَصر، وقال وقد توفي رسولُ الله ﷺ بقولِ عمر.

وخَتَمَ العمادُ كتابه «البرق الشَّامي» بقصيدة رثى بها السُّلْطانَ ـ رحمه الله ـ عددها في ديوانه مائتان واثنان وثلاثون بيتاً، أولها: [الكامل]

شَمْلُ الهُدَى والمُلْكِ عَمَّ شَتَاتُهُ ... والدَّهْرُ ساء وأَقْلَعَتْ حَسَنَاتُهُ
أينَ الذي مُذْ لَمْ يَزَلْ مَخْشِيَّةً ... مَرْجُوَّةً هَبَّاتُهُ وَهِبَاتُهُ
أينَ الذي كانت له طاعاتنا ... مبذولةً ولربِّهِ طاعاتُهُ
بالله أينَ النَّاصِرُ الملك الذي ... لله خالصةً صَفَتْ نِيَّاتُهُ
أَينَ الذي ما زال سُلْطاناً لنا ... يُرْجى نَدَاه وتُتَّقى سَطَواتُهُ
أَيْنَ الذي شَرُفَ الزَّمان بفضله ... وسَمَتْ على الفُضَلاء تَشْريفاتُهُ
أينَ الذي عَنَتِ الفرنجُ لبأسه ... ذُلاً ومنها أُدركت ثاراتُهُ
أغلالُ أَعناقِ العِدَى أسيافُهُ ... أطواقُ أجياد الوَرى مِنَّاتُهُ
لَمْ يُجْدِ تدبيرُ الطَّبيب وكم وكم ... أَجْدَتْ لطبِّ الدَّهْر تدبيراتُهُ
مَنْ في الجهادِ صِفَاحهُ ما أُغمدت ... بالنَّصْر حتى أُغمدت صَفحاتُهُ

(١) أخرجه مسلم في الزهد حديث ١، والترمذي في الزهد باب ١٦، وابن ماجه في الزهد باب ٣، وأحمد في المسند ٢/ ١٩٧، ٣٢٣، ٣٨٩، ٤٨٥، والحاكم في المستدرك ٣/ ٦٠٤، ٤/ ٣١٥، والطبراني في المعجم الكبير ٦/ ٢٨٩، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٧/ ٤١٢.

مَنْ في صدور الكُفْر صَدْرُ قَناتِهِ … حتى تـوارَتْ بالصياح قَنَاتُهُ
لَذَّ المتاعِبَ في الجهاد ولم تكن … مُذْ عاش قَطُّ لذاتِهِ لَذَّاتُهُ
مسعودَةٌ غَدَواتُهُ محمودةٌ … رَوَحاتُهُ ميمونة ضَحَواتُهُ
فِي نُصْرَةِ الإسلام يَسْهَرُ دائماً … ليطولَ في رَوْضِ الجِنانِ سناته
لا تَحْسَبُوه ماتَ شَخْصٌ واحدٌ … فمماتُ كُلِّ العالَمين مماتُهُ
مَلِكٌ عن الإسلامِ كان محامياً … أبداً لماذا أسْلَمَتْهُ حُمَاتُهُ
قد أظلمت مُذ غابَ عنها دُورُه … لما خَلَتْ من بَدْرِهِ دَارَاتُهُ
دُفِنَ السَّماحُ فليس يُنبش بعدما … أَوْدَى إلى يوم النُّشور رُفاتُهُ
الدِّينُ بعد أبي المُظَفَّر يوسُفٍ … أَقْوَتْ قُواه وأَقْفَرَتْ ساحاتُهُ
جَبَلٌ تَضَعْضَعَ مِنْ تَضَعْضُعِ رُكْنِهِ … أركانُنا وتَهُدُّنا هَدَّاتُهُ
ما كنتُ أَعْلَمُ أَنَّ طَوْداً شامخاً … يَهْوِي ولا تَهْوِي بنا مَهْوَاتُهُ
ما كنتُ أعلم أَنَّ بحراً طامياً … فينا يُطَمُّ وتنتهي زَخَراتُهُ
بحرٌ خلا من وارديه ولم تَزَلْ … محفوفةً بوفوده حفاته
مَنْ لليتامى والأرامل راحِمٌ … متعطِّفٌ مفضوضةٌ صَدَقاتُهُ
لو كان في عَصْرِ النبيِّ لأُنْزِلَتْ … في ذِكْرِهِ من ذِكْرِهِ آياتُهُ
فعلى صلاح الدين يوسُفَ دائماً … رِضْوانُ رَبِّ العَرْشِ بَلْ صَلَواتُهُ
لضريحه سُقْيا السَّحابِ فإنْ يَغِبْ … تَحْضُرْ لرحمةِ رَبِّه سُقْياتُهُ
وكعادَةِ البيتِ المقدَّسِ يَحْزُنُ الـ … ـبيتُ الحَرَامُ عليه بل عَرَفاتُهُ
مَنْ للثُّغور وقد عَدَاها حِفْظُهُ … مَنْ للجهاد ولم تَعُدْ عاداتُهُ
بَكَتِ الصَّوارِمُ والصَّواهِلُ إذ خَلَتْ … من سبلها وركوبها غَزواتُهُ
وبسيفه صدأٌ لحُزْنِ مُصابه … إذ ليس يُشْفَى بعده صَدَياتُهُ
يا وحشتا للبيض في أغمادها … لا تنتضيها للوغى عَزَماتُهُ
يا وحشةَ الإسلام يوم تمكَّنَتْ … في كلِّ قَلْبِ مُؤمِنٍ رَوْعَاتُهُ
يا حَسْرَتا من يأسِ راجيه الذي … يُقْضَى الزَّمانُ وما انقضت حَسَراتُهُ
ملأَتْ مهابَتُهُ البلادَ فإنَّه … أَسَدٌ وإنَّ بلادَه غاباتُهُ
ما كانَ أسرعَ عَصْرَه لما انقضى … فكأنَّما سَنَواتُهُ ساعاتُهُ
لم أَنسَ يوم السَّبْت وهو لما به … يُبْدي السُّباتَ وقد بَدَتْ غشياتُهُ
والبِشْرُ منه تَبَلَّجَتْ أنوارُهُ … والوَجْهُ منه تلألأَتْ سُبُحاتُهُ

ويقول لله المهيمنِ حُكْمُهُ ... فِي مَرْضَةٍ حَصَلَتْ بها مَرْضَاتُهُ
وَقَفَ الملوكُ على انتظارِ ركوبِهِ ... لهمُ ففيمَ تأخَّرَتْ رَكَباتُهُ
كانوا وقوفاً أمسِ تحتَ رِكابِهِ ... واليوم هُمْ حَوْلَ السَّريرِ مُشاتُهُ
وممالكُ الآفاقِ ساعيةٌ له ... فمتى تجيءُ بفَتْحِهِنَّ سُعَاتُهُ
هذي مناشيرُ الممالكِ تقتضي ... توقيعَهُ فيها فأَيْنَ دَوَاتُهُ
هذي الجيوشُ من البلادِ تواصَلَتْ ... فعلامَ لا تسمو لها راياتُهُ
قد كان وَعْدُك في الرَّبيع بجمعها ... هذا الربيعُ وقد دنا ميقاتُهُ
والجُنْدُ في الدِّيوان جُدِّدَ عَرْضُهُ ... وإذا أَمَرْتَ تجدَّدَتْ نَفَقَاتُهُ
والقُدْسُ طامحةٌ إليك عيونُهُ ... عَجِّلْ فقد طَمَحَتْ إليه عُداتُهُ
والغَرْبُ منتظرٌ طلوعَك نحوه ... حتى تفيءَ إلى هُدَاك بُغاتُهُ
والشَّرْق يرجو غَرْبَ عَزْمِكَ ماضياً ... في مُلْكِهِ حتى تطيعَ عُصاتُهُ
مُغْرًى بإسْداءِ الجميلِ كأنَّما ... فُرِضَتْ عليه كالصَّلاةِ صِلاتُهُ
هل للملوك مَضَاؤه في مَوْقِفٍ ... شُدَّت على أعدائِهِ شَدَّاتُهُ
وإذا الملوكُ سَعَوْا وقَصَّرَ سَعْيُهُمْ ... رَجَحَتْ وقد نَجَحَتْ به مَسْعَاتُهُ
كم جاءه التَّوفيقُ في وقعاته ... مَنْ كان بالتَّوْفِيقِ توقيعاتُهُ

قال: ووجد بخطِّ العماد في حاشية «ديوانه»: كانت علامته: الحمد لله، وبه توفيقي:

يا راعياً للدِّين حين تمكَّنَتْ ... منه الذِّئابُ وأسلَمَتْهُ رُعاتُهُ
ما كان ضَرَّك لو أَقَمْتَ مُراعياً ... ديناً تولَّى مُذْ رَحَلْتَ وُلاتُهُ
أَضَجِرْتَ مِنَّا أَمْ أَنِفْتَ فلم تكن ... ممن تصابُ لشدَّةٍ ضَجَرَاتُهُ
أَرَضِيتَ تحت الأَرْضِ يا من لم تَزَلْ ... فَوْقَ السَّماءِ عَلِيَّةً درجاتُهُ
فَارَقْتَ مُلْكاً غيرَ باقٍ مُتْعِباً ... وَوَصَلْتَ مُلْكاً باقياً راحاتُهُ
أَعْزِزْ على عيني برؤية بهجة الدُّ ... نيا وَوَجْهُكَ لا تُرَى بهجاتُهُ
أبني صلاح الدِّين إنَّ أباكُمُ ... ما زالَ يأبى ما الكِرَامُ أُباتُهُ
لا تقتدوا إلا بسُنَّةِ فَضْلِهِ ... لتطِيبَ في مَهْدِ النَّعيم سِنَاتُهُ
وَرِدُوا مواردَ عَدْلِهِ وسماحِهِ ... لِتُرَدَّ عن نَهْجِ الشَّمَاتِ شُمَاتُهُ
ولئن هَوَى جَبَلٌ لقد بُنِيَتْ لنا ... بِبَنِيهِ مِنْ هَضَبَاتِهِ ذُرَوَاتُهُ
وبفضلِ أَفْضَلِهِ وعِزِّ عزيزه ... وظهورِ ظاهره لنا سَرَواتُهُ

الأفضل الملكُ الذي ظَهَرَت على الدُّ ... نيا بِزُهْرِ جلالِه جَلَواتُهُ
والدِّينُ بالملك العزيز عِمَادُه ... عثمان حاليةٌ لنا حالاتُهُ
والمَلْك غازي الظَّاهر العالي الذي ... صَحَّتْ لإظهار العُلَى مغزاتُهُ
ولنا بسيفِ الدِّين أَظْهرُ نُصْرةٍ ... بالعادلِ الملكِ المُطَهَّرِ ذاتُهُ

وللعماد فيه من قصيدةٍ أُخرى: [الكامل]

من للعُلا من للذُّرى من للهُدَى ... يحميه مَنْ للبأسِ مَنْ للنائِلِ
طلبَ البقاءَ لِمُلْكِهِ في آجلٍ ... إذْ لَمْ يَثِقْ ببقاء مُلْكِ العاجلِ
بحرٌ أعاد البَرَّ بحراً بِرُّه ... وبسيفِهِ فُتِحَتْ بلادُ السَّاحِلِ
مَنْ كانَ أهلُ الحَقِّ في أيَّامه ... وبعِزِّه يُرْدُونَ أهلَ الباطلِ
وفتوحُهُ والقُدْسُ من أبكارها ... أَبْقَتْ له فَضْلاً بغير مساجلِ
ما كنتُ أستسقي لقبرك وابلاً ... ورأيتُ جُودَكَ مُخْجِلاً للوابلِ
فَسَقَاكَ رِضْوانُ الإله لإنني ... لا أرْتضي سُقْيا الغَمَامِ الهاطِلِ

فصل

في تركة السُّلْطان ووصف أخلاقه رحمه الله

ذكر القاضي ابنُ شدَّاد أنه لما مات لم يخلِّف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعةً وأربعين دِرْهَماً ناصرية، وَجِرْماً واحداً ذهباً صورياً، ولم يخلِّف مِلْكاً: لا داراً ولا عَقَاراً ولا بُسْتاناً ولا مزرعة. يعني لا في البلد مسقَّفاً، ولا ظاهراً مستغلاً من أنواع الأملاك.

وقال العماد في كتاب «الفتح»: خَلَّف السُّلْطان رحمه الله سبعة عشر ولداً ذكراً وابنةً صغيرة، وأبقى له مآثر أثيرةً، ومحاسن كثيرة، ولم يخلِّف في خزانته سوى دينارٍ واحد وستة وثلاثين دِرْهماً، فإنه كان بإخراج ما يَدْخُلُ من الأموال في المكْرُمات والغرامات مُغْرماً.

وكان يجود بالمال قبل الحصول، ويقطعه عن خزانته بالحوالات عن الوصول، وإذا عَرَفَ بوصول حِمْلٍ وقَّع عليه بأضعافه، وخَصَّ الآحاد من ذوي الغَنَاء في الجهاد بآلافه، ولا جَبَهَ أحداً بالرَّدِّ إذا سأله، بل تَلَطَّف له كأنَّه استمهله، فإنه يقول: ما عندنا شيء السَّاعة. ومفهومه أنه يعطي وإن كان يُبْطي، وأنَّه يصيبه بالنَّوَال ولا يخطي.

وكان مشغوفاً في سبيل الله بالإنفاق، موقوفاً عَزْمُهُ في الأعداء بإدناء الآجال وفي الأولياء بإجراء الأَرْزاق. وما عُقِرَ في سبيل الله فَرَس أو جُرح إلا وعوَّض مالكه مِثْلَه، وزاده من فضله فَضْلَة.

وحُسِبَ ما وَهَبَهُ من الخيل العِراب، والأكاديش الجياد، للحاضرين معه في صَفِّ الجهاد، مُدَّة ثلاث سنين وشهر مُذْ نزل الفرنج على عكا في رجب سنة خمس وثمانين إلى يوم انفصالهم بالسِّلْم في شعبان سنة ثمانٍ وثمانين، فكان تقديرُه اثني عشر ألف رأس من حصانٍ وحِجْرٍ[١] وإكديش، وذلك غير ما أطلقه من المال في أثمان الخيل المُصَابة في القتال.

ولم يكن له فَرَسٌ يركبه إلا وهو موهوب، أو موعود به، وصاحبه ملازم في طلبه، وما حضر اللِّقاء إلا استعار فرساً فركبه وهجر جياده، فإذا نزل جاء صاحِبُه واستعاده، فكلُّهم يركب خَيْلَه، ويطلب خيره، وهو يستعير جواداً، ويستعر في الجهاد اجتهاداً.

وقال في «البرق»: وحضرتُ بعده عند بعض الملوك وقد قِيدَتْ إليه عرَاب، فقيل له: كان السلطان يُضَيِّع هذه وما عنده لها حِسَاب. ونسبوا جوده بها إلى السَّرَف، وعدُّوه من معايبه، وأعرضوا عن ذكر مفاخره ومناقبه، وبمثل ذلك استتبَّتْ له الفتوح وخَلَصَتْ له طاعة كتائبه.

قال في «الفتح»: وكان لا يَلْبَسُ إلا ما يَحِلُّ لُبْسُه، وتطيب به نَفْسُه: كالكَتَّان، والقُطْن والصُّوف، وكسوتُه يخرجها في إسداء المعروف.

وكانت محاضِرُه مصونةً من الحَظْر، وخَلَواتُهُ مقدَّسة بالطُّهْر، ومجالسُهُ مُنَزَّهة من الهُزْء والهَزْل، ومحافِلُهُ حافلةً آهلةً بأهل الفَضْل. وما سُمِعَتْ له قَطُّ كلمةً تسقُط، ولا لفظةً فَظَّةً تُسْخِطُ. ويَغْلُظُ على الكافرين الفاجرين، ويلين للمؤمنين المتقين.

ويؤثر سماعَ الأحاديث بالأسانيد، ويكلِّم العلماء عنده في العِلْم الشَّرْعي المفيد. وكان لمداومة الكلام مع الفقهاء، ومشاركة القُضَاة في القضاء، أعلم منهم بالأحكام الشرعية، والأسباب المَرْضِيَّة، والأدلة المَرْعِيَّة.

وكان مَنْ جالَسَهُ لا يعلم أَنَّه جليسُ السُّلْطان، بل يعتقد أَنَّهُ جليسُ أخ من الإخوان. وكان حليماً مُقِيلاً للعَثَرات، متجاوزاً عن الهَفَوات، تقيّاً نقيّاً، وفِيّاً صَفِيّاً، ويُغضي ولا يغضب، وَيَبْشُرُ ولا يتقطَّب، ما رَدَّ سائلاً، ولا صَدَّ نائلاً، ولا أخجل قائلاً، ولا خَيَّب آملاً.

---

(١) الحجر: الفرس الأنثى.

قال: ومن جُمْلة مناقبه أنَّه تأخَّر عنه في بعض سفراته الأمير أيوب بن كنان، فلما وصل سأله عن سبب تَخَلُّفه، فذكر دَيْناً، فأحضر غُرماءه، وتقبَّل بالدَّين وكان اثني عَشَرَ ألف دينار مِصْرية وكسراً.

قال: ولما كُنَّا بالقُدْس في سنة ثمانٍ وثمانين كَتَبَ إليه سيفُ الدَّوْلة بن مُنْقِذ نائبُهُ بمصر أَنَّ واحداً ضَمِنَ معاملة بمبلغ، فاستنضَّ[١] منها ألفي دينار وتَسَحَّب، وربما وصل إلى الباب فتحيَّل وتمحَّل وكَذَّب، فجاء مَنْ أخبر السُّلْطان بأنَّ الرَّجُل بالباب، فقال: قُلْ له إنَّ ابن منقذ يطلبك، فاجتهد أن لا تقع في عينه. فعجبنا من حِلْمه وكَرَمه، بعد أن قُلْنا قَدِمَ الرجلُ إلى حَيْنِه[٢] بقدمه.

قال: ومما أذكره له في أَوَّل سفرتي معه إلى مِصْر سنة اثنتين وسبعين أَنَّه حوسِبَ صاحب ديوانه عما تولاه في زمانه، فكانت سياقة الحساب عليه سبعين ألف دينار باقية عليه، فما طلبها ولا ذكرها، وأَراه أنه ما عرفها، على أَنَّ صاحب الديوان ما أنكرها. وكان يَرْضَى من الأعمال بما يُحمل صَفْواً عَفْواً، ويحصل عَذْباً حُلْواً، وكلُّه يخرج في الجود والجهاد، ثم لم يَرْضَ له بالعُطْلة، فولاه ديوان جيشه.

قال: ولما كُنَّا بظاهر حَرَّان عَمَّ بصدقاته الفُقَراء والمساكين، وكتَبَ إلى نوَّابه في الولايات، بإخراج الصَّدقات، وقال لي: اكتُب إلى الصَّفي بن القابض بدمشق أن يتصدَّق بخمسة آلاف دينار صورية. فقلت له: الذَّهب الذي عنده مِصْري. فقال: فيتصدَّق بخمسة آلاف دينار مصرية. وأشفق من صَرْف المِصْري بالصُّوري فيكون حراماً، ويرتكب في كَسْب الأجر آثاماً، فسَمَحَ وَمَنِحَ، وتاجَرَ الله ورَبِحَ.

ولما عَزَمَ على الرَّحيل من حَرَّان، أفاض بها الفَضْلَ وبَثَّ الإحسان، وقال لي: انظر يوم الرَّحيل، كم بقي بالباب من الوافدين أبناء السَّبيل، وهذه ثلاثمائة دينار أقسمها عليهم بالقلم على أقدارهم. وكانوا عِدَّةً يسيرة لم تبلغ عشرة، فعيَّنت لكل اسم قسماً، فبلغ أربعمائة دينار، فأعلمتُهُ وقُلْتُ: أنقص من كلِّ اسمٍ ربعاً؟ فقال: أجرِ ما جَرَى به القَلَم.

قال: وكان رحمه الله إذا أطلقَ لعافٍ عارفةً، وقلتُ له: هذه ما تكفيه رَدَّها مضاعفة.

قال: وكان يغضب للكبائر، ولا يغضي عن الصَّغائر، ويرشد إلى الهدى، ويهدي إلى الرَّشاد، ويسدِّد الأمر ويأمر بالسَّداد، فكل مماليكه وخواصُّه، بل أمراؤه وأجناده أَعَفُّ من الزُّهاد والعُبَّاد.

---

(١) استنضّ: أي استوفى.
(٢) الحين: الهلاك.

قال: ورأى لي يوماً دواةً محلّاة بالفِضَّة، فأنكرها، فقلتُ له: إنَّ الشيخ أبا محمد والد أبي المَعَالي[1] قد ذكر وجهاً في جوازها. ثم لم أكتب بها عنده بعدها.

وكان محافظاً على الصَّلوات الخمس في أوائل أوقاتها، مواظباً على أَداء مفروضاتها ومسنوناتها، فما رأيته صَلّى إلا في جماعة، ولم يؤخر له صلاةً من ساعة إلى ساعة، وكان له إمامٌ راتب، ملازم مواظِب، فإن غاب يوماً صَلَّى به من حَضَره من أهل العلم، إذا عَرَفَه متقياً متجنِّباً للإثم.

وكان يأخذ بالشَّرْع ويعطي به، ولم يكن إلى المنجِّم مصغياً، ولم يزل لقوله مُلغياً، ولا يتعيَّف ولا يتطيَّر، ولا يُعَيِّن ولا يتخيَّر، بل إذا عَزَمَ توكَّل على الله، فلا يفضِّل يوماً على يوم، ولا زماناً على زمان، إلا بتفضيل الشَّرْع، وما زال ناصراً للتوحيد، وقامعاً جَمْعَ أهلِ البِدَع بالتبديد.

شافعي المذهب أصولاً وفروعاً، معتقِداً له معقولاً ومسموعاً، يُدْني أهل التنزيه ويُقْصي أهلَ التشبيه، ويديم استفادة فقه الفقيه، واستزادة نباهة النَّبيه، ووجاهة الوجيه. فالعالَمون في عَدْله، والعَالِمون في فَضْلِه، والبلاد في أَمْنه، والعباد في مَنِّه.

فصل

قال القاضي ابنُ شَدَّاد: كان مولد السُّلْطان رحمه الله في شهور سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة بقلعة تكريت، وكان والده أيوب بن شاذي والياً بها، وكان كريماً، أريحيّاً حليماً، حَسَنَ الأخلاق، مولده بدُوِين، ثم اتَّفق له الانتقال من تكريت إلى المَوْصل، وانتقل ولدُه المذكور معه، وأقام بها إلى أن ترعرع.

وكان والدُه محترماً مقدَّماً هو وأخوه أسد الدين شِيركُوه عند أتابك زَنْكي، واتَّفق لوالده الانتقال إلى الشَّام، وأُعطي بَعْلَبَكَّ، وأقام بها مُدَّة ومعه ولده المذكور، فأقام في خدمة والده يتربَّى تحت حِجْره، ويرتضعُ ثدي محاسن أخلاقه حتى بَدَتْ منه أمارات السَّعادة، ولاحت عليه لوائح التقدُّم والسِّيادة، وقدَّمه الملك العادل نور الدين محمود بن زَنْكي رحمه الله، وعَوَّل عليه، ونَظَرَ إليه، وقَرَّبه

(١) أبو المعالي: هو محمد بن علي بن محمد، المعروف بابن الزكي، صاحب أول خطبة جمعة في بيت المقدس بعد فتحها، (تقدّمت ترجمته). ووالد أبي المعالي، وقد كناه العماد باسم ابنه محمد، وكنيته أبو الحسن، وهو علي بن محمد ولد سنة ٥٠٧هـ، تولى قضاء دمشق، ثم استعفى منه سنة ٥٥٥هـ، وأقام ببغداد حتى توفي سنة ٥٦٤هـ (وفيات الأعيان ٤/ ٢٣٦، سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥١٩).

وخَصَّصه، ولم يزل كلما تقدَّم قدماً تبدو منه أسبابٌ تقتضي تقديمه إلى ما هو أعلى منه، حتَّى اتَّفق لعمِّهِ أسدِ الدين شِيركُوه الحركة إلى مصر، والنهوض إليها. وقد مضى ذلك.

ثم قال: ذكر ما شاهدناه من مواظبته على القواعد الدينية، وملاحظته للأمور الشَّرْعِية. ورد في الحديث الصَّحيح عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «بُنِيَ الإسلامُ على خمس: شهادةِ أن لا إله إلا الله، وإقامِ الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصَوْمِ رمضان، والحَجِّ إلى بيت الله الحرام»[١].

فكان رحمه الله حَسَنَ العقيدة، كثير الذِّكْر لله تعالى، قد أخذ عقيدته عن الدَّليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العِلْم، وأكابر الفُقهاء، ويَفْهَمُ من ذلك ما يحتاج إلى تفهُّمه، بحيث كان إذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قولاً حسناً، وإن لم يكن بعبارة الفُقَهاء، فتحصَّل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر التشْبيه والتعطيل، جاريةً على نمط الاستقامة.

وكان قد جَمَعَ له الشيخ الإمام قُطْب الدِّين النَّيسابوري[٢] رحمه الله عقيدةً تجمع جميع ما يحتاج إليه في هذا الباب، وكان من شِدَّة حِرْصه عليها يُعلِّمها الصِّغار من أولاده حتى تترسَّخ في أذهانهم من الصِّغَر، ورأيتُهُ وهو يأخذها عليهم، وهم يقرؤونها من حفظهم عليه.

وأما الصَّلاة فإنَّه كان شديد المواظبة عليها بالجماعة، حتى إنَّه ذكر ـ رحمه الله ـ أنَّ له سنين ما صَلَّى إلا جماعة، وكان إذا مَرِضَ يستدعي الإمام وحدَه، ويكلِّف نَفْسَه القيام، ويصلِّي جماعة.

وكان يواظب على السُّنَن الرَّواتب، وكان له ركعاتٌ يصلِّيها إن استيقظ بوقتٍ من اللَّيل، وإلا أتى بها قبْلَ صلاة الصُّبْح. وما كان يترك الصَّلاة ما دام عقلُه عليه، ولقد رأيته يصلِّي في مرضه الذي مات فيه قائماً، وما ترك الصَّلاة إلا في الأيام

(١) أخرجه البخاري في الإيمان باب ١، ٢، وتفسير سورة ٢، باب ٣٠، ومسلم في الإيمان حديث ١٩ ـ ٢٢، والترمذي في الإيمان باب ٣، والنسائي في الإيمان باب ١٣، وأحمد في المسند ٢/ ٢٦، ٩٣، ١٢٠، ٤/ ٣٦٣، ٣٦٤، والبيهقي في السنن الكبرى ١/ ٣٥٨، والطبراني في المعجم الكبير ٢/ ٣٧١.

(٢) هو قطب الدين أبو المعالي مسعود بن محمد بن مسعود الشافعي، نزيل دمشق، يعرف بالنيسابوري، ولد سنة ٥٠٥هـ، وتوفي سنة ٥٧٨هـ، من تصانيفه: «عقيدة أهداها للسلطان صلاح الدين الأيوبي»، «الهادي في الفروع»، (كشف الظنون ٦/ ٤٢٩، وفيات الأعيان ٥/ ١٩٦ ـ ١٩٧، سير أعلام النبلاء ٢١/ ١٠٦ ـ ١٠٩).

الثَّلاثة التي تغيَّب فيها ذِهْنُه. وكان إذا أدركته الصَّلاة وهو سائر نزل وصَلَّى.

وأما الزكاة فإنَّه مات ـ رضي الله عنه ـ ولم يحفظ ما وجبت عليه به الزكاة. وأما صدقة النَّفْل فإنَّها استنفدت جميع ما ملكه من الأموال.

وأما صومُ رمضان فإنَّه كان عليه فيه فوائت بسبب أمراض تواترت عليه في رمضانات متعدِّدة.

وكان القاضي الفاضل قد تولَّى ثبت تلك الأيام، وشَرَعَ ـ رحمه الله ـ في قضاء فوائت ذلك في القُدْس الشَّريف في السَّنَة التي توفي فيها. وواظب على الصوم مقداراً زائداً على شهر، فإنَّه كان عليه فوائت رمضانين شَغَلَتْهُ الأمراض وملازمة الجهاد عن قضائها.

وكان الصوم لا يوافق مِزَاجه، فألهمه الله الصَّوْم لقضاءِ الفوائت، فكان يصوم وأنا أُثبتُ الأيام التي يصومها، فإنَّ القاضي كان غائباً، والطبيبُ يلومه، وهو لا يسمع ويقول: ما أعلم ما يكون. فكأنَّه كان مُلْهماً براءة ذمَّته، ولم يزل حتى قَضَى ما عليه، رحمه الله.

وأما الحج فإنه لم يزل عازماً عليه وناوياً له، لا سيما في العام الذي توفِّي فيه، فإنه صَمَّمَ العَزْمَ عليه، وأمر بالتأَهُّبِ، وعُملت الزَّوَّادة، ولم يبق إلا المسير، فاعتاق عن ذلك بسبب ضيق الوقت، وفراغ اليد عما يليق بأمثاله، فأخَّره إلى العام المستقبل، فقضى الله ما قضى. قال: وهذا شيء اشترك في العلم به الخاص والعام.

وكان ـ رحمه الله ـ يحبُّ سماع القُرْآن العظيم حتى إنَّه كان يستخير إمامه، ويشترط عليه أن يكون عالماً بعلوم القرآن العظيم، متقناً لحفظه، وكان يستقرئ من يحضره في الليل وهو في بُرْجه الجزأين والثلاثة والأربعة وهو يسمع، وكان يستقرئ في مجلسه العام مَنْ جَرَتْ عادتُهُ بذلك الآية والعشرين والزَّائد على ذلك، ولقد اجتاز على صغيرٍ بين يدي أبيه وهو يقرأ القرآن، فاستحسن قراءته، فقرَّبه، وجعل له حظاً من خاص طعامه، ووقَّف عليه وعلى أبيه جُزْءاً من مزرعة.

وكان ـ رحمه الله ـ خاشعَ القَلْب، رقيق الدمْعة، إذا سمع القرآن العزيز يخشع قَلْبُه وتدمع عَيْنُه في مُعْظم أوقاته.

وكان شديد الرَّغْبة في سماع الحديث، ومتى سمع عن شيخ ذي رواية عالية وسماع كثير، فإنْ كان ممن يحضرُ عنده استحضره، وسَمِعَ علَيه، وأسمع من يحضره في ذلك المكان من أولاده ومماليكه والمختصِّين به. وكان يأمر النَّاسَ بالجلوس عند سماع الحديث إجلالاً له. وإن كان الشيخ ممن لا يطرق أبواب

السَّلاطين ويتحامى عن الحضور في مجالسهم، سعى إليه، وسمع عليه؛ تردَّد إلى الحافظ السِّلَفي[١] بالإسكندرية، وروى عنه أحاديثَ كثيرة.

وكان يحبُّ أن يقرأ الحديث بنفسه، فكان يستحضرني في خَلْوته، ويُحْضِر شيئاً من كُتُبِ الحديث، ويقرأ هو، فإذا مَرَّ بحديثٍ فيه عِبْرة رَقَّ قلبُه، وَدَمَعتْ عَيْنُه.

وكان كثيرَ التَّعظيم لشعائر الدين، قائلاً ببعث الأجسام ونشورها، ومجازاة المحسن بالجنَّة، والمسيء بالنَّار، مصدِّقاً لجميع ما وَرَدَتْ به الشرائع، منشرحاً بذلك صَدْرُه، مبغضاً للفلاسفة والمعطِّلة والدهرية، ومن يعاند الشَّريعة المطهَّرة.

ولقد أمر ولده الظَّاهر صاحبَ حلب بقتل شابٍّ كان نشأ يقال له السَّهْرَوَرْدِي[٢]، قيل عنه إنه كان معانداً للشَّرائع مبطلاً، وكان قد قبض عليه ولدُه المذكور لما بلغه من خبره، وعرَّفَ السُّلْطان به، فأمر بقتله وصَلْبه أياماً، فقتله.

وكان حَسَن الظَّنِّ بالله، كثير الاعتماد عليه، عظيم الإنابة إليه، ولقد شاهدتُ من آثار ذلك ما أحكيه. فحكى التجاءه إلى الله تعالى عند خوفه من قَصْد الفرنج بيت المقدس، وامتناع أصحابه من دخوله للحصر، فصلَّى ودعا، فكُفي ذلك، وقد تقدَّم ذكره.

ثم قال: وكان ـ رحمه الله ـ عادلاً رؤوفاً رحيماً، ناصراً للضعيف على القوي، وكان يجلس للعَدْل في كلِّ يوم اثنين وخميس في مجلسٍ عام يحضره الفُقَهاء، والقضاة والعلماء، ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصلَ إليه كلُّ أحدٍ من كبير وصغير، وعجوزٍ هَرِمة وشيخٍ كبير، وكان يفعل ذلك سَفَراً وحضراً، على أَنَّه كان في جميع زمانه قابلاً لما يُعرَض عليه من القِصَص، كاشفاً لما يُنهى إليه من المظالم، وكان يجمع القِصص في كلِّ يوم، ثم يجلس مع الكاتب ساعة إما في الليل أو في النَّهار، ويوقِّع على كلِّ قصَّة بما يطلق الله على قلبه، وما استغاث إليه أحد إلا وَقَفَ وسَمِعَ ظُلامَتَهُ، وأخذ قِصَّته، وكَشَفَ قضيَّته.

ولقد رأيته وقد استغاثَ إليه إنسانٌ من أهل دمشق يقال له ابن زهير على تقيِّ الدين ابن أخيه، وأنفذ إليه ليحضره في مجلس الحُكْم، فما خلَّصه إلا أن أَشْهدَ عليه شاهدين أَنَّه وكل القاضي أمين الدِّين أبا القاسم قاضي حماة في المخاصمة، فأقاما

(١) هو أبو طاهر السلفي أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم سلفة السلفي، الحافظ، صدر الدين الأصبهاني الشافعي، ولد سنة ٤٧٨هـ، وتوفي سنة ٥٧٦هـ، تقدّمت ترجمته في الجزأين الأول والثاني.

(٢) هو أبو الفتوح يحيى بن حبش بن أميرك، شهاب الدين، انظر ترجمته في وفيات الأعيان ٦/ ٢٦٨.

الشَّهادة عندي في مجلسه، فأمرتُ أبا القاسم بمساواة الخَصْم، فساواه، وكان من خواصِّ جُلَساء السُّلطان، ثم جَرَتْ المحاكمة بينهما، واتجهت اليمين على تقيِّ الدين، وكان تقيُّ الدين من أعَزِّ النَّاس عليه، وأعظمهم عنده، ولم يُحابِهِ في الحق.

قال: وكنتُ يوماً في مجلس الحُكْم بالقُدْس الشريف إذ دخل عليَّ شيخٌ حَسَنٌ، تاجر معروف يُسَمَّى عمر الخِلاطي، ومعه كتابٌ حُكْمي سأل فَتْحَهُ، وقال: خصمي السُّلطان، وهذا بساطُ الشَّرْع، وقد سَمِعْنا أنك لا تُحابي. فقلتُ: وفي أيِّ قضية هو خصمك؟ فقال: إن سُنْقُر الخِلاطي كان مملوكي، ولم يزل على مِلْكي إلى أن مات، وكان في يده أموالٌ عظيمة كلُّها لي، ومات عنها، واستولى عليها السُّلطان، وأنا مطالِبُهُ بها.

فقلت: يا شيخ، وما الذي أقعدك إلى هذه الغاية؟ فقال: الحقوق لا تبطلُ بالتَّأخير، وهذا الكتاب الحُكْمي ينطقُ بأنَّه لم يزل في مِلْكي إلى أن مات، فأخذتُ الكتابَ منه، وتصفَّحْتُ مضمونه، فوجدته يتضمَّن حِلْيَة سُنْقُر الخِلاطي، وأنه قد اشتراه من فلان التَّاجر بأرجيش في اليوم الفلاني من شهر كذا من سنة كذا، وأنه لم يزل في مِلْكه إلى أن شَذَّ عن يده في سنة كذا، وما عرف شهود هذا الكتاب خروجَه عن ملكه بوجهٍ، وتمَّمَ الشَّرْط إلى آخره.

فتعجَّبْتُ من هذه القِصَّة، وأعلمتُ السُّلطان بذلك، فأحضره واستدناه حتى جلس بين يديَّ، وكنتُ إلى جانبه، ثم انفرك من طَرَّاحته حتى ساواه ـ رحمه الله تعالى ـ، ثم ادَّعى الرَّجل، وفُتِحَ كتابُه، وقرئ تاريخه.

فقال السُّلْطان: إنَّ لي من يشهد أَنَّ هذا سُنْقُر في هذا التاريخ كان في مِلْكي وفي يدي بمصر، وأني اشتريته مع ثمانية أنفس في تاريخ متقدِّم على هذا التَّاريخ بسنةٍ، وأنه لم يزل في يدي ومِلْكي إلى أن أعتقتُهُ.

ثم استحضر جماعةً من أعيان الأُمراء المجاهدين، فشهدوا بذلك، وحكُوا القضيَّة كما ذكرها، وذكروا التَّاريخ كما ادَّعاه، فأَبْلَسَ الرَّجُلُ[1]، فقلتُ له: يا مولانا، هذا الرجل ما فعل ذلك إلا طلباً لمراحم السُّلطان وقد حضر بين يدي المولى، وما يحسن أن يرجع خائب القصد، فقال: هذا بابٌ آخر، وتقدَّم له بخلعةٍ ونفقةٍ بالغة.

قال: فانظر إلى ما في طَيِّ هذه القضية من المعاني الغريبة العجيبة من التَّواضع، والانقياد إلى الحقِّ، وإرغام النَّفس، والكَرَم في موضع المؤاخذة مع القُدْرة التَّامة، رحمة الله عليه.

---

(١) أبلس الرجل: أي انقطع فلم تكن له حجة.

قال: وكرمُهُ كان أظهر من أن يُسَطَّر، كان ـ رحمه الله ـ يَهَبُ الأقاليم؛ وفَتَحَ آمد فطلبها منه ابن قرا أرسلان، فأعطاه إياها، ورأيتُه وقد اجتمع عنده وفودٌ بالقُدْس، ولم يكن في الخزانة ما يعطيهم، فباع قريةً من بيت المال، وفضضنا ثمنها عليهم، ولم يفضل منه دِرْهم واحد.

وكان يعطي في وقت الضَّائقة كما يعطي في حال السَّعَة، وكان نُوَّاب خزانته يخفون عنه شيئاً من المال خوفاً أن يفجأهم مُهِمٌّ، لعلمهم أنَّه متى عَلِمَ بِهِ أخرجه. وسمعتُه يوماً يقول: يمكن أن يكون في النَّاس من ينظر إلى المال كما ينظر إلى التُّراب. فكأنَّه أراد بذلك نفسه.

وكان يعطي فوق ما يؤمِّل الطَّالب، وما سمعته قط يقول: أَعطينا لفلان. وكان يعطي الكثير، ويبسط وجهه للمُعْطَى بَسْطَ من لم يعطه شيئاً. وكان النَّاس يستزيدونه في كلِّ وقتٍ، وما سَمِعْتُهُ قَطُّ يقول: قد زدت مراراً، فكم أزيد؟ وأكثر الرَّسائل في ذلك كان يكون على لساني ويدي، وكنتُ أخجل من كثرة ما يطلبون، ولا أخجل منه لعلمي بعدم مؤاخذته بذلك. وما خدمه أحد قطُّ إلا وأغناه عن سؤالِ غيره.

وأما تعدد عطاياه، فقال: حَصَرْنا عدد ما وَهَبَ من الخيل بمرج عكا لا غير، فكان عشرة آلاف رأس. ومن شاهد مواهبه يستقلُّ هذا القدر، اللهم إنك ألهمته الكَرَم، وأنتَ أكرم الأكرمين، فتكرَّم عليه برحمتك ورضوانك يا أرحم الرَّاحمين.

وقال: وكان رحمه الله من عُظَماء الشجعان، قويّ النَّفْس، شديد البأس، عظيم الثَّبات، لا يهولُه أمر، ولقد رأيته مرابطاً في مقابلة عِدَّةٍ عظيمةٍ من الفرنج، ونجدتهم تتواصل، وعساكرهم تتواتر، وهو لا يزداد إلا قوةَ نفسٍ وصبراً.

ولقد وصل في ليلة واحدةٍ منهم نيِّف وسبعون مركباً على عكا، وأنا أعدُّها من بعد صلاة العَصر إلى غروب الشَّمْس، وهو لا يزداد إلا قوةَ نَفْس.

ولقد كان يعطي دسْتوراً في أوائل الشِّتاء، ويبقى في شِرْذِمَةٍ يسيرة، في مقالة عِدَّتهم الكثيرة، ولقد سألتُ باليان بن بارزان، وهو من كبار ملوك السَّاحل، وهو جالسٌ بين يديه يوم انعقاد الصُّلْح عن عِدَّتهم، فقال التَّرْجُمان عنه: إنه يقول: كنتُ أنا وصاحب صيدا ـ وكان أيضاً من ملوكهم وعُقلائهم ـ قاصدين عسكرنا من صور، فلما أشرفنا عليه تحازرناه، فحزره هو بخمسمائة ألف، وحزرتُه أنا بستِّمائة ألف. أو قال عكس ذلك، فقلتُ: فكم هَلَك منهم؟ فقال: أَمّا بالقَتْلِ فقريبٌ من مائة ألف، وأما بالموت والغَرَق فلا يعلم، وما رجع من هذا العالم إلا الأقل.

قال: وكان لا بُدَّ له من أن يطوف حول العدو كل يوم مرَّة أو مرتين إذا كُنَّا قريباً منهم، وكان إذا اشتدَّ الحرب يطوف بين الصَّفَّين، ومعه صبيٌّ واحد، وعلى يده جنيب[١]، ويخرق العساكر من الميمنة إلى الميسرة يرتِّبُ الأطلاب[٢]، ويأمرهم بالتقدُّم والوقوف في مواضع يراها، وكان يشارف العدو ويجاوره.

ولقد قرئ عليه جُزْء من الحديث بين الصَّفَّين؛ وذلك أني قلتُ له: قد سُمِعَ الحديثُ في جميع المواطن الشَّريفة، وما نُقِلَ أنه سُمِعَ بين الصَّفَّين، فإن رأى المولى أن يؤثر عنه ذلك كان حسناً. فأَذِنَ في ذلك، فأُحضر جُزْء هناك مَنْ له به سماعٌ فَقُرِئَ عليه، ونحن على ظهور الدَّواب بين الصَّفَّين، يمشي تارةً، ويقف أُخرى.

وما رأيته استكثر العدوَّ أصلاً، ولا استعظم أمرهم قَطُّ، وكان مع ذلك في حال الفكر والتَّدْبير يذكر بين يديه الأقسام كلَّها، ويرتِّب على كلِّ قِسْم مقتضاه من غير حِدَّةٍ ولا غَضَبٍ يعتريه. ولقد انهزم المسلمون في يوم المصافِّ الأكبرِ بمرج عكا حتى القَلْبُ ورجاله، ووقع الكوس والعلم، وهو ثابتُ القدم في نَفَرٍ يسير، وقد انحاز إلى الجبل يجمع النَّاسَ ويردُّهم ويخجِّلهم حتى يرجعوا، ولم يزل كذلك حتى عَكَر المسلمون[٣] على العدو في ذلك اليوم، وقُتِلَ منهم زُهاء سبعة آلاف ما بين راجلٍ وفارس.

ولم يزل مُصابراً لهم وهم في العِدَّة الوافرة إلى أَنْ ظَهَرَ له ضَعْفُ المسلمين فصالح، وهو مسؤول من جانبهم، فإنَّ الضعف والهلاك كان فيهم أكثر، ولكنهم كانوا يتوقَّعون النجدة ونحن لا نتوقعها، وكانت المصلحة في الصُّلح.

وكان ـ رحمه الله ـ يمرض ويصحُّ، وتعتريه أحوال مهولة وهو مصابِرٌ مرابط، وتتراءى النَّاران، ونسمع منهم صوتَ النَّفوس، ويسمعون منا صوتَ الأَذان إلى أن انقضى الأمر.

قال: وكان ـ رحمه الله ـ شديدَ المواظبة على الجهاد، عظيم الاهتمام به، ولو حلف حالف أَنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد ديناراً ولا دِرْهماً إلا في الجهاد أو في الإرفاد لصدق وبَرَّ في يمينه.

---

(١) الجنيب: جمعها جنائب، وهي الخيول التي تسير وراء السلطان أو الأمير في الحروب استعداداً لاحتمال الحاجة إليها.

(٢) الأطلاب: جمع طلب، وهي وحدات صغيرة قد تبلغ أربعمائة يرأسها أمراء يعملون في وظائف البلاط أو الدولة، وكان للسلطان نفسه أطلاب من الفرسان في عدد صغير، ويقول ابن إياس: إن هذا اللفظ ظهر في أيام صلاح الدين الأيوبي. ويذكر المقريزي أن الطلب في لغة الغز هو أمير له لواء وبوق ومائتا فارس إلى مائة إلى سبعين (مصطلحات صبح الأعشى ص٣٦).

(٣) عكر المسلمون: أي كروا راجعين.

ولقد كان الجهادُ وحُبُّه والشَّغف به قد استولى على قَلْبه وسائر جوانحه استيلاءً عظيماً، بحيثُ ما كان له حديث إلا فيه، ولا نَظَرٌ إلا في آلته، ولا اهتمامٌ إلا برجاله، ولا مَيْلٌ إلا إلى من يذكره ويحثُّ عليه. ولقد هَجَرَ في محبَّة الجهاد في سبيل الله أهلَه وأولاده، ووطنه وسكَنَه، وسائر بلاده، وقَنَعَ من الدُّنيا بالسُّكون في ظل خيمة، تَهُبُّ بها الرِّياح يمنةً ويسرة، ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلةٍ رَيِّحة على مرج عكا، فلو لم يكن في البُرْج وإلا قتلته، ولا يزيده ذلك إلا رغبةً ومصابرةً واهتماماً.

قلتُ: وشواهد ما ذكر القاضي من ذلك كثيرة، وقد سبقت مفرَّقة في وقعاته ـ رحمه الله ـ منها ما قاساه على حصار حِصْن كوكب من الأمطار والأوحال.

وقال الرَّشيد ابن النَّابُلُسي[1] من قصيدةٍ له: [البسيط]

ما أَبهج الدِّين والدُّنيا بمالكها الصِّـ ـديق يوسفَ لا لاذَتْ به الغِيَرُ
مَلْكٌ تساوى جُمَادَى في الجهاد وتَمُّـ ـوزٌ لديه وضاهى ناجِراً صَفَرُ[2]
فليس يَثْنِيه حَرٌّ إن تَوَقَّدَ عن رضا الإله ولا إنْ أَغْدَقَ الْمَطَرُ
ولا يُنَهْنِهُهُ عمَّا يكابِدُهُ ضَجٌّ أُعيذُ مَعَالِيهِ ولا ضَجَرُ[3]
ولا يرى الرَّوْحَ إلا ظَهْرَ سَلْهَبَةٍ في بَطْنِ معركةٍ مَرْكوبُها وَعِرُ[4]
صَبْرٌ جميلٌ كطَعْمِ الشَّهْدِ في فمِهِ وعند كلِّ مليكٍ طَعْمُهُ الصَّبِرُ

قال القاضي: وكان الرجل إذا أراد أن يتقرَّب إليه يحثه على الجهاد، أو يذكر شيئاً من أخبار الجهاد. ولقد أُلِّف له كتبٌ عِدَّة في الجهاد، وأنا ممن جَمَعَ له فيه كتاباً، جمعت فيه آدابه، وكلَّ آيةٍ وردت فيه، وكلَّ حديث روي فيه، وشرحتُ غريبها، وكان ـ رحمه الله ـ كثيراً ما يطالعه حتى أخذه منه ولدُه الأفضل.

قال: ولأحكينَّ عنه ما سمعتُ منه في ذلك، وذلك أنَّه كان قد أخذ كوكب في ذي القَعْدة سنةَ أَربع وثمانين، وأعطى العساكر دُسْتوراً، وأخذ عسكر مِصْر في العَوْد إلى مصر، وكانَ مقدَّمُهُ أخاه العادل، فسار معه ليودِّعه ويحظى بصلاة العيد في القُدْس، ففعل، ووقع له أنَّه يمضي معهم إلى عَسْقلان ويودِّعهم، ثم يعودُ على

(١) هو عبد الرحمن بن محمد بن بدر، المعروف بمدلويه، توفي سنة ٦١٩هـ (وفيات الأعيان ٥/ ٢٦٦).
(٢) ناجرٌ: رجب أو صفر، وكل شهر من شهور الصيف.
(٣) لا ينهنهه: نَهْنَه فلاناً عن الشيء: كفه عنه وزجره. ونهنه الدابة: صاح بها لتكف. وضجّ: من ضجّ القوم: إذا فزعوا من شيء وغلبوا.
(٤) الرَّوْحُ: الراحة والسرور والفرح. والسلهبة من الخيل: الجسيمة.

طريق السَّاحل ويتفقَّد البلادَ السَّاحلية إلى عكا، ويُرتِّب أحوالها، فأشاروا عليه أن لا يفعل، فإنَّ العساكر إذا فارقتنا نبقى في عِدَّةٍ يسيرة، والفرنج كلُّهم بصور، وهذه مخاطرةٌ عظيمة. فلم يلتفت، وودَّع أخاه والعسكر بعسقلان، ثم سرنا على الساحل طالبي عكا، وكان الزَّمان شتاءً عظيماً، والبحر هائجاً هيجاناً عظيماً، وموجه كالجبال كما قال الله تعالى(١)، وكنتُ حديثَ عهدٍ برؤية البحر، فَعَظُمَ أمر البحر عندي حتى خُيِّل لي أنني لو قال لي قادر: لو جزت في البحر ميلاً واحداً مَلَّكْتُكَ الدُّنيا، لما كنتُ أفعل. واستخففت رأي من يركب البحر رجاء كَسْبِ دينارٍ أو دِرْهم، واستحْسنتُ رأي من لا يقبل شهادة راكب البحر.

هذا كلُّه خَطَر لي لِعظَم الهَوْل الذي شاهدته من حركة البحر وتموّجه، فبينا أنا في ذلك إذ التفتَ إليَّ، وقال: في نفسي أنَّه متى يَسَّر الله تعالى فَتْحَ بقيَّة السَّاحل قسمتُ البلاد، وأوصيتُ، وودَّعت، وركبتُ هذا البحر إلى جزائرهم أتبعهم فيها حتى لا أُبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت.

فَعَظُمَ وَقْعُ هذا الكلام عندي، حيث ناقض ما كان يخطر لي، وقلت له: ليس في الأرض أشجعُ نَفْساً من المولى، ولا أقوى نيَّةً منه في نُصْرة دين الله. وحكيت له ما خَطَرَ لي، ثم قلتُ: ما هذه إلا نيَّةٌ جميلة، ولكن المولى يُسَيِّر في البحر العساكر، وهو سور الإسلام، ولا ينبغي أن يخاطر بنفسه. فقال: أنا أستفتيك، ما أشرفُ الميتات؟ فقلتُ: الموتُ في سبيل الله. فقال: غايةُ ما في الباب أن أموت أشرف المِيْتات.

قال: فانظر إلى هذه الطَّوية ما أطهرها، وإلى هذه النَّفس ما أشجعها وأجسرها، اللهم إنك تعلم أنَّه بذل جهده في نُصْرة دينك رجاء رحمتك، فارحمه.

قال: وأما صبره، فلقد رأيته بمرج عكا، وهو على غايةٍ من مرضٍ اعتراه بسبب كثرة دماميل كانت ظَهَرَتْ عليه من وسطه إلى ركبته، بحيث لا يستطيع الجلوس، وإنما يكون متكئاً على جانبه إذا كان في الخيمة، وامتنع من مَدِّ الطَّعام بين يديه لعجزه عن الجلوس، وكان يأمر أن يُفَرَّق على النَّاس، وكان مع ذلك كله يركب من بُكْرة النَّهار إلى صلاة الظُّهر يطوف على الأطلاب، ومن العَصْر إلى صلاة المَغْرب، وهو صابرٌ على شِدَّة الألم، وقوة ضَرَبان الدَّماميل، وكنا نعجب من ذلك فيقول ـ رحمه الله ـ: إذا ركبتُ يزول عني ألمها حتى أنزل، وهذه عنايةٌ رَبَّانية.

(١) يشير إلى قوله تعالى: **﴿وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين﴾** [هود: ٤٢].

ولقد مرض ونحن على الخَرُّوبة، وكان قد تأخَّر عن تل الحجل بسبب مرضه، فبلغ الفرنج ذلك، فخرجوا طمعاً في أن ينالوا من المسلمين شيئاً بسبب مرضه، وهي نوبة النَّهر، فخرجوا في مرحلة إلى الآبار التي تحت التل، ثم رحل العدو في اليوم الثَّاني يطلبنا، فركب ـ رحمه الله ـ على مضض، ورتَّب العساكر للحرب، وجعل أولاده في القلب، ونزل هو وراء القوم بطُلْبه.

وكلما سار العدو يطلبُ رأس النهر سار هو يستدير إلى ورائهم، حتى يقطع بينهم وبين خيامهم، وهو ـ رحمه الله ـ يسيرُ ساعة، ثم ينزل يستريح، ويظلل بمنديل على رأسه من شِدَّة وَقْع الشمس، ولا تُنْصَبُ له خيمة حتى لا يرى العدو ضعفاً، ولم يزل كذلك حتى نزل العدو برأس النَّهر، ونزل هو على تَلٍّ قُبَالتهم مُطِلٍّ عليهم إلى أن دخل الليل.

ثم أمر العساكر أن تعود إلى مَحَلِّ المصابرة، وأن يبيتوا تحت السِّلاح، وتأخَّر هو إلى قِمَّة الجبل، وضُرِبَتْ له خيمةٌ لطيفة، وبتُّ تلك الليلة أجمع أنا والطبيب نُمَرِّضه ونشاغله، وهو ينام تارةً ويستيقظ أُخرى، حتى لاح الصَّباح، ثم ضَرَبَ البوق، وركب ـ رحمه الله ـ وركبتِ العساكر، وأحدقت بالعدو، ورحل العدو عائداً إلى خِيَمِهِ من الجانب الغَرْبِي للنَّهر، وضايقه المسلمون مضايقةً شديدة.

وفي ذلك اليوم قَدَّمَ أولاده بين يديه احتساباً: الأفضل والظاهر والظَّافر، وجميع من حضره منهم، ولم يزل يبعث من عنده حتى لم يبق عنده إلا أنا وطبيبٌ وعارض الجيش، والغِلْمان بأيديهم الأعلام والبيارق لا غير، فيظنُّ الرَّائي لها عن بُعْد أن تحتها خلقاً كثيراً، وليس تحتها إلا واحد بخَلْقٍ عظيم، رحمه الله.

وبقي في موضعه والعساكر على ظهور الخيل قُبالة العدو إلى آخر النَّهار، ثم أمرهم أن يبيتوا على مثل ما باتوا عليه بارحَتَهم، وبتنا على ما بتنا عليه إلى الصَّباح، وعاد العسكر إلى ما كان عليه بالأمس من مضايقة العدو.

قال: ولقد رأيته ليلةً على صفد، وهو يحاصرها، وقال: لا ننامُ اللَّيلة حتى يُنْصَبَ لنا خمسة مجانيق، ورتَّب لكل منجنيق قوماً يتولّون نَصْبَهُ، وكُنَّا طول الليل في خدمته في ألذِّ فكاهة، وأرغد عيش، والرُّسُل تتواصل مخبرةً بأنَّه نُصِبَ من المنجنيق الفلاني كذا ومن الآخر كذا حتى أتى الصَّباح وقد فُرِغَ منها، وكانت من أطول اللَّيالي وأشدِّها بَرْداً ومَطَراً.

قال: ولقد رأيته وقد جاءه خبر وفاةِ ولدٍ له بالغ أو مراهق يسمَّى إسماعيل، فوقف على الكتاب، ولم يُعَرِّف أحداً ولم نعرف حتى سَمِعْناه من غيره، ولم يظهر عليه شيءٌ من ذلك سوى أنَّه لما قرأ الكتاب دَمَعَتْ عَيْنُهُ، رحمه الله.

قال: ولقد رأيته وقد وصله خبر وفاة تقي الدين ونحن في مقابلة الفرنج جريدةً على الرَّمْلة، وفي كلِّ ليلة تقع الصيحة، فتقلع الخيام، ويقف النَّاسُ على ظهرٍ إلى الصَّباح، والعدو بيازُور، بيننا وبينه شَوْطُ فَرَس لا غير، فأَحْضَرَ العادل وابن جَنْدَر وابن المقدَّم وابن الدَّاية سابق الدين، وأمر بالنَّاس فأُبعدوا عن الخيمة بحيث لم يبق حولها أحد عن غَلْوةِ سَهْم، ثم أظهر الكتاب، ووقف عليه، وبكى بكاءً شديداً حتى أبكانا من غير أن نعلَم السَّبب، ثم قال ـ رحمه الله ـ والعَبْرَة تَخْنُقُه: توفِّي تقيُّ الدين.

فاشتدَّ بكاؤه وبكاء الجماعة، ثم عدتُ إلى نفسي، فقلت: استغفروا الله من هذه الحالة، وانظروا أين أنتم، وفيم أنتم، وأعرضوا عما سواه. فقال ـ رحمه الله ـ: نعم، أستغفر الله. وأخذ يكررها، ثم قال: لا يعلم هذا أحد.

قال: وكان ـ رحمه الله ـ شديد الشَّوْق والشَّغف بأولاده الصِّغار، وهو صابرٌ على مفارقتهم، راضٍ ببعدهم عنه، وكان صابراً على مُرِّ العيش وخشونته مع القُدْرة التَّامة على غير ذلك، احتساباً لله تعالى. اللهم، إنَّه ترك ذلك كلَّه ابتغاءً لمرضاتك، فارضَ عنه.

قال: ولقد كان ـ رحمه الله ـ حليماً متجاوزاً، قليل الغضب، ولقد كنتُ بخدمته بمرج عيون قبل خروج الفرنج إلى عكا ـ يسَّر الله فتحها ـ وكان من عادته أنَّه يركب في وقتِ الركوب، ثم ينزل فيمد الطَّعام، ويأكل مع النَّاس، ثم ينهض إلى خيمة خاص له ينام فيها، ثم يستيقظ من منامه، ويُصلِّي ويجلس خلوةً وأنا في خدمته نقرأ شيئاً من الحديث أو شيئاً من الفقه.

ولقد قرأ عليَّ كتاباً مختصراً لسُلَيْم الرَّازي[1] يشتمل على الأرباع الأربعة من الفِقْه، فنزل يوماً على عادته، ومُدَّ الطَّعام بين يديه، ثم عَزَمَ على النُّهوض، فقيل له: إنَّ وقت الصَّلاة قد قَرُبَ. فعاد إلى الجلوس، وقال: نصلِّي وننام.

(١) سُليم الرازي: هو سليم بن أيوب بن سليم الرازي، أبو الفتح، الفقيه الشافعي، أصله من الري، وتفقه ببغداد، ثم سافر إلى الشام وأقام بثغر صور مرابطاً، ينشر العلم، توفي غريقاً عند ساحل جدة عائداً من الحج سنة ٤٤٧هـ، له من المصنفات: «الإشارة» في الفروع، «التقريب» في الفروع، «روح المسائل» في الفروع، «ضياء القلوب» في تفسير القرآن، «غريب الحديث»، «الكافي في الفروع»، «المجرد» في الفروع جرّدها من تعليقة شيخه أبي حامد (كشف الظنون ٥/ ٤٠٩، طبقات الفقهاء للشيرازي ص١٣٢، إنباه الرواة ٢/ ٦٩ ـ ٧٠، وفيات الأعيان ٢/ ٣٩٧ ـ ٣٩٩، سير أعلام النبلاء ١٧/ ٦٤٥ ـ ٦٤٧، طبقات الشافعية للسبكي ٤/ ٣٨٨ ـ ٣٩١).

ثم جلس يتحدَّث حديث متضجِّر، وقد أُخلي المكان إلا عن لَزِم، فتقدَّم إليه مملوك كبير محترم عنده، وعَرَضَ عليه قِصَّة لبعض المجاهدين، فقالَ له: أنا الآن ضَجِر، أَخِّرْها ساعة، فلم يفعل، وقدَّمها إلى قريبٍ من وجهه الكريم بيده، وفتحَها بحيث يقرؤها، فوقف على الاسم المكتوب في رأسها، فعرفه، وقال: رجلٌ مستحقٌ. فقال: يوقِّع له المولى. فقال: ليست الدَّواة حاضرة الآن. وكان ـ رحمه الله ـ جالساً في باب الخَركاه[1] بحيث لا يستطيع أحد الدُّخول إليها، والدَّواة في صدر الخركاه، والخركاه كبيرةٌ، فقال له المخاطب: ها هي الدَّواة في صدر الخركاه.

قال القاضي: فليس لهذا معنى إلا أمره إياه بإحضار الدَّواة لا غير، فالتفتَ ـ رحمه الله ـ فرأى الدَّواة، فقال: والله صَدَقَ. ثم استند على يده اليُسْرى ومَدَّ يده اليُمْنى، وأحضرها، ووقَّع له. فقلتُ: قال الله تعالى في حقِّ نبيِّه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤] وما أرى المولى إلا قد شاركه في هذا الخُلُق. فقال: ما ضَرَّنا شيء، قضينا حاجته، وحصل الثواب.

قال القاضي: ولو وَقَعَتْ هذه الواقعة لآحاد النَّاس لقام وقعد، ومن الذي يقدر أَنْ يخاطِبَ أحداً هو تحت حُكْمِهِ بمثل ذلك، وهذا غايةُ الإحسان والحِلْم، والله لا يُضِيع أجر المحسنين.

قال: ولقد كانت طَرَّاحتُه تُداسُ عند التزاحم عليه لعرض القِصص، وهو لا يتأثَّر لذلك، ولقد نَفَرَت يوماً بغلتي من الجِمال وأنا راكبٌ في خدمته، فَزَحَمَتْ وَرِكَهُ حتى آلمته وهو يتبسَّم.

ولقد دخلتُ بين يديه في يوم ريح مطير إلى القُدْس، كثير الوَحْل، فنضحت البغلة عليه من الطِّين حتى أهلكت جميع ما كان عليه، وهو يتبسَّم وأردتُ التَّأَخُّرَ عنه بسبب ذلك، فما تركني.

ولقد كان يسمع من المستغيثين إليه والمتظلمين أغلظ ما يمكن أن يسمع، ويلقى ذلك بالبِشْر والقَبُول.

ثم قال القاضي: وهذه حكايةٌ يندُر أن يُسَطَّر مثلها. فذكر ما تقدَّم من امتناع عسكره من الهجوم على الإنكلتير، وهو في جمعٍ يسير من أصحابه بعد أن أطافوا بهم، وواجه الجناح السُّلْطانَ بذلك الكلام الخَشِن، فرجع السُّلْطان مغضَباً، وظَنَّ أنه ربما صَلَبَ وقتل في ذلك اليوم، فنزل بيازُور وقد وصَلَه من دمشق فاكهةٌ

(١) الخركاه: هي بيت من خشب مصنوع على هيئة مخصوصة ويغشّى بالجوخ ونحوه، تحمل في السفر لتكون في الخيمة للمبيت في الشتاء لوقاية البرد (صبح الأعشى ٢/ ١٤٦).

كثيرة، فَطَلَب الأمراءَ ليأكلوا، فحضروا، فرأَوْا من بِشْره وانبساطه ما أحدَثَ لهم الطُّمأنينة والأمن والسُّرور.

قال: وكان ـ رحمه الله ـ كثيرَ المروءة، نَدِيَّ الوَجْه، كثير الحياء، منبسطاً لمن يَرِدُ عليه من الضُّيوف، يُكْرم الوافد عليه وإن كان كافراً، ولقد وَفَدَ عليه البرنس صاحب أنطاكية فما أَحَسَّ به إلا وهو واقفٌ على باب خيمته بعد وقوع الصُّلْح في شَوَّال عند منصرفه من القُدْس إلى دمشق ـ وقد تقدَّم ذلك ـ عَرَض له في الطَّريق، وطلب منه شيئاً، فأعطاه العَمْق، وهي بلادٌ كان أخذها منه عام فتح السَّاحل سنةَ أربعٍ وثمانين.

ولقد رأيته وقد دخل إليه صاحب صيدا، فاحترمه وأكرمه، وأكل معه، وعَرَضَ عليه الإسلام، وذكر له طَرَفاً من محاسنه، وحَثَّه عليه.

وكان يُكْرم من يَرِدُ عليه من المشايخ، وأرباب العِلْم والفَضْل، وذوي الأقدار، وكان يُوصينا لئلا نَغْفُلَ عمن يجتاز بالخيم من المشايخ المعروفين حتى نحضرهم عنده، وينالهم من إحسانه.

ولقد مَرَّ بنا سنة أربع وثمانين رجل جَمَعَ بين العلم والتصوف، وكان من ذوي الأقدار، وكان أبوه صاحبَ توزير، فأعرض هو عن فنِّ أبيه، واشتغل بالعِلْم والعمل، وحجَّ ووصل زائراً لبيت الله المقدَّس، ولما قضى لُبانته منه، ورأى آثار السُّلْطان فيه وقع له زيارته، فوصل إلينا إلى العسكر، فلقيتُهُ ورحَّبْتُ به، وعَرَّفْتُ السُّلْطَانَ وصوله، فاستحضره وشكره عن الإسلام، وحَثَّه على الخير وانصرف، وبات عندي في الخيمة.

فلما صلَّينا الصُّبْح أخذ يودِّعني، فقبَّحت له المسير دون وداع السُّلطان، فلم يلتفت، ولم يلوِ على ذلك، وقال: قضيتُ حاجتي منه، ولا غَرَضَ لي فيما عَدا رؤيته وزيارته، ثم انصرف من ساعته، ومضى على ذلك ليالٍ، فسأل السُّلْطانُ عنه، فأخبرته بفعله، فظهر عليه آثار التَّعتُّب، كيف لم أخبره برواحه، وقال: كيف يطرقنا مثل هذا الرجل، وينصرف عَنَّا من غير إحسان يَمَسُّه مِنَّا؟ وشدَّد النكير عليَّ في ذلك، فما وجدتُ بُدّاً من أن أكتب كتاباً إلى محيي الدين قاضي دمشق كلَّفته فيه السؤال عن حال الرَّجل، وإيصال رقعة كتبتُها إليه طيَّ كتابي، أخبرته فيها بإنكار السُّلْطان رواحه من غير اجتماع به، وحَسَّنْتُ له فيها العود، وكان بيني وبينه صداقةٌ تقتضي مثل ذلك، فعاد، واجتمع بالسُّلْطان، فرحَّب به، وانبسط معه، واستوحش له، وأمسكه أياماً، ثم خلعَ عليه خِلْعةً حسنةً، وأعطاه مركوباً لائقاً،

وثياباً كثيرة ليحملها إلى أهل بيته وأتباعه وجيرانه، ونفقةً يرتفق بها، وانصرف عنه وهو أشكر النَّاس له، وأخلصهم دعاء لأيامه.

قال: ولقد رأيته ـ رحمه الله ـ وقد مَثَلَ بين يديه أسيرٌ فرنجي، وقد هابه بحيث ظهر عليه أمارات الخوف والجَزَع، فقال له التَّرْجُمان: من أي شيء تخاف؟ فأجرى الله على لسانه أن قال: كنتُ أخاف قبل أن أرى هذا الوجه، فبعد رؤيتي له، وحضوري بين يديه أيقنتُ أني ما أرى إلّا الخير. فمنّ عليه، وأطلقه، ورقّ له.

قال: وكنتُ راكباً في خدمته في بعض الأيام قُبالة الفرنج، ووصل بعض اليزكية[١] ومعه امرأة شديدة التحرُّق كثيرة البكاء، متواترة الدَّقِّ على صَدْرها. فذكر قِصَّة أم الرَّضيع الذي سُرِقَ، وقد مضت.

قال: وكان ـ رحمه الله ـ لا يرى الإساءة إلى مَنْ صحبه، وإن أفرط في الجناية، ولقد قُلِبَ في خزانته كيسان من الذَّهب المِصْري بكيسين من الفلوس فما عمل بالنُّوَّاب شيئاً سوى أنه صرفهم من عملهم لا غير.

وكان ـ رحمه الله ـ حَسَنَ العِشْرة، لطيف الأخلاق، طيِّب الفكاهة، حافظاً لأنساب العرب ووقائعهم، عارفاً بِسِيَرَهم وأحوالهم، حافظاً لأنساب خيلهم، عالماً بعجائب الدُّنيا ونوادرها بحيث كان يستفيد محاضِرُهُ منه ما لا يسمعه من غيره.

وكان يسأل الواحد منا عن مرضه ومداواته ومَطْعمه ومَشْربه، وتقلُّبات أحواله.

وكان طاهر المجلس لا يُذْكر بين يديه أحد إلا بالخير، وطاهر السَّمْع فلا يحبُّ أن يسمع عن أحدٍ إلا بالخير، وطاهر اللِّسان فما رأيته أُولع بشتم قط، وطاهر القلم فما يكتب بقلمه أذًى لمسلم قط، وكان حسنَ العهد والوفاء، فما أُحضر بين يديه يتيمٌ إلا وترحَّم على مخلِّفه، وجَبَرَ قلبه، وأعطاه خُبز مخلِّفه إن كان له من أهله كبير يَعْتَمِدُ عليه، وسَلَّمه إليه، وإلا أبقى له من الخبز ما يكفي حاجته، وسلَّمه إلى من يَكْفُلُه، ويعتني بتربيته.

وكان ما يرى شيخاً إلا ويَرِقُّ له، ويعطيه، ويحسن إليه، ولم يزل على هذه الأخلاق إلى أن توفاه الله عَزَّ وجلَّ إلى مقرِّ رحمته، ومَحَلِّ رضوانه.

قلت: ولجعفر ابن شمس الخلافة[٢] من قصيدةٍ رثاه بها: [الطويل]

ألستَ ترى كيفَ انبرى الخطبُ ثائراً ... ومَدَّ يداً منه إلى دافع الخَطْبِ

---

(١) اليزكية: ويقال لهم أيضاً: الأيزاك، جمع يزك، ومعناها طلائع العسكر.

(٢) ابن شمس الخلافة: هو جعفر بن شمس الخلافة أبي عبد الله محمد بن شمس الخلافة مختار الأفضلي، مجد الملك، أبو الفضل المصري، ولد سنة ٥٤٧هـ، شاعر مشهور في عصره، من أهل =

إلى النَّاصِرِ المَلْكِ الذي مُلِئَتْ به قلوبُ البَرَايا من رجاءٍ ومن رُعْبِ
كريمٌ أتاه الموتُ ضيفاً فلم يكن لينزلَه إلا على السَّهْلِ والرُّحْبِ
ولو خابَ منهُ قبل ذلك سائلٌ لخاب وليس البُخْلُ من شِيَمِ السّحْبِ
قَضَى فَقَضَى المعروفُ وانقرضَ النَّدى وحُطَّتْ رِحَالُ الوَفْدِ في الشَّرْقِ والغَرْبِ
أفاض على الدُّنيا سِجَال نَوالِه ففاضَتْ عليه أَعْيُنُ العُجْم والعُرْبِ
ولو أنه يُبْكى على قَدْرِ حَقِّه أسالَ دُموعَ المُزْنِ من أعينَ الشُّهْبِ
جَزَاه عن الإسلام خيراً إلـهُهُ فما كلٌّ عنه مِنْ دفاع ومن ذَبِّ
تداركَهُ بعد ابتذالٍ فقد غدا وكان شديدَ الخَوْفِ فِي أَمْنَعِ الحُجْبِ
وأصبحَ للبيتِ المقدَّسِ مُنْقِذاً بأصْلَبِ عَزمٍ مِنْ مُقَارَنَةِ الصُّلْبِ
أذلَّ له الله العِدَى مُذْ أطاعَهُ وسَهَّلَ منهم كُلَّ مُمْتَنِعٍ صَعْبِ
ففي الخُلْدِ عندَ الله دارُ مَقَرِّه يُمَتَّعُ منه بالجِوَارِ وبالقُرْبِ

فصل

في انقسام ممالكه بين أولاده وإخوته، وبعض ما جرى بعد وفاته(١)

[ولاية الأفضل دمشق]

قال العماد في كتاب «البرق»: خلَّف السُّلْطان سبعةَ عَشَرَ ولداً(٢) أكبرهم الملك الأفضل نور الدِّين أبو الحسن علي، ومولده بمصر يوم عيد الفِطْر سنةَ خمسٍ وستين وخمسمائة، وتولَّى بعده دمشق إلى أن خرج منها إلى صَرْخَد، وتولاها عَمُّه العادل في شَعْبان سنةَ اثنتين وتسعين مضافةً إلى ممالكه بالبلاد الشَّرْقية والجزيرة وديار بكر.

ثم الملك العزيز عماد الدين أبو الفَتْح عُثْمان، ومولده بمصر ثامن جُمادى الأُولى سنة سبعٍ وستين، وتوفي بها في مُلْكه ليلةَ الأحد العشرين من محرَّم سنةَ خمسٍ وتسعين، وتولى بعده أحد أولاده الصِّغار.

= مصر، توفي سنة ٦٢٢هـ، من تصانيفه: «الآداب النافعة بالألفاظ المختارة الجامعة» في الأمثال، «ديوان شعره» (كشف الظنون ٥/ ٢٥٣، وفيات الأعيان ١/ ٣٦٢ ـ ٣٦٣).

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٢٢٥ ـ ٢٢٦: ذكر حال أهله وأولاده بعده. وانظر أيضاً البداية والنهاية ١٣/ ٤ ـ ٦.

(٢) تقدم ذكرهم وترجمتهم جميعاً في الجزء الثاني.

ثم الملك الظَّاهر غياث الدين غازي، ومولده بمصر منتصف شهر رمضان سنةَ ثمانٍ وستين، وتولى حلب وأعمالها.

قال: ولقد أنشأت الرِّسالة الموسومة «بالعُتْبى والعُقْبى» فيما طرأ بعد السُّلْطان إلى آخر سنة اثنتين وتسعين.

وقال في كتاب «الفتح»: تولَّى الملك الأفضل دمشق والسَّاحل، وما يجري مع ذلك من البلاد، وهو الذي حضر وفاةَ والده، وقام بسُنَّة العَزاء، وفَرْضِ الاقتداء بأبيه في إيلاء الآلاء، وإدناء الأولياء، وخلع على الأماثل والأُمراء، والأفاضل والعلماء، وآوى إليه إخوته، وضَمَّ جماعته، وجهَّز أخاه الظافر خضراً مظفر الدين، وأنهضه لإنجاد عمه العادل كما سنذكره. وكانت حمص والمناظر والرَّحْبة وبَعْلَبَكّ وما يجري معها في المملكة الأفضلية داخلة، وقَدِمَ عليه سُلْطاناهما الملكُ المجاهد والأمجد إلى دمشق، فتأكَّدَتْ بينهم القَرَابة والأُلفة.

ولما استقرَّ الأفضل بدمشق في مقام والده قَدَّم إلى الديوان العزيز نجَّابين بإنهاء الحال، ثم نَدَبَ ضياءَ الدين ابن الشَّهْرُزُوري[1] في الرِّسالة، وأصحبه عُدَّة والده في الغَزَاة وسيفَه ودِرْعَه وحِصانه، وأضاف إلى ذلك من الهدايا والتُّحف والخيل العِرَاب ما استنفد وُسْعَه وإمكانه، فما تهيأ مسير الرسول إلا في أواخر جُمادى الآخرة حتى حصَّل كل ما أراد من الهدايا الفاخرة، وحتى كاتَبَ مِصْر وحلب، وأعلم بمسير رسوله، حتى لا يُظَنَّ أَنَّهُ انفرد بسوله، وقصد مداراة إخوته، وفَضَلَ بِفَضْل نَخْوته، وذلك بعد أن جَدَّد نَقْشَ الدِّينار والدِّرْهم بسمتي أمير المؤمنين، وولي العهد عُدَّة الدِّين.

وقال ابنُ القادسي[2]: وفي يوم الثلاثاء مستهلّ رمضان حَمَلَ ابنُ الشَّهْرُزوري ما كان أصحبه الأفضل من حَمْل الشَّام إلى الديوان العزيز، وهو صليب الصَّلبوت الذي كان قد أخذه والده، وذكر أَنَّه ذهبٌ يزيد على العشرين رطلاً مُرَصَّعاً بالجواهر، ومعه خادم مختصٌ بخدمته، وحمل فرس أبيه وزَرديَّته[3] وخوذته، وكانت صفراءُ مُذْهَبة، ودبُّوس حديد، وسيف، وأربع زَرْديات، وقالوا: هذه تركته، وبها كان يقاتل. وتُحفاً جَمَّة من الثِّياب، وحُمِلَ في جُمْلة التُّحَف أربعُ جوارٍ من بنات ملوك الرُّوم، فيهن ابنة بيرزان، وبنت صاحب جَبَلَة.

قال العماد: وأمرني بإنشاء الكتب وتحريرها، وتقريب المقاصد وتقريرها،

---

(١) تقدّمت ترجمته في الجزء الثالث.

(٢) تقدّمت ترجمته.

(٣) الزردية: نوع من الدروع.

منها: أصدر العبد هذه الخِدْمة وصدرُهُ مشروح بالولاء، وقلبه معمورٌ بالصَّفاء، ويده مرفوعة إلى السماء، للابتهال بالدُّعاء، ولسانه ناطقٌ بشُكْر النَّعْماء، وجَنَانُه ثابت من المهابةِ والمحبَّة على الخوف والرجاء، وطَرْفُه مُغْضٍ من الحياء، وهو للأرض مُقَبِّل، وللفرض متقبِّل، وهو يمتُّ بما قدَّمه وأسلفه من الخَدَمات، وذخره ذُخْر الأقوات لهذه الأوقات.

وقد أحاطت العلوم الشريفة بأن الوالد السَّعيد الشهيد، الشديد السَّديد، المبير للشِّرْك المبيد، لم يزل أيام حياته، وإلى ساعةِ وفاته، مستقيماً على جَدَد[1] الجِدّ، مستنيماً[2] في صون فريضة الجهاد إلى بذل الجُهد. ومِصْرُ بل الأمصار باجتهاده في الجهاد شاهدة، والأنجاد والأغوار في نظر عَزْمِهِ واحدة، والبيت المقدَّس من فتوحاته، والملك العقيم من نتائج عَزَماتِهِ.

وهو الذي ملكَ ملوك الشرق وغَلَّ أعناقها، وأسر طواغيت الكُفْر وشَدَّ خِنَاقها، وقَمَعَ عَبَدَة الصُّلْبان وقطع أصلابها، وجمع كلمة الإيمان وعَصَم جَنَابها، ونَظَمَ أسبابها، وسَدَّ الثغور، وسدَّدَ الأُمور. وقُبِضَ وعَدْلُهُ مبسوط، وأمره مَحُوط، وَوِزْرُهُ محطوط، وعمله بالصَّلاح مَنُوط.

وما خرج من الدُّنيا إلا وهو في حُكْم الطَّاعة الإمامية داخل، وبمتجرها الرَّابح إلى دار المقامة راحل. ولم تكن له وصية إلا بالاستمرار على جادَّتها، والاستكثار من مادَّتها، وإن مضى الوالد على طاعة إمامه، فالمماليك أولاده وأخواه في مقامه.

[ولاية العزيز عثمان مصر]

قال: وتولى ولده الملك العزيز أبو الفتح عثمان مصر وجميع أعمالها، وأبقاها على اعتدالها، ونفاها من شوائب اختلالها واعتلالها، وأحيا سُنَّتَي الجود والباس، وثبَّت القواعد من حُسْن السِّياسة على الأساس، وأطلق كل ما كان يؤخذ من التُّجَّار وغيرهم باسم الزَّكاة، وضاعف ما كان يُطْلق برسم العُفَاة[3].

وقَدَّم أمر بيت الله المقدَّس، وعَجَّل له عشرة آلاف دينار مِصْرية، لتصرف في وجوه ضرورية، ثم أمدَّه بالحَمْل، وأفاض عليه من الفَضْل، وقَرَّر واليه عِزَّ الدين جُرْديك على ولايته، وقوَّى يده برعايته. ووالى حَمْل الغَلَّات من مِصْر إلى القُدْس، وأبدل وحشته بوفاة السلطان من وفائه بالأُنس.

(١) الجدد: الأرض المستوية.
(٢) مستنيماً: من استنام: إذا استأنس وسكن واطمأن.
(٣) العفاة: طلّاب المعروف.

ثم أشفق من غدر الفرنج في فَسْخ الهُدْنة، فأتى من تجهيز العساكر إلى البيت المقدَّس بكل ما في المُكْنة، ثم سمع بحركة المواصلة ومن تابعهم وبايعهم وشايعهم، وقد خرجوا في إيمانهم حانثين، ولعقد أيمانهم ناكثين، فخيَّم ببركة الجُبّ، واستشار أمراءه أهلَ الرأي واللُّبِّ، وجهَّز جيشاً فوصلوا إلى دمشق وقد فرغ العادل من حَرْب القوم وسِلْمهم، وهَزَّ منهم أعطاف الاستكانة له بعد هَزمِهم، فرأى أنَّ الحمدَ أعْوَد، والعَوْدَ أحمد.

[ولاية الظاهر غازي حلب]

قال: وتولَّى حلب وأعمالَها، وحصونها ومعاقِلَها، وكرائمَ البلاد وعقائِلَها، الملكُ الظَّاهر غازي، وهو برجاحته وسماحته الطَّوْدُ والجود الموازن الموازي، وملك مملكة أقطارها واسعة، وأمصارها شاسعة، فحماها وحواها، وبماء العَدْل روَّاها وقَوَّاها، وأقرَّ البيرة وأعمالها، وما يجري معها على أخيه الملك الزَّاهر مجير الدِّين داود، ودخل في أمره صاحب حماه، ابن تقيِّ الدِّين فأعَزَّه وحَمَاه.

قلتُ: وهو مأوى ذُرِيَّةِ والده، وبقي الملك منهم في عقبه، وانحاز كلٌّ من إخوته وأولادهم إليه، وعوَّلوا في تمشية أمورهم عليه، والأمر مستمرٌّ على ذلك في عقبه إلى الآن، والله تعالى وليُّ الإحسان.

ثم زال مُلك هذا البيت في صَفَر سنةَ ثمانٍ وخمسين وستمائة بسبب غَلَبة التَّتار الكَفَرة على البلاد ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥، ٢٠].

ومن كلام القاضي الفاضل في جواب كتابٍ وَرَدَ عليه منه بعد موت السُّلْطان: متى رأى المملوك خَطَّ مولانا طالعاً في كتابٍ، وطليعةً على خطابٍ، تمَثَّلَ ذلك الشخصَ الكريم، وذلك السُّلْطانَ العظيم، وذلك الخُلُقَ الكريم، وذلك العهدَ القديم، فَحَيِيَ بعد موته، وسَبَّح من يُحْيي العِظَامَ وهي رميم، ورَفَعَ يده بما الله رافِعُهُ، ودعا بصالحِ اللَّهُ سامِعُهُ.

قال العماد: وكان الملك العادل مع السُّلْطان في الصَّيد قبل وفاته، وكان موافِقُهُ ومرافِقُه في مقتضياته. فلما عاد السُّلْطان إلى دمشق وَدَّعه ومضى إلى حِصْنه بالكَرَك، فنابه النَّائب، ولم يحضر وقت احتضاره الأخ الغائب، فلما عَرَفَ وصل إلى دمشق بعد أيام، ولم يُطِلِ المقام، ورحل طالباً لبلاده بالجزيرة، حَذراً عليها من أهل الجريرة.

وكان السُّلْطان جَعَلَ له كل ما هو شرقي الفُرات، من البلاد والولايات، فلما وصل إلى الفُرات، وجد مما خافه دلائل الفَتَرات، فأقام بقلعة جَعْبر وسَيَّر إلى

الولايات الوُلاة، ووصَّى برعاياه الرُّعاة، واستناب في مَيَّافارقين وحاني وسُمَيْساط وحَرَّان والرُّها، وشَحَّنَها بالشِّحَن، وعلم العِدَى أنَّه في خِفٍّ[1] فَخَفُّوا، وعَرَضُوا وَصَفُّوا، وكان سيف الدين بَكْتَمُر صاحب خِلاط قد استبشر بموت السُّلْطان، وتلقَّب بالملك الناصر، وحدَّث أمله بجر العساكر، وراسل صاحبي المَوْصل وسِنْجار، وطيَّر إليهم كُتُبَ الاستنفار، وضَمَّ إليه من ماردين مارِدَيْن، وطار وطاش، وارتاشٍ وانتاش، فبينا هو في أثناء ذلك قتلته الإسماعيلية بخِلاط رابع عشر جُمادى الأولى سنةَ تسعٍ وثمانين.

[خروج المواصلة على الملك العادل]

وأوَّل من بدأ أمره بالخروج على بلادِ السُّلْطان متولي مارِدِين، ونزل على حِصْن المُوَزَّر، وهذا الحِصْن كان السُّلْطان اقتطعه عن أعمال ماردين حين صالَحَ أهلها، وأضافه إلى نائبه بالرُّها. ثم تحرَّك عِزُّ الدين أتابَك صاحب المَوْصِل، وأخوه عماد الدين زَنْكي صاحب نصيبين، وأرسلوا إلى العادل: تخرج من بلادنا، وتدخل في مرادنا.

فكتَبَ إلى بني أخيه يستنجدهم ويستنفرهم، فأنجدوه. وكان إنجاد حلب أقرب، وتقدَّم ذكر نجدة الأفضل مع أخيه الظافر، ونجدة العزيز الواصلة إلى دمشق بعد نجاز الأمر.

ووصلَتِ المواصلة إلى رأس عين، والعادل بحرَّان، وتقارب العسكران، حتى إنَّ الطلائع تتواجه وتتجابه، فَمَرِضَ صاحبُ المَوْصل ولم يُطِقِ الإقامة، فعاد، ورجعٍ عمادُ الدين أخوه، وتضرَّع صاحبُ ماردين، وتشفَّع بالأمراء الأكابر، فرضي العادِلُ عنه.

وبلغه قدوم ابن أخيه الظَّافر إلى الفُرات، فكتب إليه بمنازلة سَرُوج، وهي من أعمال ماردين، وأَمَدَّه بابن تقي الدين وابن المُقَدَّم، فنزلوا عليها ثامن رجب، وفتحوها تاسعه.

ورَحَلَ العادلُ منتصف رجب إلى الرَّقَّة، وتسلَّمها، ثم تملَّك بلد الخابور جميعَه، وجاء إلى نَصِيبين، فنزل بظاهرها، وشَرَعَ في ضَمِّ ذخائرها، فجاءت الرُّسُل العمادية في طلب الصُّلْح، فرحل، ونزل دارا، وأتاه وفاة صاحب المَوْصل، وتسليم بلده إلى ولده نور الدين أرسلان شاه، وجرى بينهم وبينه صُلْح.

ثم كاتبه أهل خلاط، فرحل إليها، فرأى أَنَّ البرد يشتد، وأَمَدَ الحصار يمتد،

---

(١) الخف: الجماعة الصغيرة.

فعاد إلى حَرَّان والرُّها، وأعرض عن مخالطة خِلاط، وتأخَّر إلى الرَّبيع أمرُها.

قال: وإقليم اليمن مستقر للملك ظهير الدين سيف الإسلام طُغتِكِين بن أيوب أخي السُّلْطان، وهو هناك سُلْطان عظيم الشَّأن، مستولٍ على جميع البُلْدان، وكان قد وصل ولدُه مع الحاجِّ قبل وفاة السُّلْطان بأيامٍ، فلما استقرَّ الملكُ الأفضل على سرير أبيه كاتَبَ عَمه سيفَ الإسلام.

فصل

في وفاة صاحب المَوْصل وتتمة أخبار هذه الفتنة ببلاد الشَّرْق

قال عِزُّ الدين أبو الحسن عليُّ بن الأثير(١): لما وصل خبرُ وفاة صلاح الدين إلى صاحب المَوْصلِ عِزِّ الدين استشار في الذي يفعله، فأشار عليه أخي مجدُ الدين أبو السَّعَادات بالإسراع في الحركة، وقَصْدِ البلاد الجَزَرية، فإنَّها لا مانع لها منه.

وقال مجاهد الدين قايماز: ليس هذا برأي، فإنَّا نترك وراءنا مثل المولى عماد الدِّين صاحب سِنْجار، ومُعِزّ الدين صاحب الجزيرة، ومُظَفَّر الدين صاحب إرْبل ونسير! إنما الرأي أنَّا نراسلهم ونستميلهم، ونأخذ رأيهم، وننظر ما يقولون.

فقال أخي: إن كنتم تفعلون ما يشيرون به ويَرَوْنَهُ فاقعد، فإنَّهم لا يَرَوْنَ إلا هذا، لأنهم لا يؤثرون حركتكم ولا قوَّتكم، إنما الرَّأي أن يبرز هذا السُّلْطان، ويكاتبهم ويراسلهم ويستميلهم، ويبذل لهم اليمين على ما بأيديهم، ويُعْلمهم أنَّه على الحركة، فليس فيهم من يمكنه يخالف، خوفاً من قصد ولايته، لا سيما إذا رأوا جِدَّة وخُلُوَّ البلاد الجزرية من مانعٍ وحامٍ، فهم لا يشكُّون أنه يملكها سريعاً، فيحملهم ذلك على موافقته، ومتى أراد الإنسان أن يفعل فعلاً لا تتطرَّق إليه الاحتمالات بَطَلَتْ أفعالُه، إنما إذا كانت المصلحة أكثر من المَضَرَّة أَقْدَمَ، وإن كان العكس أَحْجَمَ، فظهرت أمارات الغيظ على مجاهد الدين، فسكتَ أخي، لأنَّه كان هو مخدوم الجميع على الحقيقة والحاكم فيهم. واتَّبع المرحوم ـ يعني صاحب الموصل ـ قول مجاهد الدين، وأقام بالمَوْصل عِدَّة شهور يراسل المذكورين، فلم

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٢٢٦ ـ ٢٢٨: ذكر مسير أتابك عز الدين إلى بلاد العادل وعوده بسبب مرضه. وذكر وفاة أتابك عز الدين وشيء من سيرته.

ينتظم بينه وبين أحدٍ منهم حال غير أخيه عماد الدين، فإنَّهما اتَّفقا على قواعد استقرَّت بينهما، فإلى أن انفصل الحالُ وَصَلَ الملكُ العادِلُ أبو بكر بن أيوب من الشَّام إلى حَرَّان، وأقام هناك، وجاءته العساكر من دمشق وحمص وحماة وحلب، وامتنعت البلادُ به.

وسار عِزُّ الدين عن الموصل إلى نَصِيبين، وقد ابتدأ به إسهالٌ قريب، واجتمع بها بأخيه عماد الدين، وسارا في عساكرهما إلى تَل مَوْزَن من شبختان لقَصْدِ الرُّها. فأرسل العادلُ حينئذٍ يطلب الصُّلْح، وأن تكون البلادُ الجَزَرية الرُّها وحران والرَّقَّة وما معها بيده على سبيل الإقطاع من عِزِّ الدين، فلم يُجِبْهُ إلى ذلك. وقَوِيَ المرضُ به واشتدَّ إلى أن عَجَزَ عن الحركة، فعاد إلى الموصل في طائفةٍ يسيرة من العسكر، فلما وصل دُنَيْسِر رأى ضعفاً شديداً، فأحضر أخي، وكتَبَ وصيَّةً، ثم سار إلى المَوْصل فوصلها مريضاً بالإسهال، وبقي كذلك إلى أن توفي في السَّابع والعشرين من شعبان سنةَ تسعٍ وثمانين وخمسمائة.

قال: ولم أسمع عن أحد من النَّاس بمثل حاله في مرضه، فإنَّه كان لا يزال ذاكراً الله تعالى حتى أنه كان إذا تحدَّث مع إنسانٍ يقطع حديثه مراراً ويقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، وهو حيٌّ لا يموت، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، وأشهد أنَّ محمداً ﷺ عبدُه ورسولُه، وأشهد أنّ الموت حق، وعذاب القبر حق، وسؤال منكر ونكير حق، والصراط حق، والميزان حق ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝﴾ [الحج: ٧]. ويقول لمن عنده يخاطبه: اشهد لي بهذا عند الله تعالى، ثم يعود إلى حديثه. وأحضر عنده من يقرأ القرآن، فلم يزل كذلك إلى أن توفي ـ رحمه الله ـ ودُفِنَ بالمدرسة التي أنشأها بباطن المَوْصل مقابل دار المملكة، وهي للفريقين الشافعية والحنفية.

وكانت مملكته نحو ثلاث عشرة سنة وستة أشهر، وكان أسمرَ، مليحَ الوَجْه، حَسَنَ اللِّحْية، خفيف العارضين، وحكى لي والدي، قال: هو أشبه النَّاس بجدِّه الشَّهيد، قَدَّس الله روحه.

قال: وكان ـ رحمه الله ـ ديِّناً خيِّراً، قد ابتنى في داره مسجداً يخرج إليه في الليل، ويُصَلِّي أوراداً كانت له، ويلْبَسُ فَرَجيّة[1] كان قد أخذها من الشيخ عمر

(١) الفرجيّة: ثوب واسع طويل الأكمام يتزيا به علماء الدين. انظر صبح الأعشى ٤/ ٤٤، ٤٥، ٥/ ٨٩، ١١/ ١٩٥.

النَّسائي الصُّوفي، ويصلِّي فيها. وكان قد حَجَّ ولبس بمكة ـ حرسها الله ـ خرقة التصوُّف من الشيخ عمر النَّسائي المذكور، وكان من الصَّالحين.

وأوصى بالمُلْك لابنه نور الدين أرسلان شاه، وأراد أخوه شرَفُ الدِّين بن مودود بن زَنْكي أن يوليه، فلم يفعل، وبقي نور الدين إلى سنة سبع وستّمائة، فتوفِّي في شهر رجب منها، ودُفِنَ بالمدرسة التي أنشأها بباطن المَوْصل حِذَاء دار السَّلْطنة، وكان عَهِدَ بالملك لابنه القاهر عز الدين مسعود، وجعل الأمير بدر الدين لؤلؤ القائم بأمر دولته، وولَّاه إمارة الجيوش والعساكر، وسياسة القبائل والعشائر، ثم توفي الملك القاهر في ربيع الأول من سنة خمس عشرة وستمائة فجأة، وخَلَّف ثلاثة بنين صغاراً.

قال: وأما عماد الدين زَنْكي بن مودود بن زنكي صهر نور الدين ـ رحمه الله ـ وهو صاحب سِنْجار، فإنَّه توفي في المحرَّم سنة أربع وتسعين، وكانت ولايته ثلاثين سنة، وكان عَدْلُه قد عمَّ البلاد، وغَمَرَ العبادَ، وأريقت الخمور، وحُدَّ شارِبُها، وكانت صدقاتُهُ تصل إلى أقاصي البلاد. وتولى بعده ولدُهُ الأكبر قُطْب الدين محمد بن زَنْكي، وكان متولي أمره مجاهد الدين يرنقش العمادي.

قال: وحاصَرَ الملك العادِلُ أبو بكر بن أيوب مارِدين في سنة خمسٍ وتسعين، فبقي محاصراً لها أَحَدَ عَشَرَ شهراً، ولم يبق إلا الاستيلاءُ عليها، فبينما العادل يحاصرها إذ توفي ابنُ أخيه الملك العزيز صاحب مصر، وكان عسكره مع عمِّه العادل على ماردين، فلما توفي مَلَكَ أخوه الأفضل مِصْر، وكان بينه وبين عَمِّه العادل نُفْرَةٌ، فلما ملك مصر أرسل إلى العسكر المصري الذي مع عمه يأمرهم بمفارقته ففارقوه، وعادوا إلى مصر، فَقَلَّ جمعه وعسكره.

ثم خرج الأفضل من مصر عازماً على حَصْرِ دمشق واستعادتها من عمه، فسار العادل عن مارِدين جريدةً إلى دمشق ليحفظها بعدما كان قد طلع سَنْجَقه إلى قلعة ماردين، وترك ولده الملك الكامل محمداً محاصراً لها إلى أن اجتمع صاحب سِنْجار وصاحب الموصل على ترحيله عنها، فَرَحَلَ.

قال: وفي سنة ستٍّ وستمائة سار الملك العادل بن أيوب من الشَّام إلى سِنْجار في العساكر الشامية والمِصْرية والجزرية والديار بكرية، فحصرها، ونَزَلَ عليها من كلِّ جانب، ونصب أَحَدَ عَشَرَ منجنيقاً ثلاثة أشهر، وانتخى صاحب المَوْصل وصاحب إربل لصاحب سِنْجار، وأنفذ الخليفة رُسْلَه، فأصلح الأمر، وانتظم الصُّلْح، ولله الحمد.

فصل

[تسلط الوزير الجزري على الأفضل واختلال أمره]

وأما رسالة العماد الكاتب المعروفة: «بالعُتْبى والعُقْبى»[١] التي أشار إليها في آخر كتاب «البرق» فيما جرى بعد وفاة السُّلطان إلى سنة اثنتين وتسعين فقد وقفت عليها، وحاصل ما فيها أن قال:

لما توفي السُّلطان ـ رحمه الله ـ وَمَلَكَتْ أولادُه كان العزيز بمصر يقرِّب أصحاب أبيه ويُكرمهم، والأفضل بدمشق يفعل ضد ذلك يقرِّبُ الأجانب ويُبْعِدُ الأقارب، وأشار عليه بذلك جماعة داروا حوله كالوزير الجَزَري الذي استوزره.

قلت: هو الضِّياء ابن الأثير[٢] أخو عز الدين المؤرِّخ[٣]، ومجد الدين أبي السَّعادات[٤]، وفيه يقول الشهاب فتيان الشَّاغوري[٥]: [مجزوء الرجز]

(١) هي «عُتْبى الزمان في عُقْبى الحدثان» كما سماها في الوافي بالوفيات ١/ ١٤٠.

(٢) هو ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن أبي الكرم محمد بن محمد، المعروف بابن الأثير الجزري ثم الموصلي، من جزيرة ابن عمر، نزيل بغداد، الأديب الكاتب، ولد سنة ٥٥٨هـ، وتوفي ببغداد سنة ٦٣٧هـ، صنف من الكتب: «الاستدراكات» «البرهان في علم البيان»، «ديوان الترسل»، «رسالة في الضاد والظاء»، «رسالة في أوصاف مصر»، «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر»، «المعاني المخترعة في صناعة الإنشاء»، «الوشي المرقوم في حل المنظوم» (كشف الظنون ٦/ ٤٩٢ ـ ٤٩٣).

(٣) هو علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، عز الدين، أبو الحسن الجزري الموصلي المعروف بابن الأثير، الفقيه المؤرخ الشافعي ولد سنة ٥٥٥هـ، وتوفي بالموصل سنة ٦٣٠هـ. من تصانيفه: «أداب السياسة»، «أسد الغابة في معرفة الصحابة»، «تاريخ الدولة الأتابكية بالموصل»، «تحفة العجائب وطرفة الغرائب» في التاريخ، «الجامع الكبير» في علم البيان، «كامل التواريخ»، «كتاب الجهاد». «اللباب في تهذيب الأنساب»، وهو تلخيص أنساب السمعاني (كشف الظنون ٥/ ٧٠٦).

(٤) هو مبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، أبو السعادات، مجد الدين ابن الأثير الجزري الشافعي، كاتب الإنشاء بالموصل، ولد سنة ٥٤٤هـ، وتوفي سنة ٦٠٦هـ، له من التصانيف: «الإنصاف في الجمع بين الكشف والكشاف»، «الباهر في النحو»، «البديع شرح فصول ابن الدهان في النحو»، «البنين والبنات والآباء والأمهات من رجال الحديث»، «تهذيب فصول ابن الدهان»، «جامع الأصول لأحاديث الرسول» جمع بين الصحاح الستة، «الجواهر واللآلي من إملاء المولى الوزير الجلالي»، «ديوان الرسائل»، «صناعة الكتاب»، «كتاب الآباء والأمهات»، «الكتاب الشافي في شرح مسند الشافعي»، «كتاب النهاية في غريب الحديث»، «المختار في مناقب الأبرار»، «المرصع في اللغة»، «المصطفى والمختار في الأدعية والأذكار»، «نهاية الأثيرية في اللغات الحديثية» (كشف الظنون ٦/ ٢ ـ ٣).

(٥) فتيان الشاغوري: هو فتيان بن علي بن فتيان بن ثمال الشاغوري، الأسدي، شهاب الدين، =

متى أرى وَزِيرَكُمْ وما له مِنْ وَزَرِ[1]
يَقْلَعُه اللَّهُ فذا أوانُ قَلْعِ الجَزَرِ

قال العماد: فلما طلب من الأمراء أن يَحْلِفُوا له أظهروا له أيماناً وهم قد أضمروا الحِنْثَ فيها، ولم يَخْفَ ذلك عليه. ولما رأى الفاضل أمور الأفضل مختلَّة تركه وسار إلى مِصْر، وشرع الوزير الجَزَرِي في تفريق العُصْبة النَّاصرية، وما منهم إلا مَنْ فارق إلى الدِّيار المِصْرية.

وكان قد أُشير على الأفضل بإخلاء البيت المقدَّس لنواب العزيز بأعماله، حَذَراً عليه من تكاليفه وأثقاله، فأجاب إلى ذلك، وقد كانت نابُلُس وأعمالها قد وَقَف السُّلْطان ثُلُثَها على مصالح القُدْس، وباقيها على ابن الأمير علي بن أحمد المشطوب[2]، فشاركه أحد الأمراء الأكراد فيه، فمدُّوا أيديهم إلى الوقف، وساءت سيرتهم، وتَخَوَّفوا من إنكار الملكِ العزيز عليهم، فلجؤوا إلى الأفضل، فأفضل عليهم، وسَكَنَ إليهم، فتأثَّر الملك العزيز لذلك.

وأقوى الأسباب فيما حَدَثَ من النِّفار نِفارُ الأُمراء النَّاصرية الكبار، ومفارقتهم دمشق إلى مصر على سبيل الاضطراب والاضطرار، فأَعَزَّهم العزيز ورفعهم، فاتفقوا على أن تكون كلمةُ الإسلام مجتمعة على الملك العزيز، لإحياء سُنَّة والده في الجود والبأس والكرم.

[تسلم الفرنج ثغر جبيل]

ومن جُملة الأسباب الباعثة تَسَلُّم الفرنج ثغر جُبيل من بعض مستحفظيه، وضعف الأفضل عن استخلاصه، فقيل للعزيز: إنْ توانيت استولت الفرنج على البلاد.

[قدوم العزيز إلى دمشق وحصارها]

فخرج العزيز بعساكره، وبلغ الأفضل فضاق صدرُه، واجتمع بمن في خدمته من الأمراء برأس الماء، وأراد أن يستعطف قايماز النَّجْمي - وكان في إقطاعه بالسَّواد، وكان بينه وبين الأفضل شِقاقٌ وعناد - فأرسل إليه، فلم يقبل، ورحل إلى عسكر العزيز، ورأى الأفضل أن يكتب إلى أخيه بكل ما يحبُّ من إعلاء كلمته، والاجتماع عليه، ويكون الأفضل من بعض القائمين بين يديه، طلباً لتسكين الفِتَن،

= الدمشقي الحنفي، ولد سنة ٥٣٠هـ، وتوفي سنة ٦١٥هـ، تقدّمت ترجمته في الجزء الثاني.

(١) الوزر: الملجأ.

(٢) تقدّمت ترجمته في هذا الجزء.

ورغبةً في ذهاب الإِحن، فأُشير عليه بغير الصَّواب، وقيل: أنت الكبير، وإليك التَّدبير، فجِدَّ واجتهد، ولا تُعْلِم أصحابك بهذا الخَوَر الذي داخَلَك، والجُبْنَ الذي نازلك، ونحن بين يديك، وكلُّنا عاقدون بالخناصر عليك.

ووصل رسولُ الملك الظاهر، والكتب من الملوك الأكابر بالإنجاد المتظاهر للأفضل، وسيَّر الأفضلُ إلى عمه العادل وهو بحرَّان والرُّها كُتُباً ورُسُلاً، فلما أبطأ عليه سَيَّر عِزَّ الدين عثمان بن الزَّنجيلي[1] على نجيبٍ، ليسرع ويأتي به عن قريب، وكتبه واصِلَةٌ بعزمه على نصره ونجدته، وذلك في أوائل جُمادى الآخرة من شهور سنة تسعين.

ولم يشعر الأفضل إلا والعزيز بعساكره قد وصل إلى الفَوَّار، فعجَّل الرَّحيل وقد خالطت عساكر العزيز ساقة جيش الأفضل، فأسرع ودخل دمشق يوم الجمعة خامس جُمَادى، ونزل العزيز يوم السبت بالكُسْوة، ونزل على دمشق يوم الأحد، فلم يزل الأفضل يمانع ويُدَافع حتى وصل عمُّه العادل، فكتَبَ إلى العزيز يسأله الاجتماع، فتواعدا واجتمعا راكبين بصحراء المِزَّة، فَعَذَله في أخيه، واستنزله عما كان فيه، فقال: عليَّ رضاك، واتِّباع هواك. فقال: نفِّسْ عن البلد الخِناق. وكان قد بُلِيَ البلد منهم بما لا يطاق من قَطْعِ الأنهار، وقَطْف الثِّمار. فتأَخَّر العزيز إلى صوب داريَّا والأَعْوج.

[إبرام الصلح بين العزيز والأفضل]

وكان قد اجتمع عند الأفضل من الملوكِ عمُّه العادل والمجاهد أسد الدين شِيركُوه بن ناصر الدين محمد بن شِيركُوه صاحب حمص، والأمجد مجد الدين بَهْرام شاه بن فَرُّخْشاه بن شاهِنْشاه بن أيوب صاحب بَعْلَبَكَّ، والمنصور ناصر الدِّين محمد بن تقي الدين عمر بن شاهِنْشاه بن أيوب صاحب حماة، ثم وصل الملك الظاهر غياث الدين غازي بن السُّلطان، فاتَّفقوا على عَقْدٍ يُؤَكَّد، وعَهْدٍ يُمَهَّد.

ورحل العزيزُ إلى مرج الصُّفَّر لكون المقام به أرفق، فَمَرِضَ حتى أَيس منه، ثم أفاق، وأرسل من جانبه الأمير فخر الدين أياز جركس، واعتمد عليه في هذه النَّوْبة، فوصل إلى العادل في تعديل الأمور، فتقرَّر بينهم الصُّلْح، وتزوَّج العزيز ابنة عمه العادل.

وخرج الملوك لتوديع الملك العزيز في أوَّل شعبان واحداً بعد واحد، فخرج

---

(١) تقدّمت ترجمته في الجزء الثالث.

الظاهر أولاً، والتقيا ونزلا بمرج الصُّفَّر، وبات عنده ليلة ثم رجع، وخرج العادل، ثم الأفضل، فلما اجتمع بأخيه فارَقَهُ وما ثَوَى[١]، ورجع كلٌّ إلى بلده.

ولما استقرَّ الأفضل بدمشق قضى حقوق الجماعة، وشكرهم، ورحل الظَّاهر صوب حلب رابع عشر شعبان، وأقام العادل إلى تاسع شهر رمضان، ورحل إلى بلده الرُّها وحَرَّان.

ثم إنَّ الأفضل نَظَمَ أبياتاً يكتبها إلى أخيه العزيز في استعطافه واستمالته وقال: كنتُ فارقتُ أخي مُذْ تسع سنين، وما التقينا إلا في هذه السَّنة: [الوافر]

نَظَرْتُكَ نَظْرَةً مِنْ بَعْدِ تِسْعٍ ... تَقَضَّتْ بالتَّفَرُّقِ مِنْ سنينِ
وَغَضَّ الدَّهْرُ عنها طَرْفَ غَدْرٍ ... مسافةَ قُرْبِ عينٍ من جبينِ
وعاد إلى سَجِيَّتِهِ فأَجْرَى ... بفُرْقتنا العيونَ من العيونِ
فَوَيْحَ الدَّهْرِ لم يَسْمَحْ بوَصْلٍ ... يعودُ به الهجوعُ إلى الجفونِ
فِراقاً ثُمَّ يُعْقِبُهُ بِبَيْنٍ ... يُعِيدُ إلى الحشا عَدَمَ السُّكُونِ
ولا يبدي جيوشَ القُرْبِ حتى ... يُرَتِّبَ جَيْش بُعْدٍ في الكُمِينِ
ولا يُدْني محلِّي منك إلا ... إذا دارَتْ رَحَى الحَرْبِ الزَّبُونِ
فَلَيْتَ الدَّهْرَ يَسْمَحُ لِي بأُخْرَى ... ولو أمضى بها حُكْمَ المَنُونِ

قال: ثم كَثُرَ الشَّرُّ ممن حول الأفضل في حقِّ الأمراء الكبار ذوي الأقدار، فأَنِفوا من ذلك، وأزمعوا على الانفصال، لسوء تلك الحال، فممن سار إلى مِصْر عزُّ الدِّين سامة، وحرَّض العزيز على القيام لنُصرة الدَّولة النَّاصرية، وعَرَّفه أَنَّ أخاه الأفضل مسلوبُ الاختيار مع مَنْ حَوْله من الأشرار.

وممن سار إلى مِصْر القاضي محيي الدين محمد بن أبي عَصْرُون، وتولَّى بعد أشهرٍ قضاء القُضَاة بمصر وأعمالها، وذلك سنة إحدى وتسعين، فاستمرَّت ولايته إلى أن عاد العزيز من الشام وتبعه العادل، فصرفه، وأعاد القضاء إلى زين الدين عليّ بن شَرَف الدين يوسف الدِّمَشْقي[٢]، وكان نائباً لصدر الدين عبد الملك بن عيسى بن درباس[٣]، ثم استقلَّ، ثم عُزِلَ بابن أبي عَصْرون، ثم أُعيد إليه.

---

(١) ما ثوى: أي ما أطال المقام.

(٢) ولد سنة ٥٥٠هـ، وتوفي سنة ٦٢٢هـ. (انظر ترجمته في: التكملة للمنذري ٣/ ١٤٩ ـ ١٥٠، سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٢٩٦ ـ ٢٩٧، طبقات الشافعية للإسنوي ١/ ٥٤١، الوافي بالوفيات ٢٢/ ٣٣٥ ـ ٣٣٦، النجوم الزاهرة ٦/ ٢٦٣، شذرات الذهب ٥/ ١٠١).

(٣) ولد بالموصل سنة ٥١٦هـ، وتوفي سنة ٦٠٥هـ، تقدّمت ترجمته في الجزء الثاني.

وكان الأفضل قد اشتغل بعد انصراف أخيه باللَّذَّات، وتشاغل عن أمور النَّاس بإدمان الشَّراب، مع مَنْ حوله من الأصحاب، ثم أقلع عن ذلك وتاب، وجدَّ في الذكر والزُّهْد وأناب، وشرع في كَتْبِ مُصْحف بخطِّه، وحَسُنَتْ طريقته، وظهرت حقيقتُهُ، وذلك في أوائل سنة إحدى وتسعين.

[عزم العزيز على قصد دمشق لحصارها]

وفي هذه السنة في ربيع الآخر وصل الخبرُ بأن العزيز قادم لحصر دمشق مرَّة ثانية، فاشتدَّ غَمُّ الأفضل، فأشير عليه بأن يرحل إلى عَمِّه العادل، ويأتي به لدَفْع هذا القضاء النَّازل، فرحل رابع عشر جُمادى الأُولى، والتقى بعمِّه بصِفِّين، وطلب منه الرُّجوع معه إلى دمشق، ففعل، ووصل العادل إليها تاسع جُمادى الآخرة، وتخلَّف عنه الأفضل، وقَصَدَ حلب للاستظهار بأخيه الظَّاهر، فوثَّق معه الأيمان على ما كانا عليه من الصَّفاء، وكذلك فعل بابن تقي الدِّين بحماة، ووصل إلى دمشق واجتمع مع عمه العادل.

وكان العادلُ أبداً يشير بصَرْف الوزير الجَزَري، وكان قد استولى على الأفضل، فلم يقبل، فكان العادل أبداً مُغْتَمّاً لذلك، فبالغ الأفضلُ في إكرام عَمِّه، وإزالة غَمِّه حتى ترك له سَنْجقه[1] وصار يركب في خدمة عَمِّه، وضاق أخوه الظَّافر من هذه الحال.

وكان الظَّاهر قد نَفَرَ عليه جماعة من الملوك والأُمراء ممن هم في طاعته من جملتهم صاحبُ حماة، وعز الدِّين بن المُقَدَّم صاحب بارين، فراسلا العادل في الاعتصام به، وكان من جماعتهم بدر الدين دُلْدُرم بن بهاء الدولة بن ياروق صاحب تل باشر فاعتقله الظَّاهر وبني عَمِّه، وطلب منه تسليم حِصْنه، فَشَفَعَ العادلُ فيهم، وكَفَلَ أَنَّه يكفُّهم ويكفيهم، واستصحبهم إلى دمشق، فطلب منه الظَّاهر الوفاء بضمانه، فتعذَّر عليه رَدُّهم، وتَيَسَّر له وُدُّهم، فَغَضِبَ الظَّاهر لذلك، وراسل العزيز يحثُّه على الإسراع في القدوم، فأقبل العزيزُ وخيَّم بالفَوَّار.

وَشَرَعَ العادِلُ في تدبير أمور الأفضل، فكاتَب الأُمراء الأَسَدَية من أصحاب العزيز يحثُّهم على تَرْكِهِ والانقطاع إلى حِزْب الأفضل وسِلْكه، وكانت الأسدية أبداً في عَناء من تقدُّم النَّاصرية عليها، وراسل العادِلُ أيضاً العزيز يخوفه من قِبَلِ الأسدية، ويُعَرِّفه ما انطوت عليه قلوبُهُم من الغِلِّ، فكانوا إذا

---

(١) السنجق: باللغة التركية معناه الطعن، والمراد به عند استعماله الراية، سميت الراية بذلك لأنها تكون في أعلى الرمح، والرمح هو آلة الطعن يسمّى بذلك مجازاً (صبح الأعشى ٢/ ١٤٢).

لقيهم عَرفوا في وجهه التغيُّر عليهم، فرغبوا عنه، وحسَّنوا للأكراد مرافقتهم في الانصراف عنه، ففعلوا.

وكان أمير أمراء الأكراد أبو الهيجاء السَّمين، فدارتِ الأكرادُ حوله، وقالوا: لا نأمن عليك من النَّاصرية. فأبرموا أمرهم، وعَجَّلوا رحيلهم، فَرَحَل أبو الهيجاء والمهرانية والأسدية عشيَّة الاثنين رابع شَوال وكانوا أكثر العسكر، وعلم العزيز بهم فما بالى بانصرافهم، وقال: صَفَوْنا من أكدارهم. ولم يأمُر أصحابَهُ باتِّباعهم، وردَّهم، وبقي في خواصِّه مقيماً في تلك الليلة، ثم رحل عائداً إلى مِصْر، فجاء رسولُ أبي الهيجاء السَّمين إلى العادل يُعْلِمُهُ برحيل العزيز خائفاً، ويأمره بالقدوم ليلحقوه ويأخذوه، ويتسلَّموا ملك الدِّيار المِصْرية، فتحالف العادلُ والأفضل على ملك مِصْر على أن يكون للعادل الثُّلُث، وللأفضل الثُّلثان، وخرجا يوم الأربعاء في الجيوش، واستناب الأفضل بدمشق أخاه الأصغر قُطْب الدين موسى.

وأما العزيز فإنَّه سار وأخذ طريق اللَّجُون والرَّمْلة، وفَرِقَ من الأسدية الذين بالقاهرة أن يفعلوا فِعْلَ إخوانهم، فيمنعوه من دخول البلد، وكان مقدَّمهم الأمير بهاء الدين قَراقُوش، وهو أكبر الأمراء الأَسَدية، قد استنابه العزيز بالدِّيار المِصْرية، فهو مقيمٌ على الصَّفاء والمودَّة والإخاء. فلما وصل العزيز تلقَّوْه، وإلى ذِرْوَةِ سَلْطنته رقَّوه.

وأما العادل والأفضل فاجتمعا بالمتخلِّفين عن العزيز، وحَرَصَتِ الأسدية أن يسبقوا العزيز فلم يقدروا، واجتهدوا أن يُدْركوه ويتقدموا فتأَخَّروا، فأمرهم العادلُ بالثَّبات، وتسلَّمَ القُدْسَ وأعماله وما يجاوره من أعمال السَّاحل أبو الهيجاء السَّمين بأمر الأفضل والعادل، فرتَّب فيها نوَّابه، وأسكنها أصحابه، وصحبهم إلى الدِّيار المِصْرية لمحالفة الأسدية ومخالفة النَّاصرية، فنزل العادل بهم على بِلْبِيس، وكان أوان أخذ زيادة النِّيل في الانتهاء، والسِّعْر غالٍ، وظهرت ندامة الأسدية، وضَعُفَتْ معونتهم، وضوعفت مؤونتهم، فخاف من مكرهم، والعدول إلى مستقرِّهم، فأرسل إلى القاضي الفاضل يستوفده للاستزارة، ويسترشده بالاستشارة.

فألزمه العزيزُ بإجابة سؤاله، فخرج إليه، واستبشر النَّاسُ بخروجه رجاء الصُّلْح، وركب العادل وتلقَّاه على فراسخ، واجتمعا، وأصلحا الأمور على ما يحبُّ الفريقان، وعفا العزيز عن الأسدية، وأقام العادل عند العزيز.

وأما الأفضل فإنَّ العزيز خرج إليه وودَّعه، فانصرف ومعه أبو الهيجاء السمين، وتولى القدس، ووصل الأفضل إلى دمشق غُرَّة المحرَّم سنة اثنتين وتسعين.

ثم إنَّ الأفضل لازم صيامه وقيامه، وقلَّل شرابَهُ وطعامه، وحسُنَ شعاره،

واستوى ليلُه ونهاره. ووزيره الجزري قد بُلي النَّاس منه ببلايا، وهو في غَفْلَةٍ عن تلك القضايا، وكان يدخل إليه ويوهمه من قِبَلِ أقوامٍ أنَّهم عليه، وأنهم يميلون إلى أخيه، فيصدِّقه الأفضل فيما يَدَّعيه.

فصار يبلغ العادلَ عنه أحوالٌ ما تعجبه، بل تغضبه، وصار يتصل به كلُّ من هاجر من الشَّام إلى مصر، وما منهم إلا من يشكو من الوزير الجَزَري. وكان قايماز النَّجْمي قد لَصِقَ بالعادل ـ وكذلك عز الدين سامة ـ وصاهر العادل وظاهره، وكان العادل بمصر مستوطناً للقَصْر، فوعد الجماعة بإزالة يد الوزير الجَزَري، وَرَدِّه إلى بلاده، وقرَّر مع العزيز تسيير عسكره معه إلى الشام، ليمهِّد له قاعدة الملك في سائر بلاد الإسلام، فأخرج العادلُ العساكر إلى بركة الجُب، وخرج العزيز لتشييعه، وذلك مستهل ربيع الأول.

ووصل الملكُ الزَّاهر مجير الدين داود من حلب إلى أخيه العزيز من جانب الظَّاهر، لتسكين هذا الرَّهَج الثائر، ومعه سابق الدين عثمان صاحب شَيْزَر، والقاضي بهاء الدين بن شَدَّاد.

ثم إنَّ العادل أشار على العزيز بأن يوافقه على المسير ويرافقه فيه، فرآه عين التَّدْبير، فسارا بالعساكر نحو الشَّام، ولما انصرفت رُسُلُ الظَّاهر من مصر بما طلبوا مَرُّوا بدمشق فأعلموا الملك الأفضل بما أُبرم من الأمر، فضاق صدرُه، وطال فِكْرُه، واستشار أصحابَهُ، فأشار عليه شيوخُ الدولة بأن يستقبل أخاه وعَمَّه، ويسلم لهما حُكْمَه.

وأشار الجزري وأصحابُهُ بالتصميم على المخالفة، وترك المجاملة والملاطفة. ثم دخل عليه أخوه الملك الظَّافر خضر فشجَّعه وصَبَّره، وتولى أسباب التحصير[١]، وحَلَّفوا الأمراء والمقدَّمين. وقطعوا ما فوق المصلَّى عند مسجد فلوس بفصيل[٢]، ورتبوا رجالاً حوالي البلد يتناوبون لحفظه في البُكرة والأصيل، وتفرَّق الأمراء على الأسوار والأبراج، وجاءت الرُّسُل الظَّاهرية لإظهار المظاهرة، وندب الأفضل فلك الدين أخا العادل إليه منه رسولاً، فوصل إلى العسكر العزيزي بالدَّاروم وغَزة، ولقي عند العزيز من قبوله العِزَّة، فبقي فلك الدين هناك أياماً في إصلاح ذات البين، لا شكَّ أنهم اشترطوا على الأفضل شروطاً، وردُّوه بها، وأقاموا ينتظرون الجواب، فنفَّذ من ذكر أنَّ الأفضل أبى ذلك، فلما رأى الأكابر

(١) لتحصير: كذا بالأصل، ولعلها: التحصين.
(٢) الفصيل: حائط قصير دون سور البلد.

وشيوخ الدَّوْلة أَنَّ الأفضل لا يسمع من رأيهم، وأَنَّه عازمٌ على المحاربة، ولا يعدل عن رأي وزيره، مع ما قد عرفه من شُؤْم تدبيره، شرعوا في إصلاح أمورهم في الباطن، فراسلوا العزيز والعادل، واستظهر كلٌّ لنفسه.

وأقام العسكر مُذْ عاشر رجب على البلد، مستظهراً بالعَدَد والعُدَد، لا يحدث حدثاً، ولا يعبث بالبلد إلا عبثاً، فكتب الأولياء من البلد إلى العزيز والعادل بانتهاز الفُرْصة، فركبوا وتأهَّبوا يوم الأربعاء السَّادس والعشرين من رجب، وساقوا، فما صَدَّهم عن قَصْد البلد أحدٌ، وما كان في طريقهم إلا الملك الظَّافر ومعه عسكر حلب، فقاتل على ظَنٍّ قتال الجماعة، وما عنده علمٌ بما دبَّروه من المخامرة، فجاوزوا ولم يكترثوا.

[حصار العادل والعزيز دمشق وتملكها]

ووصل العزيز إلى الميدان الأخضر، ووصل العادل إلى باب توما، وكان الأمير الأمين به، قد استنهضه إليه بكتبه، ففتحه له، فدخل العادل وأصحابه من باب توما والباب الشرقي، وبات العادل في الدَّار الأسدية. ودخل العزيز من باب الفرج، وبات في دار عمته الحُسامية، وخرج إليه الأفضل ولقيه، وتجرَّع من هَمِّ زوال مُلْكه ما سُقِيَه.

فلما ملك العزيزُ دمشق أقام أياماً بالميدان الأخضر الكبير إلى أن انتقل الأفضلُ من القلعة بأهله وأصحابه، وأخرج وزيره الجَزَري مخفياً في صناديقه، إشفاقاً عليه من قَتْله وتحريقه، وتحوَّل الأفضل تلك الأيام إلى مسجد خاتون وما يجاوره ومعه وزيره، فهرب ليلاً إلى بلاده وقد ادَّخر فيها أموال دمشق وأعمالها ثلاث سنين.

قال: وكان العزيز قَرَّر مع العادل أن يقيمَ العزيزُ بدمشق، ويستنيب العادلَ بمصر، فلما ملك دمشق نَدِمَ على ما قَرَّره، ورجع عما دَبَّره، ونفَّذ إلى أخيه الأفضل في السِّرِّ يعتذر إليه، ويشير عليه بما كان اشترط عليه، فأظهر الأفضل هذا السِّرَّ لصحبه، والمخصوصين بقُرْبه، فقالوا: لا تنخدع بهذا القول، فربما كانت خديعةً، وأطلع عَمَّك العادل على هذا السِّرِّ، فإنَّه يرى ذلك عَيْنَ البِرِّ.

فأرسلَ إلى العادل من أعلمه بذلك، فعَزَّت عليه مراسلة العزيز الأفضلَ، واجتمع بالعزيز وعَتَبَه، وقَرَّعه بما أَنبئ به وأَنَّبه، وقال: أبني وتهدم، وأُوجد مصالحك وتُعْدم.

فأنكر الحال وأحالها، وانتقض الأمرُ قبل إبرامه. ووجه إلى الأفضل من أزعجه، وإلى صَرْخَد أخرجه، وسَدَّ طريق الاستنصار على أخيه الظَّافر، حتى أسلم

في تسليم بصْرى الظفر بسلامته، وبَذَلها ولم يُتْبِعْها بندامته، ورحل إلى حلب، وأظهر الظَّاهرُ الاحتفال به.

وأما الأفضل فَإِنَّه سار إلى قلعة صرخد وسَكَنها، وحوَّل أهله وأخاه قطب الدين إليها وتوطَّنها. وعند خروج الأفضل من قلعة دمشق دَخَلَ العزيزُ إليها يوم الأربعاء رابع شعبان، وجلس يوم الجمعة في دار العَدْل، واعتقد النَّاسُ أنه يطول مقامه عندهم، فلم يشعروا به إلا وقد برَّز للرَّحيل، وتقدَّم إلى العادل بأن يتولى البلاد، وفارق دمشق عشيَّة الاثنين تاسع الشهر، ونزل بالمخيَّم فوق مسجد القدم، ثم تحوَّل إلى الكُسْوة، وودَّعه بها يوم السبت رابع عشر الشهر.

فلما عاد العادلُ من وَدَاع العزيز قُرئ بالجامع منشوره العزيزي بالبلاد والأعمال، والنَّظر في جميع الأحوال، وأشاع أَنَّه نائب العزيز، وهو سُلْطانه، وأبقى الخطبة باسم العزيز خالية من اسمه، حاليةً برسمه، وضَرَبَ الدِّينار والدِّرْهم على سِكَّته، وأظهر أَنَّه قوي بشوكته وشِكَّته، وجلس يومي الاثنين والخميس للعَدْل، وبَسَطَ يده لجمع الأموال وخَزْنها، لوقت عموم الحاجة إلى صَرْفها.

فصل

هذا آخر ما انطوت عليه رسالة «العُتْبَى» من أخبار ما جرى بعد موت السُّلْطان، رحمه الله.

وللعماد أيضاً كتاب آخر سمَّاه «نِحْلَة الرِّحْلة»[1] ذكر فيه أيضاً نحواً من ذلك، وهو أَنَّ الأحوال اختلت وتغيَّرت بعد موت السُّلطان، وأراد العماد الرحيل إلى مِصْر، فأَصْحبه الأفضلُ رسالةً إلى أخيه العزيز، فمضى إليه وعنده عَمُّه العادل، فلم يتمكَّن من الرُّجوع إلا معهما لما خرجا بالعساكر. فذكر الحديث في أخذ البلد.

قال: وخرج الملك الأفضل، واجتمع بالعزيز في الميدان، ودخلا من باب الفرج متصاحبين إلى الضَّريح النَّاصري، وصَعِدَ العزيز القلعة يوم الأربعاء، وصلَّى هذه الجمعة عند ضريح والده في هيئة المودِّع، وأظهر بالبكاء والنَّحيب عنده سرَّ القلب المُوْجع، ودخل دار الأمير أسامة في جوار تلك القُبَّة، وأمر القاضي محيي الدين بن الزكي بأن يبنيها مدرسةً للتُّرْبة.

(١) هو كتاب «نحلة الرحلة وحلية العطلة» كما سماه في الوافي بالوفيات.

قلت: هي المدرسةُ المعروفة بالعزيزية، وَوَقْفُها قرية عظيمةٌ تعرف بمَحَجَّة، فهذا قدر ما في كتاب «النِّحلة» مما يتعلَّق بما نحن فيه، ولم يكن ذكر مثل هذا من شرط كتابنا هذا، لأنه موضوعٌ للدَّوْلتَين النَّيِّرتين، إلا أنه لا بُدَّ من ذكر ما يتعلَّق بهما مما وقع فيهما وعقيبهما، وتبعنا العماد فيما ذكر في «العُتْبى» لكونه أشار إليها في كتاب «البرق»، واستوفينا ما في كتاب «البرق» و«الفتح القُدْسي» والتاريخ الأتابكي، وكتاب القاضي أبي المحاسن، وأتينا على ما فيها من المحاسن، وانضاف إلى ذلك قطعةٌ كبيرة من مواضع متفرِّقة كثيرة، من عِدَّة مصنفات، ودواوين ومراسلات، والله تعالى يوفق ملوكنا للاقتداء بسيرة سلفنا في إقامة فَرْض الجهاد، وتخليص البلاد من أيدي الكفرة والنَّظر في مصالح العباد.

ومن كتاب فاضلي: أما هذا البيت، فإنَّ الآباء منه اتفقوا فملكوا، وإن الأبناء منهم اختلفوا فهلكوا، وإذا غَرَبَ نجم فما في الحيلة تشريقه، وإذا بدأ خريق ثوبٍ فما يليه إلا تمزيقُه، وهيهات أن يُسَدَّ على قَدَرٍ طريقه وقد قُدِّر طروقُه، وإذا كان الله مع خَصْمٍ على خَصْمٍ، فمن كان الله معه فمن يطيقُه.

فصل

[كتاب القاضي الفاضل إلى القاضي محيي الدين بن الزكي بما ثار من عواصف وبروق في مصر]

بعد انتهاء هذا الكتاب وإسماعه مَرَّة وقفتُ على ما حَسَّن لي إلحاقه بهذا الكتاب، من ذلك أَنَّ القاضي الفاضل كتب في سنة ثلاثٍ وتسعين إلى القاضي محيي الدين بن الزكي كتاباً قال فيه: ومما جرى في هذه المُدَّة من المَثُلاتِ الجارية، والمعضلات العادية بأس من الله طَرَق بَيَاتاً ونحن نيام، وظَنَّ النَّاس أَنَّ اليومَ الموعود قد طَرَقَ في اللَّيْل الممدود، فإذا هم قيام، إنَّ الله تعالى أتى بساعةٍ كالسَّاعة، كادت تكون للدُّنيا كساعة، في الثُّلث الأول من ليلة الجمعة ثامن عشر جمادى الآخرة، وذلك أَنَّه أتى عارِضٌ فيه ظُلُماتٌ متكاثفة، وبروقٌ خاطفة، ورياح عاصفة، قَوِيَ أُلهوبُها، واشتدَّ هُبوبها، وارتفعت لها صَعَقات، وتدافعت لها أَعِنَّة مُطْلَقات، فرجعت لها الجُدْران واصطفقت، وتلاقت على بُعْدها واعتنقت، وثار من السماء والأرض عَجَاج، فقيل: لعلَّ هذه على هذه قد انطبقت.

وتوالت البروق من جهة المُقَطَّم على نظام، وتبع الواحدة الأخرى، وتقفَّى

الثَّانية على أَثَرِ الأُولى، وترى البروق واقفةً وهي تتعاقب، وقائمةً وهي تتجاذب، ولا تحسب إلاّ أَنَّ جهنم قد سال منها وادٍ، وعدا منها عادٍ.

وزاد عَصْفُ الرِّيح إلى أنِ انطفأتْ سُرُج النُّجوم، ومزَّقت أديمَ السَّماء ومحت ما كان فوقه من الرُّقوم، ولا تزال هذه الرِّيح تسكُنُ سكوناً خفيفاً، ثم تعاود عَوْداً عنيفاً، فكُنَّا كما قال الله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾ [البقرة: ١٩] وكما قلنا: ويردُّون أيديهم على أَعْيُنهم من البوارق، لا عاصِمَ من الخَطْف للأبصار، ولا ملجأ من الخَطْبِ إلا معاقل الاستغفار.

وَفرَّ النَّاس رجالاً، ونساء وأطفالاً، ونهضوا من دُورهم خِفافاً وثِقالاً، لا يستطيعون حيلةً ولا يهتدون سبيلاً، إذ يستغيثون رَبَّهم، ويذكرون ذَنْبهم، لا يستغربون العذاب، لأنهم على مُوحباته مُصِرُّون، وفي وقتِ وقوع واقعاته باستحقاقه مُقِرّون، معتصمين بالمساجد الجامعة، ومتلقين الآية النَّازلة من السَّماء بالأعناق الخاضعة، بوجوه عانية، ونفوس عن الأموال والأهل سالية ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥] ويتوقعون أي خَطْبٍ جلي، قد انقطعت من الحياة عُلُقهم، وعميت عن النجاة طُرُقهم، ووقعت الفكرة فيما هم عليه قادمون، ونَدِموا ونحمد الله أَنْ نَفَعَهم بأَنَّهم نادمون، وقاموا إلى صلواتهم وودُّوا أَنْ لو كانوا من الذين عليها دائمون.

ولم يزل ذلك دَأْبهم، كلَّما سَكَنتِ الرِّياحُ تحرَّكت، وكلما قيل استقلَّت بركت، وكلما أخذت قيل ما تركت حتى الثُّلُث الأخير من الليلة المذكورة، والقلوب إلى الحناجر بالغة، والأبصار عن سُنَنها زائغة، إلى أن أَذِنَ الله في الرُّكود، وأسعف الهاجدين بالأمر لها بالهجود. وأصبح كُلٌّ يسلِّم على رفيقه، ويهنِّيه بسلامة طريقه، ويرى أَنَّه قد بُعِثَ بعد النَّفْخة، وأفاق بعد الصيحة والصَّرْخة، وأنَّ الله قد رَدَّ له الكَرَّة، وأَدَّبه بعد أَنْ كاد يأخذه على الغِرَّة.

وورد من الخبر أَنَّ المراكب كسرها ما كان معترضاً في التحرز للعارض، والأصول العاديَّة من الشجر عَدَتْ عليها الرِّيحُ بحُمَّاها النَّافض، وأَنَّ في الطُّرق من المسافرين مَنْ كان نائماً فَدَفَنَتْهُ الرِّياح حَيّاً، وركب فما أَغْنى الفرار مما هو أمامه شيّاً.

ولا يحسب المجلس أني أرسلتُ القلم محرَّفاً، والقول مجزَّفاً، فالأمر أعظم، ولكنَّ الله سَلَّم، والخَطْب أشق، وما بلغتُ ولا قضيتُ بهذا التكثير بعض الحق، ونرجو أَنَّ الله سبحانه قد أيقظنا بما وعظنا، ونبَّهنا بما ولَّهنا، فما من عباده مَنْ رأَى القيامة عِياناً، ولم يلتمس عليها من بعده بُرْهاناً إلا أهل بلادنا، فما اقتصَّ الأولون مثلها في المَثُلات، ولا سَبَقَتْ لها سابقةٌ في المُعْضلات.

والحمد لله الذي مِنْ فَضْلِهِ أن جعلنا نُخَبِّر عنها ولا تُخَبِّر عَنَّا، ونسأل الله أن يصرف عَنَّا عارِضَ الحِرْص والغُرور إذا عَنَّا.

وشغلتُ خدمَتَهُ بهذا المُهِمِّ، وجعلتُهُ على عِلْم من هذا العلم، فالسَّعيد من وُعِظَ بغيره وقد كانت لنا وفينا الموعظة، وللذكرىَ حدودٌ ونعوذ بالله من إقامة حدوده المُغلَّظة.

ومن كتاب له آخر إلى العادل في سنة ثلاث وتسعين أيضاً: وقد تجدَّد من وصال العدوِّ اللَّعين، وحركته إلى جانب بيروت وخطره البلاد ما أذهل كُلَّ مُرْضعة، وأوقع في ضائقةٍ تَنْفُقُ الأفكارُ فيها من سَعَة، وللإسلام اليوم قدمٌ إن زَلَّت زَلَّ، وهِمَّةٌ إنْ قَلَّتْ فإنَّ النَّصْر منه مَلَّ، وتلك القدمُ القدم العالية وتلك الهِمَّةُ المسابقة السَّيْفية، فالله اللَّهَ ثَبِّتوا ذلك الفؤاد، ودمِّثوا ذلك المِهاد، واسهروا في الله فليست بليلة رُقاد.

ولا يُنْظر في حديث زيدٍ ولا عمرو، ولا أَنَّ فلاناً نَفَعَ ولا ضَرَّ، ولا أَنَّ من الجماعة من جاء، ولا أنَّ فيهم من مَرَّ. انظروا إلى أنكمُ الإسلام كلُّه، قد بَرَزَ إلى الشِّرْك كلِّه، وأنكم ظِلُّ الله، فإنْ صححتم تلك النِّسْبة فإنَّ الله لا ناسخَ لظِلِّه، واصبروا إنَّ الله مع الصَّابرين، ولا تهنوا وإنْ ذهب النَّاصر فإنَّ الله خير النَّاصرين، فما هي إلا غَمْرَةٌ[١] وتنجلي، وهيعة[٢] وتنقضي، وليلةٌ وتصبح، وتجارةٌ وتربح.

ومن كتاب له آخر إلى الملك العادل: أدام الله ذلك الاسم تاجاً على مفارق المنابر والطُّروس، وحياةً للدُّنيا وما فيها من الأَجساد والنفوس، وعَرَفَ المملوك ما عَرَّفه به من الأمر الذي اقتضته المشاهدة، وحُرِسَتْ به العاقبة في بيروت، ولا مزيدَ على تشبيه الحال بقوله: [الطويل]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ المرء تَدْوى يمينُهُ فَيَقْطَعُها عَمْداً لِيَسْلَمَ سائِرُهْ[٣]

ولو كان فيها تدبير لكان مولانا قد سبق إليه، ومن قَلَّم من الإِصْبَع ظُفْراً، فقد جلب إلى الجسد بفعله نَفْعاً، ودفع عنه ضَرّاً: [الكامل]

وتجشُّم المكروه ليس بضائرٍ ما خِلْتَهُ سبباً إلى المحمودِ

وآخر كلِّ شَتْوَةٍ أَوَّلُ كلِّ غَزْوة، فلا يسأم مولانا نيَّةَ الرِّباط وفِعْلَها،

(١) الغمرة: الشدة.
(٢) الهيعة: صوت الصارخ للفزع.
(٣) تدوى: أي تمرض.

وتجشُّمَ الكُلَفِ(١) وحَمْلَها، فهو إذا صَرَفَ وجهه إلى وجهٍ واحدٍ وهو وجه الله صَرَفَ الله إليه الوجوه كُلَّها ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩].

ومن كتابٍ له آخر: هذه الأوقات التي أنتم فيها عرائس الأعمار، وهذه النفقات التي تجري على أيديكم مهورُ الحور في دار القَرَار، وما أسعَدَ من أَوْدَعَ يدَ الله ما في يديه، فتلك نِعَمُ الله عليه، وتوفيقه الذي ما كُلُّ مَنْ طلبه وصل إليه، وسَوَاد العَجَاج في هذه المواقف، بياضُ ما سَوَّدَتْهُ الذُّنُوب من الصَّحائف، فما أسعَدَ تلك الوقفات، وما أعود بالطّمأنينة تلك الرَّجفات.

فــصــل

[وفاة صاحب اليمن طغتكين وتولي ابنه]

وللعماد الكاتب ـ رحمه الله ـ كتابٌ آخر سَمَّاه «خَطْفة البارق وعَطْفة الشَّارق» ذكر فيه أشياء من حوادث سنة ثلاثٍ وتسعين إلى أن توفي هو ـ رحمه الله ـ في سنةٍ سبع وتسعين وخمسمائة، واشتمل ذلك على فوائد تتعلَّق بما تقدَّم، فأحببت إلحاقها به؛ من ذلك وفاة سيف الإسلام طُغْتِكِين بن أيوب باليمن في شَوَّال سنة ثلاثٍ وتسعين، وتولَّى ابنه شمس الملوك إسماعيل.

هذا، والملك العادل بدمشق، وقد انتقل الملك الظَّافر إلى حلب بعد أَخْذِ عَمِّه منه بُصْرى، وعَزَمَ على قَصْد بغداد، فصرفه أخوه الظَّاهر عن ذلك.

وذهب الأمير أبو الهيجاء السَّمين إلى بغداد بأصحابه، فأُكْرِمَ، ثم سُيِّرَ في جيشٍ إلى هَمَذَان، ثم بعد رجوعه مات بدَقُوقا.

[انقضاء مدة الهدنة مع الفرنج]

وانقضت مُدَّة هُدْنة الفرنج التي عقدوها مع الملك النَّاصر ـ رحمه الله ـ فخرجوا والتقوا مع الملك العادل برأس الماء بمرج عكا، فكسرهم، وفتح يافا عَنْوَةً.

وكانوا كاتبوا ملك الألمان، وكان قد ملك صِقِلِّية، فأنهوا إليه تلك البليَّة، وقالوا: إنَّ عظام أبيه إلى الآن في صور في تابوت مكلَّل بالدِّيباج، وكأنَّه في الأَسْرِ منتظرُ الإفراج، فإنَّه لا يُقْبر إلا بالبيت المقدَّس إذا استخلص، والآن ما كان غلا منه

(١) تجشّم الأمر: تكلّفه على مشقة. والكلف: جمع الكلفة. وهي ما تكلفته على مشقة من نائبة أو حق.

استرخص، فإنَّ المسلمين قد اشتغل بعضُهم ببعض، ولهوا عن كلِّ سُنَّةٍ وفَرْض.

فتدافعت إلى عكا سُفُنهم، وتدفَّق مُزْنُهم، وامتلأت بهم في السَّاحل مُدْنُهُم، وقصدوا بيروت وبها الأمير عِزّ الدين سامة، فلما سمع بوصولهم إلى صيدا، خرج بجماعته منها وسار بأهله، ومال عن وَعْرِ الأمر إلى سَهْلِهِ، ودخلها الفرنج بعد يوم، من غير مطاولة سَوْم، ولا مماطلة رَوْم، وكَثُرَ فيه الحديث، وذُكِرَ الطَّيِّب والخبيث، فمن قائلٍ: تَجَبَّنَ وتجنَّب، ومن قَبْلٍ أن يُنْكَبَ تَنَكَّب. ومن قائل: رجاله هابوا فغابوا، ولو أنَّه دعاهم ما أجابوا. واتَّسَعَ القول، ووقع الهَوْلُ، حتى نَظَمَ بعضُهم والفرنج على تِبْنِين: [الخفيف]

سَلِّمِ الحِصْنَ ما عليك مَلامهْ ... ما يُلامُ الذي يَرُومُ السَّلامهْ

فعطاءُ الحصونِ مِنْ غير حَرْبٍ ... سُنَّةٌ سَنَّها ببيروتَ سامهْ

وتصرَّفت الفرنج في بيروت وأعمالها السَّاحلية، وبقي لسامة جميع الولاية الجبلية، ثم توجَّه إلى مصر.

ودخلت سَنة أربع وتسعين(١)

[نزول الفرنج على تبنين ورجوعهم عنها]

فنزل الفرنج سادس عشر المحرَّم على تِبْنين، وأرسل العادل القاضي محيي الدين محمد بن علي القُرَشي إلى الملك العزيز بمصر، فخرج بجيوشه، ووصل في الثَّالث والعشرين من ربيع الأوَّل فَجَفَلَتِ الفرنج بعد أن كانوا ضايقوا الحِصْن ورحلوا.

وجاءهم الخبر بهلاك ملك الألمان. ثم انتقل عسكر المسلمين إلى جانب الطُّور، ومع العزيز إخوته الظَّافر والمُعِزّ والمؤَيَّد.

وكان الأفضل قد جاء إلى عَمِّه قبلهم، وكان معهم على تِبْنِين المجاهد صاحب حمص، والأمجد صاحب بَعْلَبَك، وعز الدين بن المقدَّم، وبدر الدِّين دُلْدُرم، وغيرهم من الأعيان، ثم تراجعوا إلى بلادهم بعد عقد الهُدْنة، ورجع العزيز إلى مِصْر بعد أن خلع على ابن عَمِّه الملك المُعَظَّم عيسى بن العادل، وخصَّه بالسَّنْجق واللِّواء، المنشور لطيِّ اللأواء.

وعاد المُعَظَّم إلى دمشق وقد قَرَّتْ به العيون، وحَسُنت فيه الظُّنون، وكان أَعَزَّ أولاد العادل عنده، وأعلَقهم بقلبه، وأخصَّهم بحُبِّه، قد ولَّاه سلطنة دمشق،

(١) وخمسمائة.

وأطاب فيها بنَشْر كَرَمِهِ النَّشْق، وأقام العادل حتى استقرَّت الهُدْنة، وظهرت في عمارة تبنين المُكْنة، ثم عاد إلى دمشق، وأقام قليلاً ثم شَرَّق، ورقع بها من الأمر ما تخرَّق، ورتق ما تفتَّق.

ورَدَّ بلاد أولاد عماد الدين زَنْكي إليهم لأنَّه توفي في هذه السنة، واستولى عليها ابنُ عَمِّهم صاحب المَوْصل، فأنجدهم عليه السُّلطان الملك العادل.

[وفاة عز الدين جرديك]

وتوفي جماعةٌ من أمراء الموصل، منهم الأمير عِزُّ الدين جُرْدِيك، وكان فَارِسَ الإسلام ومِقْدَامَهُ، وشُجاعَه وهُمَامَهُ، وما بَرِحَ من أيام نور الدِّين إلى آخر أيام صلاح الدين ـ رحمهما الله ـ ليثَ العرين، أشَمَّ العِرْنين. وهو الذي أعان صلاح الدين على القبْض على شاور، وولَّاه صلاحُ الدين القُدْس في آخر عهده، فقام بمصالحه من بعده، ثم تسلَّمه منه الملكُ الأفضل، وسَلَّمه إلى أبي الهيجاء السَّمين، فلما خرج الأفضل من دمشق وصل إلى المَوْصل، وانتقل من حَوْض الكوثر إلى أعذب مَنْهَل.

[استيلاء العادل على قلعة ماردين]

قال: ونزلَ السُّلطان العادل على قلعة مارِدِين في شهر رمضان، وملك رَبَضها ومدنها وولاياتها، وصافَ عليها وشتى، وصَبَرَ وصابر، ولم يقل كيف ومتى، وما شكَّ أحد أن مارِدِين في مِلْكه مضافةً إلى مُلْكه. وقد هَنَّأه بها الشُّعراء، منهم إبراهيم بن مردان[1] من أهل رأس عين، له من قصيدةٍ: [الطويل]

فإنْ تَكُ مِصْرٌ أمَّ مُلْكٍ فمارِدٌ ... إذا نُسِبَ البُلْدانُ فَحْلُ الممالكِ
تقاعَسَ عنها سنجرٌ وابنُ عَمِّهِ ... وقَصَّرَ عنها عَزْمُ زَنْكي الأتابكِ
فإنْ تَكُ قَد شُورِكْتَ في فَتْحِ غيرها ... فما لك في أمثالها مِنْ مُشَارِكِ

ودخلت سَنةُ خَمس وتسعين[2]

[نيابة الكامل في ديار بكر عن أبيه العادل]

والملك العادل نازِلٌ على مارِدِين وقد وصل إليه أصحابُ الأطراف مساعدين، وقد أصلح بين صاحب المَوْصلِ وبني عَمِّه عماد الدِّين، وردَّهم إلى

(١) إبراهيم بن مردان: كذا بالأصل، ولم أجد له ترجمة في المصادر والمراجع التي بين يدي.
(٢) وخمسمائة.

سِنْجار والخابور ونَصِيبين، وقد أذعن له الجماعة بالطَّاعة، ونائبه في تلك البلاد وديار بكر ولده الملك الكامل محمد.

[وفاة الملك العزيز بن صلاح الدين]

قال: وفيها ليلة الأحد العشرين من المحرَّم توفي الملك العزيز بداره بالقاهرة، وكان على عَزْمِ الصَّيد في أعمال الفيُّوم، فخَيَّم تلك الليلة عند الأهرام، فقيل: إنه أصبح وركضَ خلف صيد، فكبا به الفَرَسُ مَرَّةً بعد أُخرى، فتمَّت له سقطة، عَمَّت بها على الزَّمان سُخْطه، فتفاقم ألمُه، وأقام يومين أو ثلاثة، لا يستطيع له مخلوقٌ إعانةً ولا إغاثة، ثم حُمَّ حِمامُهُ، وأظلمت بفجيعته أيامه، وقُبِرَ في داره، ليُنْقَلَ منها إلى دار قَراره، ثم حُوِّل منها في الأيام الأفضلية، إلى التُّرْبة المُقَدَّسة الشَّافعية.

وورد كتابُ القاضي الفاضل تعزيةً به للملك العادل: أدام الله سُلْطان مولانا الملك العادل، وبارك في عمره، وأعلى أمره بأَمْرِهِ، وأَعزَّ نصر الإسلامَ بنَصْره. وَفَدَتِ الأنفسُ نَفْسَه الكريمة، وأصغر الله العظائم بنعمته فيه العظيمة، وأحياه الله حياةً طيِّبةً، يقفُ هو فيها والإسلام في مواقف الفتوح الجسيمة، وينقلب عنها بالأمور المُسَلَّمة والعواقب السَّليمة، ولا نقَّص له رجالاً ولا عدَداً، ولا أعدمه نَفساً ولا ولداً، ولا قَصَّر له ذيلاً ولا يداً، ولا أَسْخَنَ له قَلْباً ولا كَبِداً، ولا كَدر له خاطراً ولا مورداً.

ولما قَدَّر الله ما قدَّر في الملك العزيز رحمة الله عليه، وتحيَّاته مكرَّرة إليه، من انقضاء مَهَلِهِ، وحضور أَجَلِهِ، كانت بديهة المُصَاب عظيمة، وطالعةُ المكروه أليمة، فَرَحِمَ الله ذل الوجه ونضَّره، ثم السَّبيل إلى الجَنَّة يَسَّره: [الكامل]

وإذا محاسنُ أَوْجُهٍ بَلِيَتْ فعفا الثَّرى عن وجهه الحَسَنِ

فأَعْزِزْ على المملوك وعلى الأولياء، بل على قَلْب مولانا ـ لا سَلَبه الله ثوب العَزَاء ـ بسُرْعة مصرعه، وانقلابه إلى مضجعه، ولباسِهِ ثوبَ البِلَى قبل أن يَبْلَى ثوبُ الشَّباب، وَزَفِّهِ إلى التُّراب، وسريرُه محفوفٌ باللَّذَّات والأتراب.

وكانت مُدَّة المَرَض بعد العَوْد من الفيُّوم أسبوعين، وكانت في السَّاعة السَّابعة من ليلة الأحد العشرين من المحرَّم، والمملوك في حال تسطيرها مجموع له بين مرضِ قَلْبٍ وجَسَد، ووجع أطراف وغليل كَبِد، وقد فُجِعَ بهذا المولى والعهد بوالده ـ رحمه الله ـ غير بعيد، والأَسى عليه في كلِّ يوم جديد...

ووصل قبل هذا إلى العماد كتابٌ من الفاضل فيه: وأنا على ما يعلمه من

العُزْلة إلا أنَّها بلا سكون، وفي الزَّاوية المَسْنُونة لأهل العافية إلا أني على مِثْلِ حَدِّ المَتُون، وكيف يعيش العاقل في الزَّمان المجنون؟! ونحن على انتظار البَرْق الشَّامي أن يُمطر، وحاشى ذِمَّة الوعد به أن تُخْفَر. واشتغال سَيِّدنا في هذا الوقت بالدَّرْس والتدريس، والتصوير والتكييف، والتصانيف التي تُصْرف فيها البلاغة أحسن التَّصاريف نعمةٌ عُيِّن شُكْرُها على العلماء، ويختصُّ باللَّذَّة بها سادتهم من الفُقَهاء.

قال العماد: ولما توفي الملك العزيز خَلَّف بنين صغاراً يزيدون على العشرة، وولده الأكبر ناصر الدين محمد قد أنافت سنوه على عشر، وكان إلى أبيه أحب أولاده، يشيمُ من شيمَة مخيله سَدَاده، وقد اختصَّ لديه، ونَصَّ عليه، فاجتمع الأُمراء الصَّلاحية وكبيرهم ومقدَّمُهم فخر الدين أياز سركس، ومنهم أسد الدين سراسُنْقُر، وزين الدِّين قَرَاجه.

وعقدوا الأمر لولده ناصر الدين، ونعتوه بالملك المنصور، وأخذوا له أيمان الجمهور.

قال: وكانت الأسدية في الأيام العزيزية بالنَّاصرية مغمورين، وبالاستيلاء عليهم مقهورين، وكبيرهم سيف الدين يازكوج، وكان عند وفاة العزيز غائباً بأُسوان، فلما بلغه ذلك حَضَرَ، وجمع الأسدية واجتمعوا هم والصَّلاحية ظاهر القاهرة، فقال لهم: نِعْمَ ما رأيتموه من حِفْظ العزيز في ولده، لكنه صغيرُ السِّنِّ، لا يحتمل ثِقَلَ هذا الفنِّ، ولا بُدَّ من كبيرٍ من أهل البيت يُرَبِّيه، ويدير الدَّواوين، ويرتِّب القوانين، وما ها هُنا إلا الملك العادل، وهو الآن في بلاد الشَّرق مشغول، وها هنا مَنْ هو أقرب منه، وهو الملك الأفضل.

فقال الأسدية: هذا هو الرَّأي الرَّاجح. ولم يسع الصَّلاحية مخالفته، فاتفقوا على استدعاء الأفضل من صَرْخَد. فخرج منها ليلة الأربعاء التَّاسع والعشرين من صَفَر، وسلك البريَّة، فوصل إلى القُدْس يوم الخميس، وخرج إليه عسكره، وساروا مَعَه إلى بيت جبريل، ثم أغذَّ السَّيْر. فلما قَرُبَ منهم في تاسع ربيع الأول تلقَّوه، وإلى أعلى مراقي العلاء رقَّوه، وسُرُّوا بقدومه، وجَرَوْا لمرسومه.

قال: وكان النَّاصرية كتبوا إلى رُفَقائهم بالشَّام: إنَّا أحوجنا إلى الوفاق، وتأكيد الميثاق، وقد كُتِبَ إلى نور الدين بالحضور، وضَبْطِ الأمور، وهو عندكم في صَرْخَد، وإنْ وَصَلَ إلينا انتظم أَمْرُه وتمهَّد، فاجْتَهِدُوا في حَصْره وهو في حِصْنه، ولا تسمحوا بفكِّ رَهْنه. ووصل إلى دمشق بعض الكتب يوم الاثنين السَّابع والعشرين من صفر،

فخرج عسكرها إلى صرخد، فوصلوا إلى بُصْرى يوم الأربعاء، فقيل لهم: إنَّ الأفضل أدلج ليلاً، واستصحب نُجُباً[(١)] وخيلاً، فرجعوا إلى دمشق.

وقيل: لما عَبَرَ الأفضل بالبيت المقدَّس وَجَدَ في طريقه نَجَّاباً مسرعاً فاستحضره، واستكشف وِرْدَه وصَدَرَه، فقال: أنا نَجَّابُ فخر الدين أياز سركس، ومعي كُتُبه، إلى من يأنس به ويحبُّه، فتسلَّم منه الكتب، وعاد النَّجَّاب في خدمته، فلما وصل إلى القاهرة احتفل سركس له وأضاف، وقدَّم وغَرِمَ أموالاً، ثم أبصر نجابه واقفاً ببابه، فأخبره الخبر، فاستشعر من ذلك وتضور، فمضى وتبعه عسكره وزين الدين قراجه، فوصلا إلى القُدْس، وسكَنَا به. وعَرَفَ النَّاصِرية جلِيَّة الحال، فأخذوا في الانتقال، وتوهَّم الأفضل من الباقين فقبضهم، وحوى جوهرهم وعَرَضَهم، فتفرَّقت الكلمة المجتمعة، وتوقفت الهِمَمُ المُسْرِعَة، وأمر الأفضل بالخُطْبة لابن العزيز على جميع المنابر، ثم الدُّعاء له في الآخر، ونُقِشَتِ السِّكَّة أيضاً باسم الولد في البلد وغير البلد.

[محاصرة الأفضل لدمشق]

قال: ولما استقرَّ الأفضل بمصر حملوه على قَصْد دمشق وحَصْرِها، وقالوا له: اطلب بلدك الذي منه أُخرجت، وعن المقام فيه أُزعجت، ومالك في مصر ما يكفيك، ودمشق لك بوصية أبيك. وجاءته رُسُل أخيه الظَّاهر من حلب وهداياه، وقال له: انتهز الفُرْصة، فعَمُّنا عنَّا مشغول، وإلى أن يتمَّ من ماردِين مرادُهُ، وينضمَّ إلى بياضه سوادُه، تخرج دمشق عن يده، وتُعْجِلُه اليوم فيها عن غده، وأنا أصل إليك، وأَقْدَمُ عليك بالبنود والجنود، والأساود والأسود. فما زالوا به حتى خَرَجَ بالعسكر، واستناب سيف الدين يازكوج مكانه.

قال: ووصل إلى الملك العادل الأمير سراسُنْقُر أحد الأمراء النَّاصرية المفارقين، فاستحثَّه على مفارقة ماردين. وتواصل من النَّاصرية جماعة بعده، وعندهم من الاستحثاث ما عنده، فحرَّكه القول، وتجرَّد عن العسكر، واستصحب معه الأميرين عز الدين بنَ المقدَّم وبدر الدين دُلْدُرُم، وسَرَى ليلاً لخمسٍ بقين من رجب، وأوصى ولدَه الكامل أن يسير في مضايقة حِصْن ماردين بسيرته، ويقتدي بعزمته.

ووصل إلى دمشق يوم الاثنين حادي عشر شعبان، وأخذ في تحصين البلاد، ووصلت العساكر المِصْرية يوم الخميس، وأحاطت بدمشق ودخَلَها جماعةٌ منهم من باب السَّلامة، بلغوا إلى السوق الكبير، وأعلنوا الفَتْحَ بالتكبير، ولم يتبعهم

(١) النجب: جمع النجيب، وهي الإبل.

أحدٌ على هذا التَّدْبير، فخرجوا من باب الفراديس، وكرُّوا على أعقابهم لمن وقف لهم من الكراديس.

وأما الأفضل فإنَّه وصل إلى الميدان الأخضر، وضرب فيه دِهْليز سُرادقه، وأقدم برواعده وبوارقه، فأشار عليه أمراؤه بالتأخُّر عن تلك المنزلة، وكانت منهم زَلَّة، فنزلوا عند ميدان الحصى، ثم تأخروا إلى مسجد القدم، وامتلأ ذلك الفضاء بمضارب الخِيَم، ففترتِ الصَّدمة الأُولى، وقَصُرَت الصَّدْعة الطُّولى، وخَمَدَ الجمرُ فصار رماداً، واستحالت تلك الأمواج المتلاطمة ثِماداً[1]، ولزموا منازلهم أكثر من ستة أشهر هناك، وتمَّت فوارط عَدِمت الاستدراك، وامتدَّت خيامهم من أقصى داريا إلى الغوطة، وظَنُّوا أنهم آخذون بمِخْنَق دمشق المضغوطة.

وكاتَبَ الملك العادل جماعةً من أُمراء العسكر المِصْري، ففارقوه ودخلوا دمشق، فأكرمهم واحترمهم، منهم طُغْرُل المهراني، وأياز البانياسي، وابن كَهدان، ومِثْقال الخادم، وابن أُخت السُّلطان ابن سعد الدين كُمَشْبَهْ. وكَثُرَ الواصلون القاطعون لمن وراءهم، وأحسن العادِلُ جزاءهم، فتكاثرتِ الأطماع، وتتابعتِ الرؤوس والأتباع.

ووصل الملك الظَّاهر ومعه أخواه الظَّافر والمعِزّ، وجاءهم الملك المجاهد صاحب حمص، وعسكر حماة دون سُلْطانها، وحسام الدين بشارة صاحب بانياس، وهو شيخ الدَّولة وكبيرها، وأمينها وأميرها، وفي حمايته حِصْنا تِبْنين وهُونين ـ وما يزال أَسْرَى من كبراء الفرنج بدين الله عنده مرهونين ـ فرغَّبهم في السَّلامة والسِّلْم، والاحتمال والحِلْم، وأشار على كلٍّ من الجانبين بتجنُّب المجانبة، والتقرُّب بالمقاربة والمراقبة. وجاءهم أيضاً سعد الدين مسعود صاحب صفد، وأخوه نور الدين مودود.

قال: ولما جَبُنوا عن مضايقة الحصار، واصلوا قَطْعَ الأشجار، وكَسْرَ الأنهار، ومَنْعَ كل ما يدخل إلى البلد من نِعْمَةٍ ونِعَم، وغنيمة وغَنَم، حتى رَدُّوا القوافل، وصدُّوا الفروض والنَّوافل.

قال: وكان النَّاصرية المقيمون بالقُدْس قد استولوا عليه، ونظفوا ممن ارتابوا به حواليه، وأخرجوا منه المغاربة، ورجاله وأجناده الرَّاتبة، ومعهم الأمير فارس الدين ميمون صاحب نابُلُس، وعز الدين سامة صاحب كَوْكب وبَيْسان.

ثم وصل الخبر بأنّ سركس ومن معه واصلون إلى دمشق، فتجرَّد من

---

(١) الثماد: الماء القليل.

المحاصرين عسكر إلى طريقهم. وكانوا قد وصلوا إلى طبريَّة، وعبروا منها إلى البِقاع، وتكمّنوا خلال تلك الضِّياع، وسيَّروا إلى بَعْلَبَكَّ ما صَحِبَهُمْ من الأثقال والأحمال ـ وكان صاحبها الأمجد في جانب الملك العادل ـ وتجرَّدوا خيلاً، وقطعوها ليلاً، وتوقّلوا[١] الجبال حتى أشرفوا على دمشق من عَقَبَة[٢] دُمَّر، وقد فاتوا العسكر، فتقوَّى عسكر البلد، فصاروا يبكِّرون ويركبون، ويَقْرُبُون من العسكر المصْري ولا يَرْقُبون. وحَفَرَ المحاصِرون حولهم خَنْدقاً عميقاً، فصار لهم به عن الحصار شُغْلٌ شاغل.

قال: وعلى الجُمْلة فما ظَهَرَ منهم صُنْعٌ إلا في قَطْع الماء، ومَنْع المِيرَة، والمضايقة الكثيرة، وإحراق البساتين، وتخريب الطَّواحين، حتى إذا انحسمت الموادُّ، وفَنِيَتْ في البلد الأَزْواد، اضطرُّوا إلى التَّسليم، واضطربوا على التَّأخير والتَّقديم، فتسلَّط الرَّعيَّة على الملك العادل، وحملوه على التسليم والاستسلام.

فتباينت آراء الملوك المحاصِرين، بما دَبَّره العادل سيف الدين، ولا بُدَّ للكبار من الاحتيال، إذا صَمَّم الصِّغار على الاغتيال، وليس في ذلك بِدْعة، فإنّ الحَرْبَ خِدْعة[٣].

فنفَّذ إلى الظَّاهر في الباطن، وقال له: أنتَ السُّلطان، وحكمك على جميع الأماكن والمواطن، وأنا أسلِّم إليك دمشق، على أنها تكون لك لا لغيرك. فقال الظَّاهر لأخيه الأفضل: قَلِّدْني في الإنعام بدمشق مِنَّة المُتَفَضِّل. فقال له: هذه لا تخلو من أقسام جالباتٍ لأسقام: أُجِلُّك أَنْ تتولاها تولية النَّائب، وإنْ أخذتها دوني فمِنَ النَّوائب. وإن أعطيتني عِوَضاً، مما أعرف لك فيه غَرَضاً، فما لك ما يصلح أنْ تقايض به دمشق، وأنت لا تدَّعي لها العِشْق. فتغيَّر بهذا رأي الظَّاهر، والله المطَّلع على الضَّمائر.

وقيل: أرسلَ العادِلُ، وقال: أُسلم إليكم دمشق بعد سبعة أشهر ـ وتربَّص وتصبَّر ـ فخذوا يميني، وكِلُوني إلى ديني. وظنَّ أنَّهم لا يوافقون، وفي الحَصْرِ

(١) توقّلوا: وَقَل في الجبل يقلُ: صعد، كتوقّل.

(٢) العقبة: طريق في الجبل.

(٣) «الحرب خدعة»، هو من حديث رسول الله ﷺ، وقد روي بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في الجهاد باب ١٥٧، والمناقب باب ٢٥، والاستتابة باب ٦، ومسلم في الجهاد حديث ١٧، ١٨، والزكاة حديث ١٥٣، وأبو داود في الجهاد باب ٩٢، والسنة باب ٢٨، والترمذي في الجهاد باب ٥، وابن ماجه في الجهاد باب ٢٨، وأحمد في المسند ١/ ٨١، ٩٠، ١١٣، ١٢٦، ١٣١، ١٣٤، ٢/ ٣١٢، ٣١٤، ٣/ ٢٢٤، ٢٩٧، ٣٠٨، ٦/ ٣٨٧، ٤٥٩.

يضايقون. فلما أجابوه إلى هذا المُلْتَمس، وقعقعوا في الاستضاءة بهذا القَبَس، عَرَفَ أنهم نادمون، فيما هم عليه من الحَصْرِ قادمون، فعادَ عن هذا البَذْل، ورَدَّهم إلى سَنَنِ العَدْلِ.

وقيل: كان يكتب إلى الأفضل: إنّ الأمر انفصل مع الظّاهر، وإنه يعاملك معاملة المُسِرّ لا المجاهر، فَخُذْ لنفسك، وأَبْدِلْ معي وَحْشَتَك بأُنسك. ويكتب أيضاً إلى الظّاهر: إنَّ الأفضل قد صالحني، وعلى الرِّضا صافحني، وإنك تحصل على المضاغنة، وستفضي بك المباينة إلى المعاينة.

وقيل: إنَّه كان يكتب في كلِّ يوم أجوبةَ كُتُبِ قومٍ لم يكاتبوه، ويجيبهم عما فيه لم يخاطبوه، وخُبِزَتْ تلك الملطَّفات في عجين، ثم تُفَرَّق على من يقصد العسكر من المساكين، فإذا فُتِّشوا عُثِرَ على تلك الملطَّفات، فَبُغِتَ من كُتِبَ إليه ولا عِلْمَ له بالآفات، وعُدُّوا من المخامرين، فصار أكثر العَسْكر من المتَّهمين.

[مسير الكامل إلى أبيه العادل نجدة له]

ثم دخلت سنةُ ستٍّ وتسعين(١)

وهم على ذلك، والشِّتاء قد هَجَمَ، وكلٌّ بأمره مهتمّ. ودَهمهُمْ أيضاً خبرُ وصول الملك الكامل من الشَّرْق، وخرج من دمشق جماعةٌ يظهرون أَنَّهم من النَّاصحين، وتردَّدوا إليهم ومنهم غادين ورائحين، وأبرقوا وأرعدوا، وقالوا: غداً يكون قدوم الملك الكامل، في الجَحْفلِ الحافل، ومعه من المال الصَّامت إلى أبيه العادل، فيستظهر بولده والمال والرِّجال، فلا يقعد عن النُّهوض إلى القتال، والصَّواب أن نتأَخَّر قليلاً.

فرحلوا إلى سَفْح جبل العَقَبة، وبقيت أسواقهم مملوءة، وباتوا تلك الليلة وهم لكل ما يحتاج إليه عادمون، وعلى ما فَرَطَ منهم نادمون، وفقدوا حتى الماء للشُّرْب، وكانت تلك الحالة كسرةً قبل الحرب، فاضطربوا للمحل المحيل، واضطرُّوا إلى راحة الرَّحيل.

ووصل الكامل تاسع عشر صَفَر، وقد جمع التركمان، واستصحب جُنْدَ الرُّها وحَرَّان، ونزل في جوسق أبيه، فاستبشر السُّلْطان برحيلهم وقدوم ابنه، وقضت خشيةُ الله بأمنه. وأقام الكامل حتى توجَّه أبوه إلى مِصْر، فخرج معه أياماً، ثم عاد ولم يُؤثر مقاماً، وانتقل إلى حَرَّان والرُّها، واستقام به أمرها، وذلك حادي عشر ربيع الأول.

(١) وخمسمائة.

وأما المحاصرون فإنهم انتقلوا من الكُسْوة إلى مَرْج الصُّفَّر، وسيَّر الملكان الظَّاهر والمجاهد بعض الأثقال إلى بانياس، وأصحبا بقية أحمال الملك الأفضل إلى مِصْر، وودَّعاه، وكلاهما سار جريدة[1] إلى مَقَرِّه، واستمرَّ بعد ذلك على إمرار أمره.

وكلما رحل القوم عن منزلٍ أحرقوا ما لم يظفروا له بِمَحْمِل، واستقلُّوا[2] من مَرْج الصُّفَّر ولم يلووا على أحد، ولم يعرِّجوا على بلد.

وأخذوا في السَّيْر والسُّرى، وذهبت آسادهم ترومُ معاودةَ الشَّرَى، وتبعهم الصَّلاحية ينزلون بعدهم في منازلهم، ويَخْلُفونهم في مناهلهم. وكان القوم ظنُّوا أنهم يقدرون بمرج الصُّفَّر على الإقامة، فلقوا من البرد ما حضَّهم على النَّجاة والسَّلامة، وهذا المرجُ بقُرْب جبل الثَّلْج في تموز لا يقيم به إلا لابس فَرْوة، فكيف في كانون، وقد عرفوا أَنَّهم الجانون، حيث لم يلزموا القانون.

وأرسلت الصَّلاحية إلى الملك العادل يستعجلونه ويحثُّونه ولا يمهلونه، فخرج يوم الخميس تاسع ربيع الأول، وودَّع أعيان البلد، وسار وتلا منْ تقدَّمه إلى تل العجول، وأقام حتى اجتمع أتباعه، وأرسل إلى الأفضل العَدْلَ النَّجيب أبا محمد، وكان صلاح الدين ـ رحمه الله ـ يعتقد في صلاح دِينه، ويمكنه من خواصِّ حاجاته، ويُرْسلُه في مهام الرَّسائل، وكان مدلول الرِّسالة: ارفق في السَّيْر، ووافقْ على الخير، فما عندك اليوم من يَصْدُقُك، وأنا لك كالوالد، وأبلغك مقصودك، وأحالفك ولا أخالفك، وأوافقك ولا أفارقك.

فأشار على الأفضل جماعتُهُ بأن يَرُدَّ جواب الرِّسالة: إنَّ مقاربتي لك بمباعدتك للصَّلاحية منوطة، وموافقتي بمخالفتهم مشروطة.

فلما سَمِعَ ذلك الصَّلاحية استشاطوا ونفروا، واستدلوا به على أنَّهم ظفروا، وجَدَّ جِدُّهم واحتدَّ حدُّهم فطووا المراحل إلى السَّانح. وكان الأفضل على بِلْبِيس وقد تفرَّق مُعْظم أصحابه إلى أخبازهم، وجماعة منهم مع العادل في الباطن كاتبوه، وعلى الإبطاء عاتبوه.

فسار الجمعان بعضُهم إلى بعض، والتقوا، فانكسر أصحابُ الأفضل وانهزموا، فدخلوا القاهرة، وأغلقوا الأبواب للمحاصرة، وانتهى إلى الأفضل أَنَّ جماعةً منهم أرسلوا إلى العادل في إصلاح أحوالهم، وإنجاح آمالهم، فقال سيف

---

(١) الجريدة: خيل لا رجّالة فيها.

(٢) استقلّوا: ارتحلوا.

الدين يازكوج للأفضل: لكل زمانٍ عمل، ولكل أوان أمل، فأصلح الأمر كيف تهيَّا، فلا مَلام على اللَّبيب بأيِّ زِيٍّ تَزَيَّا، فشرع الأفضلُ في إصلاح الأمر مع عَمِّه، وراسله على أن يكون بحكمه، ثم سلَّم الأمر ومَرَّ سالماً، وحصل له من التجربة ما عاد به للعواقب عالماً.

قال: وخيَّم العادِلُ بالبركة، واستبدَّ بملك مِصْر آمناً من الشِّرْكة، ونفَّذ المُقْطَعين إلى إقطاعهم، ونظر للصَّلاحية في صلاح ضِياعهم، وأرسل إلى الأفضل: إنْ وافقتني على ما أُعطيك وقَبِلْتَ سَعِدْتَ، فهؤلاء الذين عندك ما منهم إلّا مَنْ كَتَبَ إليَّ وتقرَّب، وانتظر يومي وترقَّب، وهذه إضبارةُ كُتُبهم فتأمَّلْها، وإن لم تُصَدِّقْني فَسَلْها. واعلم أنّهم غرُّوك وضَرُّوك، وساؤوك بما سَرُّوك.

وقيل: لم يبق من الأمراء من لم يكتب إليه ولم يخامر إلا أربعة، أخلصهم سيف الدين يازكوج. فلما عَرَفَ الأفضل صِدْق عمِّه سَلَّم المسألة، وسأل المَعْدَلَة. فقرَّر للأفضل في ديار بكر مَيَّافارِقين وأعمالها، وجبل جُور، وحاني، وجُملين، والمعاقل والحصون المحسوبة من ميّافارقين، فرضي بها مُكْرهاً، وخَرَجَ إلى الشام متوجِّهاً ليلة السبت سابع عشر ربيع الآخر في الليلة التي دخل العادل في بُكْرتها القاهرة، فاستقرَّ بدار السَّلْطنة، وقدَّم سيف الدين يازكوج وحكَّمه، واستبقى رضا النَّاصرية بإبقاء الخُطْبة لابن العزيز، ولم ينافسهم مع حصول المعنى له في التفضيل والتَّمييز، وأقام وهو كل يوم في ارتفاع وسيادة، وقوته في نموٍّ وزيادة.

قال: ورَدَّ القضاء إلى القاضي صدر الدين عبد الملك بن دِرْباس الكُرْدي[١]، ولم يزل قاضي القضاة بالدِّيار المِصْرية من الأيام النَّاصرية، وكان نائبه القاضي زين الدين علي بن يوسف الدِّمَشْقي[٢]. وتعصَّب الأُمراء المتغلِّبون على الملك العزيز في مراتبه بصرف صَدْر الدين وتولية نائبه.

ولم يزل صدر الدين مصروفاً، تارة بمحيي الدين بن أبي عصرون، وتارةً بزين الدِّين، حتَّى تعصَّب العادِلُ له، وبعث العزيز على رَدِّه. فلما انقضت أيام العزيز وجاء الأفضل كان أول ما حُمِلَ عليه أَنَّ صدر الدين يُعْزل، وتولِّي زين الدين القضاء.

---

(١) هو عبد الملك بن عيسى بن درباس الكردي، صدر الدين، ولد بالموصل سنة ٥١٦هـ، سمع من ابن عساكر الدمشقي، توفي سنة ٦٠٥هـ (التكملة للمنذري ٢/ ١٥٦، الذيل على الروضتين وفيات سنة ٦٠٥هـ، سير أعلام النبلاء ٢١/ ٤٧٤ ـ ٤٧٥).

(٢) ولد سنة ٥٥٠هـ، وتوفي سنة ٦٢٢هـ (انظر ترجمته في التكملة للمنذري ٣/ ١٤٩ ـ ١٥٠، سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٢٩٦ ـ ٢٩٧، طبقات الشافعية للإسنوي ١/ ٥٤١، الوافي بالوفيات ٢٢/ ٣٣٥ ـ ٣٣٦، النجوم الزاهرة ٦/ ٢٦٣، شذرات الذهب ٥/ ١٠١).

فلما جاءت نوبة العادل في هذه السَّنة رَدَّ صدر الدين إلى منصبه، ورَدَّ التدريس بالمدرسة الشَّافعية في التُّربة المقدَّسة، وبالمشهد الشريف الحُسيني الذي أُجري عليه حكم المدرسة إلى شيخ الشُّيوخ صدر الدين ابن حمُّويه(١). وكتب إليه وهو بدمشق، فاستدعاه، وقد كان قبل ذلك ولَّاه في ممالكه الجزريَّة أمور المناصب الشَّرعية، والأمور الدِّينية، ومدارس الشَّافعية، ورُبُط(٢) الصُّوفية، وهو قاضي قضاتها، ووالي هُداتها، وهادي ولاتها، وله في مناصبه نُوَّاب، وفي مراتبه أصحاب.

قال: ولما دخل العادل القاهرة استشعر أصحابُ الدَّواوين مهابة الوزير صفي الدين بن شُكْر(٣) الظاهرة، ونزل في الدار السُّلطانية في الحُجْرة الفاضلية، وتصدَّر في مكان مكانته، وشَهَرَ من قلمه عَضْبَ شهامته، وسيف صرامته، وقمع المتجبِّرين، ووَضَعَ المتكبِّرين، وأخذ قوس الوِزارة باريها، وأجرى الله الأمور أحسن مجاريها.

قال: ونَدَبَ العادلُ من الأسدية والصَّلاحية أميرين كبيرين إلى الشَّام، لإصلاح ذات البين بحمص وحماة وحلب وغيرهما، وهما سراسُنْقُر وكرجي.

قال: ولما ودَّع الأفضل عمَّه بالبركة سار إلى صَرْخَدْ، وأقام بها، ونَدَبَ إلى البلاد التي بديار بكر من يتسلَّمُها، ووصل إلى ميَّافارقين، ولما انفصل عن مِصْر وَجَدَ المُواصلين له لصحبته مفارقين، وكذا الدُّنيا ما تقبلُ على أحد ولا تُمِدُّه بمدد إلا تواردت على حياضه الجموع، وتزاحم في رياضه الرُّبوع، فإذا صَرَفَتْ عنه وجوهَها صَرَفَ أهلُها عنه الوجوه، وأحلُّوا به فيها مكروه المكروه.

قال: وأما الظَّافر فإن عَمَّه أحسن إليه، ووعده بعطاء جزيل، وودَّعه بثناءٍ جميل، وأقطعه بأعمال دمشق حزرما وضياع السَّواد، وشقَّ عليه أنَّه لا يجد ما يجود به وهو من الأجواد. ووصل إلى دمشق رابع جُمادى الآخرة، وسكن في

(١) هو محمد بن عمر بن علي بن محمد بن حموية الجويني، صدر الدين الشافعي الصوفي المعروف بابن حموية، توفي بالموصل سنة ٦١٧هـ، له من الكتب: «سلوة الطالبين» في التصوف (كشف الظنون ٦/ ١١٠، الذيل على الروضتين وفيات سنة ٦١٧هـ).

(٢) الرُّبُط: جمع الرباط، وهو ملجأ الفقراء من الصوفية. وقال القلقشندي في صبح الأعشى ٣/ ٤١٧: وأما الخوانق والربط فمما لم يعهد بالديار المصرية قبل الدولة الأيوبية، وكان المبتكر لها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله، فابتنى الخانقاه الصلاحية، المعروفة بسعيد السعداء...

(٣) صفي الدين بن شكر: هو صفي الدين عبد الله بن علي بن عبد الخالق بن شكر، أبو محمد، ولد سنة ٥٤٠هـ، وتوفي بمصر في شعبان سنة ٦٢٢هـ (الذيل على الروضتين وفيات سنة ٦٢٢هـ).

جوسق[١] بُسْتانه بالنَّيْرب. وسَلَكَ طريقة الاحتراز والاحتراس، واختار البُعْد عن مقاربة النَّاس، ولزم السَّكينة، ولم يدخل المدينة، وطلب من القاضي بجامع النَّيْرب خطيباً شافعياً، ليكون بالصَّلاة فيه عن حضور الجامع بالبلد غنيّاً، واحتاط غاية الاحتياط، وطوى بساط النَّشاط.

فصل

[نيابة الكامل مصر عن أبيه العادل]

قال العماد: واستدعى العادلُ ابنه الكاملَ إلى مِصْر ليستنيبه فيها وكان بحرّان، وهو في تلك البلاد نائب السُّلْطان، فسلَّم تلك الولاية إلى أخيه الفائز، ووصل إلى دمشق سادس عشر شعبان، ونزل بجوسق[٢] أبيه في بُسْتانه، ومعه شمس الدين المعروف بقاضي دارا وهو وزيره، ومستحِثُّه على المكارم ومشيره.

قال: وخدمته بكلمةٍ، أوَّلُها: [البسيط]

أنتم تحبُّون بالإعراض تعذيبي ... وتَقْصِدُون بِخُلْقِ الصَدِّ تهذيبي
ساروا فيا صحَّتي من مُهْجَتي ارتحلي ... غابوا فيا سِنَتي عن مُقْلَتي غيبي
قد كاد يَهْضِمُني دَهْري فأدركني ... محمدُ بنُ أبي بكرِ بن أيوبِ
الكاملُ المالكُ الأملاكِ حيثُ له ... رِقُّ الأعاجم منهم والأعاريبِ
مُعَطَّرٌ عَرْفُه عُرْفاً ومَكْرُمَةً ... مخمَّرٌ طِينَتُهُ بالطُّهْرِ والطِّيبِ[٣]
لا يَدَّعي جُودَه البَحْرُ الخِضَمُّ ولا ... يُلْفَى تأبِّيه في الشُّمِّ الشَّناخيبِ[٤]
دَعَتْكَ مِصْرُ إلى سُلْطانها فأَجِبْ ... دُعاءها فهو حَقٌّ غيرُ مكذوبِ

قال: وعزمتُ على صحبته في هذه السَّفرة إلى مصر، فخرج في الثَّالث والعشرين من شعبان إلى الكُسْوة، وخرج سُلْطان دمشق الملك المُعَظَّم ليودِّع سُلْطان مصر أخاه الكامل، وصَحِبَهُ إلى رأس الماء، مع عِدَّة من الأمراء، ثم ودَّعه وانصرف، وتشوَّش مِزَاج الكامل بعده وانحرف.

ووصل إلى العَبَّاسة في الحادي والعشرين من رمضان، والتقاه والده

(١) الجوسق: هو الحصن، معرّب وأصله «كوشك» بالفارسية، والجوسق هو القصر أيضاً.
(٢) الجوسق: القصر، انظر الحاشية السابقة.
(٣) العَرْف، بفتح العين: الرائحة الطيبة. والعُرْف، بضم العين: المعروف.
(٤) الشناخيب: جمع الشنخوب: وهو رأس الجبل وأعلاه.

العادل، وأنزله بالقصر، ثم ركب إليه بعد يومين، واستصحبه إلى الدَّار، ورتَّبَ أحواله على الإيثار. وكان قد عَقَدَ له على ابنة عمه الملك النَّاصر[١] ـ رحمه الله ـ فأدخله إليها، ليبني عليها.

[عزل العادل الملك المنصور بن العزيز عن مصر]

قال: وأصبح العادل يوم الاثنين سابع عشر شَوَّال، وركب بالسَّنْجق السُّلْطاني، والمركب الخُسْرُواني، والسيوف المسلولة، والعقود المحلولة، وأمر الخطيبين بجامعي مِصْر والقاهرة بالخُطْبة له ولولده الكامل من بعده، وليس بعد دعاء الخليفة إلا الدُّعاءُ لهما، وانقطعت الخُطْبة لابن العزيز.

وكان أحضر جماعةً من الفُقَهاء والقُضَاة والكبراء والولاة، وقال لهم قَوْلَ المستفتي المُستشير: هل تَصِحُّ ولاية الصَّغير؟ فقالوا: هذا مولًى عليه فلا يلي، وغيابات الحوادث بنظره لا تنجابُ ولا تنجلي.

فقال: فهل يجوزُ للمولّى الكبير أن ينوب عنه إلى أن يكبر، ويرتِّب الأمور بحكم النِّيابة ويدبِّر؟ فقالوا: إذا كانت الولاية غير صحيحة فلا تَصِحُّ النِّيابة، ومن رآه صواباً أخطأ به الإصابة، لا سيَّما في السَّلطنة التي هي خلافة الخليقة، فلا حَقَّ فيه إلا للكبير الذي يُعَيَّنُ على الحقيقة.

وجرى منهم في هذا المعنى الإمعان، فلما عَرَفَ الشَّرْع، أَحضر الأُمراء، والتمس منهم الطَّاعة والسَّمْع، وخاطبهم في اليمين له والميثاق، وألزمهم له بالوفاء والوفاق، فأَبَوْا، فخاطبهم بما راعهم، وملأ بالتقريع أسماعهم، ثم قال: قد عَلِمْتم ما هو الواجب من التظافر على حِفْظ ثغور الإسلام، وتدبير الممالك بمصر والشَّام، وما هذا أمرٌ يناط بالصِّبيان، أو يُحاط بغير ذي القُدْرة والسُّلطان: فأذعنوا وأطاعوا، وحصل الائتلاف، ورُفِعَ الخلاف.

قال: ولما أصبحنا يوم السبت شاهدنا الملك الكامل قد ركب مثل والده، معقوداً سَنْجَقُه[٢] بمعاقده، والمناصل مجذوبة، والصَّواهل مجنوبة، والأعين ناظرة، والألسن ذاكرة. ومشى في ركابه من إليه تحبَّبَ، وإلى السُّلْطان تقرَّب.

قال: وركب يوم الخميس السابع والعشرين من شوال إلى بُرْج المَقْسِم،

(١) هي مؤنسة خاتون بنت يوسف بن أيوب، ولم يكن له من الإناث سواها (شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص٢٧١).
(٢) السنجق: الراية، تقدّم التعريف به أكثر من مرة.

والمَقْسِمُ موضعٌ على شاطئ النِّيل يزار، وهُناك مسجدٌ يتبرَّك به الأبرار، وهو المكان الذي قسمت فيه الغنيمة عند استيلاء الصَّحابة ـ رضي الله عنهم ـ على مِصْر.

ولما أمر صلاح الدين ـ رحمه الله ـ بإدارة السُّور على مِصْر والقاهرة، وتولاها الأمير قَرَاقُوش[1] جعل نهايته التي تلي القاهرة عند المَقْسِم، وبنى فيه بُرْجاً هو مشرفٌ على النيل ذو شُرَفات، ومعقل ذو طبقات، وثيق البناء، رفيع الفناء، وبنى مسجده جامعاً، واتصلت العمارة منه إلى البلد، متتابعة المدد، وهو مُتَنَزَّه، عن الأكدار والأقذار منزَّه، وبالجنَّات مُشَبَّه، وإلى البحر والبر بمناظرة الشبابيك موجَّه، فاختار الكامل أن يجلس فيه يوماً للتفرُّج، فجلس في الطَّبقة العليا، واجتمع الأُمراء والأعيان في الطَّبقة الدُّنيا، ثم مُدَّ السِّماط في الجامع، ثم ذكر العماد أنَّه مدحه بكلمة، أولها: [مجزوء الخفيف]

مُغْرَمُ القَلْبِ مُذْنَفُ وَجْدُهُ ليس يوصفُ
وعدونا وأخلفوا ووفينا ولم يفوا

قال: وفي الحادي والعشرين من شَوَّال قَدِمَ فلك الدين أخو العادل من دمشق.

قلت: هو أخوه لأُمه، واسمه أبو منصور سليمان بن شروه بن جلدك[2]، وإليه تنسب المدرسة الفَلَكية بنواحي باب الفراديس بدمشق، وبها قبره.

---

(١) هو الطواشي بهاء الدين قراقوش الأسدي الرومي، ترجم له أبو شامة في الذيل على الروضتين، وفيات سنة ٥٩٧هـ.
وقال القلقشندي في صبح الأعشى ٣/ ٣٩٩: لما ملك السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الديار المصرية انتدب لعمارة سور القاهرة ومصر سنة تسع وستين وخمسمائة الطواشي بهاء الدين قراقوش الأسدي الرومي، على كثرة من أسرى الفرنج عندهم يومئذٍ، بنى سوراً دائراً عليها وعلى قلعة الجبل والفسطاط، ولم يزل البناء حتى توفي السلطان صلاح الدين رحمه الله، وهو الموجود الآن... وقياس هذا السور من أوّله إلى آخره تسعة وعشرون ألف ذراع وثلثمائة وذراعان بالهاشمي.
وجاء في الخطط التوفيقية: ... وفي سنة ٥٦٦هـ في زمن صلاح الدين شرع في عمل سور واحد يحيط بالقاهرة ومصر والقلعة وبناه من الحجارة وجعل خلفه خندقاً، ومات قبل أن يكمل، وكان طول ما بناه نحو اثنين وعشرين ألف متر، وبقي الأمر على ذلك إلى سنة ١٢١٣هـ، عند استيلاء الفرنساوية على الديار المصرية فقاسوا المدينة فوجدوه أربعة وعشرين ألف متر، وبه أحد وسبعون باباً، منها ما هو داخل البلد في السور القديم، ومنها ما هو في السور المحيط بها. (الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ١/ ٢٠٦).

(٢) هو سليمان بن شيرويه بن جندر، علم الدين (كذا سماه في الذيل على الروضتين) توفي في التاسع والعشرين من المحرم سنة ٥٩٩هـ (الذيل على الروضتين وفيات سنة ٥٩٩هـ).

قال العماد: وفي هذا اليوم خُطِبَ للعادل ولابنه الكامل، والعادل في مهامِّه يستشيره ويستدعيه، والمرء كثيرٌ بأخيه. ثم عاد إلى دمشق بعد شهور.

قال: وفي العشرين من الشهر خرج حاجُّ مِصْر إلى البِرْكة، وأمَّر عليهم نصير الدين الخَضِر بن بَهْرَام، وكان والي المَحَلَّة، وهو مستمرّ الولاية من الأيام الصَّلاحية، وحَجَّ معه من معروفي الأجناد وأمرائها عِدَّة. وكذلك حَجَّ في هذه السنة حاجُّ دمشق، وصحبهم الأمير عز الدين سامة. وكانت السنة مباركة، والنِّعَم متداركة، والخير عام، والخِصْب تام.

قال: وانتظرنا زيادةَ بحر النِّيل في أوقاتها، فبلغ إلى إحدى وعشرين أصبعاً من ثلاث عشرة ذراعاً، فعاد بذلك كلُّ قلب مرتاعاً، ثم أخذ في النَّقْص، وهو مرجوُّ الزِّيادة، مأمول الوفاء على العادة، فَقَنَطَ النَّاس، ووقع الياس، واشتدَّ المَحْل، وغلا السِّعْر، ويئس الفلَّاحون من الفَلاح، فأجفلوا من البلاد للانتزاح، وطاروا بأجنحة النَّجَاء في طلب النَّجاح.

وقيل: إنَّ هذا النقص لم يُعهد من عهد الصَّحابة، وشرعنا في الاستغفار والإنابة، وصام النَّاسُ ثلاثة أيام قبل يوم التروية، وكأنَّما أصابتهم مصيبة فهم في التَّعْزية، ثم استسقوا ثلاثة أيام إلى العيد، وأفاض الخطيبُ في ذكر الوعيد، وغَصَّت بالخلائق الأمكنة، وضَجَّت بالأدعية والضَّراعات الألسنة.

قال: وفي السنة التي قبلها وهي سنةُ خمسٍ وتسعين استُدْعيَ القاضي ضياء الدين أبو الفضائل القاسم بن يحيى بن عبد الله الشَّهْرُزُوري(١) إلى بغداد، وولي قضاء القُضاة، وكان يتولى القضاء بالمَوْصل، فخرج في أواخر شعبان، فلما وصل بغداد بُجِّل وعُظِّم، وكان قد تردَّد إلى بغداد دفعات في الأيام الصَّلاحية بسبب الرِّسالة، فهو كان المُعَيَّن لها كما تقدم ذكره.

فصل

في وفاة جماعةٍ من الأعيان في هذه السنة أعني سنة ستٍّ وتسعين

[وفاة صارم الدين قايماز النجمي]

قال العماد: وفيها ثالث عشر جُمادى الأُولى توفي في داره بدمشق الأمير

(١) ولد سنة ٥٣٤هـ، وتوفي سنة ٥٩٩هـ (الذيل على الروضتين وفيات سنة ٥٩٩هـ).

صارم الدين قايماز النَّجمي[١]، وكان متولي أسباب صلاح الدين ـ رحمه الله ـ في مخيَّمه وبيوته، يعمل عمل أستاذ الدَّار[٢]، وإذا فَتَحَ بلداً سلَّمه إليه، واستأمنه عليه، فيكون أول من افتضَّ عُذْرَتَه، وشام دِيمَتَه، وحصل له من بلد آمد عند فَتْحِهِ، ومن ديار مِصْر عند موت عاضدها أموالٌ عظيمة، وتصدَّق في يوم واحد بسبعة آلاف دينار مِصْرية عيناً، وأظهر أنَّه قضى من حقوق الله في ذِمَّته دَيْناً.

وهو بالعُرْف معروف، وبالخير موصوف، يحبُّ اقتناء المفاخر ببناء الرُّبُط والقناطر، ومن جُمْلتها رباط خِسْفين، ورباط نوى، وله مدرسةٌ مجاورةٌ دارَه. ولما كفى الله دمشق الحَصْر، نهضَ وراء العادل إلى مِصْر، فردَّه إلى دمشق ليُلازم خدمة الملك المعظَّم ولدِه، ويكون من أقوى عُدَده، وأوقى عَدَده. وكان في خُلُقه زَعَارة، وكأنَّ حصافته مستعارة.

قال: ولما دُفِنَ نُبشت أمواله، وفُتِّشت رحاله، وحَضَرَ أُمناء القاضي، وضمناء الوالي، وأخرجوا خبايا الزَّوايا، وسموط النُّقود وخطوط النُّسايا. وغيروا رسوم المنزل ومعالمه، واستنبطوا دنانيره ودراهمه، وحفروا أماكن في الدَّار، وبِرْكة الحمَّام في الجِوَار، فحملوا أوقاراً من النُّضار، وظهروا على الكنوز المخفيَّة، والدَّفائن الألفية، فقيل: زادت على مائة ألف دينار، وهو قليل في جَنْب ما يحرز به من كذا وكذا قنطار.

واستقلَّ ما طواه الخَزْنُ، وأخفاه الدَّفْن. وقيل: كان يكنز في صحارى ضِياعه، ومغارات إقطاعه.

قلت: واتهم بعده جماعة بأنَّ له عندهم ودائع، وتأذَّى بذلك المتأبي منهم والطَّائع. وداره بدمشق هي التي بناها الملك الأشرف أبو الفتح موسى بن العادل داراً للحديث في سنة ثلاثين وستِّمائة، وأخرب الحَمَّام الذي كان مجاوراً لها، وأدخله في رَبْعها، وذلك في جوار قلعة دمشق، بينهما الخندق والطريق، وثَمَّ مدرسته المعروفة بالقَيْمازية.

[وفاة حسام الدين لؤلؤ]

قال العماد: وفي جُمَادى الآخرة من هذه السَّنة توفي ـ يعني بمصر ـ

(١) ذكره ابن الأثير الجزري في «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤. في وفيات سنة ٥٩٥هـ. وانظر أيضاً البداية والنهاية ١٣/ ١٩.

(٢) أستاذ الدار: هو لقب على الذي يتولى قبض مال السلطان أو الأمير وصرفه، وتمتثل أوامره فيه، وهو مركب من لفظتين فارسيتين، إحداهما: إستذ، ومعناه الأخذ، والثانية: دار، ومعناها الممسك، ومعنى أستاذ الدار: المتولي للأخذ (صبح الأعشى ٥/ ٤٢٩).

الحاجب لؤلؤ[١]، وكان في الأيام الصَّلاحية أشجع الشجعان، وأفرس الفُرْسان، وله مقاماتٌ في الغَزَاة، ومواقف مع العُدَاة، وهو الذي نهض وراء مراكب الفرنج النَّاهضة في بحر أَيْلَة إلى بَرِّ الحجاز، وأتى في كَسْرهم وأَسْرهم بالإعجاب والإعجاز، وكانوا قطعوا الطَّريق في بحر عَيْذاب على التُّجَّار، وحصلت أموالُهم تحت الاستيلاء بعد حصولهم، تحت الإسار، فأنقذ واستنقذ، وما نزل حتى أخذ، وساق إلى القاهرة أولئك الكُفَّار مقهورين، واعتقلهم به مأسورين.

قلتُ: وفيه يقول الرَّضي بن أبي حصينة المِصْري[٢] يخاطب الفرنج: [البسيط]

عَدوُّكم لؤلؤ والبحر مَسْكَنُهُ والدُّرُّ في البحر لا يَخْشَى من الغِيَرِ
فَأْمُرْ حُسَامك أنْ يحظى بنحرهمُ فالدُّرُّ مُذْ كان منسوبٌ إلى النُّحُرِ

وقد قيل فيه أشعار كثيرة تقدَّم بعضها في أخبار سنة ثمانٍ وسبعين.

قال العماد: ومن دلائل سماحه ما شاهَدْتُهُ بالقاهرة في سنة إحدى وتسعين من مبرَّاته الظَّاهرة، أنه لما حطَّ القَحْطُ رَحْلَه، ووصل المَحْلُ مَحَلَّه، وتمَّ الغلاء، وعمَّ البلاء، ابتكر هذا الحاجب الكبير مَكْرُمةً لم يُسْبق إليها؛ وذلك أنَّه كان يَخْبِزُ كلَّ ليلةٍ اثني عشر ألف رغيف، فإذا أصبح جلس على باب الموضع الذي فيه حُشِرَ الفُقَراء، ثم يفتح من الباب مقدار ما يخرج منه واحد بعد واحد، ويعلم أنه غير عائد، فيتناول كلٌّ منهم قُرْصَة، ويرى ذلك من خيراته فُرْصة، فما يزال قاعداً حتى يفرِّقَ الألوف على الألوف.

وكان هذا دأبه في هذا الغلاء حتى هَبَّ رخاءُ الرَّخاء، فحينئذٍ تنوَّعت صدقاتُهُ، واستغرقت بالصِّلات أوقاته.

وكان بهيَّ الشَّيْب، نقيَّ الجيب، قد جعل الله البركة في عمره، وخصَّه مُدَّة حياته بإمرار أمره، فأنجده في أوان ضعفه بتضعيف بِرِّه، ولا شكَّ أنَّه من الأولياء الأبدال، والصَّالحين الصَّالحي الأعمال.

[وفاة شهاب الدين الطوسي]

قال: وفي يوم السبت الحادي والعشرين من ذي القَعْدة وأنا بالدِّيار المِصْرية

(١) الحاجب لؤلؤ: أحد الحجاب بالديار المصرية. كان من أكابر الأمراء في أيام صلاح الدين، وهو الذي كان متسلم الأسطول في البحر. انظر البداية والنهاية ١٣/ ٢١.

(٢) هو يحيى بن سالم القاضي، توفي بعد سنة ٥٨٠هـ (فوات الوفيات ٤/ ٢٧٢ ـ ٢٧٥). وليس هو الحسن بن عبد الله بن أحمد. المعروف بابن أبي حصينة المتوفى سنة ٤٥٧هـ.

توفي الفقيه الكبير شهاب الدين الطُّوسي[١]، وهو أكبر الأئمة الشَّافعية ورئيسها، وإليه فُتْياها وتدريسها، وهو من أصحاب محمد بن يحيى[٢]، وكم واجه الملوكَ بالحقِّ المرِّ، وأنكر عليهم ما ينكرونه من العُرْف، ويعرفونه من النُّكْر، ولما وصل إلى مِصْر كان تقيُّ الدين عمر بن شاهِنْشاه بن أيوب متولِّيها، فأعجبه سَمْتُ المذكور، فولاه مدرسته بمصر وهي المعروفة بمنازل العز، فوليها، وأقام فيها مفيداً حتى فاز في جَنَّة النَّعيم بفوزه، وخَلَتْ منازل العِز من منازل عِزِّه، وأصبح النَّاس حول سريره[٣] مزدحمين، وعليه متوجعين، فوصلوا به إلى القَرَافة، مكان الرحمة والرَّأفة، وهناك الأصاغر والأكابر من الملوك والأمراء مشاة، وجِنازته بما فيه من لباس التَّقوى مُغَشَّاة، ولما نفضوا أيديهم من تُرَابه انفضُّوا من أيادي بركته متربين، وبنار اللهف والتلهُّب عليه مضطرمين مضطربين.

ونمى الخبرُ إلى حماة، وعرف ابن تقي الدين، فولَّى قاضي دمشق محيي الدين بن الزكي بمصر وقوف أبيه، وسيَّر نائبه لتسلُّم ذلك وتوليه. وكان اتفق حضوره عنده في الرِّسالة، فاهتدى برشده إلى الضَّلالة.

[وفاة بدر الدين عسكر]

قال: وفي العشرين من جُمادى الآخرة توفي الفقيه العالم بدر الدين بن عسكر[٤] رئيس الحنفية بدمشق.

---

(١) شهاب الدين الطوسي: هو محمد بن محمود بن محمد الطوسي. شهاب الدين الفقيه، توفي في الحادي والعشرين من ذي القعدة سنة ٥٩٦هـ. (الذيل على الروضتين وفيات سنة ٥٩٦هـ، مرآة الزمان ٨/ ٣٠٧، التكملة للمنذري ١/ ٣٦٤ ـ ٣٦٥، سير أعلام النبلاء ٢١/ ٣٨٧ ـ ٣٨٩، العبر للذهبي ٤/ ٢٩٤، الوافي بالوفيات ٥/ ٩، طبقات الشافعية للسبكي ٦/ ٣٩٦، النجوم الزاهرة ٦/ ١٥٩، حسن المحاضر ١/ ٤٠٧، شذرات الذهب ٤/ ٣٢٧ البداية والنهاية ١٣/ ٢١).

(٢) هو محيي الدين محمد بن يحيى بن أبي منصور النيسابوري، أبو سعيد الشافعي البغدادي، صاحب الغزالي وتلميذه، انتهت إليه رياسة المذهب بنيسابور، ولد سنة ٤٧٦هـ، وقتل في رمضان سنة ٥٤٨هـ. قتله الغز لما استولوا على نيسابور. وله من المصنفات: «الانتصاف في مسائل الخلاف»، «المحيط في شرح الوسيط للغزالي» في الفروع، «تعليقة في الخلافيات» (كشف الظنون ٦/ ٩١، الكامل في التاريخ ٩/ ٣٨٥، وفيات الأعيان ٤/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤، سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٣١٢ ـ ٣١٥، طبقات الشافعية للسبكي ٧/ ٢٥ ـ ٢٨، طبقات الشافعية للإسنوي ٢/ ٥٥٩ ـ ٥٦٠).

(٣) السرير: النعش.

(٤) بدر الدين بن عسكر: كذا بالأصل بإضافة ابن والصحيح هو عسكر بن خليفة الحموي، أبو =

قلتُ: وقيل: كانت وفاته في تاسع عشر جُمادى الأولى، ويعرف بابن العقادة.

[وفاة ظهير الدين عبد السلام الفارسي]

قال: وفي سابع عشر شعبان توفي بحلب الفقيه الكبير، ظهير الدين عبد السَّلام الفارسي(١)، وكان أبرع فقيهٍ، وأفقه بارعٍ، وَرَدَ إلى أصفهان سنةَ تسع وأربعين، ولقي بها العلماء المبرِّزين، وخالط صدورها بني الخُجَنْدِي، وكان تفقَّهَ بكرمان، وقرأ على فخر الدين الرَّازي(٢)، من أكبر تلامذة محمد بن يحيى وتنقَّل

الجيوش، بدر الدين، كان رئيس الحنفية بدمشق ذكره في الذيل على الروضتين في وفيات ٥٩٦هـ. وانظر الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٥٦٨ ـ ٥٦٩، والتكملة للمنذري ١/ ٣٥٦، والبداية والنهاية ١٣/ ٢١.

(١) في التكملة للمنذري ١/ ٣٥٩: هو عبد السلام بن محمود الفارسي. وفي طبقات الشافعية للسبكي ٧/ ١٧٠: هو عبد السلام بن محمد الفارسي، وقال في البداية والنهاية ٣/ ٢١: شيخ الشافعية بحلب، أخذ الفقه عن محمد بن يحيى تلميذ الغزالي، وتتلمذ للرازي ورحل إلى مصر وعرض عليه أن يدرس بتربة الشافعي فلم يقبل، فرجع إلى حلب فأقام بها إلى أن مات.

(٢) الرازي: هو محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التميمي البكري الطبرستاني الرازي، فخر الدين، المعروف بابن الخطيب الشافعي الفقيه، ولد بالري سنة ٥٤٣هـ، وتوفي بهراة سنة ٦٠٦هـ. له من التصانيف: «الآيات البينات»، «إبطال القياس»، «إحكام الأحكام»، «الأحكام العلائية في الأعلام السماوية»، «الاختيارات السماوية»، «أخلاق فخر الدين»، «الأربعين في أصول الدين»، «إرشاد النظار إلى لطائف الأسرار»، «أسرار التنزيل وأنوار التأويل»، «الإنارات في شرح الإشارات لابن سينا»، «بحر الأنساب»، «البراهين البهائية»، «البرهان في قراءة القرآن»، «البيان والبرهان في الرد على أهل الزيغ والطغيان»، «تأسيس التقديس»، «تحصيل الحق في الكلام»، «التخيير في علم التعبير»، «تعجيز الفلاسفة»، «تفسير سورة الإخلاص»، «تهذيب الدلائل وعيون المسائل»، «جامع العلوم» فارسي، «جمل في الكلام»، «حدائق الأنوار في حقائق الأسرار»، «خمسين في أصول الدين»، «دراية الإعجاز»، «درة التنزيل وغرة التأويل في الآيات المتشابهات»، الدلائل في عيون المسائل»، «ذم الدنيا»، «رسالة الجواهر»، «رسالة الحدوس»، «الرسالة الكمالية في الحقائق الإلهية»، «رسالة المحمدية»، «رسالة النبوات»، «الرياض المونقة»، «سداسيات في الحديث»، «شرح الإشارات والتنبيهات لابن سينا»، «شرح سقط الزند لأبي العلاء المعري»، «شرح عيون الحكمة لابن سينا». «شرح القانون لابن سينا»، «شرح المفصل للزمخشري»، «شرح الوجيز للغزالي»، «شفاء العي والخلاف»، «طريقة العلائية»، «عصمة الأنبياء»، «عمدة النظار وزينة الأفكار»، «فضائل الأصحاب»، «كتاب الأشربة»، «كتاب التشريح»، «كتاب الحق والبعث»، «كتاب الرعاية»، «كتاب الرمل»، «كتاب الزبدة»، «كتاب الفراسة»، «كتاب القضاء والقدر»، «كتاب الملل والنحل»، «كتاب النبض»، «كتاب النفس والروح»، «لباب الإشارات في تلخيص شرح الإشارات»، «لطائف الغياثية»، «لوامع البينات في شرح أسماء =

في بلاد خُراسان والعراق، ولقيته بمصر سنة اثنتين وسبعين في العهد الصَّلاحي، وسامه السُّلطان المقام بها ليفوض إليه التدريس بقبر الشَّافعي ـ رضي الله عنه ـ فَعَبَرَ وما صَبَرَ، وعاد إلى البلاد، ثم وَفَدَ إلى دمشق في جمادى الأولى سنة خمس وتسعين، ثم سار إلى حلب في ثاني شعبان، فكان من وفاته بها ما كان.

قال: وفي هذه السنة توفي بنيسابور الفقيه الكبير محيي الدين بن محيي الدين محمد بن يحيى.

وفيها توفي أيضاً صاحب آمِد قُطْب الدين سُكْمان بن نور الدين قرا أرسلان.

[وفاة الهمام العبدي]

وفيها مات بدمشق في العَشْر الأوسط من شعبان الهُمَام العَبْدي، الشَّاعر البغدادي، وهو أبو الحسن علي بن نصر بن عقيل بن أحمد بن علي بن عبد القيس[(١)] من ربيعة. وقدم دمشق سنةَ خمس وتسعين، وهو أشعر من رأيته في هذا الزَّمان. وسمعته ينشد الملكَ العادل ـ ودمشق محصورة ـ كلمةً شاعرة، وصادَفْتُه ذا سَمْتٍ حَسَنٍ، وفصاحة وحصافة ولَسَن، ومعه ديوان شِعْره، يحوي قلائد دُرِّه، وفرائد سِحْره، وتوفَّر على مَدْح الأمجد صاحب بَعْلَبَكَّ[(٢)]، ومن شعره[(٣)]: [الطويل]

وما النَّاس إلا كامِلُ الحَظِّ ناقِصٌ ... وآخرُ منهمْ ناقِصُ الحَظِّ كامِلُ
وإنـي لـمُـثْـرٍ مـن حَـيَـاءٍ وعِـفَّـةٍ ... وإنْ لم يكن عندي من المالِ طائلُ

= الله والصفات»، «مباحث الحدوث»، «المباحث العمادية في المطالب العادية»، «المباحث المشرقية في العلم الإلهي»، «المحصل في أصول الفقه»، «محصل الأفكار المتقدمين والمتأخرين من الحكماء والمتكلمين» في علم الكلام، «المحصول في علم الأصول»، «المسك العبيق في قصة يوسف الصديق»، «مصادرات اقليدس»، «المطالب العالية» في الكلام «معالم في الأصول»، «مفاتيح العلوم في تفسير الفاتحة»، «مفاتيح الغيب» في تفسير القرآن، «الملخص في المنطق والحكمة»، «مناقب الإمام الشافعي»، «المنطق الكبير»، «نفثة الصدور»، «نقد التنزيل»، «شرح نهج البلاغة»، «نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز» في علم البيان، «نهاية العقول في الكلام في دراية الأصول»، وغير ذلك (كشف الظنون ٦/ ١٠٧ ـ ١٠٨).

(١) انظر ترجمته في: كشف الظنون ٥/ ٧٠٣، البداية والنهاية ١٣/ ٢١، النجوم الزاهرة ٦/ ١٥٨، وقد سماه أبو شامة في الذيل على الروضتين وفيات سنة ٥٩٦هـ: الهمام العبدي الحسن بن علي العبقسي البغدادي. وكذلك سماه المنذري في التكملة ١/ ٣٥٩ ـ ٣٦٠، وابن شاكر في فوات الوفيات ١/ ٣٣٦، والصفدي في الوافي بالوفيات ١٢/ ١٢٩ ـ ١٣٠.

(٢) هو بهرام شاه بن فرُّوخ شاه بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذي، الملك الأمجد، مجد الدين، أبو المظفر، قتل سنة ٦٢٨هـ، تقدّمت ترجمته الوافية في هذا الجزء.

(٣) البيتان في البداية والنهاية ١٣/ ٢١.

[وفاة الأثير بن بنان]

قال: وتوفي في هذه السَّنة قبل الفاضل بثلاثة أيام الأثير بن بُنَان[١]، وكان مشمولاً في الدَّوْلتين بكل قَبُول واحترام وإحسان.

وكان السُّلطان لما تصرَّف في القَصْر ولاه بيع موجودِهِ، وبَذَلَ في تصريفه غاية مجهوده. ولما فرغ من شُغْله أبقاه على رَسْم أنعامه كله، واستمرَّ إمراره، واستقرَّ قراره. وجلس في بيته يُسمع عليه رواياتُه العالية حتى أدرك أيام الملك العزيز، ولم يدرك في العِزِّ أملاً، ولم يملك عملاً حتى تغيَّر خُلُقُه، وتقلَّل رِزْقُه، وتبطل حقُّه، وآل أمره إلى اعتقاله بالديوان، واحتباسه في الرهون.

وممن غاظه وزير العزيز[٢]، وكان مؤدِّبه في الصِّغَر، واستوزره في الكِبَر، فتجهَّمه، وأسمعه ما كرهه، وقال له: ما أحسن ما أدَّبْتَ مخدومك وخَرَّجته، وعلى مراتب أخلاقك درَّجته. وقال للفاضل: أنا خلَّصتك في أيام شاور مرتين، ودافعت عنك دفعتين، وهذه قصائدك في مدحي، ومقاصدك لمنحي، وكان يعرف لتقادم عهده وانتقاله في الحالات، مبادئ أرباب المناصب في الغايات، فكرهه النواب ودحضوه، ولمعارض النَّوائب عرضوه.

وكان بالقاهرة جاري، وباب داره مقابل باب داري، وأنا أعينه في الأيام الصَّلاحية بأصلح إعانة، وأصونه بأرجح صيانة.

فــصــل

في وفاة القاضي الفاضل رحمه الله[٣]

قال العماد: في هذه السنة تمت الرَّزِيَّةُ الكبرى، والبلية العُظْمى، وفجيعة

(١) الأثير بن بنان: هو محمد بن أبي الفضل محمد بن محمد بن بنان الأنباري الأصل، أبو الظاهر الكاتب، المصري المولد والدار، ولد بالقاهرة سنة ٥٠٧هـ، وتوفي سنة ٥٩٦هـ، له من الكتب: «تفسير القرآن المجيد»، «كتاب المنظوم والمنثور»، وغير ذلك. (كشف الظنون ٦/ ١٠٤، التكملة للمنذري ١/ ٣٥٠ ـ ٣٥١، إنباه الرواة ٣/ ٢٠٩، سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢٢٠ ـ ٢٢٣، العبر للذهبي ٤/ ٢٩٤، الوافي بالوفيات ١/ ٢٨١ ـ ٢٨٢، فوات الوفيات ٣/ ٢٥٩ ـ ٢٦٠، السلوك للمقريزي ١/ ١٨٥، النجوم الزاهرة ٦/ ١٥٩، حسن المحاضرة ١/ ٣٧٥، شذرات الذهب ٤/ ٣٢٧).

(٢) هو نجم الدين يوسف بن الحسين المجاور، ولد سنة ٥٤٩هـ، وتوفي سنة ٦٠٠هـ (التكملة للمنذري ٢/ ٣٠ ـ ٣١).

(٣) انظر ترجمته في: وفيات الأعيان ٣/ ١٥٨ ـ ١٦٣ الأعلام ٣/ ٣٤٦، كشف الظنون ٥/ ٥٦٠، =

أهل الفَضْل بالدِّين والدُّنيا، وذلك بانتقال القاضي الفاضل من دار الفَنَاء إلى دار البقاء في داره بالقاهرة سادس ربيع الآخر يوم الثلاثاء. وكان ـ يعني ذلك اليوم ـ بمصافٍ الأفضل يوم الكسرة، وبمصاب الفاضل يوم الحسرة.

وذكر أنَّه ليلة الثلاثاء في مدرسته صَلَّى العِشاء، وجلس مع الفقيه ابن سلامة مدرسها، وتحدَّث معه ما شاء وشُوهد من كلِّ ليلةٍ أبش وأبسم وأهش، وقد طابت المحاضرة، وطالت المسامرة.

فانفصل إلى منزله صحيحَ البدَن، فصيح اللَّسَن، وقال لغلامه: رَتِّب حوائج الحَمَّام، وعرِّفْني حين أقضي مُنَى المنام. فوافاه سَحَراً للإعلام، فما اكترث بصوت الغلام، ولم يدر أَنَّ كَلِمَ الحِمام حمى من الكلام، وأنَّ وثوقه بطهارته من الكَوْثر أغناه عن الحَمَّام.

فبادر إليه ولده، فألفاه وهو ساكت باهت، فعرف أَنَّ القَدَر له باغت، فلبث يومه لا يُسمع له إلا أنينٌ خَفِيّ، عُلِمَ منه أنه بعهد الله وفيّ.

ثم قضى سعيداً ومضى شهيداً حميداً، فوقاه الله تعالى الوصية، فكانت له بسيد الأولين والآخرين أُسوة، وإنْ يُعَرَّى عن رداء العمر فله من حُلَل البقاء في علِّيين كُسْوَة، ولأنه لم يُبْقِ في مُدَّة حياته عملاً صالحاً إلا وقدَّمه، ولا عهداً في الجنة إلا أحكمه، ولا عَقْداً في البِرِّ إلا أبرمه، فإنَّ صنائعه في الرِّقاب، وأوقافه على سبيل الخيرات متجاوزة عن الحساب، لا سيما أوقافه لفكاك أسارى المسلمين إلى يوم الحساب.

وأعان طلبة العلم الشافعية والمالكية عند داره بالمدرسة والأيتام بالكُتَّاب، والخيراتُ الدَّارَّة على الأيام، فكانت حياةً له ثانية إلى يوم البعث وإعادة حياة الأنام.

وكان ـ رحمه الله ـ للحقوق قاضياً، وفي الحقائق ماضياً، سُلْطانه مطاع، والسُّلْطان له مطيع، وفَضْلُه جامع، وشمل الفضل به جميع. وهو واحد الزَّمان، وصاحب القرآن، قد خَصَّه الله بالمكانة والإمكان. والسُّلْطان ـ رحمه الله ـ من مفتتحات فتوحه ومختتماتِها، ومبادي أمور دولته وغاياتها، ما افتتح الأقاليم إلا بأقاليد[1] آرابه وآرائه، ومقاليد غِناه وغَنَائه.

البداية والنهاية ١٣/ ٢٢ ـ ٢٣، الكامل في التاريخ ١٠/ ٢٦٨، «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ٣٥، خطط المقريزي ٢/ ٣٦٦ ـ ٣٦٧، النجوم الزاهرة ٦/ ١٥٦، شذرات الذهب ٤/ ٣٢٤، نهاية الأرب ٨/ ١ ـ ٥١، طبقات الشافعية للسبكي ٤/ ٢٥٣.

(١) أقاليد: جمع إقليد، وهو المفتاح.

وكنتُ من حسناته محسوباً، وإلى مناسب آلائه منسوباً، أعرف صناعته ويعرف صناعتي، وأعارض بضاعته الثَّمينة بمزجاة بضاعتي. ولم يزل يجذب بضَبْعي، ويجلب نَفْعي، وما أوسع ذرعه للخطاب. في شُغْلي إذا ضاق بالخَطْب الشَّاغل ذَرْعي.

وكانت كتابته كتائب النَّصْر، ويراعته رائعة الدَّهْر، وبراعته باريةً للبِرِّ، وعبارتُهُ نافثةً في عُقَد السِّحْر. وكانت بلاغته للدَّولة مُجَمِّلة، وللمملكة مُكَمِّلة، وللعَصْر الصَّلاحي على سائر الأعصار مَفَضِّلة، ومفتتحاته في الفتوحات البديعة بديعة، ومخترعاته في الصَّنائع المخترعة صنيعة. وإنما نسجت على مِنْواله، ومزجتُ من جِرْياله[1]، ورويت بزُلاله.

وهو الذي نَسَخَ أساليب القدماء بما أقدمه من الأساليب، وأغربه من الإبداع وأبدعه من الغريب، وما ألفيته كرَّر دعاءً ذكره في مكاتبة، ولا رَدَّدَ لفظاً في مخاطبة، بل تأتي فصوله مُبْتكرةً مُبْتَدَعَة مُبْتَدَهَة لا مفتكرة، بالعُرْف والعرفان معرَّفة لا نكرة.

وكانت الدولة بإدالته تُدَال، والزَّلَّةُ بإزالته تُزَال، والكرام في ظِلِّه يقيلون، ومن عَثَرات النَّوائب بفضله يستقيلون، وبعزِّ حمى حمايته يَعِزُّون، ولهَزِّ عِطْف عَطْفِهِ يَهْتَزُّون، فإلى مَنِ الوفادة بعده؟ وممن الإفادة؟ وفيمن السِّيادة؟ ولمن السعادة؟ والحمد لله الذي له الغيب والشهادة، و﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، ولأمره منقادون.

وقد وصفه العماد أيضاً في كتاب «الخريدة» في القسم الرَّابع في ذكر محاسن فُضَلاء مِصْر وأعمالها، فقال: وقبل شروعي في ذكر أعيان مِصْر وأحاسنها، ومزايا فضلائها ومزاينها، أقدِّم ذِكْرَ مَنْ جميعُ أفاضل الدَّهر، وأماثل العَصْر كالقَطْرة في تيار بحره، بل كالذَّرَّة في أنوار فَجْره، وهو المولى القاضي الأَجَلّ الفاضل الأسعد أبو علي عبد الرَّحيم ابن القاضي الأشرف أبي المجد علي بن الحسن البَيْساني، صاحب القرآن، العديم الأقران، وواحد الزَّمان، العظيم الشَّان، رَبُّ القَلَم والبيان، واللَّسَن واللِّسان، والقريحة الوقَّادة، والبصيرة النَّقادة، والبديهة المعجزة، والبديعة المطرَّزة، والفضل الذي ما سُمِعَ في الأوائل ممن لو عاش في زمانه لتعلَّق بغباره، أو جرى في مضماره، فهو كالشَّريعة المحمَّدية التي نسخت الشرائع، ورسخت بها الصَّنائع، يخترع الأفكار، ويفترع الأبكار، ويُطْلِعُ الأنوار، ويبدع الأزهار.

وهو ضابط المُلك بآرائه، ورابط السِّلْك بآلائه، إن شاء أنشأ في يوم واحد، بل في ساعة، ما لو دُوِّنَ لكان لأهل الصِّناعة خيرَ بضاعة، أين قُسٌّ عند فصاحته، وأين قيس في مقام حصافته، ومَنْ حاتمٌ وعمرو في سماحته وحماسته؟

---

(١) الجريال: الخمرة الشديدة الحمرة.

فَضْلُه بالإفضال حالٍ، ونجمُ قَبُولِهِ في أُفُق الإقبال عال، لا مَنَّ في فِعْلِهِ، ولا مَيْنَ في قوله، ولا خُلْفَ في وَعْدِهِ، ولا بُطْءَ في رِفْده.

الصَّادقُ الشِّيَم، السَّابق بالكَرَم، ذو الوفاء والمروَّة، والصَّفاء والفُتُوَّة، والتُّقى والصَّلاح، والنَّدى والسَّماح.

مُنْشِرُ رُفَاتِ العِلْم وناشِرُ راياته، وجالي غَيَاباتِ الفَضْل وتالي آياته. وهو من أولياء الله الذين خُصُّوا بكرامته، وأخلصوا لولايته، وقد وَفَّقه الله للخير كلِّه، وفَضَّل هذا العَصْر على الأعصار السَّالفة بفضله ونُبْلِهِ، فهو مع ما يتولاه من أشغال المملكة الشَّاغلة، ومهماته المستغرقة في العاجلة، لا يغفل عن الآجلة، ولا يفتر عن المواظبة على نوافل صَلاته ونوافل صِلاتِه، وحِفْظِ أوراده ووظائفه، وبثِّ أصفاده وعوارفه، ويختم كل يوم من القرآن المجيد، ويضيف إليه ما شاء الله من المزيد.

وأنا أوثر أن أُفْرِدَ لِنَظْمِهِ ونثره كتاباً، فإنني أغار من ذكره مع الذين هم كالسُّها[١] في فلك شَمْسِهِ وذُكاله، وكالثَّرى عند ثريَّا عِلْمه وذَكَائه، فإنما تبدو النُّجوم إذا لم تُبْرز الشمس حاجِبَها، ويحجبُ نورُ الغَزَالة[٢] عند إشراقها كواكبها، ولأنَّه لا يؤثر أيضاً إثبات ذلك، فأنا ممتثل لأمره المطاع، مُلْتزمٌ له قانون الاتِّباع. واضعٌ أُذْني لإِذْنه، قابضٌ يميني على يُمْنه، راكن بأملي إلى رُكْنه، قاطن برجائي في ظلِّ أَمْنه. أفترض رِضاه، ولا أعترض على ما يحكم به ويراه، ولا أقوم إلا حيثُ يقيمني، ولا أسومُ إلّا ما يَسُومني، ولا أعرف يداً ملكتني غير يده، ولا أتَصَدَّى إلا لما جعلني بصَدَدِه، وأسألُ الله التوفيقَ للثَّبات على هذه السَّنَن وانتهاج جَدَده.

وهو أحقُّ ممدوحيَّ بمدحي وأقضاهم لحقِّه، وأسماهم في أُفُقه، وأَوْلاهم بصدقه، وأهداهم إلى طُرُقه. ولي فيه مدائح منظومةٌ ومنثورة، ومقاصدُ معاهدها بفضله معمورة، وقصائدُ قلائدها على مجده موفورة.

ثم ذكر منها بعض ما تقدَّم ذكره في مواضع من هذا الكتاب، وله فيه من قصيدةٍ أولها[٣]: [الكامل]

بـحـيـاتـكـم مـا عـنـدكُـمْ بَـعْـدِي ... فَـسِـوَى الأسـى مـا بـعـدكـم عـنـدي
مـا لـلأَحِـبَّـة لا عَـدِمْـتُـهُـمُ ... رَغِـبُـوا عَـن الإسـعـاد فـي الـزُّهْـدِ[٤]
إنْ لـم يَـفُـوا فـلـقـد وَفَـى كَـرماً ... عـبـد الـرَّحـيـم بـذمَّـةِ الـمَـجْـدِ

(١) السُّها: كويكب صغير خفي، في نبات نعش الكبرى، والناس يمتحنون به أبصارهم.
(٢) الغزالة: الشمس، وقيل: هي الشمس عند طلوعها، يقال: طلعت الغزالة، ولا يقال: غابت الغزالة.
(٣) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ٣٩ ـ ٤٣.
(٤) الإسعاد: المشاركة في النياحة.

ذو الرُّتْبة الشَّمَّاء والشَّرف الـ ـعالي السَّنا والسُّؤدَدِ العِدِّ(١)
النَّاس كلّهمُ له تَبَعٌ في فَضْلِهِ والدَّهْرُ كالعَبْدِ
كَم غاص بحرَ بَنَانه فغدا دُرُّ البيانِ يُساقُ في العِقْدِ
إنْ سوَّدَ البيضاء بَيَّضَ من ثَوْبِ اللَّيالي كلَّ مُسْوَدِّ
قَلَمٌ أقاليمُ البلاد به وثغورُها للضَّبْطِ والسَّدِّ
مَلِكٌ كتيبَتُهُ كتابتُهُ فَرْدٌ بجيش النَّصْر في جُنْدِ
الأَسْمَرُ الخَطِّيُّ تابِعُهُ في حُكْمِهِ والأبيضُ الهِنْدي
والنَّائبات بحدِّه أبداً مثلومةٌ مفلولةُ الحَدِّ

وهي طويلة.

ثم قال: ولو أوردتُ من كلامه طَرَفاً لظهر عَجْزُ الأفاضل، واعترفت بالقصور ذوو الفضائل، فلا يحسن ذكر البحر في الجداول، ولا العرش في المنازل، فأنا أوثر أن أفرده بقسم لا يمتزج بسواه، ولا يتبهرج به مَنْ في جملته أوردناه، ولعله يأذن لي في ذلك فلا سَبيلَ إليه إلا بإذنه، ولا نفاذ للتصرُّف إلا بعد الفكاك من رَهْنه.

قلت: وقد قالت الشُّعراء فيه فأكثروا، وقد تقدَّم لأبي الحسن بن الذَّرَوي(٢) فيه أبيات حسنة عامَيْ حَجِّه.

وللتَّاج أبي الفَتْح البَلَطي(٣) فيه(٤): [المجتث]

لِلَّهِ عَبْدٌ رحيمٌ يُدْعَى بعبد الرَّحيمِ

---

(١) العدّ: الكثير، ومنه يقال: الماء العدّ: أي الدائم الذي له مادة لا انقطاع لها مثل ماء العين.

(٢) هو أبو الحسن علي بن يحيى المصري، المعروف بابن الذروي، شاعر كان مشهوراً زمن صلاح الدين، توفي سنة ٥٧٩هـ (وفيات الأعيان ٤/ ١٤٥، فوات الوفيات ٣/ ١١٣ ـ ١١٧، الوافي بالوفيات ٢٢/ ٣١٢ ـ ٣٢٠).

(٣) أبو الفتح البلطي: سماه حاجي خليفة في كشف الظنون: البليطي. وهو أبو الفتح عثمان بن عيسى بن منصور بن هيجون، تاج الدين، البلطي (نسبة إلى بلط بلدة قرب الموصل) الموصلي، ولد سنة ٥٢٤هـ، وأقام بدمشق مدة يتردد إلى الزبداني للتعليم، ولما تملك صلاح الدين مصر انتقل إليها وحظي بها، ورتب له صلاح الدين على جامع مصر جارياً يقرئ به النحو والقرآن، وكان إماماً نحوياً مؤرخاً شاعراً، توفي سنة ٥٩٩هـ، له من المصنفات: «أخبار المتنبي»، «أشكال الخط»، «التصحيف والتحريف»، «تعليل العبارات» «عروض الصغير»، «عروض الكبير»، «العظات الموقظات»، «القصيدة الجرباوية»، «المدخر» ويقال: «المفخر للمفتخر في علم البديع»، «المستزاد على المستجاد في فعلات الأجواد لأبي علي التنوخي»، «النير في العربية». (كشف الظنون ٥/ ٦٥٣، «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٢/ ٣٨٥ ـ ٣٩١، معجم البلدان ١/ ٤٨٤، معجم الأدباء ١٢/ ١٤١ ـ ١٦٧، التكملة للمنذري ١/ ٤٧٠، فوات الوفيات ٢/ ٤٤٣ ـ ٤٤٧، بغية الوعاة ٢/ ١٣٥ ـ ١٣٦).

(٤) الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٢/ ٣٨٦ ـ ٣٨٧.

عــلــى صــراطٍ ســويٍّ ... مــن الــهُــدَى مــســتــقــيــمِ
يُــنْــمَــى إلــى شَــرَفٍ فــي ... ذُرَى الــمــعــالــي صــمــيــمِ
مُــهَــذَّبٌ حــاز مــا شــئــ ... ـت مــن تُــقًــى وعــلــومِ
نُــسْــكُ ابــنِ مــريــم عــيــسى ... وهَــدْيُ مــوســى الــكــلــيــمِ
يــرى الــتَّــهَــجُّــدَ أُنــســاً ... فــي جُــنْــحِ لــيــلٍ بــهــيــمِ
مُــسَــهَّــدُ الــطَّــرْفِ يــتــلــو ... آيَ الــقُــرآنِ الــعــظــيــمِ

وللقاضي السعيد هبةُ الله بن سناء الملك(١) فيه من قصيدة: [الكامل]

عبد الرحيم على البَرِيَّةِ رحمةٌ ... أَمِنَتْ بصُحْبَتِهَا حلولَ عقابِها
يا سائلاً عنه وعن أسبابه ... نال السَّماء فَسَلْهُ عن أسبابها
والدَّهر يعلم أنَّ فيصل خَطْبه ... بخطى يراعته وفَصْلِ خِطَابِها
ولقد عَلَتْ رُتَبُ الأَجَلِّ على الورى ... بسُمُوِّ مَنْصِبها وطيب نِصابها
وأتته خاطبةً إليه وزارةٌ ... ولطالما أَعْيَتْ على خُطَّابها
ما لقَّبُوه بها لأَنْ بعلمها ... أسماؤه أَغْنَتْهُ عن ألقابها
قال الزَّمانُ لغيره إذ رامها ... تَرِبَتْ يمينُك لستَ من أَتْرابها
اذهبْ طريقك لست من آرابها ... وارجعْ وراءك لستَ من أربابها
وبعزِّ سيِّدنا وسيِّد غيرنا ... ذلَّت من الأيام شَمْسُ صعابها
وأتتْ سعادتُه إلى أبوابه ... لا كالَّذي يسعى إلى أبوابها
تعنو الملوكُ لوجهه بوجُوهها ... لا بل تُساق لِبابِه برقابها
شَغَلَ الملوكَ بما يقول ونَفْسُهُ ... مشغولةٌ بالذِّكْرِ في مِحْرابها
في الصَّوم والصَّلوات أَتْعَبَ نفسه ... وضمانُ راحته على إتعابها
وتعَجَّلَ الإقلاعَ عن لذَّاته ... ثِقَةً بحُسْنِ مآلها ومآبها
فلتفخرِ الدُّنيا بسائس مُلْكها ... منه ودارِس عِلْمها وكتابها

(١) هو القاضي السعيد هبة الله ابن القاضي الرشيد جعفر بن سيناء الملك محمد بن هبة الله بن محمد السعدي، أبو القاسم المصري، المعروف بابن سناء الملك، الأديب الشاعر، ولد سنة ٥٥٠هـ، وتوفي سنة ٦٠٨هـ، له من المصنفات: «در الطراز» في ديوان شعر، «روح الحيوان»، في اختصار كتاب الحيوان للجاحظ، «فصوص الفصول وعقود العقول» في الأدب (كشف الظنون ٦/٥٠٦، معجم الأدباء ١٩/ ٢٦٥ ـ ٢٧١، وفيات الأعيان ٦/ ٦١ ـ ٦٦، «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ٦٤ ـ ١٠٠).

صوَّامِها قوَّامِها علَّامِها ... عمَّالِها بذَّالِها وهَّابِها

وله فيه أيضاً من أخرى: [الكامل]

وسأَلْتُ من أيِّ المعادن ثَغْرُها ... فَوَجَدْتُ من عبد الرحيم المَعْدِنا

أَبْصرتُ جَوْهَرَ ثَغْرِها وكلامَهُ ... فعلمتُ حقاً أَنَّ هذا من هُنَا

ذاك الكَلامُ من الكمال بمنزلٍ ... لا يُدْرِكُ السَّاعي إليه سوى العَنَا

يدنو من الأفهام إلّا أنَّه ... يلقاه أبعد ما يكون إذا دنا

قلت: كان والده تولَّى القضاء بعسقلان، وأنفذ ولده الفاضل إلى مِصْر، فاتصل بكُتَّاب الدَّولة المِصْرية أبي الفتح بن قادوس وغيره، وفَتَحَ الله عليه في هذه الصِّناعة، ففاق فيها أهل عَصْره مضافاً إلى ما منحه الله تعالى من علوِّ قدره.

وقد سبق من ترسُّلاته ما يشهد لعظيم أمره، وقرأتُ من نظمه: [الطويل]

وسَيْفِ عتيقٍ للعَلاء فإن يُقَلْ ... رأيتُ أبا بكرٍ فَقُلْ وعتيقُ

فَزُرْ بابَه فهْو الطَّريق إلى النَّدى ... وَدَعْ كلَّ بابٍ ما إليه طريقُ

وله أيضاً: [الطويل]

سَبَقْتُمْ بإسْداءِ الجميلِ تكرُّماً ... وما مِثْلُكُمْ فيمن تحدَّث أو حكى

وقد كان ظَنِّي أن أُسابقكم به ... ولكن بكتْ قَبْلي فهِيجَ إلى البكا

ودفن رحمه الله بمقبرته بالقرافة.

وقرأتُ في تاريخ أبي علي حسن بن محمد بن إسماعيل القليوبي الذي ذَيَّله على تاريخ أبي القاسم السِّمْناني(١)، قال: حدَّثني الملك المحسن أحمد ابن السُّلْطان صلاح الدين أنَّ يوم مات الفاضل اتفق دخول السلطان الملك العادل إلى مِصْر، وأخذها من ابن أخيه الأفضل، قال: دخل العادل من باب، وخرجنا نسرع بالجنازة من بابٍ آخر.

قال: وأكثر أهل مِصْر يذكرون أن كتبه التي جمعها مقدار مائة ألف مجلَّد، وكان يجمعها من سائر البلاد.

قال: وسمعتُ قاضي القضاة ضياء الدِّين القاسم بن يحيى الشَّهْرُزوري ببغداد أيام ولايته يحدِّث أن القاضي الفاضل لما سمع أَنَّ العادل أخذ الديار المصرية دعا

---

(١) أبو القاسم السمناني: هو علي بن محمد بن أحمد السمناني، أبو القاسم الحنفي، توفي سنة ٤٩٩هـ، له من المصنفات: «روضة القضاة وطريق النجاة» في أدب القضاة، «العروة الوثقى» في الشروط (كشف الظنون ٥/ ٦٩٤).

على نفسه بالموت خشية أن يستدعيه وزيره صفي الدين بن شكر[١] إليه، أو يجري في حَقِّه إهانة، وكان بينهما مقارصة، فأصبح ميتاً، وكانت له معاملة حسنة مع الله تعالى، وصلاة بالليل كما ذكروا عنه ـ رحمه الله.

قلت: وأخبرني القاضي الشهيد ضياء الدين ابن أبي الحَجَّاج صاحب ديوان الجيش ـ رحمه الله ـ أنَّ القاضي الفاضل بعد صلاح الدين لم يخدم أحداً من أولاده، وكانت الدولة بأسرها تأتي إلى خدمته إلى أن توفي.

قال: ولما قَدِمَ العادلُ مصر وملكها بات ليلة ثم أصبح فزار قبر الشَّافعي ـ رضي الله عنه ـ وجاء إلى قبر الفاضل فزاره. قال ابنُ أبي الحَجَّاج: وأنا حاضر ذلك.

[وفاة عز الدين إبراهيم بن المقدم]

ثمَّ دخلتْ سَنة سَبع وتسعين[٢]

قال العماد: وفيها توفي الأمير عز الدين إبراهيم بن شمس الدين محمد بن المقدَّم في حِصْن أفامية.

[وفاة خوارزم شاه بن تكش]

وفيها أو في سنة ستٍّ قبلها توفي السلطان خوارَزْم شاه بن تكش بن أيل أرسلان بن أتسز بن محمد، وهو الذي زالت دولة السَّلْجقية بملكه، واجتمع له مع خوارزم خراسان والعراق، ولما مات قام ولدُه علاء الدين محمد مقامه.

قال: وفيها كتب السُّلْطان العادل للأمير فخر الدين أياز سركس بأعمال تِبْنين وهُونين وبانياس والحولة، وما يجري معها، وكانت مع الأمير حسام الدين بشارة، فحاصره وأنجده الملك المعظَّم عيسى ابن السلطان من دمشق، فسلَّم البلاد وخرج.

[وفاة بهاء الدين قراقوش]

قال: وفيها توفي الأمير بهاء الدين قَرَاقُوش[٣]، وهو من القُدَماء الكرماء، وشيوخ الدَّوْلة الكبراء، أمير الأسدية ومقدَّمُها، وكريمها ومُكْرمها، ولم أرَ غيره خَصِيّاً لم تقاومه الفحول، ولم تؤثِّر في محالِّ مَأْثُراته المُحُول[٤]، وله في الغَزوات والفتوحات مواقف معروفة، ومقامات موصوفة، وهو الذي احتاط على القَصْر

(١) ولد سنة ٥٤٠هـ، وتوفي سنة ٦٢٢هـ، تقدّمت ترجمته قبل قليل.

(٢) وخمسمائة.

(٣) انظر ترجمته في البداية والنهاية ١٣/ ٢٧.

(٤) المُحُول: جمع المحل: وهو انقطاع المطر واحتباسه.

حين استتبَّت على متوليه أسبابُ النَّصر، وذلك قبل موتِ العاضد بمدَّة.

ولما خُطِبَ لبني العَبَّاس بالدِّيار المِصرية تَسَلَّم القصر بما فيه، واستظهر على أقارب العاضد وبنيه، وتولى عمارة الأسوار المحيطة بمصر والقاهرة، وأتى فيها بالعجائب الظَّاهرة.

وكان معاذ الالتجاء، وملاذ الارتجاء، غير أنَّه نُسِبَ إلى اللَّجاج لشدَّة ثباته وفَرْط جموده، ولا يكاد يُعْجَم لصلابة عوده، ولما توفي تسلَّم السلطان داره بما حوته من الذخائر، وصارت إقطاعاته للملك الكامل.

قال: وفيها نُقِلَ إلى السلطان عن غلام الأمير أيبك الفطيس أنَّ جماعة قد عزموا على الفَتْك بالسلطان حال ركوبه، وأسند أصل ذلك إلى الملكين المعز إسحاق والمُؤَيَّد مسعود ولدَيْ صلاح الدين ـ رحمه الله ـ فأحضر الغلام وعَصَره، فمات ولم يقرَّ، واعتقل المعز والمؤيد، ونزع من اتهمه في ذلك من الأمراء الصَّلاحية، وتكلم النَّاس بأحاديثَ في هذه القضية.

قال: وفي هذه السنة اشتدَّ الغلاء، وامتدَّ البلاء، وتحقَّقت المجاعة، وتفرقت الجماعة، وهلك القوي، فكيف الضَّعيف؟ ونُهِكَ السمين، فكيف العجيف؟ وخرج النَّاس حَذَرَ الموت من الدِّيار، وتفرَّق فَرَقٌ بمصر في الأمصار، ورأيتُ الأرامل على تلك الرِّمال، والجمال باركة تحت الأحمال، ومراكب الفرنج على ساحل البحر على اللَّقَم، تَسْتَرِقُ الجياع باللُّقم، فَقَلَّ مَنْ إلى الشَّام خَلَص، إلا بعد أَنْ قَلَّ عددُ أهله ونقص.

قلت: ثم زالت تلك الشِّدَّة بعد مدَّة.

[وفاة العماد الكاتب]

وتوفي العماد الكاتب[1] ـ رحمه الله ـ مصنِّف هذه الكتب «الفتح» و«البرق»، وهذه الرَّسائل الثلاث «العُتْبى» و«النِّحلة» و«الخَطْفة» بدمشق في أول شهر رمضان من

(١) هو محمد بن أبي الفرج محمد بن أبي الرجاء حامد بن محمد، عماد الدين أبو عبد الله، الكاتب الأصبهاني الأديب الشافعي، ولد سنة ٥١٩، وتوفي بدمشق سنة ٥٩٧، من تصانيفه: «البرق الشامي» في التاريخ، «خريدة القصر وجريدة أهل العصر» في ذيل الدمية، «خطفة البارق وعطفة الشارق» في التاريخ، «ديوان دوبيت»، «ديوان الرسائل»، «ديوان شعره»، «زبدة النصرة ونخبة العصرة» في التاريخ، «السيل على الذيل لتاريخ بغداد للسمعاني»، «العتبى والعقبى» رسالة في التاريخ، «القدح القسي في الفتح القدسي»، «نحلة الرحلة» في التاريخ، «نصرة الفترة وعصرة القترة» في أخبار السلجوقية، وغير ذلك (كشف الظنون ٦/ ١٠٥ وانظر أيضاً البداية والنهاية ١٣/ ٢٦ ـ ٢٧، والكامل في التاريخ ١٠/ ٢٧٦).

هذه السنة، وهي سنةُ سبعٍ وتسعين وخمسمائة، ودفن بمقابر الصُّوفية بالشَّرف القبلي.

[وفاة أبي الفرج بن الجوزي]

وفي هذه السنة توفي الشيخ أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجَوْزي الواعظ(١) ـ رحمه الله تعالى ـ وغيره.

وتوفي الملك الأفضل بسُمَيْساط في سنة اثنتين وعشرين وستِّمائة، وحمل إلى حلب فدفن بها.

وتوفي الملك الظاهر بحلب في سنة ثلاث عشرة وستمائة.

وفيها توفي بدمشق الشيخ تاج الدين أبو اليُمْن زيد بن الحسن الكندي وغيره، ودفن بالجبل.

وتوفي الملك العادل أبو بكر بن أيوب بدمشق في سنة خمس عشرة وستمائة.

وابنه الملك المعَظَّم في أواخر سنة أربع وعشرين وستمائة.

وأخواه الأشرف والكامل في سنة خمس وثلاثين وستمائة رحمهم الله تعالى، ووفق من بقي من أهل بيتهم، وأصلح ذات بينهم، آمين.

آخر الكتاب والحمد لله الملك الوهَّاب
وصلّى الله على سيدنا محمد النبي الأمي،
وعلى آله وأصحابه خيرِ آلٍ وأصحاب.
وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم
الحساب. وحسبنا الله ونعم الوكيل،
ولا حول ولا قوة إلا بالله
العلي العظيم.

(١) تقدّمت ترجمته في الجزء الثالث، وانظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٢٧٦، والبداية والنهاية ١٣/ ٢٥ ـ ٢٦.

فهرس المحتويات

حصار صلاح الدين كوكب وتوكيل قايماز النجمي بها ٣
ثُمَّ دخلت سنةُ أربع وثمانين ٣
وصول ابن شداد إلَى خدمة صلاح الدين ٤
إغارة الفرنج على جبيل وخروج صلاح الدين إليها ٥
نزول صلاح الدين على حصن الأكراد ٥
فصل: تولية بهاء الدين قراقوش عمارة عكا ٦
ولاية بدر الدين مودود ديوان دمشق ٧
فصل: في دخول السُّلْطان رحمه الله السَّاحل الآخر وفتح ما يَسَّرَه
الله تعالىٰ من بلاده ٨
فصل: في فَتْحِ أَنْطَرْطُوس ٩
فصل: في فتح جَبَلَة وغيرها ١١
فصل: في فتح اللاذقية ١٢
فصل: في فتح صِهْيَوْن وغيرها ١٥
فصل: في فَتْحِ بَكَاس والشُّغْر وسُرْمانِيَّة ١٨
فصل: في فَتْحِ حِصْن بُرْزَيَه ١٩
فصل: في فتح حِصْن دَرْبَسَاك ٢٣
فصل: في فَتْح بَغْرَاس ٢٤
فصل: في عقد الهُدْنة مع صاحب أنطاكية وعَوْدِ السُّلطان ٢٦
فصل: في فتح الكَرَك وحُصُونه ٢٧
فصل: في فتح صَفَد ٢٩
فصل: في فَتْحِ حِصْن كوكب ٣٠
فصل: في باقي حوادث هذه السَّنة ٣٤
مسير الملك العادل والقاضي الفاضل إلى مصر ٣٤
وفاة الأمير الشاعر أسامة بن منقذ ٣٥

وفاة الحافظ أبي بكر محمد بن موسى الحازمي ٣٥
خروج رجال بمصر يدعون بشعار الفاطميين ٣٦
السلطان يقيم في عكا لإحكام أمرها ثم يعود إلى دمشق ٣٧
ثمَّ دخلت سنة خَمْسٍ وثمانين ٣٧
ولاية فارس الدين كشتغدي شهرزور ٣٨
تجديد ولاية مودود لديوان دمشق ٣٨
رحيل السلطان إلى طبرية وعوده إلى دمشق ٣٨
فصل: في فَتْحِ شقيف أَرْنُون ٤٠
فصل: قتال الفِرنج مع اليزك ٤٢
قتال الفرنج في تبنين ٤٤
فصل: في نزول الفرنج خذلهم الله علىٰ عَكَّا ٤٦
وفاة حسام الدين سنقر الخلاطي ٤٧
وفاة حسام الدين طمان ٤٩
فصل: في المصافِّ الأعظم على عكا وهي الوقعةُ الكبرى
التي بدأت بالسُّوأىٰ وخُتِمَتْ بالحُسْنى ٥١
استشهاد ظهير الدين أخي الفقيه عيسى الهكاري ٥٤
استشهاد الفقيه أبي علي بن رواحة ٥٨
فصل: في باقي حوادث هذه السنة بمرج عكا وغيره ٦٠
استيلاء المسلمين على مركب للفرنج ٦٠
قدوم الملك العادل إلى صلاح الدين ومجيء الأسطول المصري
بقيادة حسام الدين لؤلؤ ٦١
نقل جماعة من الأمراء بأجنادهم وعددهم إلى داخل عكا ٦٢
إرسال صاحب الموصل السلاح إلى صلاح الدين ٦٢
وصول نساء إفرنجيات للترفيه عن الفرنجة ٦٣
بعث صلاح الدين الرسل إلى الأقطار والأمصار للاستنفار والاستنصار ٦٣
وفاة عز الدين موسك ٦٤
وفاة شرف الدين بن أبي عصرون ٦٤
وفاة الفقيه عيسى الهكاري ٦٥
فصل: في ورود خبر خروج ملك الألمان ٦٦

وقعة الرمل مع الإفرنج ٦٩
ثم دخلت سَنة ستٍّ وثمانين ٦٩
استغلال المسلمين هيجان البحر لتقوية عكا بالغلات ٧٠
فصل: في قدوم الملك وحريق الأبراج ٧١
وصول الأسطول الإسلامي إلى عكا ٧٥
فصل: فيما كان من أمر ملك الألمان ٧٦
هلاك ملك الألمان وقيام ابنه مكانه ٧٦
فصل: في الوقعة العادلية على عكًّا ظهر يوم الأربعاء العشرين
من جُمادى الآخرة ٨٣
هجوم جند عكا على الفرنج وعودتهم منصورين ٨٥
فصل: تواصل الأمداد للفرنج من البحر ٨٧
وصول الكندهري ٨٧
كتاب من إمبراطور بيزنطة يعتذر به للسلطان عن عبور ملك الألمان ٨٨
إقامة الخطبة والصلاة في جامع القسطنطينية ٨٨
فصل: في إدخال البَطَس إلى عكا ٩٠
مضايقة الفرنج لعكا وضربها بالمنجنيقات ٩٤
قصة عيسى العوام وغرقه ٩٤
فصل: في إحراق ما حوصر به بُرْج الذُّبَّان وتحريق الكبش ٩٤
هجوم الفرنج على عكا ٩٦
فصل: في حوادث أُخَر متفرِّقة في هذه السنة ٩٧
إغارة صاحب أنطاكية على أعمال حلب ٩٧
استيلاء المسلمين على بطستين للفرنج ٩٨
رحيل السلطان إلى شفر عم ٩٨
وفاة زين الدين صاحب إربل وولاية أخيه مظفر الدين ٩٨
ولاية تقي الدين عمر بلاد ما وراء الفرات ٩٩
ضجر العسكر الشرقي من الإقامة في الشتاء على حصار عكا ١٠٠
إذن السلطان لعلاء الدين ابن صاحب الموصل بالرجوع إلى بلاده ١٠١
فصل: كتب القاضي الفاضل إلى السلطان مواسياً وناصحاً ١٠١
فصل: إرسال صلاح الدين رسالة إلى ملك المغرب يستنجد به على الفرنج ١١١

فصل: في نُسْخَةِ الكتاب إلى ملك المغرب والهَدِيَّة ١١٥
فصل: في عدم استجابة ملك المغرب إلى ما التمس منه
من النجدة وسبب ذلك ١٢٠
فصل: كتب من القاضي الفاضل إلى السلطان ١٢٤
فصل: في ذكر خروج الفرنج خذلهم الله بعزم اللِّقاء، ووصولهم
إلى رأس الماء ١٣١
فصل: في وقعة الكمين وغيرها، ودخول البَدَل إلى عكا ١٣٥
دخول الشتاء وعودة العساكر الإسلامية إلى بلادها ١٣٥
غرق البطس الإسلامية ١٣٦
فصل: في باقي حوادث هذه السنة ١٣٨
وقوع قطعة من سور عكا ١٣٨
هلاك ابن ملك الألمان وتفشي الموت في صفوف الفرنج ١٣٨
استئمان جماعة من الفرنج وإسلام بعضهم ١٣٨
استشهاد جمال الدين محمد بن أرككز ١٣٩
مقتل القاضي المرتضى بن قريش ١٣٩
ورود كتاب من سيف الإسلام أخي السلطان يذكر فيه استيلاءه على صنعاء .. ١٣٩
وصول القاضي الفاضل من مصر إلى معسكر السلطان ١٣٩
وفاة محيي الدين بن الشهرزوري ١٤٠
رحيل تقي الدين عمر إلى شرقي الفرات ١٤١
ثم دَخَلَتْ سَنةُ سَبْعٍ وثمانين ١٤١
إغارة أسد الدين شيركوه على جشار للفرنج ١٤١
وصول ملك الإنكلتير ريتشارد إلى قبرص وأخذها عنوة من صاحبها ١٤٣
فصل: في مضايقة العدو خَذَله الله لعكا يَسَّر الله فتحها
واستيلائهم عليها ١٤٤
وصول ملك الإنكلتير من قبرص إلى عكا ١٤٥
صنع الفرنج دبابة عظيمة وإحراق عسكر عكا لها ١٤٦
كتاب من السلطان إلى الخليفة يخبره بحال عكا وحصارها ١٤٧
مرض ملك الإنكلتير ١٤٩
فصل: فيما جرى بعد انفصال أمر عكا ١٥٨

رحيل الفرنج صوب عسقلان ١٥٨
مقتل أياز الطويل ١٦٠
اجتماع ملك الإنكلتير مع العادل أخي صلاح الدين ١٦٠
وقعة أرسوف ١٦١
تخريب عسقلان ١٦٢
فصل: فيما جرى بعد خَرَاب عَسْقلان ١٦٤
خروج كمين على ملك الإنكلتير ١٦٤
رحيل السلطان إلى النطرون ١٦٥
عرض ملك الإنكلتير أن يتزوج العادل أخته ١٦٥
وصول رسول من مركيس صور في معنى الصلح ١٦٦
موت ملك فرنسا في أنطاكية ١٦٦
مقتل قزل بن الدكز ١٦٦
رسالة من ملك الإنكلتير إلى صلاح الدين يدعوه إلى الصلح ١٦٧
هروب شيركوه بن باخل ١٦٨
مسير السلطان من النطرون إلى الرملة ١٦٨
استيلاء الأسطول المصري على مراكب للفرنج ١٦٨
اجتماع العادل وملك الإنكلتير ١٦٨
فصل: في بقايا حوادث هذه السنة ١٧٠
ولاية ابن الزكي قضاء دمشق ١٧٠
وفاة تقي الدين عمر ابن أخي السلطان ١٧٠
وفاة حسام الدين لاجين ١٧١
وفاة سليمان بن جندر ١٧١
وفاة الصفي بن القابض ١٧١
وفاة جمال الدين ابن عبد كويه ١٧١
وفاة أسعد بن المطران ١٧١
وفاة نجم الدين الخبوشاني ١٧٢
وفاة الوجيه ابن النفيس ١٧٣
وفاة أمين الدين أبي القاسم ١٧٣
نقل تربة محيي الدين الشهرزوري ١٧٣

محاصرة عز الدين صاحب الموصل جزيرة ابن عمر ١٧٤
شروع السلطان في إنشاء سور جديد للقدس ١٧٤
ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةُ ثمانٍ وثمانين ١٧٤
رحيل الفرنج نحو عسقلان ١٧٥
مقتل المركيس بصور وجلوس الكند هري مكانه ١٧٥
استيلاء الفرنج على قلعة الداروم ١٧٦
فصل: في عَزْمِ الفرنج على قَصْدِ القُدْس، وسببه ١٧٨
رحيل الفرنج نحو الرملة ١٨٢
فصل: في تردُّد رُسُل الإنكلتير في معنى الصُلْح وما جرى في أثناء ذلك
إلى أَنْ تَمَّ، ولله الحمد ١٨٢
رحيل الفرنج نحو بيروت ١٨٤
رحيل الفرنج نحو يافا ومنازلة السلطان لهم ١٨٨
رحيل السلطان إلى النطرون ثم إلى القدس ١٨٩
مرض ملك الإنكلتير ورحيل الإفرنسيسة إلى بلادهم ١٨٩
مسير السلطان إلى جهة الرملة ١٩٠
عقد الهدنة بين السلطان والفرنجة ١٩٠
فصل: فيما جرى بعد الهُدْنة ١٩٢
عزم السلطان على الحج وإرسال عسكر لتخريب سور عسقلان ١٩٢
ولاية عز الدين جرديك القدس وأعمالها ١٩٤
نبذة عن بيت المقدس بعد صلاح الدين ١٩٥
فصل: في مسير السُّلْطان رحمه الله من القُدْس إلى دمشق ١٩٨
خلاص بهاء الدين قراقوش من الأسر ١٩٩
وصول السلطان إلى دمشق ٢٠٠
فصل: في ذِكْر أمورٍ جَرَتْ في هذه السَّنة من وَفَياتٍ وغيرها ٢٠٣
وفاة شمس الدين ابن الفراش ٢٠٣
وفاة سيف الدين المشطوب ٢٠٤
وفاة عز الدين قليج أرسلان ٢٠٥
القبض على أمير الحاج طاشتكين ٢٠٨
وفاة أبي المرهف نصر بن منصور النميري ٢٠٨

خروج السلطان للصيد في شرق صيدا ٢٠٩
ثم دخلت سنة تسع وثمانين ٢٠٩
عودة الحاج الشامي ٢١٠
فصل: في مرض السُّلطان ووفاته أحلَّه الله بُحْبوحَة جَنَّاته ٢١١
فصل: في تركة السُّلْطان ووصف أخلاقه رحمه الله ٢٢٠
فصل: في انقسام ممالكه بين أولاده وإخوته، وبعض ما جرى بعد وفاته ٢٣٧
ولاية الأفضل دمشق ٢٣٧
ولاية العزيز عثمان مصر ٢٣٩
ولاية الظاهر غازي حلب ٢٤٠
خروج المواصلة على الملك العادل ٢٤١
فصل: في وفاة صاحب المَوْصل وتتمة أخبار هذه الفتنة ببلاد الشَّرْق ٢٤٢
فصل: تسلط الوزير الجزري على الأفضل واختلال أمره ٢٤٥
تسلم الفرنج ثغر جبيل ٢٤٦
قدوم العزيز إلى دمشق وحصارها ٢٤٦
إبرام الصلح بين العزيز والأفضل ٢٤٧
عزم العزيز على قصد دمشق لحصارها ٢٤٩
حصار العادل والعزيز دمشق وتملكها ٢٥٢
فصل: كتاب القاضي الفاضل إلى القاضي محيي الدين بن الزكي
بما ثار من عواصف وبروق في مصر ٢٥٤
فصل: وفاة صاحب اليمن طغتكين وتولي ابنه ٢٥٧
انقضاء مدة الهدنة مع الفرنج ٢٥٧
ودخلت سَنة أربع وتسعين ٢٥٨
نزول الفرنج على تبنين ورجوعهم عنها ٢٥٨
وفاة عز الدين جرديك ٢٥٩
استيلاء العادل على قلعة ماردين ٢٥٩
ودخلت سَنةُ خَمس وتسعين ٢٥٩
نيابة الكامل في ديار بكر عن أبيه العادل ٢٥٩
وفاة الملك العزيز بن صلاح الدين ٢٦٠
محاصرة الأفضل لدمشق ٢٦٢

مسير الكامل إلى أبيه العادل نجدة له ٢٦٥
ثم دخلت سنةُ ستٍّ وتسعين ٢٦٥
فصل: نيابة الكامل مصر عن أبيه العادل ٢٦٩
عزل العادل الملك المنصور بن العزيز عن مصر ٢٧٠
فصل: في وفاة جماعةٍ من الأعيان في هذه السنة أعني سنة ستٍّ وتسعين ... ٢٧٢
وفاة صارم الدين قايماز النجمي ٢٧٢
وفاة حسام الدين لؤلؤ ٢٧٣
وفاة شهاب الدين الطوسي ٢٧٤
وفاة بدر الدين عسكر ٢٧٥
وفاة ظهير الدين عبد السلام الفارسي ٢٧٦
وفاة الهمام العبدي ٢٧٧
وفاة الأثير بن بنان ٢٧٨
فصل: في وفاة القاضي الفاضل رحمه الله ٢٧٨
وفاة عز الدين إبراهيم بن المقدم ٢٨٥
ثمَّ دخلتْ سَنة سَبع وتسعين ٢٨٥
وفاة خوارزم شاه بن تكش ٢٨٥
وفاة بهاء الدين قراقوش ٢٨٥
وفاة العماد الكاتب ٢٨٦
وفاة أبي الفرج بن الجوزي ٢٨٧

طبع في مطابع دار الكتب العلمية
جسر المطار - سنتر الساحل التجاري
هاتف: ٨٤٨٤٨٧ - ٨٤٨٤٨٦ - ١ ٩٦١ +
بيروت - لبنان